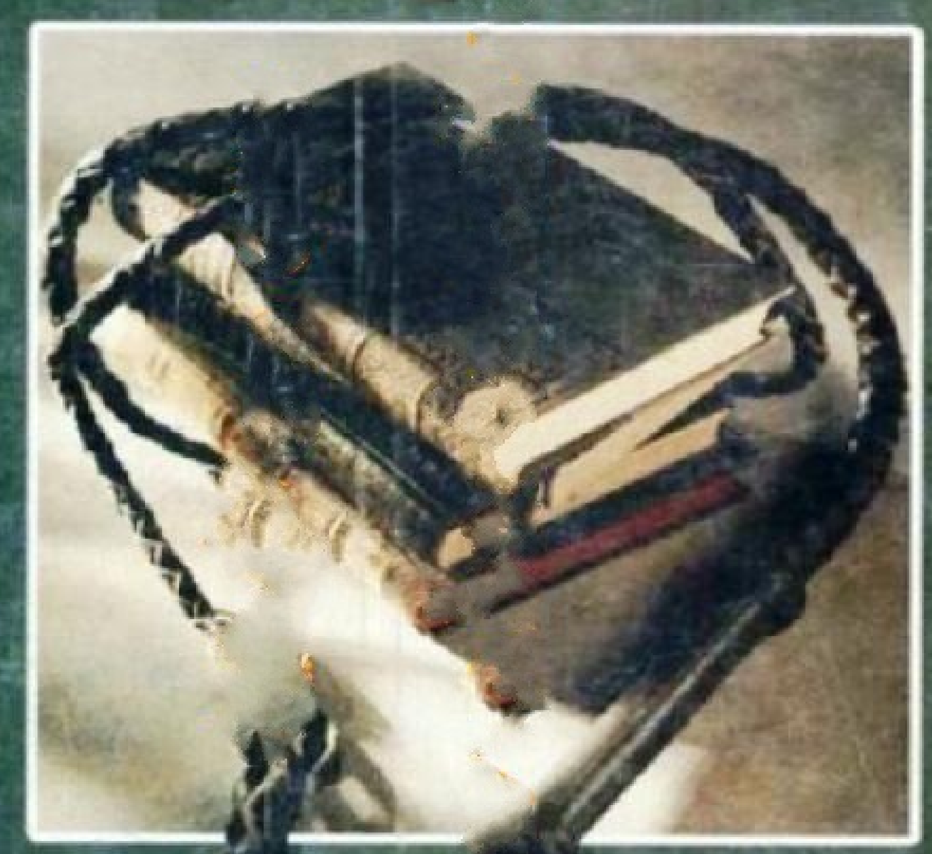
الدكتور محمد الجوادى

مذكرات الأدباء
وأساتذة الأدب

الثورة والإحباط



مذكرات

أحمد هيكل ■ على الحديدى ■ جليلة رضا ■ صالح مرسى
فتحى أبو الفضل ■ عايدة الشريف ■ أمانى فريد

الثورة والإحباط

مذكرات أساتذة الادب و الأدباء

د. محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥

الإخراج الفني : مادلين أيوب فرج

الثـورة والإحباط

مذكرات أساتذة الادب و الأدباء

إهــداء

إلى الأستاذ الدكتور صلاح فضل

صديقًا كبيرًا ، وكاتباً أثيرًا ، وناقدًا قديرًا

د. محمد الجوادى

موقفين من مواقف كبار رجال الجامعة قبل الثورة وبعدها: الفارق الكبير بين سلوك القمم التى تقدر العلم وأهله، وبين سلوك آخر لا ينطق إلا بالغطرسة وعدم التقدير وانعدام الذوق ● آراؤه فيما يتعلق بالإخوان المسلمين والشيوعية واضحة الدلالة والمضمون، وإن كان هو بذكاء وتواضع قد فضل أن ينسبها إلى الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو يتحدث عن حضوره لصالون هذا الأستاذ الكبير ● أبرز انطباعات الدكتور هيكل عن الحوادث الكبرى التى مرت بوطنه: حديثه المليء بالألم عن هزيمة ١٩٦٧ التى ذهبت ببعض بصره من جراء الحزن والصدمة ● يروى ذكرياته عن تلك الفترة بنفس لا تزال مأخوذة بما عانته فيها من تحطم كامل وفقدان للذات واهتزاز ومرارة ● يشارك فى مؤتمر عربى فى البصرة فيفاجأ ببعض المشاعر والانتقادات القاسية التى يبديها بعض الأخوة العرب تجاه مصر وما أصابها فى معركة يونيو ١٩٦٧ ● الإشارة إلى أن هؤلاء الأخوة لم يُجبلوا على الشماتة ولم يطبعوا على انتقادنا، ولكن ممارساتنا السياسية فى الستينيات هى التى جعلتهم يقفون منا هذا الموقف ● يحدثنا عن مناخ مختلف تماما من الحب والترحيب بالمصريين عايشه هو وزملاؤه فى بداية الخمسينيات حين قدر لهم السفر إلى بعض الأراضى المغربية فى أثناء بعثته، وكان هذا الموقف المحب صدى للتعبير عن حب مصر التى كانت فى ذلك الوقت تساعد حركات التحرير بعيدا عن الأساليب المخابراتية ● صاحب الفندق فى تطوان كان يصر على ألا يتقاضى أجرا ● يتحدث بصدق شديد عن وفاة الرئيس عبد الناصر وتأثره بها ورثائه له ● اعتزاز وفخر وسعادة بنصر أكتوبر ١٩٧٣ ● حديثه عن المرحلة التى وصل فيها إلى قمة المسئولية التنفيذية باختياره وزيرا ● يحرص على أن يصور هذا الوصول نتيجة جهد حقيقى كان الفضل فيه للرئيس مبارك ● يروى تفصيلات لقاء تال له مع الرئيس حسنى مبارك، وهو يسهب فى ذكر تفصيل مشاعره فيما قبل اللقاء، فإذا بنا أمام تعبير جميل عن تجربة نفسية حقيقية ● نلمح فى حديثه اعتزازاً شديداً بالرئيس وبنفسه أيضاً، وذلك على الرغم من أن الحوار

كان يمضى بطريقة طبيعية لا تكلف فيها ● نرى وصف الدكتور هيكل لليوم الأول من عمر الوزارة التى اشترك فيها فى أغسطس ١٩٨٥ وزيراً للثقافة ● ما أدلى به من حديث لمساعديه فى الوزارة عن فلسفته فى العمل الثقافى ● الوزارة لا تنتج ثقافة وإنما تتولى توصيل الثقافة ● يحرص على أن يتجنب الحديث عن النواحى السلبية التى واجهته فى أثناء عمله كوزير، وهو يكتفى بالتلميح المهذب ● يشير إلى الشرف الذى ناله حين اختير مرة بعد أخرى ليكون عضواً فى مجلس الشعب ● كان غير متهيب للمواقع التنفيذية التى وصل إليها فى حياته الوظيفية ● اعتذاره المبكر عن قبول وظيفة الإشراف على البرامج الثقافية فى التليفزيون ● اعتذاره عن عدم قبول رئاسة هيئة الكتاب ● لم يكن معنيا بالظهور والنجومية فى حد ذاتهما، وإن كان بحكم إنسانيته لا يمانع فى قدر معقول من هذه النجومية ● التعبير عن سعادته بالمناصب العلمية والأكاديمية التى وصل إليها ● الصدفة مكنت له من الاختيار مستشارا ثقافيا، وهى مصادفة تنم عن نبل وسمو خلقى تمتع بهما الدكتور عبد القادر القط الذى كان قد صدر له القرار بالتعيين فى هذا المنصب ● الدكتور القط والدكتور هيكل انتخبا معا فى جلسة واحدة لعضوية مجمع اللغة العربية ونالا جائزة الدولة التقديرية معاً ● عمله فى أسبانيا وأدائه لهذه الوظيفة العلمية بحب وشغف كبيرين ● الفرصة التى أتيحت له ليلقى مجموعة من المحاضرات عن الإسلام فى حضور ملكة أسبانيا ● فخره بهذا الإنجاز الذى تمثل فى ثمانى محاضرات أعدها إعداداً جيداً ● مشاركته فى نشاط من أنشطة الحوار الحضارى الجميل من خلال جمعية إسلامية مسيحية، وذلك من خلال مؤتمر استهدف إنصاف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وتصحيح الأخطاء الشائعة عنه فى الفكر المسيحى ● يشير إلى مدى جمود الفكر الرسمى المصرى فى التعامل مع مثل هذه الجهود الدينامية ● عمادته لكلية دار العلوم: شغلته الشئون الإدارية المعتادة فى العصر الذى عمل فيه عميداً ● ما تجلبه المناصب الإدارية من سوء العلاقة مع بعض الأصدقاء الذين يتعشمون فى العميد ويظنونه

لابد أن يجيب كل طلباتهم ● تجربته فى العمل نائبا لرئيس الجامعة فى الفيوم: نراه فخوراً بكل ما أنجزه وبكل ما حاول أن ينجز، خرج بإنجازاته إلى رحابة الفكر الجامعى ● حديثه عن العوامل التى مكنته من أن ينمى التهذيب والصقل فى شخصيته على النحو الذى صارت إليه ● جدية الشباب الأوروبى فى الجامعة الأسبانية ● صورة الإنسان الجاد الذى يرى الجدية فى جهود الآخرين ويدركها، ولا يقف عند التفكير فى العبث أو المجون ● الأثر الإيجابى الذى لعبه المجتمع الأسبانى فى صقل شخصيته وتكوينها فى مرحلة النضج العلمى ● التكوين الفنى الذى قدر له أن يحظى به فى أثناء دراسته فى أسبانيا: الموسيقى والفن التشكيلى والمسرح والشعر ● علاقته بالمرأة: أحرص ما يكون على أن يتتبع مسار هذه العلاقة على مدى سنوات عمره، ويحكى انطباعاته الأولى تجاه مدرسته فى المدرسة الأهلية الصغيرة ● عرف الراحة العاطفية فى أثناء دراسته فى أسبانيا ● ضحى بالحب الذى نشأ فى أسبانيا من أجل أن يحيا حياة متوافقة مع أهله فى مصر ● زواجه من إحدى تلميذاته كان بمثابة خطوة رائدة فى ذلك الوقت ● هذه الخطوة التى أقدم عليها فى شجاعة مكنت للاحقين به أن يخطوا نفس الخطوة فى ثقة وهدوء ● يضمن هذه المذكرات كل ما يدل على أنه كان منتبها إلى مكانة العلم والعلماء فى المجتمع، وهو يحكى على سبيل المثال عن الفارق بين أهل الريف وأهل الزقازيق فى معاملتهم لطلاب العلم الأزهريين ● الحديث عما عاناه من الإحساس بكثير من الفروق بين النظافة الأسبانية المتبدية فى كل ركن وما تعانى منه حياتنا فى القاهرة من نقص للنظافة والنظام والإحساس بالجمال ● يشير إلى مثلين فى المسكن والمواصلات ● نرى حديثه عفيفاً لطيفاً يجنح إلى تسجيل الواقع بأكثر العبارات تهذيبا ● التفوق البارز فى مراحل حياته المتوالية، الجد الذى كان يأخذ به نفسه من أجل تحقيق هذا التفوق، وهو يتحدث عن التجربة النفسية أو الشعورية التى مر بها قبل امتحان الليسانس ● انتظم وهو أستاذ مساعد فى بعثة إلى انجلترا كى يستزيد من معرفته باللغة الإنجليزية ● يتحدث عن هذا

الموقف الذى وضع فيه نفسه بإرادته مفصلا الحديث عن النهج الذى ظل ملتزما به فى حياته ● معاناته النفسية فى تلك الفترة وقد أصبحت له أسرة وأبناء ● فلسفة اكتشفها فى بداية حياته وهى أن التوريط قد يكون سببا من أسباب النجاح، وهو يحكى عن التوريط الذى وضعه فيه أخوه حلمى بعد ظهور نتيجة امتحان الفرقة الأولى فى معهد الزقازيق الدينى ● اللوائح وقسوتها قد تكون سببا من الأسباب الدافعة إلى التفوق والالتزام، لائحة دار العلوم الصعبة، إشارة مهمة لتاريخنا العلمى ترينا كيف كان الجد الصارم هو المسيطر على بعض معاهدنا الجامعية فى فترة من الفترات التى أتاحت لنا مجموعة من أكفأ رجال التربية والتعليم ● يروى بكل صراحة أن نفسه حدثته فى مرحلة مبكرة بتغيير المسار وترك التعليم الأزهرى والالتحاق بدراسة عسكرية متوسطة للكتاب العسكريين حتى يريح نفسه من الجد والاجتهاد اللذين يتطلبهما التعليم الأزهرى القاسى ● وفاؤه فى حرصه على إثبات حديثه المتكرر عن أثر الصداقات على نجاحه على مدى مراحل حياته ● أصدقاء الضحك القديم: إبراهيم السروجى ، مرسى جميل عزيز، إبراهيم الترزى ، محمد العلائى ، إبراهيم شاهين ، أحمد مخيمر ، صلاح عبد الصبور ● فضل محيى الدين الحلوانى فى تعريفه بصالون الأستاذ عباس العقاد ● علاقته بجماعة أدباء العروبة وشعرائها ● فضل صديقيه فوزى العنتيل وإبراهيم الترزى فى مساعدته على الانضمام للوسط الأدبى ونشر شعره وإنتاجه بعد عودته من البعثة ● فضل فاروق شوشة فى فتح طريق الإذاعة أمامه ● فضل مصطفى نظيم فى فتح باب التليفزيون أمامه ● فضل أساتذته على نحو مقدر لميزاتهم الشخصية التى تميز بها كل واحد منهم ● أول أيامه فى دار العلوم وسعادته بأستاذ جامعى قدير هو الأستاذ محمد هاشم عطية ● الدراسات والعلوم التى أثارت حبه واهتمامه فى كلية دار العلوم ● ثناؤه على الدكتور إبراهيم سلامة لعلمه وعطفه وجديته، تشجيعه البالغ له فى أول أيام عمله كمعيد، ثناؤه على الأستاذ إبراهيم مصطفى ● فضل أستاذه جارثيا جومث عميد المستشرقين الأسبان

أيام انتظامه فى الدراسة، وكيف اقتيد بواسطة «البوليس السرى» فى هدوء إلى النيابة العامة حيث أنهى إليه قرار الدولة بفصله نهائيا ● انطباعه تجاه هذا القرار، وهو انطباع متزن إلى حد بعيد، وسواء كان الدكتور الحديدى كتبه من وحى مشاعره فى تلك اللحظة، أو من وحى مشاعره اللاحقة، فهو يدلنا بتفكيره الذى راوده على نفس سوية متزنة ● يحاول أن يصور اللحظات الدرامية فى عودته إلى قريته مصحوبا بهذا المصير المؤسف، وهو يحار فى تصوير مشاعر أهل قريته ● يجيد تصوير تباين قرارات الأسرة فى مواجهة هذا الحادث الجلل ● نتوقف عند ما يرويه عن محنة مشابهة كادت تعصف بتقديره المتفوق فى نهاية دراسته فى كلية دار العلوم، وذلك حين دفعته الزعامة إلى أن يقود زملاءه فى الاحتجاج على الأستاذ عمر الدسوقى ● محنته فى امتحان الثانوية الأزهرية حين قدر له أن ينالها من معهد الإسكندرية الدينى عام ١٩٤٥ ● عندما يتقدم به الزمن ويصبح متنويا للابتعاث إلى بريطانيا، تهىء له الأقدار مساعدة وكيل وزارة التربية والتعليم (ووزيرها فيما بعد قليل) الأستاذ أحمد نجيب هاشم، فى مواجهة تعنت وكيل الوزارة (ووزيرها فيما بعد) الأستاذ السيد يوسف ● نال البعثة فى إجازة دراسية ● رواية على الحديدى لبقية المصادفات الحسنة التى هيأت له مزيدا من التسهلات التى كانت كفيلة بأن تجعل أمر ابتعاثه إلى لندن ميسرا ومعبدا من ناحية التمويل والمسئولية ● ينفتح على الحياة اللندنية وعلى المجتمع الأكاديمى فى لندن، وهو سعيد أن وجد الأمر سهلا حين انتوى أن يغير الأستاذ المشرف عليه فى رسالته العلمية فإذا الأمل يتحقق بمجرد إبداء الرغبة المهذبة دون حساسية، وإنما هو أمر من الأستاذ للسكرتيرة بكتابة خطاب للأستاذ الآخر ● تعسف أساتذة معهد التربية العالى فى مصر، الذين أبوا على طلابهم إلا الانتقال إلى فرع بعيد للمعهد فى الزيتون من أجل تحقيق إحدى غاياتهم الوظيفية والمادية، غير عابئين بالمجهود الذى يتطلبه مثل هذا الانتقال من أبنائهم الطلبة ● هذا الموقف دفع صاحب المذكرات إلى تحريض زملائه فى ذلك المعهد على الثورة ● المصادفات الحسنة

التى قدر للدكتور الحديدى أن ينجو بها من تصاريف القدر ● أنقذه عمله الصحفى ومعرفته بالأستاذ أحمد الصاوى محمد من أن ينقل إلى الصعيد عقابا له على ضرب أحد التلاميذ فى مدرسة الناصرية بالعصا ● وجد فى بداية حياته نوعا من الاختبارات والظروف القاسية التى قدر له بفضل عون والدته أن يجتازها على نحو كريم ● يشير إلى مدى القسوة والشدة التى كانت والدته هذه تأخذه هو واخواته بهما فى مراحل تعليمهم الأولى، وهو يقارن بينها وبين امرأة عمه ● بعض إنجازاته الوظيفية فى المرحلة الأولى من حياته حين قدر له أن يعد مجموعة كبيرة من الكتب كهدية من مصر إلى استراليا، وأن يصطحب هذه المجموعة معه فى سفره حين اختير مدرساً للغة العربية فى الجامعة الاسترالية ● الثناء الذى لقيه من الاستراليين، سواء فى هذا الرسميون والأكاديميون. يكرر الإشارة إلى الثناء الذى أضفاه عليه السياسى الشهير منزيس رئيس الوزراء الاسترالى ● كان هو صاحب الاقتراح الذى لايزال يؤخذ به من وجود مجالس للآباء والمعلمين. اقتراحه هذا قد خرج إلى النور فى أثناء عمله فى مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية ● نجاحه المبكر فى إحدى تجاربه الصحفية، التجربة سرعان ما فشلت بسبب قلة خبرته بالبشر وشرورهم وتوجهاتهم فى الحياة المهنية ● الصفحة ساعدته فى التعرف بوكلاء الوزارة، مما ساعده على إتمام بعثته إلى بريطانيا فيما بعد ● أحاديث حانية على النفس عن تجاربه فى الحياة فى لندن ● الأخطاء التى ارتكبها دون قصد فى المسكن الثانى، وكانت سببا فى أن طلب أصحاب المسكن إليه أن يبحث عن سكن آخر ● إصراره بينه وبين نفسه على إجهاض فكرة الزواج من الأوروبية الوحيدة التى فكر فى الاقتران بها ● يورد تفصيلات صداقته ● خطته التى انتهجها من أجل تحقيق سياسته التى استقر عليها بعدم الزواج من أجنبية ● حديثه عن بعض الفروق بين البيئتين المصرية والبريطانية: الفارق فى استقبال الوفاة بين الغرب والشرق، ألمه وجزعه لوفاة والده ● تصوير لكثير من واقع مصر السياسى فى عصر الليبرالية الذى عاشه ● أحد المواقف الشعبية المصرية المهمة

فى مواجهة طغيان حكومات الأقلية وتعسفها مع الوفد ● يرسم صورة صدقى باشا فى تعامله مع طلاب دار العلوم وهو رئيس للوزارة فى ١٩٤٦ ● تصوير جيد لمشاعر صدقى باشا حسبما تصورها ● قصة تعيين الأستاذ أحمد الصاوى محمد رئيسا (منفردا) لتحرير الأهرام بعد فترة كان قائما فيها بهذا العمل دون أن يتولاه بصفة محددة ● ما يرويه عن حقيقة موقف حزب العمال البريطانى من حرب ١٩٥٦ ● الخطاب الذى ألقاه زعيم حزب العمل فى ميدان «الطرف الأغر» وطالب إيدن فيه بألا يتصرف مع عبد الناصر تصرف رجال الغابات فيواجه الاغتصاب باغتصاب مثله ● تفاصيل بعض المواقف المشرفة التى وقفها بعض الشبان المصريين الذين كانوا لا يزالون فى بدايات حياتهم الوظيفية: ضحوا بوظائفهم وأهلهم من أجل إثبات وطنيتهم ● وطنية الفنان محمود مرسى ، والدكتور محمد زكى العشماوى ● قراره تأجيل الزواج حتى يُتم لنفسه تكوينها العلمى والمهنى، نُقل للعمل فى مدرسة المعلمات لأسباب تتعلق بتنقلات المدرسين الشبان وما حظى به من استبقاء له فى القاهرة ● لم يكن وضعه فى مثل سنه المبكرة طبيعيا فى هذه المدرسة: أصبح محط أنظار طالباتها اللائى كن على وشك التخرج ● معاناته النفسية والوجدانية بسبب الإقبال عليه وخطب وده ● نهاية تجاربه مع فتيات مدرسة المعلمات ● الوصف الجميل التى يترجم به الدكتور على الحديدى مشاعره الرقيقة تجاه كل جديد يقابله ● حديثه عن ركوب القطار أول مرة فى طريقه من قريته ● الطرائف التى تصور انتقال صاحبها من بيئة إلى أخرى ومعاناته مع تجارب تفرض عليه دون أن يكون واعيا لنهايتها ● عناية صاحب المذكرات بتسجيل الإعجاب والتقدير لأساتذته الذين قدر له أن يتعلق بهم ويفيد من علمهم وخلقهم وفضلهم: كيف تعلقت نفسه منذ النظرة الأولى بالأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى [وزير شئون الأزهر فيما بعد] ● يثنى على علم الأستاذ عباس محمود العقاد وفضله ● كيف تمت معرفته بالأستاذ العقاد ● العميد الأستاذ إبراهيم مصطفى يحظى بثناء وافر من الدكتور على الحديدى فى مواضع عديدة.

بدأ إحساسها الفنى ينضج وكيف بدأت شاعريتها فى الظهور، بينما هى تعيش حياتها مع زوجها الأول فى شبابها وتنتقل ما بين مساكن مختلفة بمدن الصعيد ● قصة لقائها الأول بالشاعر إبراهيم ناجى الذى قدر له ولها أن يكون راعيها الأول ● فضله عليها وعلى شاعريتها، صورة معبرة عن سلوكه وأدائه وانفعالاته،وهى صورة بديعة على كل الأحوال ● فاتحت ناجى فى الأمر، فاتصل بالشاعر الراحل محمد الأسمر، وكان آنذاك يرأس صفحة الأدب فى جريدة «الزمان»، وأعطانى عنوانه فى شبرا فذهبت إليه ● تشير إلى تواصل المراسلات بينه وبين ناجى بينما كانت تقضى الصيف فى رأس البر ● تشير إلى قصيدة «الرحيل» التى كانت هى على حد روايتها ملهمة الشاعر فيها، ثم تتحدث عن فجيعتها بوفاته ثم عن مشاركتها فى حفل تأبينه ● تحكى أن القصيدة الجميلة التى نظمتها فى رثائه بعد عام من رحيله لم تكن إلا صورة من صور التأثر بشعر الراحل العظيم ● تكاد تلخص مراحل حياتها الشعرية متواكبة مع حياتها العامة والشخصية، فديوانها الأول «اللحن الباكى» يصدر بعد وفاة إبراهيم ناجى،وديوانها الثانى «اللحن الثائر» يصدر بعد طلاقها من زوجها الثانى ● أجادت فى هذا التقسيم البديع لمراحل حياتها الإبداعية، وربما أتاها هذا بالفطرة النقية بدلا من أن تبحث عن مبررات أخرى تتخذها علامات لتجربتها الشعرية ● تحرص على رواية الفرق بين تشجيع كل من الشاعرين إبراهيم ناجى ومحمد الأسمر ● بعض مظاهر تقدير الشعراء العرب لها: أسعد حسنى، فائق السمرائى، وهلال ناجى، وخالد الجرنوسى ● حريصة على أن تجعلنا نشاركها معاناتها فى الحب والحياة، وواقع الأمر أنها كانت فى كل ما كتبته كانت حريصة على أن توحى لنا بأن جوهر مشكلتها فى الحياة [وفى الحب على وجه التحديد]، أنها كانت تحب حبيبا آخر تفضله على الرجال جميعا وهو الصدق، وأن ولعها بهذا الحبيب أفسد عليها حبها للجنس الآخر ● فى افتتاحية قصة حياتها تؤكد على معنى مهم، وهو أنها ستحتفظ ببعض الوقائع والأسرار بعيدة عن الرواية ● مع أن أحدا لم يطلب منها هذا إلا أنها تشعر

أنها لابد أن تعترف بهذا وإلا فإنهـا تكون قد خالفت ما تحب وتعشق من الصدق ● المذكرات تروى قصص الـحب الذى لم يكتمل، وتفسير صاحـبة المذكرات لأسباب عدم الاكتمال من وجهة نـظرها، تحليل الشاعرة لهذه العلاقات يجمع ما بين الشجاعة والصدق ومع هذا فإنه يتبدى فى بساطة متناهية ● قصتها مع الشاعر الفيتورى الذى ترمـز له بحرف الميم ● قصة زواجها من الشـاعر عبدالله شمس الدين زوجها الثانى [وللأستاذ كمال النجمى أيضا فضل فك الشفرة] ● تجيبنا عن موقفها من الصراع النفسى والعقلى ● الحب حنين العقل للعقل والجسد للجسد ● جليلة رضا تصل إلى مناطق مـن مناطق الإبداع حين تلخص ما عرفـته عن الحب فى عبارات محملة بكل ما يمكن من الحكمة العاطفية والجنون العقلى ● جليلة رضا تبلور فى عبـارات قصيرة استنتاجهـا عن طبيعة علاقتـها بالشاعر الذى أصبح زوجـها: إننى أنظر إليـه وأجد فـيه ما فى كل آدمى من نقـائص، أنا لست عمياء إذاً فـأنا لست عاشقة ● الشاعرة تروى كيف قـبلت بالزواج حين جاءها الشاعر إلى بيتها وقد صحب المأذون والشهود، وكيف انتقلت مع الشاعر إلى بيت جديد، لكنهـا سرعان مـا تحكى كيف جـاءتها زوجتـه الأولى بعد أسبـوعين من زواجهما فـإذا بها تقرر أن تطلب منه الطلاق ● جليلة رضا تحدثنا باقـتدار شديد عن قراراتها المـتعارضة فى حيـاتها الشخصيـة، الحديث عن كثير من مـشاعرها النفسية والعقلية الخاصة بها، حديثها عن حيرتها فى مدى قيمة وحقيقة بعدها عن خلق الغـرور ● تتجاوز الحديث عن الصفـات التى تحتمل وجهى المدح والذم لتلفت إلى الصفات التى يغلب عليها الوصف بالذم، كـالغيرة على سبيل المثال، وتفاجئنا بكل جـسارة وهى تفعل هذا نراها ● تعترف فى شجاعة بـمشاعر الغيرة تجاه سـيدة أخرى أصبـحت زوجة شاعر كـان يحبها هى لكنهـا (أى جليلة رضا) كانت قد صارحته بأنها لن تقـبله زوجا لها على الرغم من إعجابها به ● تنتـصر للمشاعر على المنطق، وعلى كل ما يأتـى به المنطق، المشاعر عندها تتألق رغم كل شيء ● صاحب الشخصية التى تمنت صاحبة المذكرات أن يكون اهتمامه بها

لشخصها لا لشعرها فحسب، تعتـرف فى شجاعة أنها ذهلت حين حاولت معرفة طبيعة شعـوره نحوها، على حين كانت تعتقد أنه أنسب إليهـا من كل المجموعة التى عرفـتها ● مشاعرها حين كانـت تراه وتتشجع بوجوده وتترجم هذه المظاهر إلى قناعات واعـتقادات ● جليلة رضا تتحفنـا بالأبيات التى صورت بها هذه التجربة شديدة الخصوصية والعمق ● استمرت مشاعرنا النبيلة خمسة وعشرين عامـا ● تجارب ثرية لسيدة قادرة على التعـبير إلى أن نتأمل فى مشاعرها وهى تفاضل بين وضع ووضع، وضع تعـيشه ووضع آخر تتمناه. ثم تتـولى بالنيابة عن نفسها وعن القراء تشخيص ما أحـست به، وتقول إنها تعترف أن شعورها بالحب لم يكن هو الشعور الطبيعى ● تعبر عن رغبتها فى أن تحظى بالسعادة التى تحظى بها خـادمتـها وأن تتـخلى عن نوع السعـادة الذى تعيـشه وهى تتمنـى لو أنه كان بقدرتها أن تبادل خـادمتها الموقف ● تخاطب خادمتهـا: تطلب إليها ألا تناديها بأنها سـيدتها ● فى إطار تمنى المستحيل تحاول أن تستـعيد ذكرياتها عن شبابها وتحـدثنا عنه ● إحساسها بابنهـا وما أصيب به من تخلف عقلى تلخص تطوره وشعورها به على مدى الـسنوات المتوالية ● تلخص حياتها فى نهـائياتها وبعد فقدها لابنها فى كلمات مفعـمة بكل ما هو ممكن من يأس واكتئاب ● إجادتـها التعبيـر عن القضايا الكبرى المرتبطة بالحياة والمـوت والحب والاقتران والارتباط والشعر والتعبير عن الذات ● لا نعدم فى مذكرات الشاعرة جليلة رضا كثيرا من أحاديث متأملة للزمان الذى يمضى بالبشـر على أنماط متفرقة من العيش والكفاح ● بحكم المهارة الشعـرية التى كانت جليلة رضا تتملكها فإنها تجـيد الإمساك بالتفصيلات المهـمة فى حياة البشر ● من باب القدرة تصـور لنا جليلة رضا فى مواضع كثيـرة من مذكراتها كيف يمكن للحـوادث العابرة أن تشكل وعى الإنسان وطباعه ● تروى السبب فى أنها أصبحت نباتية لا تتناول اللحوم ● لا تبخل علينا فى مذكراتها بأحاديث عائلية وتاريخية مهمة، وعلى سبيل المثال تروى جليلة رضا بالتفصيـل قصة حياة والدتها «التركـية» وما آل إليها بسبب هذه الحـياة والنشأة من

أموال عند وفاة السيدة التى كانت قد تبنت والدتها ● قصة الأم على نحو ما صورتها جليلة رضا تحفل بملحمة تصور جانبا من الحياة الإنسانية فى المجتمع المصرى (والتركى) فى ذلك الوقت ● حنيفة السلحدار زوجة على باشا ثابت الموظف الكبير فى الحكومة المصرية، كانت عاقرا لا تنجب ● أوصت أن يأتوا لها بطفلة صغيرة كانت تريد أن تتخذ منها ابنة فى قصرها العظيم الموجود حاليا بشبرا، وقد أصبح اليوم مدرسة كبيرة ● تسلمت السيدة حنيفة والدتى من التاجر، تسلمت معها فتاة شابة لتعمل فى القصر كوصيفة، الوصيفة أنبأتها بقصة خطفها من حديقة بيتها فى أنقرة ● التعبير عن كثير من معاناة المرأة المصرية من الأنظمة الاجتماعية، سواء تقبلت هذه الأنظمة أم لا ● وصلت هى واخواتها إلى مرحلة الصبا: بعض مواقف حياتهم فى الفشن ● تعبير متناه فى قدرته البيانية عن شعورها ببعض المقدمات لمركبات النقص ● الشاعرة تعبر عن هذا المعنى وعن افتقادها للعاطفة بطريقة أخرى ● كانت الأخت الثالثة والأخيرة لشقيقتين جعلهما تقارب السن والطباع فى صحبة دائمة، ووفاق مستمر ● علاقتها بوالدتها: لم أهضم لغتها التركية، وبالتالى فشلت فى مخاطبتها بهذه اللغة وصرت كما كانت تقول لى: فلاحة! ● تعترف بأنها كانت انطوائية، وأن هذا كان من عيوبها، إلا أنها مع هذا حريصة فى موضع آخر على أن تعبر عن ضيقها من تطفل الناس على حياتها الشخصية، وهى تعبر عن هذا الضيق بما يشبه الانتحار الوجودى ● حصلت على حريتها بالانفصال دون أن تدرى كيف يمكن لها أن تستغل هذه الحرية ● الشاعرة واجهت أولى ملامح التحدى الدراسى عندما أهلها ذكاؤها لأن تلتحق فى الصف الخامس من مدرسة الراعى الصالح، بينما لم يكن ما تعرفه من الفرنسية يتوازى مع ما تدرسه طالبات هذا الصف ● خلاياها البشرية: تطلق عليها وصف الخلايا المشرئبة بحديثها عن مسئوليتها عن العواطف وكأن عقلها غير مسئول ● جوهر مأساتها الأولى حين شاء أهلها لحبها أن ينتهى على غير ما أرادت ● معرفتها المبكرة بنوع آخر من الحب «العذرى المثلى» الذى خبرته فى

مدرسة الراعى الصالح، يختلط تقييمها لهذا الحب ما بين الإدانة والتقدير، وهى تصف هذا النوع من «الحب المثلى العذرى» على نحو غير مسبوق ● تتحدث بقدر من الألم عن حرمانها من استكمال التعليم (فى آخر مرحلة) على الرغم من قرب نيلها للشهادة المدرسية ● دفعها هذا فى اتجاه التفكير فى الهرب من متاعب هذه الحياة إلى الترهب ● اندفعت فى طريقها لتنفيذ هذه الخطة لولا ما صادفته من وعى رجل الدين المسيحى وتبصره ونصيحته ● الثراء العاطفى الذى تحفل به المذكرات ● صاحبتها لا تغفل عن التعبير عن مشاعرها الوطنية ● مذكرات جليلة رضا ليست منفصلة عن تاريخ وطنها ومعاناة هذا الوطن وتطور أحواله ● يكفى أن نقرأ بعض ما ترويه فى إطار حديثها عن أثر هزيمة يونيو فى نفسيتها وشعورها بالمرارة الشديدة ● جليلة رضا تتحدث عن نصر أكتوبر بكل حب وامتنان وسعادة ● بعض ملامح الجو النفسى الرهيب الذى عاشه المثقفون (فى مجموعهم) فى ظل حكم الثورة حين كانت قبضة الدولة تؤذيهم وتقتل بعضهم وتدمر نفسيات ومستقبل البعض الآخر ● تروى أزمة زوجها الثالث الصحفى الكبير الأستاذ محمد السوادى مع نظام الرئيس عبد الناصر فى عبارات مليئة بالصدق الفنى والشعورى والألم والعبرة ● تروى القصة كأنها غير مصدقة لوقائعها وتفصيلاتها

● التعريف بالمذكرات: سيرة من نوع خاص كتبها أديب بارز ليروى اللمحات البارزة فى علاقته الشخصية بخمسة من أعلام الأدباء ● كتبها صاحبها بطريقة تلقائية تماما ● حرر الذاكرة من القيود لتستدعى الأحداث كما أراد عقله الباطن أن يستدعيها ووفق ترتيب الأهميات التى يراها صاحب التجربة ● قصة تفكيره فى كتابة هذا الكتاب على هذا النحو ● يزدان هذا الكتاب بغلاف جميل ومعبر صممه الفنان محمد الصباغ ● القدرة الفائقة لصاحب المذكرات على التجرد للحقيقة فى

شأن حياته هو نفسه وفى شأن حيوات الأخرين ● المذكرات ترينا أن أبرز السمات الشخصية فى صالح مرسى: قوة الشخصية ● يتجاوز فيما كتبه الصديق والزميل والدرويش والمعجب والصاحب والمصاحب ليؤدى دور الانسان المصاحب للانسان ● حديثه يتمتع بحس إنسانى ● وجهة نظر المؤلف: المذكرات ترينا أن الأديب الحق يتمكن من النقد مع كل ممارسة يقدمها فى مجال الإبداع. . وأن الأديب ناقد متنكر أو متخف وراء الابداع ● صاحب المذكرات ينزع إلى النقد وإلى التأريخ الأدبى نزوعا محببا إلى نفسه وإلى نفوسنا ● صاحب المذكرات ينجو تماما من أن يكون أسيراً من أسرى الأحكام النهاية، ومن الأحكام المطلقة، ومن الأحكام البراقة ● بالطبع لايمكن القول بأن صالح مرسى قد قدم فى هذا الكتاب سيرته الذاتية رغم كل هذا الثراء الذى حفل به هذا الكتاب ● المذكرات تروى كثيرا من سيرة حياة صاحبها، بيد أنه آثر أن يقدم هذه السيرة من خلال نوافذ غير تقليدية ● دور صالح مرسى الوطنى فى الأدب المعاصر ● مساهمات هذا الرجل وإسهاماته فى التاريخ الأدبى ● بعض ما يصور به صالح مرسى نفسه تأثير هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ● ما يرويه صالح مرسى عن تلك الفترة ● يجيد تصوير العلاقة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر من خلال مسلسل «الحوت» حيث كان «تتر» المسلسل يقول أربع مرات فى اليوم: «إنه قصة قرية داهمها الخراب فجأة» ● صراحة مفرطة فى انتقاده للنظام فى مسلسل جعل عنوانه «قاتل يبحث عن نفسه» مصورا وكيل نيابة يحقق فى جريمة قتل كان هو الذى ارتكبها، وقصة سهرة تليفزيونية بعنوان «محاكمة سرحان البحيرى»، وفيها صرح صالح مرسى بكل وضوح بأن الانتهازى لا ينتحر لكنه يوقع غيره فيما ارتكب هو من جرم!! ● علاقته بنجيب محفوظ: مشاعره تجاه رواية «بداية ونهاية» التى قرأها وهو على سرير المرض عقب إجرائه عملية جراحية مفاجئة فى المستشفى البحرى بالإسكندرية ● جاءت بداية ونهاية كعلامات الطريق المرشدة. . أحسست وكأن نجيب محفوظ قد اغترف من الواقع المصرى مجموعة

من الناس، ثم ألقى بهم فوق الورق وتركهم يتحركون ويعيشون حيواتهم دون تدخل منه ● قرأ إنتاج نجيب محفوظ فى إجازة الأسابيع الثلاثة التى أعقبت عمليته الجراحية.. يحدثنا بإعجاب عن «رواية زقاق المدق» ويصل إلى القول بأنه إذا كانت «بداية ونهاية» هى كلمة السر التى فتحت مغاليق نفسه الخفية فإن «زقاق المدق» كانت اكتشافا يستحق من أجله أن يغير مجرى حياته ● كان يرقب الفترة التى انقطع فيها نجيب محفوظ عن الكتابة بشىء من القلق، حتى إنه قد هُيئ إليه أن ذلك الرجل صاحب «بداية ونهاية» قد ركن إلى الصمت!! ● لقاؤه الأول بنجيب محفوظ فى مكتب يحيى حقى: يروى كل ما يستطيع تذكره من تفاصيل هذا اللقاء ● يحدثنا عن ندوة نجيب محفوظ فى الكازينو ويدلنا على قدرات وأخلاق رفيعة تميز بها نجيب محفوظ ● يجاهر باعتقاده أن الأستاذ نجيب محفوظ كان يجيد مراقبة الناس ورصد تحركاتهم وأساليبهم إلى حد مذهل، وأن قصصه ورواياته القصيرة التى احتلت مكانها فى مرحلة ما بعد الثلاثية وأولاد حارتنا كانت التقاطا بالغ الذكاء لأنماط من هؤلاء الذين كانوا يتحلقون حول الأستاذ ● مناقشة روايته «زقاق السيد البلطى» فى ندوة نجيب محفوظ ● نجيب محفوظ يسأل صالح مرسى: لكن أنت مع التقدم واللاضده؟ ● دروس نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم لصالح مرسى: الدرس الذى فرض نفسه عند لقائهما بصالح مرسى بعد قيامه بنشر قصة حياة تحية كاريوكا فى مجلة الكواكب ● يقولان له: طب ما تسميها قصة راقصة يا أخى! ● ما لبث [الأستاذ نجيب محفوظ] أن قال: «أنا لو سميت اللص والكلاب» «محمود سليمان» ما كانتش بقت رواية» ● ما لفت نجيب محفوظ نظره إليه ● صالح مرسى كان حريصا على الدوام أن يجد ليوسف إدريس مكانا إلى جوار نجيب محفوظ ● يقول: إذا كان نجيب محفوظ يمثل بالنسبة لى ذلك الرائد الذى اهتديت بخطاه، فقد كان يوسف إدريس هو القنبلة التى فجرت من حولى كل ما كنت قد أقمته من أبنية فنية أو أدبية، كان فى البداية انفجارا بفنه.. ثم أصبح زلزالا بشخصيته الفذة ● تجربته

مع قصة يوسف إدريس «أرخص ليالى» ● إذا كان نجيب محفوظ هو المؤرخ الأدبى للقاهرة فى القرن العشرين لايباريه فى تأريخه أحد فإن يوسف إدريس كان الفنان الذى انتزع الفلاح المصرى بكل ذكائه ودهائه وطيبة قلبه وغراباته، من عمق طين الدلتا، كى يضعه فوق الورق ● الفقر فى روايات نجيب محفوظ هو البطل! والبطل فى قصص يوسف إدريس هو الإنسان الفقير! ● أنت مع طه حسين تقرأ لأستاذ وعلامة ينبئك بنبأ هؤلاء المعذبين الذين يتحدث عنهم، فإذا أنت تستمع إليه فى خشوع ● قصص يوسف السباعى تنقلك إلى عالم حالم ● قصص إحسان عبد القدوس تكشف فى براعة عيوب طبقة مترفة ● إبراهيم الوردانى، نوع من الإبداع فى الأسلوب ● سعد مكاوى أستاذ فى فن القصة، بلغ به الوقار حدا يقف بينك وبين ما يقول ● يوسف الشارونى فيلسوف امتطى قلم أديب ● محمود السعدنى يتحدث بالنيابة عن أبطاله ● صلاح ذهنى: كأنك أتيت من الريف كى تشاهد أوبرا لفيردي. وأن تحملق متفرجا فاغر الفم، وليس مهما بعد ذلك أن تفهم ● إسماعيل الحبروك، أول تلامذة إحسان عبد القدوس ● الخميسى: تشعر وكأنك خارج لتوك من مظاهرة تهتف بحياة الوطن، وبسقوط الإنجليز ● طبيعة العلاقة واللقاء بين صالح مرسى ويوسف إدريس ● يوسف أدريس هو صاحب الفضل فى «تحريكه» من الإسكندرية إلى القاهرة ليبدأ مشواره فى عالم الأدب ● يذكر يوم العشرين من ديسمبر ١٩٥٥ حين انقطعت علاقته بالبحر فى ذلك اليوم وأصبح حرا ● أول كتاب ربطنى بيوسف السباعى، هو «أرض النفاق» ● «السقا مات»، كانت ولاتزال ، من الأعمال التى تصلح لأن تكون علامة فى حياة أى أديب. . . السقا مات من أجمل ما كتب يوسف السباعى ● ولذلك كنت حريصا أشد مايكون الحرص، على البحث عن جو هذين العملين فى كل ما كتب هو بعد ذلك ● طبيعة شخصية فريدة كشخصية يوسف السباعى، وطبيعة مجتمع يعانى من بعض الأمراض الاجتماعية كالمجتمع الذى عاشه كل من السباعى وصالح مرسى ● الحدود التى يستعرض فيها ملامح شخصيته القوية الأسرة القادرة على

الصفـاء وعلى العطاء، لا يقف فيمـا يقدمه عند حدود الـكتابة الأدبية الموحـية، وإنما هو يلجأ فى بعض الأحايين إلى أن يتحدث بنبرة خطابية مباشرة فى أكثر من موضع من مقدمات كل حلقة من الحلقات الأربع التى تكون الفصل الذى خصصه للحديث عن السباعى ● حبه للأستاذ يحيى حقى ● مشاعره بعد قراءة «قنديل أم هاشم» ● يحيى حقى سبق يوسف إدريس فى العامية، كما سبق نجيب محفوظ فى تلك الحيرة التى كانت تمزق الشباب فـيما بين الموروثات وبين الواقع والرغبة فى التطلع نحو مستقبل أفضل ● صالح مرسى يعترف أنه لا يزال غير مدرك لسر الصنعة عند يحيى حقى ● أكذب لو قلت إننى اكتشفت هذا اللغز الذى ظل هائما فى رأسى سابحا وسط ضباب ● لقائى الأول مع يحيى حقى فى مكتبه بمصلحه الفنون ترك أثرا لم ينمح حتى الآن، ولقد اكتـشفت مع الأيام، وبعد أن قرأت كل مانشره هذا الأديب العظيم، أن سره الدفين، هو هذه الثـقافة الشاملة التى حصلها طوال سنوات عمره ● على الجانب الإنسانى: التقط صالح مرسى بحسه الأدبى العميق جوهر شخصية يحيى حقى فى معاملته لمعاصريه ● يروى قصة حوار بين يحيى حـقى وحسـين فوزى بشىء كـثير من الإيحـاءات الكفيلة بتكـوين الصورة الدقيـقة عن نهـضتنا المعـاصرة، كان يحـيى حقى بحكم الوظيـفة يمـثل الحلقة المتوسطه بين رئيسه الدكتور حسين فـوزى ومرءوسه الأستاذ نجيب محفوظ ● صالح مرسى يبدع فى نقل صورة ماحدث من حوار فى ذلك اللقاء ● يحيى حقى بالنسبة إلىّ كان مثل قنديل يضىء لى طريق الفن ويكشف لى خباياه وأسراره، كان مرشدا ودليلا ومعلمـا يضنى مَنْ يتعلم على يديه حقا ● صالح مـرسى كان فى حاجة حقيقية إلى أن يعيد التأمل والـتفكر فيما يتعلق بما كان يلقاه من حنو يحيى حقى وعطفه وفضله على الأدباء من أمثاله ومن جيله ● فى استطراد: خرجت من بيت لويس عوض وأنا أشعر بضيق لم يغـادرنى حتى اليوم رغم حبى الشديد لهذا الرجل ● يعبر بكل فخر واعتزاز وسعادة عن موقف يحيى حقى النبيل غداة نشر قصة «حب للبـيع» فى روز اليوسف ● يحيى حقى قال له: تقدر تعـتبر قصتك

دى، نموذج مثالى للقصة القصيرة ● حديث الأستاذ صالح مرسى عن الأستاذ توفيق الحكيم: نجد أنفسنا فى مواجهة فقرات متواصلة يشع منها التقدير العميق لهذا الرجل العظيم حين يبدأ الحديث عنه، وحين يمضى فيه ● صالح مرسى يجاهر فى شجاعة مقرونة برأى متفرد له مبرراته وإن يكن مخالفا للراى الشائع فى مسرح الحكيم وشخصيته وأدبه ● يعترف بمنتهى الوضوح والصراحة أنه ليس مرتاحاً إلى تلك الأحكام النقدية الشهيرة التى يتداولها الكتاب عن مسرح الحكيم، وأنه مسرح ذهنى ● يعجب من أن يتقبل الحكيم مثل هذه الأقوال الجائرة على فنه ● فى مقابل هذا يعيد تأمل أعمال توفيق الحكيم حتى يخرج منها بصورة عميقة للفن وللأدب لا يستعصى إدراكها على مَنْ يخلصون أنفسهم من شوائب التقعر والتفذلك والاستخفاف ● قبل أن ألتقى بتوفيق الحكيم، كان قد أصبح معركة فنية فى صدرى ورأسى ووجدانى جميعا ● يوسف إدريس يكتب بروازا على نصف صفحة يسجل فيه رؤيته لشخصية عامة... وكانت أول شخصية كتب عنها، هى توفيق الحكيم ● انطباع الأستاذ صالح مرسى عن لقائه الأول بتوفيق الحكيم وحواره معه ● اللقاء الفكرى الذى لايزال مؤثرا وحاضراً فى كيان صالح مرسى ووجدانه حتى ذلك الوقت الذى كتب فيه هذا الكتاب قبل رحيله، كان مع توفيق الحكيم فى حضور الدكتور حسين فوزى والدكتورة بنت الشاطئ وفؤاد دوارة ● الحكيم يسأل: انت عارف انت عامل إيه فىّ السجين؟! ● حسين فوزى يتحدث عن الترجمات الرديئة، وعن نتائج تلك الترجمات «الطيارى» على حد تعبيره - التى تصدر بها غالبية مشروع الألف كتاب.. ويعرج إلى الحديث عن الترجمة المثالية التى قام بها المثقف العربى الكبير دكتور سامى الدروبى لأعمال ديستويفسكى الكاملة ● الفنان قد يتأثر بفنان آخر فليس فى هذا عيب... لكنه، إذا كان فنانا حقيقيا، سوف يفرز فنا خاصا به حتى إن أراد التقليد، ذلك أن ذلك التقليد يختفى فى ظلال الإبداع الجديد ● توفيق الحكيم يقول: إن تلك الفصول القليلة التى قرأتها لجيمس جويس، تركت بالتأكيد فى نفسى أثرا دفعنى إلى كتابة

السجين بهذا الأسلوب الذى يرى فيه تطويرا لأسلوب هذا الأديب الكبير! ● قصة لقاء انفردت بالحكيم فيه، كان اللقاء مصادفة، كان الحوار غريبا! ● حديث عن «بنك القلق» التى كانت قد صدرت فى عام ١٩٦٦: لو كانوا سمعوا الكلام ما كانش حصل اللى حصل! ● كان الرجل يشير إلى النكسة، وإلى الأزمة التى نشبت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ● صالح مرسى يتحدث عن تجربته: الفن بالنسبة إلىّ ليس هدفا فى حد ذاته، لكنه وسيلة أنقل بها للناس ما أريد أن أبلغهم إياه ● ربما كان لسنواتى فى البحر وأنا فى مقتبل العمر تأثيرها الشديد على ● كان البحر يمدنى كل يوم بجديد أدهش له وأفرح، كما كانت حياتى فى القاهرة، خاصة فى تلك السنوات الأولى، اكتشافا مستمرا لشخصيات طالما عشتها بخيالى وأنا أقرأ لهم أو أشاهد أفلامهم ومسرحياتهم ● كان علىّ أن أحصل ما يجعلنى قادرا على مواكبة ما يحدث حولى، أو ما قد حدث وفاتنى قطار معرفته!

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● مذكرات قصيرة جدا اقتصر فيها كاتبها على تجربة واحدة مرت به فى حياته الطويلة ● المذكرات كتبت بطريقة متميزة جدا، وكأنها قصة لا هى بالقصيرة ولا هى بالرواية، وإنما هى بين بين ● المذكرات تحفل بحب شديد وعميق للأستاذ الكبير توفيق الحكيم ● المؤلف يعترف بالفضل التام له فى توجيه خطواته إلى النجاح الحقيقى فى فن الرواية ● فضل الأستاذ أحمد حسن الزيات عليه ● قصة مسابقة الرواية ● يأبى أن يترك هذه التجربة الذاتية التى يقدمها للقارئ من دون أن يعطى دورا للبطولة فيها لعنصر نسائى ● كيف تستقيم الحياة القصصية بدون المرأة؟ ● يكاد يتصور أن جمهوره لا يصدق أن تكون هناك قصة بدون بطلة ● عينه على السينما التى لا تصلح فيها قصة بدون

بطولة نسائية ● هذا القاص العظيم لم يجد أى حرج فى أن يقدم ثمرة تجربته بطريقة مباشرة وصريحة موجهاً حديثه للشباب فى وضوح وصراحة ومبلوراً بكل ثقة جوهر تجربته الروائية متمثلاً هذه التجربة العريضة كلها ● التجربة التى قدر له أن يخوضها مع إحدى الروايات التى لم تكتمل كتابتها إلا بعد أربعين عاماً من كتابته لها للمرة الأولى ● نرى فتحى أبو الفضل وقد قيم تجربته الروائية ● لا يبخل علينا بكثير من الأحكام النقدية أو التعريفية المهمة التى يوردها ضمن نسيج حديثه عن تجربته ● يقدم تقديره الفائق لفنية الأستاذ نجيب محفوظ وتفوقه الروائى من خلال حديثه عن مسابقة مبكرة جمعتهما معاً وفاز فيها نجيب محفوظ بالجائزة ● فى هذه السن المبكرة طاول نجيب محفوظ كبار كتاب القصة القصيرة فى العالم العربى ● تقديره لعلى أحمد باكثير ● يضمن تجربته الذاتية ما يشى بإحدى سمات شخصيته الحريصة على إبراز فكرة أنه يعتز بصداقته للنصف الآخر ● يتوحد تمام التوحد مع ما يكتب ويسجل ويروى من تجربته الذاتية، ونحن ندرك هذا التوحد حين نراه وهو يكتب هذا الكتاب يبدو لنا وقد وضعنا فى صورة قارئ حديث المعرفة بالكاتب وبما كتب ● تمكن من أن يثأر لنفسه من الحياة الأدبية بأفضل وسيلة ● يروى قصة صدور روايته الأولى «الثوب الضيق» على مرحلتين بينهما عشر سنوات، فى المرة الأولى امتدحها وأشاد بها المستشار الثقافى لدار النشر الكبرى وعضوا لجنة القراءة وقرظاها كل التقريظ، لكنهم تقاعسوا عن نشرها بسبب ما زعموا وجوده فيها من أدب مكشوف ● بعد عشر سنوات أخرى مضت الأمور فى الاتجاه الآخر الذى انتهى بصدور الرواية ● صاحب التجربة يعتبر مجلات الثقافة والرسالة والرواية ثلاث شقيقات بينما هن أخوات فحسب

● صاحبة المذكرات لجأت إلى تكنيك متميز بأن أدارت الحياة حول محاور جميلة يسهل عليها الحديث حولها ● المحاور تمثلت فى أساتذتها الذين تلقت

عليهم الفكر الرفيع بطريقة التلقى المباشر ● المذكرات تقدم صورة من أروع صور التعلم الذاتى الذى أصبح نادرا فى هذا الزمان ● أهمية الإقبال على صفحات المذكرات بكثير من غسيل المخ من الأفكار السابقة عن هؤلاء المعاصرين ● المتعة بالمذكرات تعيننا على تقبل الحياة بكل ما فيها من صعوبات ومتاعب ● كل دراسة لأدبنا العربى المعاصر لابد أن تمر بقراءة هذا الكتاب ● فى المذكرات ضوء قوى بددت به عايدة الشريف كثيرا من مناطق الغموض فى أدبنا المعاصر ● المذكرات تمثل مصباحا هاديا وأساسيا لفهم كثير من مجريات الأمور التى جرت فى حياتنا الفكرية المتواصلة ● عايدة الشريف تروى أن كثيرين كانوا ينصحونها أن تكتب وألا تكتفى بوظيفة المتابعة ● كان لوجودها بعيدا عن القاهرة فضل كبير فى كتابة فصول هذا الكتاب: لولا الهدوء والاغتراب ما استطعت إنجاز ما أقدمه من شهادات ● تصف الفترة التى كونت فيها ثقافتها وصفا جميلا وغير مسبوق حين تقول إنها كانت فترة استحلاب ● فى صورة الاستطراد تستغل الفرصة التى واتتها لتبلور حاضر ومستقبل الثقافة فى بلادنا ● ترجع جزءا من قدرتها على الكتابة والشهادة إلى وجودها ونشأتها فى حى الروضة ● تصل إلى الاعتراف الجميل بأنها هى واخواتها كانوا يجتهدون فى إيجاد صلة ما بين الأحداث التى يشهدها الوطن وبين جزيرة الروضة ● اعتزازها بتاريخ جزيرة الروضة ● اختيار نوع الدراسة الجامعية التى كان عليها أن تتلقاها ينبئ عن سعة الأفق لدى الجيل الذى كانت تنتمى إليه ● قنوات الثقافة كانت متشابكة تقود الواحدة منها إلى الأخرى ● فضل مجلة الأديب البيروتية فى تكوين ثقافتها على نحو واضح المعالم محدد القسمات ● أكثر أجزاء هذه المذكرات شجاعة هى أكثر أجزائها علاقة بتاريخنا السياسى المصرى المعاصر: تسليط الأضواء على علاقة سارتر وسيمون دو بوفوار بثالثهما لانزمان الذى رافقهما فى رحلتهما الشهيرة إلى القاهرة ● تكتشف وتكشف لنا عن أننا أوذينا من حيث كنا ننتظر الفائدة ● تعكس إحساساتها بالإحباط الشديد ● تعترف بمدى المبالغة التى أعطيناها فى مصر لقيمة وجدوى

زيارة سارتر لبلادنا ● سارتر لم يكن عدوانيا تجاهنا وإنما كان متواضعاً لكننا نحن الذين أسـأنا التقـدير ● تقدم أدلتـها على دعواها هذه من خلال تصـوير دقيق لخطوات استقبال سارتر واستضافته ● تضع الناقد العظيم الدكتور محمد مندور فى طليعة الذين أخذوا بيدها وأثروا فيها وفى تكوينها ● فقدت فيه الأب الثانى ● فضل مندور عليهـا، وكيف أنها أفادت من مفردات عظمتـه ومن آرائه الكاشفة فى معاصريه ● حياتها وليس أفكارها فحسب تغيرت بفضل تلمذتها المباشرة للدكتور محمد مندور ● التحول فى مسار تطلعاتها للدراسة بسبب مقال من مقالات هذا الناقد العظيم ● حقيقة شعورها ساعة أن عرفت بوفاة أستاذها مندور ● رأى ثلاثة أقطاب بل ثلاثة اتجاهات من اتجاهات الفكر العربى المعـاصر فى الأستاذ محمود شاكـر، وقد كـانت هذه الاتجـاهات تجمع على الاعـتراف لهـذا الرجل العظيم بالفضل ● تتحدث عن فترات شبابه وجهاده وصموده وتضحيته من أجل آرائه ● ما ترويه عن بعض تفاصيل قـصة خلاف للشيخ شاكر وطه حسين وقـصة نصيحة المستشرق نيلينو له ● تصل إلى أن «تُسقط» على يحيى حقى بعض أحكامه على الشقيقين محمد ومحمود تيمور ● قوة وطغيان شخصية الأستاذ محمد عودة ● تعبر عن هذا المعنى الذى أضـافته معرفة محمـد عودة إلى شخصيتها فـتصفه بأنه أضاف إليها الالتفات اليـومى المستمر إلى القضايا السياسية والثـقافية، فضلاً عن معرفة مباشرة بكثير من أقطاب الحياة ● الأستاذ محمد عودة وشخصيته الدرامية ● الأحاديث والأحكام العابرة التى تدلنا بها صاحبة المذكرات على مواطن العظمة والتفوق فى بعض شخصياتنا الفكرية المعاصرة ● جمال حمدان: تكتب عنه ما سمعت لا ما لمست من اللقاء به ● حسن فتحى المعمارى العظيم يحظى بفقرات طويلة من التقدير لشخصيته وعـبقريته، حديثه عن القديم والجديد ● أمل دنـقل وقصة الشبه بينه وبين إخناتون ● كرم صلاح عبد الصبور وخلقه النبيل ● تهاجم الذين هاجمـوا صلاح عبـدالصبور وتتسـاءل فى استنكار: وهل كـانوا سيكفلونه؟ هاهم اقتسموا ما تصوروه ثراءه المنصبى.. وها هم يتربعون على العروش فى ظل

السلام والحداثة والإبداع!! ● تحدثنا بحب شديد عن صداقتها للفنانة سناء جميل وتلخص رأيها فى القدرات المتميـزة لهذه الفنانة العبقرية ● قصـة فيلم «بداية ونهاية»: وضع الأسـتاذ صلاح أبو سـيف نهاية للقصـة فى الفيلم غـير تلك التى وضعها الأستاذ نجيب محفـوظ فى القصة المنشورة، جعل البطل ينتحر غرقا وراء أخته، ورأت عـايدة الشريف في هذا الذى فعله صلاح أبو سـيف ما ذكرها برأى الناقـد الأستـاذ أحمـد عـباس صـالح الذى كان يرى أن الـبطل يمثل الثـورة فى طموحها، وهو الرأى الذى وافقه عليه نجيب محفوظ ● حديثها عن اتجاه نجيب محفـوظ إلى تكشف الذات وهو الاتجاه الذى بدأه بنشر رواية ميـرامار، حوارات بينها وبين الأديب الكبير ● تصف بدقة حالة نجيب محفوظ بعد هزيمة ١٩٦٧ ● ذكـريات نجيب مـحفـوظ عن علاقـته بصـديقـه العظيم الدكتـور أدهم رجب ، الخطابات الممتعـة التى أوردت لنا عايدة الشريف كثيرا من فـقراتها فى هذا الباب مع تعليقـات شارحة ومفـسرة ● علاقتـها بالشاعر عبد الرحـمن صدقى: كيف التزمت أسرته الكـريمة بما أذاعته عـايدة الشريف من أنه كان يتمنى إهداء مكتـبته لبنى قـومه ● رأى المؤلف أنه إذا كان الدكور زكى نجـيب محمود رأى أن تكون هناك قصتان : قـصة عقل وقصة نفس، فإن عايدة الشـريف تضرب لنا مثلاً على إمكان حدوث ذلك.

● كان فى وسع السيدة أمانى فريد أن تعيـد كتابة هذا الكتاب بحيث تجعله فى صورة كتاب متصل الحلقات ● تروى مونولوجات متكررة، وتتمحور حول عدد محدود ومتكرر من الأفكار والحوادث والشخـصيات تتذكرها من حين لآخر ● لابد لدور النشر أن تعـهد بمثـل هذه الذكريات إلى كاتب مـحترف يتـولى حذف واختصار ما يتكرر منها فى أكثر من موضع ● صاحبة المذكرات لا تزال حتى هذه

اللحظة تشعر بالانبهار تجاه ما حققته فى حياتها الماضية، سواء فى ذلك ما تحقق لها من معرفة، أو من رحلة، أو من لقـاء، أو من حوار، أو من مشهد، وهى لا تزال مبهورة الأنفاس بالسعادة بكل هذا على الرغم من تقدم العمر بها ● نجاحها فى تجنب ما أرادت أن تتجنب الحديث عنه ● عشرات السنوات تفتقد حديث هذه السيدة عنها، لا نرى أثرا للخمسـينيات ولا للستينيات ولا لسنة ١٩٦٧، ولا لسنة ١٩٧٣ ● المذكرات تخلو من الحديث عن الانتماءات السـياسية للمؤلفة ● المذكرات تتـضمن من أنواع الحديث المنتقى الذى لا يركز إلا على مـا له علاقة بالأعلام والمـشاهير والمـشهورين، ويكاد يغـمط النفس حقهـا فى الحديث عن نفسها ● صاحبة المذكرات نجت إلى حد بعيد من النرجسية، ومن تصور الكون متـمحورا حـول ذاتها، وإن كان الأمـر لا يخلو فى بعض الأحيان من أن تتـصور نفسها وقد أحاطت بما لم يحط به غيرها، من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ترويه عن واقعـة تأليف إبراهيم ناجى لقصـيدة الأطلال ● قصـة اللقاء الوحـيد بين الشاعرين الكبيرين على محمود طه ونزار قبانى ● بعض عادات الشاعر الكبير أحمد رامى حين كان يأتيه هاتف الشعر ● ما كررت أمانى فريد الإشارة إليه من إصابة أحمد رامى بالذهـول بعد وفاة أم كلثوم ● ما عرفته بنفسـها من تفصيلات وملامح الفترة الأخيرة من حياة الفنانة الكبيرة فتحية أحمد مطربة القطرين ● واقعة مهمة روتها صاحبة هذه الذكريات عن زيارتها لقبرص ● مواقفنا السياسية كانت على الدوام مجالا لمثل هذه الأحاديث اللاحقة أو السابقة دون أن يكون لمثل هذه الأحاديث مردود حقيـقى على ضبط توجهاتنا ● لقاء بينها وبـين رئيس قبرص الأسـقف مكاريوس ● رواية ما حدث بعد هذا من محاولة الـيونانيين القبارصة تشويه صورتها انتقاما لهذا الموقف ● تصوير أمانى فريد لقصة واحدة (أو واقعة واحدة) على نحوين مختلفين: روايتها للقائهـا بوزير المعارف الشهير محمد حسن العشماوى باشا ● اللقاءات المهمة التى عاشت فى ذاكرة أمانى فريد: اللقاء بملكة الأردن، جدة الملك حسين بن طلال ● حديثها عن قرارها بالزواج: تقدمه على

أنه كـان خروجـا من مشكلة فـحسب دون أن تذكـر أى شىء عن زوجهـا أو عن حياتها الزوجية، ولكنها تكتفى بالإشارة العابرة على النحو التالى ● تركت الوظيفة الحكومية كمدرسة برغبتها وبشروطها، وتذكر أن الأستاذين الكبيرين أنيس منصور وكمال الملاخ قد نهجا نهجها فى تقديم هذه الاستقالة ذات الشروط!! ● حديثها المتكرر عن علاقتها بالوزيـر السعدى المشهور على أيوب ● قصة قصـيدتها فى مدحه وكـيف رفضت هى أن تنشر فى الأهرام ● الحفل الذى سعت إلـى تنظيمه تكريما له حيـن تولى وزارة المعارف ● المقارنة بين وضعـها ووضع زميلها فى الدعوة إلى الاحـتفال ● لم يخل الأمر بالطبع من أن زميلها الشـاعر يلقى قصيدة عصماء، فقد كان شاعـرا متميزا، وطلب من الوزير أن ينال حقه ● تعمـق أمانى فريد من الحديث عن هذه الـواقعة، وتكرر هذا الحديث عن علاقـتها بالوزير فى مواقع كثيرة، وكـأنها تستعذب حدوثها وتتمنى عـودة الأيام التى حدثت فيها وهو شعور إنسانى طبيعى صادق ● تعترف: لم أنج من قول المتقولين ولا من حسد الحاسدين لأن الوزير الجديد طلبنى ليسألنى عما أريد ● تترحم أمانى فريد بعد هذا على الوزيرين كليهـما ● الوزير مرسى بدر.. كان مثـالا للفهم والتقدير ● حرص صاحبة المذكرات على أن توثق فـى هذا الكتاب علاقات الإعجاب بها فى شبابها، وهى تضم إلى الإعـجاب الحقيقى كل ما حدث من إعـجاب مختلق عن طريق الشائعات، فـهى ـ على سبيل المثال ـ تلمح فى موضع آخـر من المذكرات إلى وجود مثل هذه الشائعات حول علاقتها بالشاعر الكبير إبراهيم ناجى ● مديح الشاعرين إبراهيم ناجى وعلى مـحمود طه لها، دهشتها من إصـرار الشاعر صالح جودت على حذف هذه الأبيات من مقدمـتها لديوان شعرها الثانى ● بـودى أن أتساءل: هل هان على الشاعـرة شعرها ومديحهـا حتى تردد مثل هذا الكلام الذى يتردد على ألسنة الآخرين؟ ● تحرص على أن تذكر ما تلقته من عرض للزواج من محمد العيسوى مدير القليوبية ● تروي أنها وصلت إلى قمة ما كانت الفاتنات فى جيلها يصلن إليه، وهو العـمل مع الموسيقار الكبير محمـد عبد الوهاب، القصة

التى تروى بها عرض محمد عبد الوهاب فرصة التمثيل فى السينما عليها ● ما شهدته بنفسها من نهاية رائدة السينما المصرية بهيجة حافظ، ويبدو ما ترويه متعارضاً مع الروايات المقتضبة التى لم تشر إلى إصابة هذه السيدة بهذه الحالة ● علاقة السيدتين الفنانتين فاطمة رشدى وأمينة رزق وتنافسهما ● محاولة أحد الوزراء قول الشعر دون أن يكون قادرا عليه

هذا الكتاب

نتدارس فى هذا الكتاب مذكرات سبعة من كتابنا وأدبائنا وشعرائنا، وهى مذكرات متنوعة القالب، متفاوتة الحجم، متباعدة الزمن، وإن كانت كلها تتناول الحقبة التى نعيشها أو التى عاشها وطننا عن قريب، وفى هذه المذكرات أحاديث كثيرة عن موضوعات كثيرة، منها الخاص، ومنها العام، لكن الخيط الذى يجمعها هو معاناة الإحباط على الرغم من الشهرة والتفوق واللمعان التى حققها أصحاب هذه المذكرات كأصحاب قلم.

وربما يسهل تفسير هذا الإحباط بمنطق الحساسية المفرطة لأهل القلم فى تناولهم لقضايا الحياة والمجتمع، فهم فى رأى الكثيرين وفى الغالب لا يسعدون بما يسعد به غيرهم، ولا يقنعون بما يقنع به غيرهم، وهذه وجهة نظر كفيلة بأن تفسر بعض الإحباط الذى يعبرون عنه، لكننا فى المقابل نجد طرزاً أخرى لهذا الإحباط فى

كتابات هؤلاء الذين نتدارس مذكراتهم، ونجد أن نظرية الحساسية المفرطة لا تستطيع أن تفسر لنا وجود مظاهر كل هذا الإحباط على هذا النحو الذى نصادفه عيانا بيانا.

وواقع الأمر أن فهم قضية الإحباط لا يمكن أن يتم بدون فهم القضية الكبرى التى لا يمكن فهم قيمة الكتاب والأدب والشعر والإبداع إلا من خلالها، وهى قيمة الحرية، وبدون فهم قيمة الحرية لا يمكن لنا أن ندرك قيمة الإحباط كعامل سلبى أو كنتيجة سلبية، وإذا كان التقدم الحقيقى مرهونا بالحرية، وإذا كان النجاح الحقيقى القابل للاستمرار لا يتحقق إلا فى مناخ الحرية، فإن الإبداع من ناحية ثالثة لا يمكن أن يتم ولا أن يوجد ولا أن يتحقق إلا فى مناخ الحرية.

لهذا السبب ولهذا السبب وحده، يمكن لنا أن نفهم سر الإحباط عند الذين يعانون الكتابة أو الأدب أو الفن، لأنهم يعانون الفن، ومن ثم فلابد أن يعانوا مع الفن قدراً كبيراً من الإحباط إذا ما غابت الحرية أو أصابها انتقاص.

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن معظم هؤلاء السبعة الذين نتناول مذكراتهم قد عانوا هذا الإحباط على مدى فترات ليست بالقصيرة من حياتهم، وقد تضاعفت معاناتهم لسبب واحد هو أنهم بدأوا حياتهم الأدبية فى ظل الحرية ثم فوجئوا بالحرية تسحب من تحت أقدامهم بينما هم قد بنوا حياتهم ومستقبلهم على وجود هذه

الحرية، وعلى دوام هذه الحرية، بل ربما على قابلية هذه الحرية للتوسع والنمو مع نمو مكانتهم، أو مع تقدم سنهم، أو مع تزايد خبرتهم، أو مع مضى الحضارة بخطوات حثيثة، أو حتى مع مضى الزمن نفسه، لكن الحقيقة الصعبة تمثلت فى غياب الحرية، ومن ثم فى نشأة الإحباط، أو فلنكن أكثر دقة: ازدهار الإحباط، أو فلنكن أكثر تحوطاً وانحيازاً للصواب الدقيق: تنامى الإحباط.

ونحن نرى على رأس هؤلاء الذين نتدارس مذكراتهم مثقفاً كبيراً وصل إلى درجة الوزارة ووصل قبلها إلى مناصب أكاديمية رفيعة، لكنه لا يخفى إحباطه من كثير من التصرفات التى صادفها فى غياب الحرية، وهو ـ على سبيل المثال ـ يقارن بين الاحترام الذى حظىّ به وهو متخرج لتوه من الكلية، وبين نوع آخر من المعاملة صادفه وهو أستاذ كبير، وهو لا يكلف نفسه شططها فى البحث عن تشخيص للفارق بين الموقفين مكتفياً بأن يلفت النظر إلى الفارق بين أسلوب عصر وأسلوب عصر آخر، كما أنه لا يجد حرجاً وقد وصل إلى ما وصل إليه من أن يروى أسفه لأنه لم يتسلم جائرة الدولة التشجيعية من الرئيس عبد الناصر، وهكذا ضاع عليه مظهر من مظاهر فوزه بهذه الجائزة، ولم يكن السبب راجعاً إليه، وإنما كان السبب أن الرئيس لم يكن يرتاح إلى الفائز بجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى ذلك العام وهو الدكتور السنهورى.

يروى الدكتور هيكل مظاهر كثيرة للإحباط الذى صادفه فى مجتمعه بعدما اكتشف النظام والنظافة والجدية والحياة والمرح فى بلاد أخرى، فنراه وهو يقدم تجربة توجهنا وترشدنا لكنها فى الوقت نفسه تعكس روحا مفعمة بالاحباط من مناخ جديد.

ولا تختلف الصورة فى حديث الدكتور على الحديدى الذى يصل إلى مرتبة متقدمة بين أقرانه ويتخرج بتقدير متميز وينال البعثة إلى بريطانيا على الرغم من أنه فى معركة شرسة من معارك الليبرالية المتعددة كان قد وصل إلى مرحلة من مراحل الإقبال على الضياع حين اقتاده البوليس إلى النيابة ليتلقى النبأ الخطير بفصله نهائياً من معاهد التعليم جزاء وفاقاً لوقوفه على رأس حزب من الطلاب ضد الشيخ المراغى، ومع هذا فإن أحد أساتذته من المناوئين للمراغى يتوسط له عند الشيخ الكبير ويقبل فى معهد الإسكندرية بموافقة من المراغى نفسه ليستأنف تعليمه وليحقق ذاته، بيد أنه فى ذكاء متمرس يلجأ إلى أن يستحضر كل تجاربه فى عصر الليبرالية بديلاً عن الحديث الشاكى أو الباكى على غياب الحرية فى عصر تالٍ عاشه ولم يجد فيه ما يسجله غير جهود وظيفية سعى من خلالها إلى خدمة بلاده.

ونرى فى مذكرات كل الذين نتدارس مذكراتهم (وبخاصة فتحى أبو الفضل وصالح مرسى وعايدة الشريف) إحباطاً من نوع آخر

حين يتحدثون عن جيل أساتذة أعطى بسخاء، وعن جيل موهوبين اجتهد بقدر ما استطاع ثم إذا هم يواجهون فى أخريات حياتهم جيل جديد يفتقد الأساتذة ولا يرغب فى العطاء.

والحق أننا نجد اعترافاً واضحاً بالأستاذية واعتزازاً عميقاً بها فيما يكتبه صالح مرسى وفتحى أبو الفضل، ونراهما يعدان من قبل الجيل السابق عليهما ليخلفاهم، ونرى التشجيع تلو التشجيع تقابله السيدة جليلة رضا وكأنما يمكنها السابقون عليها من مكانتها التى احتلتها، ونرى صورة شبيهة فيما ترويه السيدة عايدة الشريف، وفى ثنايا ما ترويه أمانى فريد، لكننا مع هذا لا نعدم حديثاً ناقداً لغياب الحرية، وللإحساس بالإحباط فى كل ما يرويه هؤلاء.

نرى أمانى فريد وهى تروى، دون ادعاء وبأقل قدر من الوعى السياسى، تجربة صحفية فى قبرص فنعجب من أن تساق أفكارنا على النحو الذى سيقت به وإليه.

ونرى جليلة رضا وهى تحكى تجربة زوجها الأستاذ محمد السوادى المريرة مع السجن ومع الحرمان من الكتابة، فنحس فى كل ما نقرأ بقيمة الحرية وبقيمة وجودها، ونحس أيضا بعذاب الإحباط وبالمأساة فى وجوده.

□

ومع هذا كله فإننا نقرأ تجارب إنسانية على أعلى درجة من النضج والتعبير الفنى، فنحن نرى الحب وهو يقود إلى نهايات عديدة متباينة: نراه وهو يقود إلى العذاب، ونراه وهو يقود إلى الزواج، ونراه وهو يقود إلى الحرمان، ونراه وهو يقود إلى اللذة فى تذكره أو فى استدعائه.

كذلك نرى الصداقة وهى تقود إلى الإيثار والوفاء، ونرى الأستاذية وهى تقود إلى المجد وإلى التجويد، ونرى الانتماء الحزبى وهو يعلى من قدر صاحبه، ونراه وهو يجلب العذاب أو التضحية، ونرى الأهل وهم يقيدون حركة الأبناء النابهين أو الثائرين، ونراهم أيضاً وهم يدفعون بهذه الحركة فى الاتجاه الذى يظنونه أصوب أو أسلم و أشرف، أو أدعى للمجد والتفوق.

كذلك نرى وجوهاً كثيرة على حقيقتها بعدما أزيلت عنها الأقنعة وأزيلت عن أعيننا الغشاوات التى رأتها من خلالها.

نرى كل هذا ونعجب من حياتنا حين مضت دون أن نقرأ كل هذا الذى نقرؤه صريحاً واضحاً جميلاً معبراً فى كل هذه المذكرات التى كان من حظ المكتبة العربية أن تحتويها، وأن تحتفظ بها للقارئ على هذا النحو الجميل.

وإنى لأرجو للقارئ أن يسعد بهذا الكتاب كما سعدت، وأن يسعد بقراءاته على نحو ما سعدت بكتابته، وأن يستمتع بقراءة ما يحتويه على نحو ما سبقته أنا إلى هذا الاستمتاع الذى لاشك فيه.

وأرجو الله سبحانه وتعـالى أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفـضل والهدى، والسعد والرضا، وأن يتقبلنى بواسع رحمته.

د. محمد الجوادى

الباب الأول

سنوات وذكريات
مذكرات الدكتور أحمد هيكل

---

(١)

للدكتور أحمد هيكل مكانة متميزة بين أساتذة الأدب المعاصرين فى مصر، فهو يجمع بين حبهم واحترامهم، كما أنه نجح على الدوام فيما تولى من مناصب علمية وأكاديمية وثقافية وسياسية فى خدمة وطنه بأمانة ونزاهة وشرف، وظل على الدوام نموذجا للخلق الدمث، والتواضع الحقيقى، وحب الزملاء والتلاميذ والأساتذة، وقد رزق التوفيق فيما تولى من مناصب، كما رزق التوفيق فيما أدى من أعمال أكاديمية ومؤلفات علمية. ومع أنه مسكون بحب علمه وتلاميذه وأهله، فإنه يبدو هادئا خفيض الصوت، قليل الصخب، وهو شاعر مطبوع، وناقد متميز، كما أنه أستاذ بارز، وقد عمل بالسلك الجامعى منذ بداية حياته، وكان أول معيد يعين فى كلية دار العلوم وذلك بعد انضمامها إلى الجامعة فلم تكن قبل هذا تعرف نظام المعيدين، كما كان عضوا فى أول بعثة من خلال المعهد المصرى للدراسات العربية فى مدريد، وقد شاء القدر له أن يكون عميدا لهاتين المؤسستين اللتين شهدتا تكوينه العلمى فى بداية حياته الأكاديمية فأصبح عميدا لهذا المعهد ومستشارا ثقافيا لبلاده فى أسبانيا، ثم عميدا لدار العلوم، وذلك قبل أن يصبح نائبا لرئيس الجامعة، ووزيرا للثقافة.

وفى مذكراته التى نشرها على حلقات فى جريدة الأهرام، ثم فى كتاب صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، تتبدى كثير من أخلاقه

وترتسم صورة معبرة لطبعه النبيل وخلقه الدمث وتواضعه الرفيع، وهو حريص على الإيجاز الشديد فيما كتب، وعلى الدقة فيما يروى، وعلى الوصول إلى جوانب الحكمة والعبرة فيما صادفه فى حياته الحافلة بالأحداث والإنجازات، وهو يقدر نفسه فى إطار تقدير الأسوياء لذواتهم بعيدا عن الغرور والتكلف، كما أنه ينجو من توهم ما لم يحدث، ومن أصداء أحلام اليقظة، ومن الأسف عما فاته مما كان يقدر أو يتوقع أن يدركه.

بل إنى أريد أن أقول ما هو أكثر من هذا، وهو أن الصفاء الخلقى والنفسى للدكتور هيكل جعله يروى قصة حياته وكأنها قد خلت إلى حد كبير من المنغصات والصعوبات، مع أنها كانت حافلة بالطبع بكثير من هذا القبيل.

(٢)

نبدأ عرضنا لهذه المذكرات بالحديث عن الأفكار السياسية التى نجح الدكتور هيكل فى أن يبثها على مدى صفحات هذه المذكرات، ونبدأ بالإشارة إلى أنه فى شبابه كان مهموما بالقضايا الوطنية شأن كل أبناء جيله،لكن هذا لم يدفعه إلى الانتماء إلى حزب معين، وهو يروى أولى تجاربه السياسية مع اعتقال لم يدم أكثر من يوم واحد بسبب زعامته لزملائه فى معهد الزقازيق الدينى.

لنقرأ تفاصيل ما يرويه الدكتور هيكل :

«ولست أنسى أنى فى السنة النهائية من هذه المرحلة دُفعت دفعا إلى أن أكون زعيما لطلبة معهد الزقازيق، ولكن لعدة أيام فقط. فقد

شاركت بشعرى فى بعض القضايا التى كان يخوض فيها الطلبة حينذاك، وألقيت هذا الشعر على جموع الطلاب المحتشدين فى فناء المعهد، فرأى الزملاء أن يختارونى زعيما، وحدثت أحداث لم ترض عنها الحكومة القائمة فى ذلك الوقت، فقبض علىّ واقتادتنى الشرطة إلى «الحجز» بقسم البوليس بحى الحسينية الذى يقع فيه المعهد، وبقيت سحابة يوم سجينا، وكنت أجلس فى «الحجز» على الأرض بملابسى الأزهرية، وحولى عدد لا بأس به من المقبوض عليهم فى تهم غير سياسية، وسلمت أمرى إلى الله، وكدت أرجح أن مستقبلى قد انتهى، ولكن رحمة الله تداركتنى، ففى هذه الساعة التى أطبق فيها اليأس علىّ، جاء جندى إلى «الحجز» ونادى باسمى، ولما نهضت ظانا أنى مسوق إلى سجن الزقازيق تمهيدا لمحاكمتى، أخبرنى الجندى أنى قد صدر أمر بالإفراج عنى، واصطحبنى إلى الضابط الذى وضّح لى أن بعض أساتذتى من العلماء الذين يمثلون الطرف الآخر الموالى للحكومة، قد شفعوا لى متطوعين، وأكدوا لمن بيدهم الأمر أنى طالب مُجد وشاعر واعد، وأن ما كان منى إنما هو تورط لا يستند إلى موقف سياسى معاد أستحق من أجله السجن.. وهكذا نلت حريتى بعد أن ذقت مرارة السجن يوما، أما تلك الأحداث التى لم ترض عنها الحكومة، والتى كان من نتائجها اعتقالى، فمجملها أن الحكومة فى ذاك الوقت حكومة الوفد، وكان هناك عداء تقليدى بين الوفد وشيخ الأزهر المراغى، وكانت أغلبية الأزهريين مراغيين ومعادين للوفد والوّفديين، وكان شيخ معهد الزقازيق حينذاك هو الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، المعروف بأنه من أكبر أعوان المراغى، ومن أشد

المحـرضين على مقاومـة الحكومة الوفدية والتـمرد عليها فى المـعاهد الدينية. . على أنه كانت هناك مجموعة تمثل الأقلية بين الشيوخ، وهذه المجموعة كانت تتعاطف مع الوفد وحكومته، أو فى أقل تقدير تحرص على إقـرار الهدوء فى الأزهر ومـعـاهده، ومواصلة الدراسـة من أجل مصلحـة الطلاب الذين ليس لهم فى الصراع ناقة ولا جـمل، وقد رأى الشيخ دراز ـ ككل المـؤيدين للمراغى ـ أن يضـرب الطلاب فى إحدى المناسبـات، وأن يشغبـوا على الحكومة، فـحدثت مظاهرة فى معـهد الزقازيق قـام فيها الطلاب ببـعض التخريب، فعطلت الدراسـة، وقبض بالليل على الشيخ دراز الذى كـان يقيم معظم أيام الأسبوع باسـتراحة له بالمعهد، وتفاقم الأمر واجتـمع الطلاب فى الصباح، حيث ألقيت فيهم قصـيدة احتجـاج على اعتقال الشـيخ بليلٍ. . وتوالت الأحداث معـقدة متفجرة، وكان من نتائج تلك الأحداث القبض علىّ واحتجازى، إلى أن شفع لى بعض أساتذتى الطيبـين فأطلق سراحى. . ومن يومها رأيت أن أطماع الطامحـين الكبار لا يصح أن يتورط فيـها الأغرار الصغـار، كما أسأت الظن من يومها بالحركات الطلابية التى كثـيرا ما تحركها مصالح خفية لزعامات حزبية».

(٣)

هكذا قدر للدكتور هيكل أن يبتعد عن ممارسـة السياسة فى معتركها الصخب، ولكنه مع هذا لم ينشغل نهائيا عن السياسة والحياة السياسية، وإنما كـان مهمومـا بها على النطاق الفكرى، وهو ما يتـضح من روايته لاشتـراكه فى إحـدى المناظرات التى كانت تجـرى فى ذلك الوقت فى

المعاهد العلميــة المختلفة، والتى كانت بمثابة صورة مــعبرة عن سيطرة الروح الليبرالى على الحياة الفكـرية والعلمية فى مصر فى ذلك الوقت، ومن الواضح أن الدكتــور هيكل كان يتمتع فى شــبابه بحضور ســياسى وفكرى، وليس من الــمــعقــول أن يــكون الذى يشــتــرك فى مــثل هذه المظاهرة من البعيدين تماما عن الثقافة الســياسية والفهم العميق للسياسة الدولية:

«اشتــركت فى هذه المرحلة فى بعض المناظرات الكبيــرة، وكان من أهمها تلك المناظرة التى عُقدت بدار الحكمة، وكان موضوعها: «أيهما تختار مصر فى سياستها الخارجية.. موقف الحياد أم موقف التكتل؟»، وكان ذلك قــبل ثوة يوليــو وظهور حــركة عدم الانحــياز، التى أصــبح موقفها الحيادى هو الموقف الأساسى لسياسة مصر، وفى هذه المناظرة اتخذت الرأى المنادى بــالحياد، إلى جــانب الأستاذ فكرى أباظة، كــما اتخذ صــديقى ثروت أباظة ـ طالب الحقــوق حينذاك ـ الرأى المــقابل، إلى جانــب الدكتور حــسين كــامل سليم عــميد كلــية التجــارة فى ذاك الوقت، وممــثل مصر فى هيئــة الأمم المتحــدة فيما بعــد.. وأذكر أن رئيس تلك المناظرة كان الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى وزارة الوفد».

(٤)

ونحن نرى الدكتور هيكل وقد ظل محتــفظا بجذور الوطنية المتقدة، وبالحماس السيــاسى الشديد حتى فى شيخوخــته، وهو يروى كيف أنه

كان أشـد زملائه حـماسة لمـواجهـة الرئيس الإسرائيلى إسـحق نافون بمـعتقـداته حـين قدر له أن يشـترك فى اللقـاء الذى عقـد بين الرئيس الإسرائيلى ومجموعة من المفكرين فى نهاية عهد الرئيس السادات:

«. . . ومن ذكريات هذه الـمرحلة التى لا أنساهـا، أنى دعيت ـ أيام الرئيس السادات ـ لأكون ضـمن مجموعة من المـفكرين والأدباء تلتقى فى القصـر الجمهـورى مع الرئيس الإسرائيلى «نافـون»، الذى كان فى زيارة لمـصر بعـد تحـقق عمليـة السـلام، وطلب أن يجلس مع بعض مفكرى مصر وأدبائها. . وأذكر أن المجموعة التى دُعيت إلى هذا اللقاء كانت تضم: الدكتور زكى نجيب محمـود، والدكتورة سهير القلماوى، والأستاذ ثروت أباظـة وغيرهم. . وأذكَر أن «نافون» حـين جلس معنا ـ مساء فى حجـرة بقصر عابدين ـ بدأ حديثـه بالثناء على الفكر المصرى والأدب المـصرى، وأشـاد بالمفكرين والأدباء المـصريين، وقـال: إن الناس فى إسـرائيل يعـرفـون كل الرمـوز والقـيـادات الفكرية والأدبيـة المصرية، وأنه هو شخصيا يعرف اللغة العربية، وقد قرأ أدب طه حسين وتوفـيق الحكيم ونجيب مـحفـوظ وغيـرهم، بل بالغ وأكد أنه يعـرفنا جمـيعا وأنه يقرأ لكل منا. . وبـعد ذلك قال إنه يوجه ـ باسـمه وباسم إسـرائيل ـ دعـوة إلينا لكى نزور بلده الذى يعـرفنا وينـبغى أن نعـرفـه كذلك. . وهنا ـ وبعد أن أكمل حديثه ـ استأذنت الزملاء فى أن أتحدث رغم أنى لست أكبـر الموجـودين ولا أهمهم، فسـمحوا لـى بالحديث مشكورين. . وأذكر أنى قلت لنافون ما خلاصته: إننا لا نستطيع أن نقبل دعوتكم، لأنـنا لا نستطيع أن نزور بلدا مـازال يحتل أجـزاء عزيزة من

الأرض العربية، ومازال يقتل الفلسطينيين، ويشن الغارات على اللبنانيين. كما قلت لرئيس إسرائيل: «إنكم سودتم وجه السادات بسبب إعطائكم الحجة لمخالفيه وخصومه، حيث أكدتم لهؤلاء المخالفين والخصوم أنهم كانوا على حق حين لم يثقوا فى نواياكم، وحين ظنوا أن السادات لم يوفق فى التصالح معكم».

«وأذكر أن بعض مَنْ كانوا يحضرون هذا اللقاء من الزملاء قد استشعروا منى الخروج على ما ينبغى من اصطناع «الدبلوماسية» فى مخاطبة نافون، الذى هو ـ على أية حال ـ رئيس دولة وضيف على رئيس مصر. . ومن هنا كان بعض الزملاء الذين حضروا اللقاء يشيرون إلىّ ببعض الإيماءات لكى أكتفى بما قلت وألا أسترسل، ولكنى يومها قلت كل ما يجب ـ فى رأيى ـ أن يقال، وقد سعدت كثيرا بالذى حدثت به رئيس إسرائيل، ولكنى حزنت أكثر لأنه لم يتم للذى قلت أى تسجيل. . وحسبى أنه قيل أمام شهود عدول. . رحم الله مَنْ مضى منهم، ومد فى عمر الأحياء الأعزاء».

(٥)

قبل هذا كله نرى المذكرات وهى تدلنا على أن الدكتور هيكل كان وهو فى الغربة قد بدأ يُنمى الوعى السياسى العميق بحكم احتكاكه بمجتمع واع، وهو يروى واقعة قدر له فيها أن يُنمى بعض هذا الوعى على يد السيدة الأسبانية التى قدر له أن يعيش فى بيتها، فهى تحذره هو وزملاءه من النهاية التى ينتهى إليها الحكم العسكرى:

«والحق أن ما حدث فى مصر (أى قيام الثورة فى ١٩٥٢) كان موضع إعجاب الكثيرين من الأسبان، كما كان سببا لانبهارنا بذكاء الضباط الأحرار، وبسرعة حركتهم ودقة تخطيطهم وشجاعة تنفيذهم.. وبهذه المناسبة أذكر أن السيدة التى كنا نعيش بمسكنها فى مدريد أنا وبعض الزملاء، وقد وجدتنا نبالغ فى فرحنا واحتفالنا بما تم فى مصر، فقالت لنا ما معناه: «تريثوا ولا تبالغوا فى التفاؤل بما فعل الضباط فى بلدكم، فرجال الحرب حين يثورون ويحكمون يبدأون طيبين مخلصين، ولكنهم لقلة خبرتهم بشئون الحكم يتورطون فى كثير من الأخطاء، فلا يجدون أمامهم لكى يحموا أنفسهم وحكمهم إلا السلاح الذى فى أيديهم، وهنا ينقلبون دكتاتوريين باطشين»، ثم أردفت: «ولكم فى فرانكو مثل حى».. وطبعا رفضنا يومها كلامها، ولكن الأيام أثبتت أن فى كلامها كثيرا من الحق، وقد اتضح ذلك فيما كان للثورة من تجاوزات قبل تعديل مسارها وتصحيح أخطائها، وقبل أن تأخذ بالشرعية الدستورية».

□

ولهذا السبب فإننا نرى الدكتور هيكل بعد عشرات السنوات ينتبه إلى حقيقة فهم أسباب تدهور الأوضاع المعيشية للجزائريين فى ظل مثل هذا الحكم العسكرى:

«زرت الجزائر ضمن وفد رسمى مع قيادات الجامعات المصرية لحضور مؤتمر جامعى هناك، واستغرقت الزيارة من السادس عشر من

شهر نوفمبر إلى الثالث والعشرين من الشهر نفسه سنة ١٩٨٤.. ولقد لفت نظرى ما طرأ على الجزائر من ظواهر لم أكن أتوقعها. فالطابع الشمولى للحكم غالب، والحذر المتصل بالأمن شديد، وإهمال بعض رموز ثورة الجزائر واضح.. وقد تمنيت أن أعرف شيئا عن وضع «جميلة بوحريد» المجاهدة التى كانت ملء السمع والبصر أيام الثورة الجزائرية، فنصحنى مَنْ سألته ألا أفتح موضوعها مع أحد وأن أنساها تماما، فعجبت لتقلبات الزمن ومصائر الناس فيها».

(٦)

بل إن الدكتور هيكل يلمح بضيقه من نتائج الحكم العسكرى على أية حال سواء فى بلاده و فى غيرها، وهو على سبيل المثال يشير إلى أنه بسبب هذا الروح العسكرى فى أسلوب الحكم، ناله بعض الاندهاش حين ضاع عليه مظهر من أهم مظاهر التكريم حين نال جائزة الدولة التشجيعية فى نهاية الستينيات ولكنه لم يتسلمها، وهو يقول:

«ولكن الغريب أن الجائزة لم تسلم إلىّ ولا إلى غيرى فى حفل عام كما كان يحدث من قبل، وإنما سلمت إلىّ مكافأتها المالية التى كانت أيامها خمسمائة جنيه، وكان التسليم من الموظف المختص بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، أما الوسام فلم يسلم إلىّ ولا إلى غيرى إلا بعد فترة طويلة.. وقد قيل إن السبب فى عدم الاحتفال فى تأخير تسليم الأوسمة أن الفائز بالجائزة التقديرية فى ذاك العام فى العلوم الاجتماعية كان الدكتور السنهورى، وقد قيل إن الرئيس عبد الناصر فوجئ بذلك ولم يكن يستريح للسنهورى، فأوشك أن يلغى الجوائز ذاك العام، ثم

توسط بعض أهل الخير فتم الاكتفاء بتسليم المكافآت المالية دون احتفال، وصُرف النظر عن الأوسمة. . ومن هنا لم تسلم هذه الأوسمة طيلة حياة عبد الناصر، وإنما سلمت بعد أن تولى الرئيس السادات، الذي صدر براءاتها باسمه فى ديسمبر ١٩٧١».

□

وهو يقارن بين موقفين من مواقف كبار رجال الجامعة قبل الثورة وبعدها، حيث يتضح الفارق الكبير بين سلوك القمم التى تقدر العلم وأهله، وبين سلوك آخر لا ينطق إلا بالغطرسة وعدم التقدير وانعدام الذوق، ولايصبر على رواية انطباعه عن هذا الموقف حتى يأتى وقته ولكنه يتذكره مبكرا حين حديثه عن التجربة الأولى مع مصطفى عامر وهو يقول:

«رشحت لكى ألقى كلمة المتفوقين فى الحفل الرسمى الكبير، الذى كان يقام فى جامعة القاهرة تحت رعاية الملك، ويكرم فيه الأوائل من جلالته. . وأذكر أن عميد الكلية الأستاذ إبراهيم مصطفى هو الذى رشحنى، وحدد لى موعدا قبل الحفل بأيام لكى أقابل الأستاذ مصطفى عامر وكيل الجامعة حينذاك، لكى يعطينى بعض التوجيهات المتصلة بكلمتى. . ولا أنسى أننى حين ذهبت إلى إدارة الجامعة للقاء الوكيل الجليل، وجدته ينتظرنى على سلم إدارة الجامعة، ويستقبلنى بكثير من الحفاوة والتكريم، ووجهنى إلى ما ينبغى أن تتضمنه كلمتى فى هذا الحفل الرسمى الملكى».

. . . .

«والمفارقة التى أحب أن أسجلها هنا، أننى بعد أن صرت دكتورا

وأستاذا ـ وبعد سنوات من الثورة ـ ذهبت إلى إدارة الجامعة لأمر عند وكيلها فى العهد الثورى الجديد، ومكثت فى مكتب سكرتيره نحو ساعة أنتظر لقاءه، ثم أخبرنى أن السيد الأستاذ الدكتور الوكيل قد انصرف قبل أن يلقانى.. وهنا قفزت إلى ذهنى صورة وكيل الجامعة الكريم الهمام الذى استقبلنى على سلم الإدارة حين أتيت للقائه، وأنا مازلت معيدا لم يمض على تعيينى غير أيام».

(٧)

وتبدو آراء الدكتور هيكل السياسية فيما يتعلق بالإخوان المسلمين والشيوعية واضحة الدلالة والمضمون، وإن كان هو بذكاء وتواضع قد فضل أن ينسبها إلى العملاق الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو يتحدث عن حضوره لصالون هذا الأستاذ الكبير حتى يأتى إلى قوله:

«... ومازلت أذكر تلك الجلسة التى ناقشته فيها ـ على استحياء ـ فى موضوع الشيوعية، سائلا عن سبب كرهه لها والزراية بمبادئها، وقلت له: أليس مما يحسب لهذا المذهب أنه يوفر الغذاء والكساء والمأوى لكل مواطن؟ فما كان منه إلا أن أجابنى بحزم قائلا: «يامولانا، إن السجون والملاجئ هى أعظم ما يوفر الغذاء والكساء والمأوى، وإن العبرة يامولانا ليست بتوفير هذه الأمور، وإنما العبرة بتوفير الحرية، والحرية لا وجود لها عند الشيوعية»، كذلك مازلت أذكر تلك الجلسة التى ناقشته فيها ـ على استحياء أيضا ـ فى موضوع كراهيته للإخوان المسلمين، ولما قلت له: إن هؤلاء يطالبون بشىء مفروض

لمصلحة المجتمع، وهو تطبيق الحدود الشرعية، رد فى ثقة وإفحام قائلا: «يامولانا، لو طبقنا الحدود الشرعية فى مجتمع ملىء بالسلبيات الأخلاقية وخراب الذمم ووفرة المكايد وشيوع الرشوة وانتشار شهود الزور، لأمكن أن يقام حد السرقة مثلا على مثلك وأنت برىء لأنه يمكن تدبير شهود يشهدون عليك زورا أنك سرقت خزانة نقودى مثلا، وهذا التدبير الظالم جريمة أفظع من عدم تطبيق الحدود الآن، وإرجاء أمرها إلى أن يتم إصلاح المجتمع، بحيث يكون مجتمعا إسلاميا حقيقيا، لا تُسخّر فيه مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية لأغراض غير إسلامية».

(٨)

ونأتى إلى الحديث عن أبرز انطباعات الدكتور هيكل عن الحوادث الكبرى التى مرت بوطنه، ونبدأ بحديثه الملىء بالألم عن هزيمة ١٩٦٧ التى ذهبت ببعض بصره من جراء الحزن والصدمة وهو يروى ذكرياته عن تلك الفترة بنفس لا تزال مأخوذة بما عانته فيها من تحطم كامل وفقدان للذات واهتزاز ومرارة، ونرى تعبيره عن هذه الفترة آية من آيات الصدق الفنى والوصف النفسى الدقيق:

«فوجئت كما فوجئ الجميع بنكسة يونيو سنة ١٩٦٧، فاهتز فى داخلى ومن حولى كل شىء، وتحطمت أحلام كبار، وتهاوت رموز عظام، واستشعرت مرارة لا أبالغ إذا قلت إن آثارها مازالت فى حلقى إلى اليوم.. وأصاب بصرى مرض غامت معه عينى اليمنى، وعرفت

فيما بعـد أنه التهاب بعصب الإبصار فى هذه العـين، واجتهدت فى أن أخفف منه بمسـاعدة طبيب كبـير هو الدكتور عبـد المنعم لبيب، الذى بذل ما يستطيع من جـهد ولكن المرض خلف بهذه العين ضـعفا شديدا مازال يلازمنى إلى اليوم. . وفى اعتـقادى أن هذا الذى أصابنى كان من آثار صدمـتى الرهيبة بمـا حدث لمصـر من نكسة. فلم يثبت طبـيا أنى كنت أعانى من أى مرض عضوى يمكن أن يفضى إلى الالتهاب الخطير لعصب الإبصار».

□

وتزداد المعاناة التى يعانيها الدكتور هيكل حين يقدر له أن يشارك فى مؤتمر عربى فى البصرة فيفاجأ ببـعض المشاعر والانتقادات القاسية التى يبديهـا بعض الأخوة العرب تـجاه مصـر وما أصابهـا فى معركـة يونيو ١٩٦٧:

«. . . أما فى البـصرة فكان اللقاء الشعـرى، وقد استمعـت فيه إلى كثـير ممـا أوجعنى من الحـديث عن النكسة، والتـعريض غـير الكريم بمصر، فـدافعت ما استطعت ـ مثل كل الزمـلاء المصريين ـ عن بلدى الذى ألف كثيرون من الإخوة العرب تحميله وحده مسئولية ما يكون من هزيمة، كما ألفوا كذلك مشاركته فيما يكون من نصر».

(٩)

وإذا كان الـشىء بالشىء يذكر، ومـادمنا قد تطرقنا مع صـاحب هذه المذكـرات إلى طبيعة مـوقف أشقائنا العرب من مـصر وحكومتهـا بعد هزيمـة ١٩٦٧، فمن الجدير بـالذكر الإشارة إلى أن هـؤلاء الأخوة لم

يجبلوا على الشماتة ولم يطبعوا على انتقادنا، ولكن ممارساتنا السياسية في الستينيات هي التي جعلت هؤلاء يقفون منا هذا الموقف، ودليلي على هذا أن الدكتور هيكل نفسه في هذه المذكرات التي بين أيدينا يحدثنا عن مناخ مختلف تماما من الحب والترحيب بالمصريين عايشه هو وزملاؤه في بداية الخمسينيات حين قدر لهم السفر إلى بعض الأراضي المغربية في أثناء بعثته، وكان هذا الموقف المحب صدى للتعبير عن حب مصر التي كانت في ذلك الوقت تساعد حركات التحرير بذكاء وحب بعيدا عن الأساليب المخابراتية، والقهر، والمن، ولهذا كان الجزاء من شعوب هذه البلاد من نفس العمل:

«وقد سعدنا كثيرا بحفاوة إخوتنا المغاربة بنا وتكريمهم لنا، إلى درجة أن صاحب الفندق الذي نزلنا به في تطوان كان يصر على ألا يتقاضى منا أجرا، وحين دخلنا مطعما بالمدينة وتناولنا العشاء لم يكن صاحبه يريد أن يتقاضى ثمنا، وحين دخلنا دارا من دور السينما وكان المعروض رواية مصرية، أضاءوا الأضواء لدقائق وأوقفوا العرض، واستقبلنا الجمهور بالتحايا والتصفيق، وكان ذلك تحية لمصر التي وقفت إلى جانب المغرب في كفاحه الوطني من أجل الاستقلال، حتى أصبح المغاربة يعتزون بكل مَنْ يأتي من مصر ويعدونه رمزا للبلد الذي يقف إلى جانب الأحرار ويحارب المستعمرين والاستعمار».

☐

ويتحدث الدكتور هيكل بصدق شديد عن وفاة الرئيس عبد الناصر

وتأثره بها ورثائه الصادق له، على الرغم من معارضته لكثير من سياساته:

«وأعترف أننى لم أكن أرضى عن كثير من سياسات عبد الناصر وأعماله، ولكننى حين مات حزنت عليه حزنا كبيرا، وشعرت أنه كان أشبه بقائد عربة نعبر بها الصحراء، وأنه فجأة مال على عجلة القيادة وصعدت روحه إلى السماء، ومن هنا صدمت بموته كثيرا وبكيته صادقا، ورثيته صادقا».

(١٠)

وفى المقابل يتحدث الدكتور هيكل بكل اعتزاز وفخر وسعادة وحبور عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ :

«وقد قضت ظروف حرب أكتوبر أن يتأخر سفرى نحو شهرين، وكان هذا طبيعيا بل ضروريا، فقد كانت مصر كلها تعيش هذا الحدث الكبير الذى هز الدنيا وشغل العالم.. ولم يكن من المستطاع أن أسرع بمغادرة بلادى وهى تعيش تلك الأحداث المصيرية الهائلة التى كانت المشاعر خلالها مزيجا من الفرح العظيم الذى لابد أن أشارك فيه، وأخيرا تأكد لمصر النصر المبين، وتم تحجيم التآمر على هذا النصر من الحاقدين والمكابرين، واعترف العالم بما حققته مصر من إنجاز لا سبيل إلى الانتكاس فيه أو الانتقاص منه».

. . . .

«ولم يكن الحديث عن نصر أكتوبر مقصورا على الإخوة المصريين، بل كان حديث كل مَنْ التقيت بهم بعد ذلك من العرب والأسبان، فقد كان الجميع مبهورين بهذا النصر العظيم، مقدرين لمصر بطولة جيشها، وصلابة شعبها، وعبقرية قيادتها».

(١١)

وحين يصل الدكتور هيكل إلى الحديث عن المرحلة التى وصل فيها إلى قمة المسئولية التنفيذية باختياره وزيرا، فإنه يحرص على أن يصور هذا الوصول نتيجة جهد حقيقى كان الفضل فيه للرئيس مبارك الذى كان حريصا على التدقيق فى اختيار الرجال ووضعهم تحت منظاره:

«وكانت البداية يوم أن انتدبنى العاملون بالرئاسة لأقوم بالترجمة الفورية بين الرئيس وأحد سفراء أمريكا اللاتينية الذى لا يتحدث إلا الأسبانية، والذى كان سوف يقابل الرئيس لتقديم أوراق اعتماده، ثم يجلس معه بعض الوقت كما جرت العادة فى استقبال السفراء لأول مرة.. وفى ذلك اليوم ذهبت إلى القصر الجمهورى بصحبة السفير الذى بدأ موكبه من مسكنه بالمعادى، وكان هناك سفراء آخرون سيقدمون أوراق اعتمادهم.. وحين جاء دور السفير الذى أصحبه، ودخلت على السيد الرئيس بصحبته، تهلل الرئيس وأشعرنى بحفاوة مازلت أسعد بها وأشكره عليها.. وكان أول شىء قاله لى بعد الترحيب بى، كلمات رقيقة مؤداها أن العلماء والمفكرين يجب ألا يشغلهم الآخرون بأن يجعلوهم مترجمين، وقد أجبت سيادته بأننى سعيد بأن أقوم بالترجمة له، وأنى أعتبر هذا العمل تشريفا لا تكليفا».

«وتمت الجلسة مع السفير، وخرجت بصحبته، فلحق بى أحد رجال الرئاسة وأخبرنى أن السيد الرئيس يطلب منى أن أبقى حتى تتم مراسم تقديم أوراق اعتماد باقى السفراء، لأنه يريد أن يقابلنى بعد أن يفرغ من هذه المراسم، فانصرف السفير الذى كنت بصحبته وبقيت حتى فرغ الرئيس، فاستقبلنى فى مكتبه وأعاد تحيته لى وتلطفه معى.. ثم أخذ يسألنى عن بعض المسائل الجامعية والشبابية، وعن بعض القضايا الحياتية المصرية.. وخلال اللقاء تحدث سيادته كثيرا عن هموم الوطن التى تشغله بل تؤرقه».

«وكانت هذه المرة هى الأولى التى أجلس مع سيادته دون أن يكون معنا أحد.. وقد طالت الجلسة نسبيا، وأعطانى سيادته من الوقت فوق ما كنت أتوقع.. وأشهد أنى خرجت بانطباع ـ من هذا اللقاء ـ أقنعنى بأن هذا الرجل يتسم بالوطنية القوية الصادقة، وبالنزاهة الضميرية الصارمة، وبالعقلية المتفتحة الواعية، وبالروح الإنسانية الحانية.. وكذلك عرفت ـ من خلال هذا اللقاء ـ أن معاناة الرئيس من مسئوليات منصبه أضعاف سعادته به، وأن سعادته الحقيقية فى أن ينهض بمصر من خلال توليه هذا المنصب، وعرفت أيضا أنه محروم مما يتمتع به أبسط الناس من حرية الحركة، وقلة الهموم، وخفة المسئولية، وأنه يصبر على أعباء هذا المنصب لأنه قدره أولا، ولأن الشعب وثق به ثانيا، ثم لأنه يطمع في أن يحقق شيئا يسعد هذا الشعب ويرفع مستوى معيشته، ويحقق آماله آخر الأمر».

«وبعد هذه الجلسة الطويلة، استأذنت فى أن أنصرف فودعنى سيادته بكرم كما استقبلنى بمودة. . وأوصلتنى عربة من الرئاسة إلى منزلى بعد أن انصرفت عربة السفير الذى كنت قد صحبته من منزله».

(١٢)

ويروى الدكتور هيكل تفصيلات لقاء تال له مع الرئيس حسنى مبارك، وهو يسهب فى ذكر تفصيل مشاعره فيما قبل اللقاء، فإذا بنا أمام تعبير جميل عن تجربة نفسية حقيقية:

«ثم سنحت لى فرصة ثالثة فى تلك المرحلة التقيت فيها مع السيد الرئيس، بل جلست معه فى مقابلة مرتبة محددة. . فبعد أسابيع من نجاحى فى انتخابات مجلس الشعب سنة ١٩٨٤، وبعد يوم لقاء سيادته الذى تم فى مجلس الجامعة، وحين عدت إلى منزلى بعد ظهر ذاك اليوم التالى للقاء فى الجامعة، قال لى مَنْ فى منزلى إن مسئولا من الرئاسة طلبنى وأبلغهم أنه قد تحددت لى الساعة الثانية عشرة من الغد لمقابلة السيد الرئيس فى قصر القبة. . وساعتها رجّحت أن يكون الأمر دعابة أو معابثة من بعض الأصدقاء، وسبب هذا الترجيح أن السيد الرئيس كان يشرفنا فى الجامعة منذ يوم، وقد حدثنى فى الجلسة وحيانى بعدها، فما وجه استدعائى للقائه غدا؟! وأوشكت ـ لغلبة الظن بأنها دعابة أو معابثة من صديق ـ أن أصرف النظر عن هذا الموضوع، لأفوت الفرصة على المداعبين أو المعابثين. . ولكنى راجعت نفسى وأخذت بالأحوط، وعملت على أن أتأكد بصفة قاطعة من حقيقة الأمر،

فسألت دليل التليفون عن أى رقم له صلة بالرئاسة، وبعد جهد أعطونى رقم الحرس الجمهورى، فطلبته وقدمت نفسى بصفتى واحدا من قيادات جامعة القاهرة وعضوا بمجلس الشعب الجديد، ورجوت محدثى أن يصلنى بأى مسئول فى الرئاسة، فأعطانى الرقم الخاص بالأمناء، وحين استفسرت من الأمين الذى رد علىّ عن حقيقة طلبى لمقابلة السيد الرئيس، أخبرنى بأن الأمر حقيقة، وأنهم فى انتظارى بالقصر الجمهورى من الغد، قبيل الساعة الثانية عشرة.. وعلمت أنه ستتم مقابلة ثلاثة غيرى ممن يريدهم الرئيس، وهم: الدكتور رفعت المحجوب الذى تم تعيينه بعد ذلك عضوا فى مجلس الشعب، ثم اختياره رئيسا للمجلس، والدكتور عصمت عبد المجيد الذى تم بعد قليل تعيينه وزيرا للخارجية، والدكتور حلمى نمَّر الذى شغل بعد فترة منصب أمين مجلس التعاون العربى».

☐

ثم يتحدث الدكتور هيكل عن طابع مقابلته بالرئيس مبارك، ونلمح فى حديثه اعتزازاً شديداً بالرئيس وبنفسه أيضاً، وذلك على الرغم من أن الحوار كان يمضى بطريقة طبيعية لا تكلف فيها على الإطلاق:

«وفى الموعد المحدد يوم التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٨٥، كنت فى الرئاسة، واستقبلنى السيد الرئيس بمكتبه مرحبا، وهنأنى بنجاحى فى مجلس الشعب، وأوصانى بأن أشارك فى المنافشات التى تدور بالمجلس، وفى القضايا المطروحة عليه، لأنه يريد مجلسا حيا فعالا مؤثرا ناجحا فى خدمة الجماهير وتحقيق أملها فى نوابها».

(١٣)

ونرى وصف الدكتور هيكل لليوم الأول من عمر الوزارة التى اشترك فيها فى أغسطس ١٩٨٥ وزيراً للثقافة، وهى وزارة الدكتور على لطفى وهو يروى قصة اشتراكه فى هذه الوزارة إلى أن يصل إلى أداء الوزارة لليمين ويقول:

«وفى صباح اليوم التالى ذهبت ـ مثل كل الزملاء الوزراء ـ لأداء اليمين الدستورية أمام السيد رئيس الجمهورية، وكان ذلك فى قصر القبة، وحلفنا اليمين، وصافح الرئيس كلا منا مهنئا ومباركا، ثم أخذت لنا صورة تذكارية مع سيادة الرئيس، وتم عقد اجتماع لمجلس الوزراء الجديد فى القصر برئاسة السيد الرئيس بطبيعة الحال.. وفى هذا اللقاء هنأ سيادته الوزارة الجديدة ودعا لها بالتوفيق».

«وبعد ذلك صافح الرئيس الجميع مودعا إياهم بالسماحة والمودة التى استقبلهم بها».

ويحرص الدكتور هيكل على أن يلخص لنا ما أدلى به من حديث لمساعديه فى الوزارة عن فلسفته فى العمل الثقافى، ونحن نراه حريصاً على أن يلخص هذه الفلسفة فى قوله: «إن الوزارة لا تنتج ثقافة وإنما تتولى توصيل الثقافة»، وهو يوظف معرفته باللغة فى تحديد المعنى والتفريق بينه وبين المعنى الشائع:

«وتم عقد الاجتماع فى اليوم التالى، وفيه أوضحت للحاضرين أن الثقافة ـ فى رأيى ـ قيمة من أعظم القيم الإنسانية، وهذه القيمة تعنى ـ

فى رأيى أيضا ـ رقى الفكر وسمو الوجدان معا، وسمو الفكر يكون بالعلوم والمعارف والخبرات والتجارب، أما سمو الوجدان فيكون بالدين الصحيح والفن الرفيع والتقاليد السامية والأخلاق الراقية.. فالثقافة ليست العلم وحده، كما أنها ليست الفن فحسب، فالذى يتعلم ويقف عند العلم فقط، إنما هو عالم فقط، والذى يزاول الفن ويقف عند الفن وحده إنما هو فنان فحسب، ولا يمكن أن يكون الإنسان مثقفا إلا حين يرتفع فكره بالعلم والمعرفة والخبرة والتجربة من جانب، ويسمو وجدانه بالدين الصحيح والفن الرفيع والتقاليد السامية والأخلاق الراقية من جانب آخر.. وأوضحت كذلك أن عمل وزارة الثقافة هو «التثقيف»، كما أن عمل الوزارة التى تشرف على المدارس والجامعات هو «التعليم»، ومن هنا يمكن أن نسمى وزارتنا «وزارة التثقيف»، لأن هذه الوزارة لا تنتج ثقافة وإنما توصل الروافد التى تصل بالمواطنين إلي أن يكونوا مثقفين، أى متسلحين بهذه القيمة المعنوية الرفيعة وهى قيمة الثقافة.. والوزارة توصل هذه الروافد التى تحقق للمواطنين الرقى الفكرى والسمو الوجدانى ـ أى الثقافة ـ عن طريق أدوات وأجهزة ووسائل، منها الكتاب، والمسرح، والسينما، والمعرض، والمتحف، والمحاضرة، والندوة، والتدريب على الإبداع فى قصور الثقافة وبيوتها».

□

ويحرص الدكتور هيكل على أن يتجنب الحديث عن النواحى السلبية التى واجهته فى أثناء عمله كوزير، وهو يكتفى بالتلميح المهذب من قبيل قوله:

«ومن تلك المعوقات، تصــادم آراء بعض كبار العاملين فى الوزارة، واستناد هذا التــصادم فى أحيان كـثيرة إلى مصــالح شخصية بـعيدة عن الموضوعية».

ولا ينسى الدكتور هيكــل أن يشير إلى الشرف الذى ناله حين اخـتير مرة بعد أخرى ليكون عضواً فى مجلس الشعب، ومن الجدير بالذكر أنه كان عـضواً فى دورات ١٩٨٤ و١٩٨٧ و١٩٩٠، أى طيـلة أحد عـشر عاماً:

«وهكذا أسدى إلىّ السيــد الرئيس هذا التكريم العظيم، الذى توج به ما قــدمه إلىّ من قبل من ألوان التكريم، فــقد اختارنى من قـبل لأكون على قائمة المرشحين لمجلس الشعب عن محافظة الجيزة، ثم اختارنى وزيرا للثقــافة، وفى أثناء الوزارة اختارنى للمــرة الثانية لعضــوية مجلس الشعب لمــحافظة الجيزة فى فـصل تشريعى جديد، وبعــد خروجى من الوزارة اختارنى عضوا للمرة الثالثة فى مجلس الشعب فى فصل تشريعى ثالث، وكانت هذه الـعضوية فى تلك المـرة بالتعـيين، حيث اخـتارنى سيادته ضمن الأعضاء العشرة الذين يعطيه الدستور حق اختيارهم أعضاء معينين».

(١٤)

ويبدو أن الدكتور هيكل كان غير متهيب للمواقع التنفيذية التى وصل إليها فى نهاية حياته الوظيفية، وإن كان يعبر فى الوقت ذاته عن اعتذاره المبكر عن قبول وظيـفة الإشراف على البرامج الثقافـية فى التليفزيون،

وهو يروى أنه قبيل سفره معاراً إلى جامعة فى السودان فوجئ بهذا العرض فاعتذر عنه:

«وقبيل السفر بأيام، طلبنى بالتليفون مدير مكتب وزير الثقافة والإعلام حينذاك الدكتور عبد القادر حاتم، وأخبرنى أن الوزير يستدعينى للحضور على وجه السرعة، وحدد لى الساعة الحادية عشرة بمكتبه فى مبنى التليفزيون، فتخوفت كثيرا، لأن المألوف فى تلك السنوات أن المسئولين الكبار إذا طلبوا مواطنا على وجه السرعة، أن يكون وراء الأمر شىء يستحق التخوف.. وذهبت إلى لقاء الدكتور حاتم وكلى خشية من أن أكون قد قدمت شيئا مخالفة لسياسة الدولة من خلال برنامجى «جولة الأدب».. ووصلت إلى مكتب الدكتور حاتم، فوجدت الرجل ينتظرنى بتلهف شديد ويقابلنى بترحيب ودود، ثم يثنى على ما أقدم فى التليفزيون ويمدح وطينيتى وأدبى وثقافتى، ثم يعرض علىّ أن أنقل إلى التليفزيون بصفة نهائية وأشغل درجة أعلى من درجتى فى الجامعة، وذلك لكى أشرف على كل البرامج الثقافية والتعليمية، فشكرت الرجل على حسن رأيه، واعتذرت إليه بأنى لا أفضل على الجامعة أى موقع آخر، علاوة على أنى قد ارتبطت مع السودان معارا فى جامعة الخرطوم، فتأسف الرجل ورجانى ألا أقطع صلتى بالثقافة وبالإعلام فى بلدى، وأن أعتبره صديقا شخصيا لى».

□

كما يتحدث الدكتور هيكل أيضا عن اعتذاره عن عدم قبول رئاسة هيئة الكتاب فى أثناء توليه عمادة كلية دار العلوم، وكيف أنه بذل جهده

من أجل هذا الاعتذار حتى لجأ إلى سبب نفسى قدره الوزير صاحب العرض أو الرغبة:

«وفى أثناء عملى عميدا لكلية دار العلوم، طلبنى وزير الثقافة حينذاك الأستاذ عبد الحميد رضوان لزيارته فى مكتبه، ثم عرض علىّ أن أتولى منصب رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ولكننى شكرته لثقته فى شخصى، واعتذرت له عن عدم استطاعتى قبول هذا المنصب، لأنى لا أفضل أى منصب على الأستاذية فى الجامعة، وقد أطال ـ رحمه الله ـ فى إلحاحه علىّ وإغرائه لى، وكان مما قاله: إنه أخذ وعدا من رئيس الوزراء حينذاك الدكتور فؤاد محيى الدين بأن تكون درجتى إذا قبلت هذا المنصب درجة نائب وزير.. ولكنى أصررت على الاعتذار ومضاعفة الشكر.. ولم أجد وسيلة للتخلص من هذا الموقف ـ الذى طال فيه الإلحاح ـ إلا أن أقدم سببا آخر للاعتذار، وهو أنى لا أتحمل عاطفيا أن أجلس على الكرسى الذى كان يجلس عليه صديقى الراحل الشاعر صلاح عبد الصبور، وقلت للرجل ـ وأنا صادق ـ إن هذا شعور إنسانى شخصى أرجو أن يقدره ويقبل اعتذارى به، فقبل الرجل الاعتذار مشكورا، وودعنى راضيا».

(١٥)

ويبدو لنا من قراءة هذه المذكرات أن الدكتور هيكل لم يكن معنيا بالظهور والنجومية فى حد ذاتهما، وإن كان بحكم إنسانيته لا يمانع فى قدر معقول من هذه النجومية، وهو على سبيل المثال يكتفى من الحديث عن تجربته فى التليفزيون بفقرة يقول فيها:

«أسند إلىّ التليفزيون مسئولية برنامج أسبوعى يذاع على القناة الثالثة، التى كانت مختصة بالثقافة الرفيعة فى تلك الفترة، وكانت مدة هذا البرنامج ساعة كاملة، وكنت أتولى إعداده وتقديمه، وقد اتخذت له عنوان «جولة الأدب»، وأعطيته شكل المجلة المرئية المسموعة، وكنت أعرض من خلاله أهم فنون الأدب كالشعر والقصة القصيرة والسيرة الأدبية والقضية النقدية، كما كنت فى كل حلقة أعرّف بكتاب وأقدم صاحبه، وأختم الحلقة بالتعريف بأهم أخبار الأدب.. وقد استضفت فى هذا البرنامج أعلاما كبارا مثل: نجيب محفوظ وزكى نجيب محمود ومحمد فريد أبو حديد ويوسف إدريس.. بل إننى استضفت الدكتور طه حسين وأجريت معه حوارا طويلا أذيع مقسما فى عدة حلقات، وكان التسجيل قد تم فى بيت العميد لصعوبة حضوره هو إلى مبنى التليفزيون».

□

وفى المقابل نجد الدكتور هيكل فى مذكراته حريصا على التعبير عن سعادته بالمناصب العلمية والأكاديمية التى وصل إليها، وهو يتحدث عن إنجازاته فى هذه الوظائف بقدر كبير من الرضا والسعادة، وهو يحكى الصدفة التى مكنت له من الاختيار مستشارا ثقافيا، وهى مصادفة تنم عن نبل وسمو خلقى تمتع بهما الدكتور عبد القادر القط الذى كان قد صدر له القرار بالتعيين فى هذا المنصب:

«تم اختيارى لشغل منصب مستشار ثقافى للسفارة المصرية فى أسبانيا ومديراً لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد، بناء على تزكية

كريمـة من صديقى الدكتـور عبدالـقادر القط، الذى حدث أنه كـان قد رُشح هو لهذا المنصب، بل صـدر قرار وزارى باختـياره، ثم بدا له أن يسألنى حين التقى بى ذات ليلة فى دار الأدباء، نظرا لخبرتى فى الشئون الأسبانيـة، فشجعته على قـبول الترشيح والإسراع بالسـفر إلى مدريد، وحين قال إنه لا يعرف الأسبانية، أجبـته بأنه من الممكن التعامل مؤقتا باللغـة الأجنبـية التى يـجيـدها، والاسـتعـانة على الأسـبانـية ببـعض المساعـدين كما فعل بعض الزملاء من قـبل، لكنه قال لى إنك الأولى بهذا المنصب، وسأعمل على أن ترشح أنت للسـفر إلى مدريد، وحين ألححت عليه أن يحتـفظ بالترشيح لنفسه أبدى موافقـة وقتية، ثم ذهب فى اليوم التـالى إلى وزارة التعليم العـالى ـ دون أن أعرف ـ وتنازل لى عن هذا المنصب فى إيثار نادر ووفاء عظيم، وفى سلوك الرجل المثقف المتحضر الذى يعرف أين يضع نفسه وأين يضع غيره».

. . . .

ومما يجدر ذكره أن الدكتور القط والدكـتور هيكل كانا قد انتخبا فى جلسة واحدة لعضوية مجمع اللغـة العربية عام تسعة وتسعين (١٩٩٩)، وصدر القرار الخاص باعتماد انتخـابهما، وقد عين لكل منهما الكرسى الذى يشغله بـناء علي أقدميـات خلو الكراسى وعلى أسبـقية الأعـضاء الجدد فى الفوز، وكان الدكتور هيكل أسبق الأعضاء إلى الفوز فتقرر أن يشغل أقـدم الكراسى الخالية وهو كـرسى العالم الكبيـر الدكتور حـامد جوهر، وكـان من نصيـب الدكتور عـبد القـادر القط أن يشغـل كرسى الدكتور إبراهيم مـدكور، لكن ترتيباً لاحقاً تم ليكون حـديث كل عضو

عن سلفه متفقاً مع تخصصات الأعضاء، وهكذا تنازل الدكتور القط ـ إلى حد ما ـ عن خلافته للدكتور مدكور، وأصبح الدكتور هيكل خلفاً للدكتور مدكور، بينما أصبح الدكتور القط خلفاً للدكتور حسين مؤنس!!

وثمة طرافة ثالثة عن علاقة هذين الرجلين، فقد شاء القدر أن يكونا مرشحين لنيل جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عن عام ١٩٨٢، ثم شاءت الظروف أن ينالاها معا عن العام التالى عام ١٩٨٣، وقد كان ثالثهما فى نوال هذه الجائزة الروائى العظيم الأستاذ يوسف جوهر.

(١٦)

ويتحدث الدكتور هيكل فى مذكراته عن عمله فى أسبانيا وأدائه لهذه الوظيفة العلمية بحب وشغف كبيرين:

. . . «ومما يسعد من إنجازات جمعية الصداقة المسيحية ـ الإسلامية بالإضافة إلى ذلك، أنها سعت لدى السلطات الأسبانية وبذلت جهودا ضخمة من أجل استعادة جزء من مسجد قرطبة الكبير، الذى كان أكبر المساجد وأقدمها فى العصر الإسلامى فى الأندلس، والذى كان الأسبان قد حولوه إلى كنيسة منذ القرن الثالث عشر بعد سقوط قرطبة سنة ١٢٢٦ . . وهذا الجزء الذى تمت استعادته قد هيئ منذ أيام المؤتمر لإقامة الصلوات الإسلامية، وكانت أولى الصلوات هى صلاة الجمعة التى أدتها الوفود المشاركة فى المؤتمر، ودوت معها فى آفاق قرطبة آيات القرآن الكريم وتكبيرات المصلين، وازدحمت طرقاتها وأهم

ساحاتها بالمسلمين والمشاركين بالحضور والاستماع من الإخوة المسيحيين».

«ومما يضاعف السعادة بهذا الإنجاز ما تم فى أسبانيا بعد انتهاء المؤتمر من تأليف لجنة للعمل على تنفيذ الوصية الخاصة بتنقية الكتب الدراسية مما يسىء إلى الإسلام.. وأعتقد أن هذه اللجنة وصلت فى أهدافها إلى قدر عظيم من النجاح».

(١٧)

ويروى الدكتور هيكل قصة الفرصة التى أتيحت له ليلقى مجموعة من المحاضرات عن الإسلام فى حضور ملكة أسبانيا، وهو فخور بهذا الإنجاز الذى تمثل فى ثمانى محاضرات أعدها إعداداً جيداً:

«فقد أخبرنى المسئولون فى جمعية ثقافية ترعاها جلالة الملكة أن لجلالتها رغبة فى أن تستمع إلى محاضرات عن الإسلام، وطلب منى هؤلاء المسئولون أن أقوم بإعداد هذه المحاضرات وإلقائها على جمهور مختار تتصدره جلالتها.. وأعترف أنى حاولت أول الأمر أن أعتذر عن عدم قبول هذه المهمة نظرا لكون موضوع المحاضرات بالغ الحساسية، فهو عن الإسلام والمستمعون غير مسلمين، بل من الكاثوليك المتشددين، ونظرا كذلك لكون الحديث سيكون فى حضور ملكة، ثم لكون المحاضرات سوف تكون باللغة الأسبانية التى وإن كنت أجيدها منذ أن درست فى أسبانيا، ونلت منها درجة الدكتوراه، إلا أن المحاضرة بها وفى موضوع دينى حساس وبحضور ملكة أمر ليس

بالهين. . ولكن المسئولين ألحوا علىّ ـ بل أصروا ـ على أن أقوم بهذه المهمة، فأرجأتهم فترة وجيزة حتى أعد نفسى وأجمع مادة محاضراتى وأكون مطمئنا تماما إلى قدرتى على أداء مهمتى. . وبعد تلك الفترة أخذت فى إلقاء محاضراتى التى بدأت يوم ١٦ من شهر فبراير ١٩٧٧، والتى كانت تلقى أسبوعيا فى عصر يوم محدد واستمرت نحو ثمانية أسابيع. . وأعتقد أنها نالت من النجاح ما يكافئ الاستعداد لها والإخلاص فى أدائها».

(١٨)

كذلك يروى الدكتور هيكل قصة مشاركته فى نشاط من أنشطة الحوار الحضارى الجميل من خلال جمعية إسلامية مسيحية، وذلك من خلال مؤتمر استهدف إنصاف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وتصحيح الأخطاء الشائعة عنه فى الفكر المسيحى:

«. . . ومن هنا نشأت فكرة هذا المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى، الذى رأت جمعية الصداقة ـ التى كنت رئيسها المسلم ـ أن يكون موضوعه «التقويم الإيجابى لمحمد وعيسى فى المسيحية والإسلام». . وواضح أن الجمعية جعلت الموضوع يشمل سيدنا عيسى عليه السلام إلى جانب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لتسهّل أخذ موافقة السلطات الأسبانية التى لم يكن من السهل أن توافق على عقد مؤتمر على أرض أسبانيا الكاثوليكية، يدور الحديث فيه أساساً حول تمجيد سيدنا محمد وتصويب الأخطاء المتصلة به فى الأفكار المسيحية. . وعلى الرغم من جعل الموضوع عن سيدنا محمد والمسيح معا، قد

احتاجت جمعية الصداقة إلى بذل جهود مضنية لدى السلطات الأسبانية الرسمية والدينية، حتى تمت الموافقة على عقد هذا المؤتمر. . وقد بدأت أعمال المؤتمر يوم ٢١ من شهر مارس ١٩٧٧، حيث أقيم حفل الافتتاح بقصر الملوك فى قرطبة، ثم نُقلت الجلسات إلى قاعة مجلس المحافظة، حيث كانت تعقد تلك الجلسات صباحا ومساء حتى يوم ٢٨ من الشهر نفسه. كما كان يُلقى فى الصباح بحثان ومثلهما فى المساء، ومع مراعاة أن يكون الحديث تبادليا، يبدأ بأحد العلماء المسلمين ثم يثنى بأحد المفكرين المسيحيين. . وكانت البحوث والدراسات فى معظمها تتجه نحو غاية واحدة هى إنصاف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتصحيح الأخطاء المتصلة به فى الفكر المسيحى. . لذا كان المتحدثون غير المسلمين قد اختيروا بشكل جيد من العلماء الغربيين المنصفين، الذين يجنحون إلى الحق ويقدرون نبى الإسلام حق قدره، حتى ولو كانوا غير مسلمين، وذلك من منطلق سيرة الرسول العطرة ونضاله الإنسانى الرائع، الذى قدم فيه للإنسانية قيما نهضت بها وأنارت طريقها وصححت مسيرتها. . وكان من أهم الموضوعات التى عالجها المفكرون المسيحيون فى إنصاف للنبى وثناء عليه: «محمد مثال ونموذج للفضائل» و«محمد الرجل التاريخى وقيمه» و«اعتراضات تقليدية مسيحية ضد محمد وتقييمها». . وقد تبارى علماء مسيحيون أجلاء - من خلال هذه الموضوعات - فى تفنيد ما شاب سيرة النبى عليه السلام فى الفكر المسيحى من أخطاء، وقال بعضهم كلاما لا يقل عن كلام أشد المسلمين حبا لمحمد وإعجابا به وتقديرا له. . وكان من أحسن ما قيل من جانب الإخوة المسيحيين، ما قاله الأسقف «ترانكون»

أسقف مدريد وكبير رجال الدين المسيحى فى أسبانيا، الذى أوضح أن المجمع الفاتيكانى الثانى قد قرر احترام الإسلام، كدين يدعو إلى الإيمان ويقاوم الإلحاد والوثنية، وبيَّن أنه من المنطقى احترام محمد الذى بشر بهذا الإسلام، والذى بث قيمه ومازال يبثها فى الناس. . وركز الأسقف «ترانكون» على قيمتى التوحيد والعدالة من بين القيم الجليلة التى أرساها محمد صلوات الله وسلامه عليه. وكان مما قاله عن محمد بشأنهما: «أما إيمانه بالله الأوحد فهو سمة رسالته وحياته. إنها أهم عقيدة تركها لأمته. . بيد أنى أود أن أخص بالذكر دعوته إلى مساواة الناس رجالا ونساء، وإلى تحقيق العدالة بينهم. . إن كل تعليم دينى قابل للتحريف إلا الدعوة إلى العدالة واحترام الإنسان، فإنها صيحة (نبوية) لا نستطيع خنقها فى أيامنا». . وأظنها أول مرة فى التاريخ المسيحى يصف يها أحد كبار رجال الكنيسة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها «صيحة نبوية».

«وكما حدث فى المؤتمر الإسلامى ـ المسيحى الأول الذى عقد فى قرطبة سنة ١٩٧٤، فقد أدت الوفود المشاركة فى المؤتمر صلاة الجمعة بمسجد قرطبة الكبير، أو بتعبير أدق فى الجزء الذى نجحنا فى اقتطاعه وإعادته مسجدا من هذا الأثر التاريخى العزيز الذى كان الأسبان قد حولوه إلى كنيسة منذ سقوط قرطبة فى القرن الثالث عشر عام ١٢٢٦».

□

ولا يفوت الدكتور هيكل بعد الحديث عن كل هذا النجاح أن يشير إلى مدى جمود الفكر الرسمى المصرى فى التعامل مع مثل هذه الجهود الدينامية:

«. . . ومع كل هذا التوفيق مازال يثير عجبى رفض المسئولين بمصر المشاركة رسـميا فى هذا المؤتمر فى الساعاتِ الأخيـرة، وقد تغاضيت عن هذا الرفض وشاركت فى المـؤتمر على مسـئوليتى، وكـونت وفدا مصريا من بعض المبعوثين المصريين وبعض رجال السفارة المتطوعين، ومثلنا بلدنا فيمـا أعتقد خير تمثيل. . فلم يكن من الـمعقول أن تشارك مصـر فى المؤتمـر الأول بوفد علـى مستـوى عال يرأسـه نائب رئيس الوزراء، ثم ترفض الاشـتراك فـى المؤتمـر الثـانى دون سبب نبـرر به موقفنا أمام مَنْ نظموا هذا المؤتمر ومَنْ شاركوا فيه، خاصة أن الرئيس المسلم للجمعية المنظمة لهذا المؤتمر هو المستشار الثقافى المصرى. . ومما ضاعـف من عجبى أنى حين سألت فى مصـر بعد ذلك عن سبب رفض الاشتراك فى المؤتمر رسميا، قيل لى إن بعض الشيوخ الرسميين الأجلاء قد نصحوا أصحاب القرار بعدم الاشتراك فى المؤتمر، لأن هذه المؤتمرات فى نظرهم من الأمور المريبة، وأن البعد عنها أفضل».

(١٩)

على هذا النحو نرى حديث الدكتور هيكل عن فترة من فترات عطائه خـارج وطنه، قـدر له فيـهـا أن يؤدى دوراً من أهم الأدوار الثـقـافيـة والحضارية لوطنه، وبنفس القدر من الحب والسعادة بما حقق من إنجاز يتحدث الدكتور هيكل عن عمله كعميد لكلية دار العلوم، وإن كان يبدو وكأنه قـد شغلته الشـئون الإدارية المـعتادة فى العـصر الذى عمل فـيه عمـيداً، ومع هذا فإنه لا ينسى أن يشـير إلى أن الكلية قـد انتقلت إلى مبناها الجديد فى عهده:

«وقد أعانني الله في أثناء عملي عميدا على أن أبذل أقصى ما أستطيع من أجل النهوض بكليتي العزيزة مبنى ومعنى. . أما المبنى فكان هو المبنى الجديد الذى انتقلت إليه الكلية فى الحرم الجامعى قبل أن أشغل العمادة بعام، وكان المبنى حين أسندت إلىّ العمادة محتاجا إلى إكمال التأثيث والتجهيز، حتى يكون لائقا بكلية عريقة تضم أكثر من عشرة آلاف طالب وطالبة، وتقوم برسالة علمية وثقافية ووطنية وعربية وإسلامية جليلة. . وأما المعنى فقد اجتهدت فى أن أنهض بالأداء الدراسى والمستوى العلمى فى الكلية، مستعينا بكفاءة الزملاء أعضاء هيئة التدريس فى تخصصهم، وحبهم الشديد لكليتهم. . وإلى جانب ذلك حاولت أن أحقق رغبات الزملاء فى الإعارات والزيارات العلمية لجامعات عربية أو أجنبية، وذلك لإيمانى الشديد بأن هؤلاء الزملاء يؤدون رسالة علمية جليلة، حيث يذهبون ويفيدون غيرهم قبل أن يفيدوا أنفسهم حيث يتوجهون، وقد كنت أستعين على تحقيق رغبات الزملاء بالأستاذ الدكتور حسن حمدى، الذى كان كثيرا ما يتعامل مع القوانين واللوائح بروحها ولا يتجمد أمام نصوصها، ومن هنا كان يخالف ـ فى الظاهر ـ بعض النصوص اللائحية التى تحول دون إعارة أستاذ، وتتم هذه المخالفة الشكلية رعاية لمصلحة تفوق كثيرا نص اللائحة، وتعود بالخير على الوطن والعلم والبلد الشقيق أو الصديق الذى سيعار إليه المرشح للإعارة أو المطلوب للزيارة».

□

ولا يفوت الدكتور هيكل أن ينتبه إلى حقيقة ما تجلبه المناصب الإدارية من سوء العلاقة مع بعض الأصدقاء الذين يتعشمون فى العميد ويظنونه لابد أن يجيب كل طلباتهم:

«ولكنى حزنت كثيرا أيضا لأنى خسرت بعض الأصدقاء من العاملين بها. . ويبدو أن هذه طبيعة الأمور، فمَنْ يشغل منصبا قياديا يصطدم ـ رغم أنفه ـ ببعض الرغبات الخاصة التى قد لا تتفق مع المصلحة العامة، بل قد لا تتفق مع القوانين واللوائح، ولا يمكن تطويع هذه أو تلك لتحقيق هذه المصلحة الخاصة، وهنا يضطر شاغل المنصب القيادى إلى تغليب المصلحة العامة، ويتمسك بالقانون واللائحة، فيسبب هذا غضب بعض أصحاب الرغبات، وتكون النتيجة شرخا فى العلاقات، وقد يتسع الشرخ فيكون هوة ومقاطعة. . فالذى يتولى العمادة مثلا وهو صديق لكل الزملاء والعاملين معه، يخرج منها وقد فقد نسبة من صداقة هؤلاء الزملاء والعاملين. . وهذا من تكاليف المنصب الباهظة المسببة للعذاب، والتى يجب أن يضعها أى مسئول فى الحساب».

(٢٠)

ويتحدث الدكتور هيكل بقدر من التفصيل عن تجربته فى العمل نائبا لرئيس الجامعة فى الفيوم، ونحن نراه فخوراً بكل ما أنجزه وبكل ما حاول أن ينجز، ونراه وقد خرج بإنجازاته إلى رحابة الفكر الجامعى المستوعب لضرورة وجود كليات من قبيل كليات الخدمة الاجتماعية والهندسة. . إلخ:

«بذلت جهدا لإتمام كلية الخدمة الاجتماعية، وللبدء فى إنشاء كلية الهندسة، وذللت صعوبات ومعوقات كثيرة كانت تحول دون البدء فى تشييد ما تحتاجه الجامعة من مبان جديدة، وكانت إحدى هذه المعوقات والعقبات من جانب هيئة الآثار، التى كانت تحرص - ولها الحق - على ألا تتم المبانى فوق أرض يحتمل وجود آثار تحتها، لذا لم يكن فى استطاعة الجامعة أن تحفر شبرا ولا أن تضع طوبة قبل موافقة هيئة الآثار، وكانت هيئة الآثار بدورها تحتاج إلى أن تختبر الأرض وتقوم بحفائر وتدرس الموقع قبل الإذن للجامعة بالبناء عليه.. وقد كان إنجاز ما تريده هيئة الآثار محتاجا إلى وقت طويل قد يصل إلى سنوات، وقد لا يتم أبدا.. ولكنى سعيت ما استطعت لإنجاز ذلك كله فى وقت قياسى، واستعنت بصلتى الشخصية بالمسئول الأول عن الآثار حينذاك الدكتور أحمد قدرى».

(٢١)

ويبدو الدكتور أحمد هيكل حريصا أشد الحرص على الحديث عن العوامل الكفيلة بتكوين النشء على نحو أفضل، وهو لهذا يتحدث عن العوامل التى مكنته من أن ينمى التهذيب والصقل فى شخصيته على النحو الذى صارت إليه، فهو يتحدث فى مرحلة مبكرة من المذكرات عن أثر الرياضة فى شخصيته وتهذيبها:

«ولا أنسى أنى تعلمت من خلال الاتصال بجمعية الشبان المسلمين بالزقازيق، بعض السلوكيات المتحضرة الحميدة وبصفة خاصة عن طريق الرياضة، التى كنت أمارس منها لعبة كرة الطاولة، التى تعوَّد

لسانى عن طريقها على قول: «آسف» إذا ما أخطأت، وذلك لكثرة ترديد هذه العبارة المهذبة بين اللاعبين إذا ما ندت الكرة عن مكانها الصحيح، وهم يتقاذفونها بالمضارب».

☐

كما يتحدث الدكتور هيكل عن إحساسه بجدية الشباب الأوروبى حين أتيح له أن يزاملهم فى الجامعة الأسبانية، ونرى فى هذا الحديث صورة الإنسان الجاد الذى يرى الجدية فى جهود الآخرين ويدركها، ولا يقف عند حدود التفكير فى العبث أو المجون:

«كان الطلاب فى وقت فراغهم بين المحاضرات يذهبون إلى المقصف فيشربون ويمرحون، حتى إذا ما دخلوا قاعة المحاضرة ودخل عليهم الأستاذ، هبوا واقفين فى إجلال واحترام، ثم جلسوا هادئين يتابعونه وكأنهم يتعبدون، وهم الذين كانوا فى المقصف من قليل يمرحون وأحيان يشربون».

☐

كذلك يتحدث الدكتور هيكل بدقة وامتنان عن الأثر الإيجابى الذى لعبه المجتمع الأسبانى فى صقل شخصيته وتكوينها فى مرحلة النضج العلمى:

«وبالإضافة إلى هذه الروافد الأدبية والفنية، كانت هناك الروافد الاجتماعية التى أثرت فى شخصيتى تأثيرا كبيرا. فحياتى مع الأسرة

الأسبانية، واختلاطى بالمجتمع الأسبانى فى الجامعة، بصرنى بالكثير من التقاليد الطيبة، وأوقفنى على العديد من السلوكيات المهذبة».

□

ويقدم الدكتور هيكل ملامح التكوين الفنى الذى قدر له أن يحظى به فى أثناء دراسته فى أسبانيا، سواء فى ذلك الموسيقى والفن التشكيلى والمسرح والشعر:

«انجذبت أكثر إلى الموسيقى الأندلسية والغناء الأندلسى (الفلامنكو)، وذلك لما يفيض به من شجن يشبه فيه الموّال المصرى.. واتصلت أيضا بالفن التشكيلى، وأعجبت ببيكاسو وسلفادور دالى ومن قبلهما بجويا، وكنت كثير الزيارة لمتحف «البرادو» بمدريد، أحد أكبر المتاحف العالمية للفنون التشكيلية.. وصحبت بعض زملاء البعثة ـ الذين يتخصصون فى الفنون ـ إلى أكاديمية «سان فرناندو» بعض المرات، وعرفت عن طريقهم الكثير عن أصول هذا الفن ومذاهبه وأسراره.. أما المسرح فقد كان من أهم اهتماماتى، وقد حضرت كثيرا من العروض المسرحية ذات المستوى الرفيع، كمسرحية «دون خوان» التى كانت تقدم سنويا فى موسم محدد، كما أعجبت بالمسرح الغنائى والاستعراضى الراقى، الذى كان ضمن فقراته فى كثير من الأحيان فقرة يُلقى فيها بعض الشعر الجيد مصحوبا بنغمات «الجيتار».. وبمناسبة الشعر، قد رأيت كثيرا جدا من الأسبان يعشقون ويحفظون مختارات من روائعه، يستوى فى ذلك المثقفون والناس العاديون، وقد ساعد على ذلك هذا التقليد الحميد من تقاليد المسرح الغنائى والاستعراضى، الذى

كثيرا ما يجعل فقرة الشعر إحدى الفقرات الرئيسية فى العروض المسرحية».

(٢٢)

ونأتى إلى علاقة الدكتور هيكل بالمرأة ونراه أحرص ما يكون على أن يتتبع مسار هذه العلاقة على مدى سنوات عمره، فهو يحكى انطباعاته الأولى تجاه مدرّسة فى المدرسة الأهلية الصغيرة فيقول:

«وأبرز ما فى هذه الصورة الثانية (التى تحتفظ بها ذاكرته)، تلك المدرّسة الجميلة ذات الشعر الفاحم الطويل المسترسل، وقد أخذتنى من يد والدى ورفعتنى عن الأرض، واحتضنتنى فى حنان ظللت أحس بدفئه لسنوات طوال».

□

وهو بعد سنوات طوال يعترف بأنه قد عرف الراحة العاطفية فى أثناء دراسته فى أسبانيا:

«أما الراحة العاطفية فقد حققها ما لاقيت من تجاوب عاطفى رفيع ممن نبض بحبهم قلبى فى تلك السنوات التى سعدت بالعواطف النبيلة البريئة من النزوات».

□

كما يعترف الدكتور هيكل ضمنا أنه ضحى بالحب الذى تمكن من قلبه فى أسبانيا من أجل أن يحيا حياة متوافقة مع أهله فى مصر، وهو

يشيـر إلى أن هذه التضحـية لم تأت إلا بعد ثلاث سنوات من التـفكير الصعب، وهى محنة عاطفية لاشك فيها، كما أن حديث الدكتور هيكل عنها يمثل شجاعة أدبية متناهية:

«كان قد أتيح لى وأنا أدرس فى أسبانيا أف أرى فتاة أسبانية ـ وعرفتها عن قرب ـ ووجـدت أنها يمكن أن تكون زوجـة لى، ولكنى عدت إلى مـصر دون أن أتقـدم إلى أهلها أو أن أرتبـط بها، وذلك لعـدم إمكانى الزواج وأنا طالب، ثم لعـدم رضـاى عن أن أتزوج بأجنبـية دون رضـا أسرتى.. وظـللت ثلاث سنوات فى حيـرة.. وأخيـرا حسـمت الأمر برفض فكرة الزواج من أسـبانيـة، لأنهـا ستكون غـريبة على الأسـرة، ومسببة لعدم التواصـل الحميم بينى وبين أهلى، نظرا لاختلاف العادات والتـقاليـد، وقبل ذلك نظرا لاخـتلاف الدين واللغـة.. وأعتـرف أننى تألمت بمشـاعرى لاتخاذ هذا القـرار، ولكننى اقتنعت وحسـمت الأمر بعقلى».

□

ويحدثنا الدكتور هيكل عن أن زواجه من إحـدى تلميذاته كان بمثابة خطوة رائدة فى ذلك الـوقت، وأن هذه الخطوة التى أقـدم عليـهـا فى شجاعة قد مكنت للاحقين به أن يخطوا نفس الخطوة فى ثقة وهدوء:

«كنت أول عضو هيئة تدريس فى دار العلوم يتزوج بمن كانت تلميذة له فى نفس الكلية.. وكـان هذا فى تلك السنوات من الأمور الحسـاسة التى تثير تداعيات عند البـعض، وتسبب بعض الحرج لى رغما عنى..

وقد واجهت هذا بشجاعة ولم ألق بالا إلا لثقتى من نبل مقصدى وإيمانى بصحة مسلكى، والعمل على الظفر بمن اختارها قلبى.. وهكذا فتحت الطريق لكثيرين غيرى اقترنوا بعدى بمن كن تلميذات فى الكلية، وسعدوا بزيجاتٍ موفقة دون أن يواجهوا ما واجهته فى أول التجربة».

(٢٣)

ويحرص الدكتور أحمد هيكل على أن يضمن هذه المذكرات كل ما يدل على أنه كان منتبها إلى مكانة العلم والعلماء فى المجتمع، وهو يحكى على سبيل المثال عن الفارق بين أهل الريف وأهل الزقازيق فى معاملتهم لطلاب العلم الأزهريين:

«... والذى رأيته من هؤلاء القرويين الطيبين كان يعوّض بعض الشيء ما كنت ألاقيه من أبناء البلد الطائشين المتطرفين.. فقد كان الرجل الريفى إذا أقبل نحوى فى الطريق قُرب المعهد نزل عن ركوبته، ومر بى ملقيا السلام والتحية، ثم عاد إلى ركوبته فامتطاها ومضى.. وقد كان يبهرنى هذا السلوك الراقى من هؤلاء الريفيين الطيبين، على حين كان يقهرنى ذاك السلوك المتدنى من أولئك الحضريين العابثين».

□

كذلك يشير الدكتور أحمد هيكل إلى مدى المساعدة المعنوية التى حصل عليها من خلال حب طلبة كلية دار العلوم له حين كان فى أولى سنوات الوظيفة الأكاديمية ناشئا صغير السن إذا ما قورن بزملائه من قدامى أعضاء هيئة التدريس:

«فعلى الرغم من أن كـثيرين منهم كانوا أصـدقائى، وعلى الرغم من أن بعضهم ـ ممن تخلفـوا ـ كانوا من قبل زملائى، وعلى الرغم من أن طلاب دار العلوم لم يروا قـبلى واحـدا فى سنى يقف مـوقف المـعلم لهم، ويعتلى المنصة ليحاضرهم، على الرغم من كل ذلك كان موقفهم فى غاية الالتـزام والجدية، بل كـان المثل الرفيع فى اسـتقـامة السلوك والروح الجامعـية. . فقد عـاملونى باحترام كامل، وأصـغوا إلىّ بهدوء شامل، وأحسـست أنهم وجدوا فى نجاح تجربتى إفسـاحا للطريق أمام آمالهم، حيث تطلع كثيرون منهم إلى أن ينالوا من النجاح ما نلت، وأن يحققوا من الآمـال ما حققت، ونتيجة لهذا التـأسى وانفتاح الأمل أمام الطلاب بسبب نجاح تجـربتى، نال ثلاثة فى السنة التالية تقدير مـمتاز، وكان من بيـنهم صديقى عـبد الحكيم بلبع، الذى تقـوت صلتى به منذ تلك الأيام، والذى واصل دراسته العليا حتى نال الدكتوراه، وأصبح من ألمع أعضاء هيئة التدريس بالكلية».

(٢٤)

ولا تخلو مذكرات الدكـتور أحمد هيكل من الحديث عـما عاناه من الإحساس بكثيـر من الفروق بين النظافة الأسبانية المـتبدية فى كل ركن وما تعانى منه حـياتنا فى القاهرة من نقص للنظافـة والنظام والإحساس بالجـمال، ويكفـى فى هذا السبـيل أن نشـير إلى مـثلين فى المـسكن والمواصلات:

«وركبت القـطار عائدا إلى أهلى، وكانـوا قد استـأجروا ـ بمناسـبة قدومى ـ مـسكنا جديدا أوسع وأرقى من المسكن الذى كنا فـيه، وظنوا

أنهم سيسعدوننى بهذا المسكن الجديد، لكنهم فى الحقيقة لم يستطيعوا، لأن هذا المسكن قد أثار فىّ ألوانا من الضيق والألم والشعور العميق بالمفارقة. فالمسكن فى حارة متفرعة من شارع زين العابدين المجاور لمسجد السيدة زينب، والذاهب إليه يخوض زحاما كثيفا ويشم روائح دكاكين الدقاقين والعطارين المشبعة بالتوابل المهيجة للحساسية والمسببة لضيق الصدر عند من لا يألفونها، فقارنت - رغما عنى - بين الشارع الذى كان به مسكنى وأنا غريب، وهذا الشارع الذى سأعيش فيه فى القاهرة وأنا مواطن، وقارنت أكثر بين مسكنى الفاخر نسبيا فى العاصمة الأسبانية الذى به كل الأدوات الحديثة، وبين مسكنى المتواضع فى العاصمة المصرية والذى لا يزال يستخدم الأدوات التقليدية. كل هذا بالإضافة إلى الهدوء وروعة المنظر هناك، والصخب والتلوث السمعى والبصرى هنا.. لكننى كتمت ضيقى وأخفيت - ما استطعت - شعورى، وحملت نفسى على الابتسام واصطناع الرضا».

□

ويتحدث الدكتور أحمد هيكل أيضا عن معاناته وهو عضو فى هيئة التدريس من ركوب المواصلات العامة وما كانت المواصلات نفسها تعانى منه فى هذه الفترة، ونحن نرى حديثه عفيفاً لطيفاً يجنح إلى تسجيل الواقع بأكثر العبارات تهذيبا فحسب:

«... وأذكر أننى كنت أذهب إلى شبرا وإلى مصر الجديدة فى أوتوبيس أركبه من ميدان التحرير، حيث لم تكن لدىّ عربة، ولم يكن

فى استطاعتى أن أؤجر سيارة «تاكسى» إلى هذه المسافة الطويلة. . ولقد عانيت كثيرا من ركوب الأتوبيسات، وكثيرا ما كنت أذهب إلى شبرا أو إلى مصر الجديدة واقفا بجوار السائق، حيث كنت أقاسى من الحرارة المنبعثة من آلات السيارة، بالإضافة إلى ما يخنق الصدر من أنفاس الركاب، وما يثير العرق من حرارة الجو. . ولكنى على كل حال كنت راضيا أو مضطرا إلى أن أرضى، لأنى سوف أزيد دخلى بحيث أفى باحتياجاتى بفضل ما أحصل عليه من مكافآت عن محاضراتى لطلبة الآداب بشبرا، ولطالبات كلية البنات بمصر الجديدة، حيث كان راتب المدرس فى تلك السنوات لا يزيد كثيرا على أربعين جنيها».

(٢٥)

ونأتى إلى الحديث عن العوامل التى هيأت للدكتور أحمد هيكل التفوق البارز فى مراحل حياته المتوالية، وهو يشير إلى مدى الجد الذى كان يأخذ به نفسه من أجل تحقيق هذا التفوق، وهو يتحدث عن التجربة النفسية أو الشعورية التى مر بها قبل امتحان الليسانس فيقول:

«. . . وقد ختمت تلك المرحلة ختاما رائعا بفضل الإيمان والإصرار وروح التحدى، وقبل كل ذلك بفضل الله الذى بغير توفيقه لا شىء يجدى. . وذلك أننى كنت أجلس مع بعض الزملاء قبل امتحان الليسانس بنحو شهر، وأدرنا الحديث حول مَنْ سيكون الأول فى هذا الامتحان، فقال أحد الزملاء: فلان، وذكر زميلا، وقال ثان: بل فلان، وسمى زميلا آخر، وقال ثالث: لا هذا ولا ذاك، بل فلان وعين زميلا

غير السابقين، كل هذا ولم يذكر أحـد اسمى، فاستفزنى ذلك الموقف وثرت ـ فى داخلى ـ لكرامـتى، وقلت للـزملاء: «أراكم تتـجـاوزوننى وتذكرون زملاء غيرى ولا تشعـرون أنكم تبخسوننى قدرى. إننى سوف أكون أول فـرقتنا ـ إن شاء الله ـ هذا العام، وسـوف تتحققـون وتخيب منكم الظنون»، فأخذ بعـضهم يتعلل بأنهم لم يتوقـعوا لى الأولية لأنى شاعر، ولأنى مـشغول أكثر بالأدب ومهـتم أشد بالندوات والمناظرات، فقلـت: «ومع ذلك سأكون الأول ـ إن شـاء الله ـ هذا العـام، وسوف تتحققون وتأتى النتـيجة على غير ما تتوقعـون». . وانصرفوا بين مصدق ومكذب ومـتردد، وانصـرفت وقـد ملأت روح التـحـدى كيـانى كله، واستـعددت للامتحـان كأحسن مـا يكون الاستعـداد، وفى تقديرى أنى سـأحقق حلمى فى الأوليـة، وأمـهد بذلك لمسـتـقـبلى فى الأستـاذية الجامـعية، ودخلت ذاك الامـتحان العـسير، الذى كـان يتم كل يوم فى مادتين، ولا يعطى الطلاب فرصـة كافية للمراجعة بين امـتحان فى مادة وامتحان فى أخرى على الوجه الذى يحدث الآن».

لعلنا لسنا بحاجة إلى أن نذكر القارئ بأن الدكتور هيكل حقق الأولية على دفعته فى الليسانس، وكـان أول تلك الدفعة التى كانت بمثابة أولى دفعات دار العلوم بعد تحولها إلى كلية.

□

ولعل أكـثر مـا يدل القارئ على حب هذا الرجل للكـمال والتـفوق والتمـيز هو حرصـه على الإفادة من الفـرصة التى تتـاح لأعضاء هيـئة

التدريس بالابتعاث مرة أخرى وهم أعضاء هيئة تدريس للخارج فيما يسمى ببعثات ما بعد الدكتوراه، وقد انتظم صاحب المذكرات وهو أستاذ مساعد فى بعثة إلى انجلترا كى يستزيد من معرقته باللغة الإنجليزية، وهو يتحدث عن هذا الموقف الذى وضع فيه نفسه بإرادته مفصلا الحديث عن نفس منهج الجد الذى ظل ملتزما به فى حياته:

« . . . وبدأت فى لندن حياة طالب علم من جديد، أجلس فى مقاعد الطلاب فى القاعات الجامعية التى أحضر بها ما اخترت من محاضرات، بعد أن كنت فى مصر أستاذا مساعدا أجلس فى المنصة ويتلقى عنى المئات من الطلاب والطالبات. . وكنت أتردد فى لندن بين مدرسة الدراسات الشرقية بالجامعة لأستمع إلى ما يقوله بعض المستشرقين عن الأدب العربى، وبين بعض المدرجات الجامعية لأتعرف على ما يقوله بعض الأساتذة الإنجليز من محاضرات عن الأدب الإنجليزى».

□

ولا يفوت الدكتور أحمد هيكل أن يتحدث عن معاناته النفسية فى تلك الفترة وقد أصبحت له أسرة وأبناء:

«وهكذا أمضيت العام الدراسى فى لندن مثقلا أستشعر الوحدة فى أكثر الأحيان، حتى انتهى بى الأمر فى الأسابيع الأخيرة إلى لون من الاكتئاب الذى جعلنى أسعى إلى الطبيب المختص فأعطانى بعض الدواء المهدئ ونصحنى بأن أشغل نفسى ـ فيما بقىّ لى فى لندن من أسابيع ـ بأن أشترى لزوجتى وأولادى الهدايا التى أعود بها إليهم، حتى أعيش نفسيا فى إطار مسعد بهم، رغم البعد الشديد عنهم».

(٢٦)

وقبل هذا كله يشـير الدكتور أحـمد هيكل إلى جوهر فلسفـة جديدة اكتـشفهـا فى بداية حياته وهى أن الـتوريط قد يكون سـببا من أسـباب النجاح، وهو يحكى عن التوريط الذى وضعه فـيه أخوه الحبيب حلمى بعد ظهور نتيجة امتحان الفرقة الأولى من معهد الزقازيق الدينى:

«وهكذا مر الـعام الأول فى معـهد الزقـازيق بسلام رغم المـثبطات والهـموم الجـسام، وفـرحت الأسـرة خاصـة أبى الذى عـمل الكثيـر لترضـيتى، ووزع أخى الـمرطبات علـى أهل الشارع ابتـهاجا بنـجاحى واعتذارا عما فرط منه قبل ذلك نحـوى.. بل بالغ أخى فأخبر المعارف والجـيران أنى أول الناجـحين، فكـان ذلك «توريطا» لى، حيث لقـيت تهانى كثيرين مشفوعـة بوجوب الحفاظ على الأولية.. وهكذا أصبحت أمام نفسى وأمام الناس مسئولا عن النجاح دائما، بل عن الحصول على التفـوق فيمـا يأتى من الأعوام.. ومن يومـها آمنت أن من بين أسـباب النجاح «الـتوريط»، أو وضع الإنسان أمـام أمر يعـيبه أن يتـراجع عنه أو يفرط فـيه. كـما آمنت أن بث الثقـة فى الناشئ ـ فيـما يتـصل بقدراته وسلوكـياته ـ يعـينه كثـيرا علـى أن يكون عند حسن ظن مَنْ وثقـوا به وعقـدوا الأمل عليه.. وقـبل ذلك كله آمنت بأن التـحدى يثـير داخل الإنسان قوى كامنة تتغلب على الصعاب وتحقق بعيد الرغاب».

□

بل إن الدكتور هيكل يشير إلى أن صعـوبة اللوائح وقسوتها قد تكون سببـا من الأسباب الدافعـة إلى التفوق والالتزام، ويشـير إلى لائحة دار

العلوم الصعبة، وهى إشارة مهـمة لتاريخنا العلمى ترينا كيف كان الجد الصارم هو المسيطر علـى بعض معاهدنا الجامعية فى فـترة من الفترات التى أتاحت لنا مجموعة من أكفـأ رجال التربية والتعليم وأبقاهم أثراً فى نفوس جيلى والأجيال السابقة:

«. . . على أن أشد مـا كان يقلقنا فى أول التحـاقنا بدار العلوم، هو تلك اللائحة القـاسية التى سـببت للكثيـرين رعبا شديدا، بل جـسدت تهديدا مزعجا، واحتاجت إلى أعصـاب حديدية للتعامل معها والرضوخ لمقتضياتها. . فقد كان الرسوب فى السنة الأولى يؤدى إلى الفصل، فلا إعادة لطالب يرسب فى تلك السنة، وكان الرسـوب يتحقق ولو فى مادة واحدة، كذلك كان الرسوب بعد السنة الأولى تفرضه مادة مفردة لم ينل فيها الطالب النهـاية الصغرى التى كانت ستين فى المـائة للعلوم العربية والإسلامية، وخمسين فى المائة لباقى المواد. فرسوب الطالب فى مادة واحدة ـ أيا كانت ـ يسبب إعادة السنة الدراسـية كلها فى جميع المواد، حتى ولو كان الراسب فى تلك المادة الواحدة قد نال فى المواد الأخرى أعلى الدرجـات. . وبعد تحـريم الرسوب فى السنة الأولى، ثـم فرض إعادة السنـة فى كل المواد بسـبب الرسوب ولو فى مـادة واحدة، يأتى خطر آخر، وهو عدم إباحة الرسوب أكثر من مرة فى الكلية، فمن أعاد الدراسة فى سنة لرسوبه ولو فى مادة، يفصل إذا تكرر هذا الرسوب فى أية سنة بعد ذلك. . وهكذا كنا يقال لنا: «إنكم مكتوبون فى دار العلوم بالقلم الـرصـاص»، وهكذا أيضـا كـنا نعـيش فى السـنوات الأخـرى مستشعرين الخوف، حـيث يمكن أن يعيد الواحد منا السنة كلها لرسوبه

فى مـادة واحدة، وحـيث يمكن أن يتم الفصـل ولو فى السنة النهائيـة للرسوب للمرة الثانية بعد أن حدث فى عام سابق للمرة الأولى».

(٢٧)

ورغم هذا التفوق كله فإن الدكتور هيكل حريص على أن يروى بكل صراحة أن نـفسه حدثتـه فى مرحلة مبكرة بتغـيير المسـار وترك التعليم الأزهرى كلية إلى الالـتحاق بدراسـة عسكرية متـوسطة تؤهل لأن يتلى صاحبها وظيفة فى سلك الكتّاب العسكريين، وذلك حتى يريح نفسه من الجد والاجتهاد اللذين يتطلبهما التعليم الأزهرى القاسى:

«فكرت بعد نيل الشـهادة الابتدائية فى البحث عن طـريق غير طريق إتمام الدراسة الأزهرية الطويلة المرهقة.. وكنت قد قرأت فى الصحف أن الجيش قد فتح مدرسة تسمى «مدرسة الكتّاب العسكريين»، وأن هذه المـدرسة تقـبل حمـلة بعض الشهـادات، ومنهـا الابتدائيـة الأزهرية، فرجوت والدى وأخى أن يسمحا لى بالتقدم إلى هذه المدرسة، فرفضا، أولا، رغبـة فى أن أتم حتى النهاية دراسـتى التى أنهيت منهـا المرحلة الابتدائية، ولكن بعد إلحاحى وكثـرة رجائى سمحا لى على مضض بأن أجرب حظى.. وتقـدمت إلى المدرسة وذهبت إلى المعـسكر الخاص بالمتـقدمين فى العبـاسية، وبت فى هذا المعـسكر ليلة انتظارا للكشف الطبى والاختبارات المطلوبة فـى اليوم التالى.. وشاء الله أن أرسب فى اختبار النظر، وعدت إلى أهلى بقلب منكسر، ولكنهم لم يحزنوا مثلى، بل فرحوا بنجاتى وعودتى، وشكروا الله أن أقال عثرتى».

ثم يردف الدكتور هيكل بقوله:

«وشاء الله أن أواصل الدراسة فى المرحلة الثانوية، بعد أن أخفقت ـ إخفاقا أحمد الله عليه ـ فى الالتحاق بمدرسة متواضعة عسكرية».

(٢٨)

وبالإضافة إلى هذا كله يتضح نبل الدكتور هيكل ووفاؤه فى حرصه على إثبات حديثه المتكرر عن أثر الصداقات على نجاحه على مدى مراحل حياته:

«وكان أول مَنْ عرفت من هؤلاء إبراهيم السروجى، وهو شبه أسطورة من أساطير زماننا، وقلما يتكرر فى عالمنا، فهو إنسان لم يتعلم فى مدرسة، كما أنه من أسرة تعمل فى صناعة السروج، وقد نشأ على حرفة الأسرة، ولكنه استطاع أن يعلم نفسه، ووصل فى ذلك إلى حد قراءة الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والأدب والنقد، وكان يرى بالنهار جالسا بجلباب أمام «محله» يصنع السروج ويتعامل مع الصنّاع وسائقى العربات وراكبى الدواب، ثم يرى فى المساء وقد ارتدى حلة أنيقة سوداء، وخالط طائفة من المثقفين، أو برز بين مجموعة من المتعلمين يحاورهم وكثيرا ما يفحمهم.. ثم عرفت بعد السروجى مرسى جميل عزيز، الذى اكتفى بإتمام الدراسة الثانوية المدنية، وتفرغ للأدب والفن.. وكان هذان الصديقان النواة الأولى لتلك المجموعة الأدبية النابهة التى سوف يتم تكوينها وجمع شملها فى مرحلة تالية، ويكون من أبرز أعضائها الأديب إبراهيم الترزى، والشاعر محمد العلائى،

والشاعر إبراهيم شاهين، والشاعر أحمد مخيمر، والشاعر صلاح عبد الصبور، الذى كان أكثرهم تجديدا، والذى سمى هذه المجموعة فى بعض كتاباته باسم «أصدقاء الضحك القديم».

□

ويشير إلى فضل أحد زملائه فى تعريفه بصالون الأستاذ الكبير عباس العقاد:

«ففى هذه المرحلة عرفت «صالون العقاد» ويرجع الفضل فى هذا إلى زميل لى من الزقازيق لحق بى فى دار العلوم، وهو الصديق محيى الدين الحلوانى، الذى كان أكثر منى جرأة وأقوى بطبيعته على المغامرة».

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ أنيس منصور فى كتابه «فى صالون العقاد» نشر صورة للعقاد وحوارييه وكان من بينهم الدكتور هيكل، ولست أستطيع أن أفوت هذه الفرصة لأذكر بالفخر أن الصورة التى تزين مكتبتى تجمعنى بالأستاذ توفيق الحكيم والدكتور هيكل الذى كان يحظى بحب توفيق الحكيم وتقديره عند زيارته له.

ويشير الدكتور هيكل إلى فضل هذا الزميل نفسه «الأستاذ محيى الدين الحلوانى» فى اشتراكه فى المناظرات:

«ولا يفوتنى أن أذكر أن الفضل فى تنظيم هذه المناظرات يرجع إلى الصديق محيى الدين الحلوانى، الذى كان يتحمس لها ويدفعنى إلى المشاركة فيها، ويبذل أقصى الجهد لإنجاحها والإعلان عنها».

□

ويشير الدكتور أحمد هيكل باعتـزاز إلى معرفته بجماعة أدباء العروبة وشعرائها:

«وفى تلك المرحلة أيضا عرفت جماعة أدباء العروبة، وكنت قريبا ـ إلى حد مـا ـ من رئيسها حـينذاك الأستاذ دسـوقى أباظة، حيث توثقت صداقتى بابنه العزيز ثروت، وحيث عرفت فى مجلسه عددا من الشعراء الموهوبين، مثل: أحمد الغزالى، والعوضى الوكـيل، وأحمد مخيمر، وطاهر أبو فاشا».

ومن الجدير بالذكر أن الدكتـور هيكل كان قد بدأ خطوات جدية فى سـبـيل العـمل فى سكرتارية الوزير إبـراهيم الدسـوقى أباظة فى وزارة المواصلات فيما بين تخرجه وتعيينه معيدا فى كلية دار العلوم.

□

ويشير الدكتور هيكل إلى فضل صديقيـه المغفور لهما فوزى العنتيل وإبراهيم الترزى فى مساعدته على الانضـمام للوسط الأدبى ونشر شعره وإنتاجه بعد عودته من البعثة:

«ولا أنسى مساندة صديقى الشاعر فوزى العنتيل الذى يسّر لى نشر ما أنشـره من شعـر، كمـا لا أنسى مـؤازرة صديقى إبراهيم التـرزى الذي أحسن استقبالى عند عودتى من البعثة، ووضع بين يدى معظم المجلات الأدبية وأهـم الكتب النقدية التى ظهـرت فى أثناء غيـابى، فاسـتطعت بسرعة أن ألم بالمناخ الأدبى، وأعايش القـضايا التى كانت مطروحة فى المحيط الثقافى».

□

وهو يشير أيضا إلى فضل الأستاذ فاروق شوشة فى فتح طريق الإذاعة أمامه:

«ويرجع الفضل فى فتح الطريق أمامى ـ خاصة البرنامج الثانى ـ إلى الأخ الشاعر فاروق شوشة، ابن دار العلوم الذى شق طريقه بالإذاعة بنجاح وتألق».

□

كذلك يشير الدكتور إلى فضل درعمى آخر هو الأستاذ مصطفى نظيم فى فتح باب «التليفزيون» أمامه:

«ويرجع الفضل فى فتح طريق التليفزيون أمامى إلى الأخ مصطفى نظيم، أحد أبناء دار العلوم، وأحد أوائل الذين عملوا فى الإخراج بهذا الجهاز الإعلامى الجديد آنذاك».

(٢٩)

ولا يكف الدكتور هيكل عن الإشادة بأساتذته فى مراحل التعليم المختلفة وتقديرهم، وهو يشير إلى فضل أساتذته على نحو مقدر لميزاتهم الشخصية التى تميز بها كل واحد منهم:

«وأعرف فى هذه المدرسة مدرسين نالوا منى الإعجاب وظلت أسماؤهم محفورة فى ذاكرتى إلى اليوم، ومن هؤلاء سعد أفندى خليل، وعبدالله أفندى المسلمى، ومحمد أفندى ريان، والشيخ عبد الوهاب الغندور ناظر المدرسة. أما سعد أفندى فكان يهتم كثيرا بشئون التلاميذ

ومستقبلهم، فلا يكتفى بتعليمهم وإنما يشجعهم على مواصلة الدراسة فى مراحل تالية، وأذكر أنه هو الذى كتب لى «استمارة» التقدم إلى المدرسة «التحضيرية» التى كانت تُعِدّ للالتحاق بمدرسة المعلمين. . وأما عبدالله أفندى فكان شابا مهذبا أنيقا عطوفا يتعطر بنوع متميز من الطيب. . وأما محمد أفندى فقد لفت نظرى فيه أنه بدأ عمله فى المدرسة شيخا معمما، ثم جاء ذات يوم «أفنديا مطربشا»، وكان كثير الدعابة محبوبا، رغم ما كان يضايقنا منه من كثرة التدخين. . وأما الشيخ الغندور فكان شيخا حازما وطيبا ومصقولا، وكان ابنه أحمد الغندور يسبقنا فى سنوات الدراسة، كما كان يكبرنا ببضع سنوات، ولكنه كان صديقا لنا، لذا دعانا ذات يوم لزيارته فى قرية «شيبة» على مشارف الزقازيق، حيث احتفى بنا والده حضرة الناظر وأكرمنا، لأننا تلاميذه وضيوف ولده».

□

وهو يتحدث بإعجاب عن أول أيامه فى دار العلوم وسعادته بأستاذ جامعى قدير هو الأستاذ محمد هاشم عطية:

«وتلقينا محاضرة فى الأدب الجاهلى كان ملقيها هو الأستاذ محمد هاشم عطية، الذى بهرنا ببيانه الأخاذ، و علمه الغزير، وسمته الجذاب، وسخريته اللاذعة، ودعاباته البارعة. ولفت نظرنا أن عددا كبيرا من الطلاب غير الجدد قد شاركنا حضور المحاضرة، وعرفنا بعد ذلك أن لهذا الأستاذ لونا من الجاذبية، يجعل كثيرين من الطلاب يحضرون محاضراته بصفة غير رسمية».

ومما يجدر ذكره هنا أن الأستاذ القدير يحظى بثناء متصل فى كل الأدبيات التى كتبت عن هذه الفترة، بل إن أستاذاً كبيراً كالأستاذ الدكتور الشيخ محمد نايل لا يزال يذكر بالخير مناقشته له فى الدكتوراه.

كما يتحدث الدكتور هيكل عن الدراسات الجديدة والعلوم المتميزة التى أثارت حبه واهتمامه فى أثناء دراسته فى كلية دار العلوم:

«وأعجبت أشد الإعجاب بالنقد الأدبى والأدب المقارن، وبأستاذهما الدكتور إبراهيم سلامة. كما أعجبت كثيرا بالدراسات اللغوية الحديثة التى اهتم بها الدكتور إبراهيم أنيس.. كذلك استضأت كثيرا بالتجديدات النحوية الذكية التى طرحها الأستاذ إبراهيم مصطفى، الذى ربحته الكلية منقولا إليها من آداب الإسكندرية. واستضأت كذلك بالنظرات المستنيرة التى كانت للشيخ على حسب الله أستاذ الشريعة الإسلامية».

(٣٠)

وهو يذكر أستاذه العميد الدكتور إبراهيم سلامة بقدر وافر من التقدير لعلمه وعطفه وجديته، مشيرا إلى تشجيعه البالغ له فى أول أيام عمله كمعيد:

«... تحولت من طالب فى المعهد [يقصد معهد التربية العام للمعلمين] أجلس بين الطلاب لأستمع إلى محاضرات فى التربية وعلم النفس وطرق التدريس، إلى محاضر فى كلية دار العلوم، أجلس على المنصة - كالأساتذة - ألقى على الطلاب محاضرات فى البلاغة

والنقد.. فقد اجتهد الدكتور إبراهيم سلامة لكى أكون معيدا بالقسم الذى يرأسه، وتفضل بتقديمى إلى الطلاب فى مدرج على مبارك تقديما طوّق به عنقى، وكان مما قال وأنا أقف إلى جانب كرسيه: «إننى أنتظر هذا اليوم الذى تزول فيه هذه المسافة القصيرة بين مقعدى هذا وبين ابنى أحمد، لأراه يجلس مكانى ويخلفنى فى أستاذيتى».. وصفق الطلاب وفرحوا بما سمعوا، وعاونونى كثيرا فيما بعد على النجاح فى عملى».

....

«كنت أستحى أن أجلس فى الحجرات التى تضم أعضاء هيئة التدريس، وكنت غالبا أجلس فى المكتبة، حتى لا أحرج نفسى وأحرج غيرى بالجلوس حيث يجلس أساتذتى.. وأذكر أن العميد الأستاذ إبراهيم مصطفى طلبنى لبعض الأمور فلم يجدنى، وحين تكرر ذلك سألنى عن المكان الذى أختاره لأوقات راحتى، ولما أخبرته بأنى أوثر المكتبة لأبتعد عن مواطن الإحراج فى غرف هيئة التدريس، قال لى مشجعا: «بل اجلس فى حجرة الأساتذة لتتعود عليهم وتفيد منهم، وأمامك فى تلك الحجرة مكتب لى استعمله بدلا منى».

□

كذلك يشير الدكتور هيكل إلى فضل أستاذه «جارثيا جومث» عميد المستشرقين الأسبان عليه:

«ولا أنسى ذكريات هذه الأيام ما سعدت به من تكريم أستاذى «جارثيا جومث» عميد المدرسة الاستشراقية المحافظة، الذى عرفنى منذ

سنوات طوال دراستى للدكتوراه أدرس تحت إشرافه، ثم استقبلنى بعد ثمانية عشر عاما مديرا لمعهد مدريد ومستشارا ثقافيا للسفارة، وكان دائم الحفاوة بى والفرح لما وصلت إليه.. وكان من نتائج تقديره الذى أعتز به أن عمل على ترشيحى لعضوية «الأكاديمية الأسبانية الملكية للتاريخ»، وقد كلل هذا الترشيح بالنجاح فيما بعد، فأصحت عضوا فى هذه الأكاديمية بناء على جهود هذا الأستاذ الوفى الجليل».

(٣١)

وبحس السياسى الذى عرف قيمة القرارات المصيرية فى تحديد كيانات الكليات الجامعية يشير الدكتور هيكل إلى فضل الدكتور السنهورى فى ضم كلية دار العلوم للجامعة المصرية ويقول:

«.. وأذكر أن ضم دار العلوم إلى الجامعة قد تم سنة ١٩٤٦، ووزير المعارف هو الدكتور السنهورى، وأذكر كذلك أن عميد الكلية حينذاك كان الأستاذ زكى المهندس، وأنه اصطحب وفدا من بعض الأساتذة والطلاب لشكر الوزير الذى كان له جهد مشكور فى هذه النقلة العظيمة لكليتنا العزيزة. وأذكر أيضا أنى كنت ضمن هذا الوفد الذى اختاره الأستاذ العميد للقاء الوزير وأنى ألقيت فى أثناء هذا اللقاء أبياتا من الشعر، عبرت فيها عن الشكر الجزيل للوزير الجليل».

(٣٢)

لا ينبغى لنا أن ننتهى من الحديث عن هذه المذكرات دون أن نشير إلى ما تمتع به الدكتور هيكل من رقى اللفظ والأسلوب، وجمال العبارة، ودقة الوصف.

وأحب فى هذا الصدد أن أذكر بالثناء براعته وتمكنه من أصول الكتابة، وقدرته على شحن عباراته بالمعانى التى يريدها وهو ما يتجلى بصورة واضحة فى كثير من فقرات المذكرات، وأضرب على هذا مثلا بثانى فقرة من فقراتها:

«وأول ما أذكر من صور طفولتى المبكرة، أنى كنت أسير وقد أمسك والدى بيدى ونحن نعود من المسجد صباحا، بعد صلاة أرجح أنها كانت صلاة عيد، وسبب هذا الترجيح أننى مازلت أذكر هيئة الناس من حولى وقد لبسوا ملابس جديدة، وأذكر كذلك أن أحد الذين صافحوا والدى قد أنهضنى حين تعثرت فى مشيتى ووقعت على الأرض، ثم وضع فى يدى بعض النقود لا أذكر مقدارها الآن، ويغلب على ظنى أنها كانت قروشا، منحنى الرجل إياها، كما يفعل الأصدقاء مع أبناء الأصدقاء فيما يسمى «عيدية». . وقد عدت إلى البيت مبتهجا، وإن كنت بسبب العثرة قد استشعرت ألما لفترة. . ومازالت تلك الصورة أقدم ما رسب فى ذاكرتى من ذكريات الطفولة. . وهى صورة تجمع بين نفحة المسجد ورعاية الوالد ومودة الصديق، وألم العثرة، وفرحة العيد. . ومع الأيام أرى هذه الصورة تقفز كثيرا إلى ذاكرتى، وكأنها تريد أن تؤكد لى أن النشأة السوية تبدأ بالتدين، وأن التربية الصحيحة تعتمد أولا على الأسرة، وأن العلاقات الاجتماعية أساسها التعاطف والمودة، وأن الحياة فى مسيرتها قسمة بين الكبوات والنهضات. . وبين المواجع والمباهج».

□

كذلك لابـد لنا من أن نشيـر إلى قدرة الدكتـور هيكل الشاعـر على الوصف الجميـل المبين، ونأخـذ على هذا نموذجـا ما يصف به منظر السيدات الأوروبيات فى مرسـيليا حين رآهن فى أول يوم وصل فيه إلى أوروبا:

«ولفتت نظرى بشـدة، تلك الألوان الواضحـة المتعـددة الزاهية التى تظهر بـها ملابس الناس وخـاصة النسـاء، وقد كن يضـعن غالبـا فوق الملابس مـعاطف «بلاستـيكية» شفـافة لإتقاء المطر، فـكن يخيلن لى كأنهن عرائس ملفوفة بورق «السلوفان».

□

ولا تخلو الأوصاف العابرة التى تحفل بها عبارات الدكتور هيكل من إيماءات طريفة، ولنأخذ على هذا مثلا بما يرويه عن عاملة الفندق الذى قدر له أن يعيش فيه فى مدريد:

«وفى الفندق سكن كل منا فى حجرة بها كل وسائل الراحة، وكانت تقوم على خدمة الحـجرات فتاة أسبانية مـهذبة تصلح لأن تكون إحدى بطلات السينـما، وقد سـاعدتنا هذه الفتـاة كثيـرا فى أيامنا الأولى على تعلم بعض الكلمـات والتعبـيرات التى نحتـاج إليهـا فى الضرورى من المعاملات».

□

وبالإضـافة إلى هذا كله تتـجلى قدرة صـاحب هذه المذكـرات فى وصفـه الدقيق بل العلمى للأمـراض التى أصيب بها أخـوته من الذاكرة مضافا إليها ما حصله من ثقافة علمية تالية:

«ثم ولد المـولود السادس، الذى مـات رضيعـا بسبب مـرض أظنه «الدفتريا»، لأنى مازلت أذكره فى حـجر أمِى وهو يختنق، وهى تحاول إنقاذه بالدعـاء بعد أن عجز المـستطاع من الدواء.. وبعد فـترة ولد أخ كان السابع فى الترتيب، ومات كذلك رضيعا بعد أن أصابه ما أظنه كان التهابا رئويا، لأنى مازلت أذكر صوت صدره وهو يتنفس وكأنه يتمزق، كمـا أذكر صورته وهو يسـعل فيحـتقن وجهـه البرىء الأبيض فيـصبح كقطعة من اللحم الأحمر».

الباب الثانى

رحلة مع الأيام
مذكرات الدكتور على الحديدى

(١)

هذه مذكرات جميلة كتبها أستاذ بارز من أساتذة الأدب العربى درس فى بريطانيا، ونال الدكتوراه من جامعة لندن، وعمل فى عدد من البلاد العربية، فضلاً عن أستراليا، ولهذا فإنه رزق رحابة فى الفكر، وسعة فى الأفق جعلته يجيد انتقاء الحديث عما مرّ به من تجارب فى مطلع حياته، وهو يتحدث عن هذه التجارب بسلاسة رائعة، وشغف، وحب، وكأنه يكتشف ذاته مرة أخرى، وهو يأخذ بيد قارئه ليطالع ما كان غريبا فى أمر حياته الأولى وما لم يكن متوقعا، وإن كان طبيعيا، وهو يحاول الاعتراف بأنه لم يكن ذكيا، ولم يكن مجتهدا، مع أن اجتهاده وذكاءه واضحان فى حديثه، لكنه شأنه شأن أبناء جيله كان على الدوام أميل إلى التواضع منه إلى الغرور والاعتزاز أو الاعتداد بالنفس، أو الظن المبكر بأنه عبقرى أو ألمعى.

يريد الدكتور على الحديدى فى مذكراته أن يقدم نفسه على أنه رجل عادى، فتأبى حياته أن تستجيب لهذا التصوير، ولهذا فإنه سرعان ما يصل إلى محطات مهمة فى حياته يصور من خلالها إرادة قوية، وزعامة ذات شأن، وقدرة على تغيير مسار الأمور إلى نحو لم يتوقعه غيره.

وهو فى حديثه إلى قرائه عبر المذكرات قادر على أن يشدهم إلى تجربته شدا عميقا على الرغم مما يتظاهر به من بساطة التجربة

وسهولتها، وربما أن هذه القدرة لم تأت إلا من تفعيل لقدرة فكرية على التأمل، وعلى إعادة التأمل من أجل الوصول إلى الحقيقة التى يكتشفها المرء بعد طول عمر، وبعد طول معاناة.

ومن حسن الحظ أن الدكتور على الحديدى لا يبخل علينا بحديث وافٍ عن حياته الأولى، وكأنما هو حريص على أن يدلنا على عناصر التكوين الغالبة على شخصيته، بيد أنه يجد هذا الحديث غير كاف لتصوير الصراع العقلى الذى كان يسيطر على وجدانه وشخصيته فإذا هو حفى بأن يأخذ بأيدينا إلى مناطق هذا الصراع الفكرى ما بين إقدام وتردد، وما بين رأى ورأى آخر، وما بين رغبة وخبرة، وما بين تطلعات الذات ونصائح الآخرين، وإذا هو فى نهاية الأمر سعيد بكل قرار اتخذه بعد كل صراع من هذه الصراعات التى حسمت محطات حياته المتعاقبة فى الوظيفة، والدراسة، والبعثة، والعمل، والإعارة، والزواج. . وما إلى ذلك كله من قرارات مصيرية يظن الإنسان أنه كان صاحب يد طولى فى تقرير مصيرها، ثم يظن فى مرحلة تالية أن الأقدار هى التى دفعته إلى هذا الاختيار، ثم يظن فى مرحلة ثالثة أن القرار لم يكن إلا حصيلة لتفاعل الاختيار مع الأقدار، ثم إذا هو ينتهى بعد هذا كله إلى ما انتهى إليه الدكتور على الحديدى من أن يروى الوقائع كما حدثت، وكأنه لا يعدو فى نهاية الأمر أن يكون متعجبا من قدرة الله سبحانه وتعالى على تصريفه أمور العباد وقلوبهم.

على هذا النحو نطالع مذكرات كتبت بلغة عربية تأثرت إلى حد كبير بمعرفة صاحبها باللغة الإنجليزية، فإذا نحن نرى جملا طويلة بعض

الشيء، وإذا نحن نرى بعض الأساليب الإنجليزية فى التعبير، وفى بناء الجملة أيضا، لكننا لا نحس إلا أننا مع نص عربى واضح الدلالة، قادر على التحفظ والتحرز فى المواضع التى لابد له فيها من التحفظ والتحرز على نحو أو آخر.

(٢)

لعل أهم التجارب الباكرة فى حياة الدكتور على الحديدى تجربته فى قيادة الطلبة الوفديين ضد رغبة شيخ الأزهر المنحى عن منصبه، الذى هو الشيخ الأكبر والأشهر محمد مصطفى المراغى، ونحن نقرأ وصف الدكتور الحديدى لهذه القصة على نحو ما حدثت فنأسف لأن تصل السياسة إلى هذه الحدود من الحرص على عقاب طالب مثله بمثل هذا العقاب الأليم، ولكننا نفاجأ فى نهاية القصة بأن الشيخ المراغى نفسه هو الذى أعاد قبول هذا الطالب [الذى هو صاحب المذكرات] فى معهد الإسكندرية الدينى، ونفاجأ بأن صاحب المذكرات قد استعاد حقه كاملا ونجح فى ذلك العام ووصل إلى ما وصل إليه زملاؤه من نوال الشهادة الثانوية، ونرى فى غضون القصة التى يرويها الدكتور الحديدى مواقف رائعة لعلماء أجلاء من أمثال الشيخ عبد العزيز عيسى، والشيخ محمد المدنى، والشيخ أبو العيون، بل الشيخ المراغى نفسه:

«فى الفرقة الرابعة الثانوية [تبعا للتاريخ الدراسى للدكتور الحديدى تناظر هذه السنة العام الدراسى ٤٣/ ١٩٤٤، وكانت حكومة النحاس باشا قائمة بالحكم منذ ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ١٠ أكتوبر ١٩٤٤] كانت أزمة الأزهر وعلى رأسه فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى، ولم

يكن هناك تفاهم بين شيخ الأزهر وحكومة الوفد، وكما عرف طلاب المعهد [فى ذلك الوقت فقط] فإن الأزهر كانت له مطالب قدمها طلاب الكليات للحكومة، ولكن حكومة الوفد آنذاك نصحت الطلاب بأن يتقدم بمطالبهم شيخ الأزهر، وكان الشيخ المراغى من أنصار حكومة السعديين والأحرار الدستوريين، ولم يقبل أن يتقدم بمطالب الأزهر لحكومة الوفد وهى «غير صديقة» كما قال لوفد من الطلاب، وعلى إثر هذه الأزمة اعتزل الشيخ المراغى فى منزله وتقدم باستقالته إلى الملك، ولم يقبل الملك استقالته وعينت الحكومة الشيخ مأمون الشناوى قائما بعمل شيخ الأزهر، وانقسم الطلاب قسمين: قسم يؤيد الشيخ المراغى وأكثرهم من الوجه القبلى، ولتنتظر مطالب الأزهر حتى تأتى حكومة صديقة لشيخه المراغى فتستجيب لمطالبه، مع أن الحكومة السابقة لحكومة الوفد كانت له صديقة، ومع ذلك لم يتقدم بالمطالب زاعما أنه لا يريد إحراج حكومة صديقة بهذه المطالب، وفكر العاقلون من الطلاب وعرفوا أن الشيخ المراغى لن يتقدم بمطالب الأزهر لا فى حكومة صديقة ولا فى حكومة غير صديقة، والقسم الآخر من الطلاب انضموا إلى الشيخ الشناوى، الذى تقدم فعلا بمطالب الأزهر وأبدت الحكومة الوفدية استعدادها لتفهم هذه المطالب وتدرس الاستجابة لها».

هكذا يصل الدكتور على الحديدى إلى تبسيط شديد لموقف الشيخ المراغى يودى بكل قيمة لموقفه.

□

ثم يشير الدكتور الحديدى إلى الموقف الذى اتخذه بالانضمام إلى جبهة الشيخ مأمون الشناوى، ويصل فى حديثه عن موقفه إلى أن يقول: إنه، هو نفسه، كون حزبا وفديا برئاسة الشيخ نوار:

«وانضم طالبنا إلى حزب الشيخ مأمون الشناوى، وكان مؤيدا من الحكومة الوفدية، ووجد فى هذا الحزب الشيخ عبد العزيز عيسى مدرسه الأثير للبلاغة فى العام المنصرم، والشيخ محمد المدنى الأستاذ بكلية الشريعة، والشيخ عبد الفتاح بدوى بكلية اللغة العربية، والشيخ سليمان نوار شيخ معهد القاهرة، وجمع طالبنا فريقا من طلاب معهد القاهرة وكون منهم حزبا وفديا برئاسة الشيخ نوار، وكان معروفا بشدته وانضباطه حتى كان يهابه الأساتذة والطلبة».

(٣)

ويقفز الدكتور الحديدى إلى الحديث عن تطلعات هذا الحزب (الذى كونه) إلى الاتصال بالمدارس المدنية، أو إلى الاندماج بين المدارس المدنية والمعاهد الأزهرية، وربما نعجب من أن تكون هذه التوجهات قد سيطرت فى هذه المرحلة المبكرة على فكر هؤلاء الشباب:

«وبدا لهذا الحزب من معهد القاهرة أن يقارب بين المعاهد الأزهرية والمدارس المدنية شيئا فشيئا حتى تذوب الفوارق وتلغى ثنائية التعليم التى نادى بإلغائها من قبل طه حسين، أو بمعنى آخر تحديث الأزهر بدءا بالمعاهد، ووجد هذا الحزب أن هذا الأمل لن يتحقق إلا بقيادة طه حسين، إذا عين مديرا للمعاهد فيحدّث مناهجها وطرق التدريس بها».

ويروى الدكتور على الحديدى قصة لقائه هو وزملائه بطه حسين بعد موافقة الشيخ نوار على هذه الخطوة:

«واستنار الطلاب برأى الشيخ نوار شيخ المعهد فـ افق على هذا الاتجاه، وذهب وفد منهم لمقابلة طه حسين ليستشيروه فى أمر طموحاتهم، فوافق عليها مبدئيا وشكر الطلاب على ثقتهم به، وأبدى شعوره بالكراهية لثنائية السياسة التعليمية التى يساندها أنصار «البيداجوجيا» فى وزارة المعارف، وكم كانت فرحة الطلاب بنجاح وفادتهم لطه حسين شديدة، لكنها فرحة لم تتم».

ربما كان من حق القارئ علينا أن نتوقف هنيهة لنشير إلى أن تعبير «أنصار البيداجوجيا» الذى ورد ضمن عبارات الدكتور الحديدى كان يستخدم للتعبير عن رواد التربية الذين كان إسماعيل القبانى رائدهم، والكلمة فى مقابلها العربى تعنى التربية.

ويشير الدكتور على الحديدى، بعد هذا، إلى ما حدث من تغير الظروف، ونحن نلاحظ قبل قراءة ما كتبه أن الوزارة تغيرت مع مطلع العام الدراسى ١٩٤٥/٤٤ وهو العام الذى أصبح الدكتور الحديدى فيه فى السنة الخامسة الثانوية.

وهو يصف ما حدث فيقول:

«فلم تلبث السراى حتى أقالت حكومة الوفد وسلمت قيادة الأمة لحزب السعديين برئاسة أحمد ماهر، والأحرار الدستوريين بقيادة محمد حسين هيكل، وبدأت الحكومة الجديدة فى استعمال سياسة التخويف

والإرهاب مع أتباع الوفد فى كل المجالات، وأيقن طالبنا أن الإرهاب سيناله حين تنتظم الدراسة، فامتنع عن الذهاب إلى المعهد وتغيب عن الدراسة، وقرأ فى الصحف أن الشيخ المراغى حين عاد نكل أنصاره بالمشايخ الذين كانوا ضده فى سياسته فنقلوهم إلى أماكن بعيدة ليشتت شملهم وشمل أسرهم، وخفضت درجاتهم العلمية التدريسية فنقلوا إلى التعليم الابتدائى، وآثر الشيخ نوار أن يستقيل من عمله بالأزهر قبل أن يناله ضيم على أيدى الشيخ المراغى».

(٤)

ويروى الدكتور على الحديدى الموقف النبيل الذى ساعده به أستاذه الشيخ بدوى [وكان من أبناء قريته] ومحاولته إنقاذه من عسف الشيخ محمد مصطفى المراغى أو عسف أنصاره بعبارة أدق:

«كان الشيخ عبد الفتاح بدوى على قمة الثائرين ضد الشيخ المراغى، وهو معروف بجرأته وثوريته، وكثيرا ما كان يدخل على الشيخ المراغى بعد عودته للمشيخة ويناقشه فى أمر زملائه الذين نكل بهم أنصاره وشتتوا شمل أسرهم، ونزلوا بدرجاتهم الوظيفية، وكان يسوق الأحاديث النبوية التى تعلى من قدر الذين قدروا فعفوا وصفحوا، وعلم الشيخ بدوى ـ وكان من قرية الصبى ـ أنه متغيب عن الدراسة خوفا من تربص الطلاب المؤيدين للشيخ المراغى به وانتقامهم منه جزاء ما كان يفعله فريقه بالطلاب المؤيدين للشيخ المراغى فى العام الدراسى الماضى، وأوفد الشيخ بدوى مَنْ يأتى بطالبنا إليه وناقشه فى الذهاب معه إلى لقاء الشيخ المراغى ليعلنه بأن الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية، وإذا

كانـت هناك تجاوزات من زمـلائه فليعف وليـصفح وأجـره على الله.
حاول طالبـنا الاعتذار، لكن الشـيخ عبـد الفتاح أصـر على أن يذهب
معه».

□

وعند هذا الحد يستطرد الدكتور على الحـديدى ليروى تفاصيل واقعة
ذهابه للشيخ المراغى فى منزله فى حلوان للاعتذار، وهى المحاولة التى
باءت بالفشل:

«. . . ولم تفد حكاية تجربة طالبنا معه حين ذهب إلى حلوان حيث
يسكن الشيخ المـراغى واستقبـله فانعقد لسـانه من هيبته وأضـاع وقاره
الكلمات التى أعدها للقائه [هكذا يعتـرف الدكتور الحديدى فى إنصاف
بمدى ما كـان للشيخ المراغى من هيبة ووقار]، وحـين سأله الشيخ عن
اسمه وعـرفه، أنهى إليه أنه قـد صدر قرار من مدير المـعاهد الأزهرية
بفصـله من جمـيع المعـاهد فى الدولة. ولـم تزد تجربة حلوان الشـيخ
بدوى إلا إصرارا على لقـاء الشيخ المراغى، ولـم يجد صـاحبنا بدا من
الاستجابة لوساطته».

□

ثم يروى الدكتور الحديدى قصة «المعركة» التى صادفها عند خروجه
من مكتب الشيخ المراغى فى صحبة أستاذه الشيخ عبد الفتاح بدوى وما
تعـرض له فى هذه المـعـركـة من أذى بدنـى شديـد تلقـاه على أيدى
مجموعة من زملائه من الحزب المناهض:

«وذهبا إلى مشيخة الأزهر بحى الحسين، وجلسا فى انتظار الإذن لهما بمقابلة الشيخ المراغى، ولما طال بهما الانتظار بدأ الشيخ بدوى يثور ويعلو صوته ليسمعه الشيخ حيث هو، وأخيرا جاء الاعتذار بأن الشيخ طُلب من رئيس مجلس الوزراء لأمر عاجل فنزل على عجل وخرج الشيخ عبد الفتاح يرغى ويزبد، وإذا بفريق من طلاب المعهد ينتظرون على باب مبنى المشيخة ووجوههم مكفهرة لا تنطق بخير. همس طالبنا للشيخ عبد الفتاح بأن معركة ستبدأ قريبا ويخشى عليه أن يناله سوء وهو الشيخ الجليل، أما هو فمازال طالبا، ولو ناله أذى فسريعا ما ينسى، وتكأكأ الطلاب على صاحبنا وانهالوا عليه ضربا ولكما، وجاءت صفعة على أذنه اليسرى، وكأن شرر النار خرج من عينه اليسرى، وظل يعانى آثارها فترة طويلة، واستطاع طالبنا الفرار وظل يجرى والطلاب يلاحقونه ثم توقفوا حين دخل شارع الغورية واختفى بين المحال التجارية، وفى المساء اتصل بالشيخ يستفسره عما فعل مع الطلاب بعد هربه، وعرف أن المعركة انتهت بمجرد فراره، واعتذر الطلاب للشيخ بدوى، إذ كانوا لا يريدون إلا الانتقام من زميلهم المحتجب عنهم من بداية العام الدراسى».

(٥)

ويستأنف الدكتور على الحديدى رواية ملامح محنته مع زملائه فى المعهد الدينى فى ظل عودة الشيخ المراغى لتولى مشيخة الأزهر ومحاولة أنصاره الانتقام له من الجبهة المعادية فيقول:

«بدأ العام الدراسى بالمعهد بوجه غير الوجه الذى تركه طالبنا بالأمس القريب، فقد تغيرت الوجوه، وجاء المعهد مدرسون جدد بدلا من الأساتذة الذين نقلوا إلى معاهد بعيدة، واختفى الشيخ سليمان نوار شيخ المعهد السابق، واختفى معه النظام والانتظام، فقد قدم استقالته من هيئة التدريس بالأزهر واستقر ببلده واشتغل بفلاحة أرضه، وامتلأ المعهد بالمشايخ «المراغيين» يجوسون خلاله منتفخة أوداجهم، وكأنهم عادوا وقد أجيبت مطالبهم!! وقرر طالبنا الظهور وعدم التمادى فى الغياب وسأل نفسه: هل سيظل مختبأ حتى تنتهى الدراسة ويضيع عليه عام دراسى وهو عام الشهادة الثانوية بالأزهر؟ فليذهب إلى الدراسة بالمعهد ويفعل الله ما يشاء، وذهب فى اليوم التالى إلى المعهد وكأنه يقول للطلاب: إنه كان متغيبا وليس مختبئا، ولم ترهبه معركة الأمس أمام مبنى مشيخة الأزهر، فالكثرة تغلب الشجاعة، والأيام سجال».

□

ثم يروى الدكتور الحديدى ما حدث فى أول أيام انتظامه فى الدراسة، وكيف اقتيد بواسطة «البوليس السرى» فى هدوء إلى النيابة العامة حيث أنهى إليه قرار الدولة فى شأنه:

«وحدث بالمعهد هرج ومرج حين ظهر طالبنا فى فصل الدراسة، وتكاثر المشايخ والطلاب على باب الفصل الذى يجلس فيه ليعرفوا مَنْ قامت معركة الأمس بمشيخة الأزهر بسببه، وكثيرون من المشايخ الجدد لم يكونوا يعرفونه من قبل، ودخل الملاحظ الذى يحصى الغياب ووضع كرسيا أمام مقعده فى الصف الأول حيث يجلس، وذلك تعريفا

به لمن لم يعرفه، وحين انتهى اليـوم الدراسى خرج شأن زملائه، وسار فى حوش المعهد وكان الطلاب يفرون من أمامه وكأنه سيصيبهم بأذى. حين خـرج من باب المعهـد وجد اثنين من رجال البـوليس السرى فى انتظاره، وأسرّا له بأنه مطلوب فقط لسؤاله فى قسم الدرب الأحمر ولن يصيبه أذى، وركبا به «حنطورا» (وهو العربة التى يجرها جوادان) وذهبا به إلى القسم التابع له المعهد، ووضعـاه فى «التخشيبة» فى انتظار وكيل النائب العـام، وحين جـاء النائب لم يزد فى سـؤاله عن أحداث العـام الماضـى وهل كان ضالـعا فيـها، لم ينف طالـبنا التهـمة وقال لـوكيل النيابة: كل مواطن يتمـتع بالحرية السياسية فيـختار الحزب الذى يوافق أفكاره، ولو أنكم قبضتم على مناصرى حـزب الوفد لقبضتم على ٩٠٪ من سكان مصـر، وحين سأله عن التـهم الأخرى ونفاها عن نفســه قال له: إنه محدد إقامته فى قريته، وسيرحل ليلا إلى المركز التابع له القرية ليتسلمه رجال الإدارة فيها».

□

ويستعيد الدكتور الحديدى انطباعه تجاه هذا القرار، وهو انطباع متزن إلى حد بعيد، وسواء كان الدكتور الحـديدى كتبه من وحى مشاعره فى تلك اللحظة، أو من وحى مـشاعره اللاحقـة، فهو يدلنا بتـفكيره الذى راوده على نفسٍ سوية متزنة:

«وعلى الرغم من الفـزع الذى تملك طالبنا من موضـوع الفصل من معاهد القطر، فقد هدأت نفسه بموضـوع تحديد الإقامة فى قريته، فقد كان يخـشى أن يوضع فى السجن مع الأشـرار والمجرمـين واللصوص

حتى تحدد جلسة المحاكمة، لكنهم عاملوه سجينا سياسيا ينال قدرا من التكريم، وكل السجناء السياسيين فى ذلك الوقت يكرمون فى كل العهود، فالبوليس يعلم أن الزمن دوار وسيأتى الوفديون إلى الحكم وحينئذ يكون حساب مَنْ أغلظ فى معاملة السجناء الوفديين السياسيين عسيرا، ثم أنهى وكيل النائب العام إليه أنه سيسافر به أحد رجال البوليس، وأنه سجين سياسى، وسيعامل بهذه الصفة حتى يفرج عنه، وسمح له بالاتصال تليفونيا بمن يشاء ليخبرهم بأمره ومكانه، وفعلا اتصل طالبنا بأخيه عن طريق بقال بجوار المسكن وأخبره بما حدث، وهرع إليه أخوه بالطعام والماء، ورُحِّل ليلا، وحين وصل إلى مركز البوليس التابع له القرية وجد الخبر قد سبقه، ووجد مأمور المركز قد أعد له حجرة معاون النيابة ليقيم فيها حتى يأتى مَنْ يتسلمه من رجال الإدارة فى بلده، وفعلا جاء والد طالبنا، وهو من رجال الإدارة، إذ هو شيخ للقرية، وتسلم ابنه السجين رسميا».

(٦)

ويحاول الدكتور على الحديدى أن يصور اللحظات الدرامية فى عودته إلى قريته مصحوبا بهذا المصير المؤسف، وهو يحار فى تصوير مشاعر أهل قريته، وإن كان فى المقابل يجيد تصوير تباين قرارات الأسرة فى مواجهة هذا الحادث الجلل:

«وفى القرية وجد جموعا من البشر تنتظر السجين، ولا يدرى هل جاءوا ليهنئوه بالسلامة أم ليعزوه فى ضياع مستقبله، وبعد انتهاء المراسيم اجتمع الأقرباء ليبحثوا مستقبل طالبنا المحددة إقامته».

«واستقر الرأى أخيرا على أن يعمل بتجارة الأقمشة ليوردها له زوج أخته المهندس بشركة المحلة الكبرى جملة ويصرفها هو للتجار بالقطعة».

□

ويتحدث الدكتور على الحديدى عن الجهود التى بذلها والده والتى أفلحت فى النهاية فى أن تمكنه من إتمام تعليمه على نحو طبيعى:

«لكن الوالد لم يكن راضيا عن هذا المصير، فبدأ الاتصال بعضوى مجلس الشيوخ ومجلس النواب عن الدائرة التى تتبعها القرية، وبيّن لهما أن هذا هو الموقف الذى يجب عليهما أن يسعيا فى حله مع شيخ الأزهر، وفعلا اهتما بالأمر حتى يضمنا الأصوات الانتخابية فى القرية والقرى المجاورة، وذهبا معا إلى شيخ الأزهر ورجواه فى الأمر، ووعدهم بأن يتقدم الطالب إلى المعاهد ومَنْ يقبله منهم سوف يوافق على قبوله فى ذلك المعهد ويصفح عنه، وفى غفلة من رجال الإدارة فى القرية سافر طالبنا إلى القاهرة وقابل الشيخ عبد العزيز عيسى وأخبره بما انتهت إليه مباحثات عضوى الشيوخ والنواب، فوعده خيرا وليتصل به تليفونيا من القرية بعد أسبوع. حين اتصل به بشره بأنه صدر قرار الصفح عنه وقبوله بمعهد الإسكندرية الثانوى الدينى، ورئيسه الشيخ محمود أبو العيون، فقد قبله على مسئوليته شريطة انتظام الطالب فى المعهد وعدم اشتغاله بالسياسة، وعليه حضور الدروس ليدرك ما بقى من العام الدراسى، وجاءت إشارة تليفونية من المركز إلى القرية بصدور قرار العفو عن الطالب».

ويستطرد الدكتور على الحديدى إلى ذكر فضل اثنين من أساتذته الأجلاء عليه حتى تمكن من أن ينال الشهادة الثانوية الأزهربة وهما الأستاذان الفاضلان عبد العزيز عيسى ومحمد المدنى:

«وعلم طالبنا بعد ذلك أن قرار الشيخ أبى العيون شيخ معهد الإسكندرية كان بسعى من الشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ محمد المدنى رحمهما الله رحمة واسعة، وأسكنهما فسيح جناته جزاء إنقاذهما مستقبل طالب كان معرضا للضياع... ولم تتوقف رعايتهما له، بل ظلت ممدودة حتى تخرج من المعاهد الأزهرية بنيله ثانوية الأزهر من معهد الإسكندرية الدينى، وتغير طريق تعليمه بعيدا عن الأزهر».

(٧)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن من الجدير بالإشارة أن نتوقف عند ما يرويه الدكتور على الحديدى عن محنة مشابهة كادت تعصف بتقديره (المتفوق) فى نهاية دراسته فى كلية دار العلوم، وذلك حين دفعته الزعامة إلى أن يقود زملاءه فى الاحتجاج على الأستاذ عمر الدسوقى أستاذ الأدب الحديث فى قراره بإلزامهم الامتحان فى ملازم جديدة من كتابه كانت على وشك الصدور قبل الامتحانات بأسبوع أو أسبوعين، ونحن نرى أساتذة أجلاء من وزن العميدين الأستاذين إبراهيم مصطفى وإبراهيم سلامة ينقذون صاحب هذه المذكرات من خوفه من عنت الأستاذ الدسوقى وتكون النتيجة أن يتخرج بتقدير الامتياز:

«وإذا بأستاذ المادة عمر الدسوقى يعلن أن المقرر لم ينته بل يظل الجزء الثانى ويشتمل على النثر تتمة للجزء الأول، ونزل الإعلان على الطلاب نزول الصاعقة، والطلاب يعرفون أسئلة أستاذهم الطويلة، أى التى تشمل المقرر من أوله إلى آخره، وحاول الطلاب معه أن يكتفى بالجزء الأول، لكنه بأسلوبه وطريقة حديثه التى يتحدث بها بملء شدقيه، رفض رفضا باتا، وعرض الجزء الثانى فى ملازم تأتى تباعا من المطبعة، وحاول طالبنا أن يكون رسولا بين الطلاب وأستاذهم لكنه لم يقبل وساطته وذهب ومجموعة من الطلاب إلى العميد يشكون إليه لكنه رفض أن يتدخل بين الأستاذ وطلابه. والجزء الثانى الذى قرره لم تستكمل طباعته وحدد الأستاذ تسليم ملازمه قبل الامتحان بأسبوع، ولم يكن أمام الطلاب إلا الإذعان والله يفعل ما يريد، لكنهم تنفيسا عن غضبهم وعجزهم وجدوا أنفسهم مقبلين على عمل غير سليم، وأرادوا حرق الملازم التى سيتسلمونها من الأستاذ بعد دفع ثمنها، لكن العاقلين منهم ناقشوهم فى فداحة النتائج، وانتهت المفاوضات إلى أن يتظاهروا بحرق الملازم التى يتسلمونها وبدلا من ذلك يحرقون أوراقا من مجلات وكراسات قديمة، وسيظن الأستاذ أنهم أحرقوا كتابه، ومع أن هذا العمل كان جماعيا وكان فتانا من الطلاب الذين هدّءوا من ثورة الطلاب، إلا أن أستاذ المادة كان يعتقد أنه وراء هذا العمل لأنه كان يفاوض الأستاذ ورسولا بينه وبين الطلاب، والفتى لا يتنصل من هذا الجرم المزعوم، لكنه لا يتحمل وزره وحده، بل شاركه الطلاب الغاضبون، والطلاب أيام الامتحانات يفقدون التفكير السليم، ويثيرهم أقل شىء يهيج أحاسيسهم، وعلى الرغم من أن الكلية تأكدت من أن

المحروق أوراق من الـصحف وبعض الكراسات القديمـة، إلا أن أستاذ المادة لم يقبل عذرا لمعتذر».

«وسار الامـتحان التـحريرى سيـرا حسنا واستـعد الطلاب لامتـحان الأدب الحديث ومضى على خير وجـه، وأجاب طالبنا فيه إجابات تكاد تكون تامـة موفـية بالغـرض المطلوب، وكان يقـارن إجاباته بإجـابات أصدقائه الطلاب، ثم جـاء الامتحان الشفهى وتقـابلت الوجوه، وكانت لجنة الامتـحان من: د. إبراهيم سـلامة وأ. زكى المهندس وأ. عـمر الدسوقى وأ. إبراهيم مصطفى احتيـاطيا، ودخل طالبنا لجنة الامتحان، وبدأ عمـر الدسوقى يمطره بوابل من الأسئلة التى تدل على أنهـا أسئلة تعجيزية، وانبرى الأستاذ زكى المـهندس وأسكت الممتحن وأخبره بأنه لم يراع الأقدميـة أو الدرجة وبدأ بالأسئلة، وكان المفـروض أن يستأذن ممن هم أكـبر منه درجة وعلمـا وسنا، وصدق على كـلامه د. إبراهيم سلامـة، وأخذا يسـألان الطالب فى صـميم المـقرر فـيجيب إجـابات مرضـية، وبعد نحـو ساعة من الأسـئلة فى المواد المـقررة للامتـحان الشفهى طلبوا من الطالب الخروج».

(٨)

ولهذا الموقف الذى يظن صاحب المذكـرات أن الأقدار نجته فيه من عنت الممتحنين فى ليسانس دار العلوم سابقـة مهمة فى امتحان الثانوية الأزهرية حـين قـدر للدكـتـور على الحـديدى أن ينالهـا من مـعـهـد الإسكندرية الدينى عـام ١٩٤٥، وهو يسجل انطبـاعاته عن هذه الفـترة فيقول:

«. . . وكانت لجنة الإشـراف على امتحانات معـهد الإسكندرية من علماء كـلهم من أنصار الشـيخ المراغى، وبدأت الهـواجس والوساوس تنتاب طالبنا، وبخاصة فى الامتحانات الشفهية، أما التحريرى فلا خوف منه لأنه بأرقام سرية لكل طالب».

«ولم يكن اللعب فى نتائج الامتحانات قد فشا فى معاهد التعليم كما هو اليوم، ولكن الامتحـانات كانت لها قدسية لا يقرب نتـائجها أحد، وترك الأمر كله لله ولطفه يفعل به ما يشاء».

«وجاء يوم الامتـحان الشفوى، وكان أول طالب ينـادى عليه ليدخل اللجنة، وكم سر طالبنا حين وجد شيخ الفقه عضوا فى اللجنة مع شيخ آخر لا يعرفه، واستبشر بعضـوية شيخ الفقه، هو يعرفه حق المعرفة من مناقشاته فى المحاضرات، وبدأ الامتحان بالقرآن الكريم، وحفظ القرآن الكريم كله كان النقص والعـوار الذى يخاف منه فى كل امتـحانات آخر الأعوام، ولكن الله أخلف ظنه فقد كانت الأسئلة فى أوائل سور القرآن الكريم، ثم من أواخرها، وكانت الإجابات موفقة بحمد الله، ويبدو أن اللجنة كانت تضع لكل مادة درجاتهـا عقب الامتحان فيها، فـقد تسامر الشيخان ثم وضـعا الدرجة، وبتدبير منه سبحـانه وصلت اللجنة القادمة من القاهرة إلى لجنة الامتحان وهى تبدأ فى امتحان الفقه، وكان الطالب مجيدا فى فـهم مسائل الميراث المقررة، ومن ثم أجـاب إجابات صائبة ووضعت الدرجة، كل ذلك ولجنة القاهرة ترقب الامـتحان، ومن أسئلة الفقه إلى النحو والتفسير والحديث ثم إلى الأدب والبلاغة، وكان طالبنا يجيب إجابات سديدة بحمد الله، وانتـهى امتحان الطالب الشفهى ودعا له شيخ الفقه بالتوفيق حين سلم عليه وقبل يده».

(٩)

ولا يعدم الدكتور الحديدى نعمة هذا التوفيق الإلهى عندما يتقدم به الزمن ويصبح منتويا للابتعاث إلى بريطانيا، فإذا بالأقدار تهىء له مساعدة وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد (ووزيرها فيما بعد قليل) الأستاذ أحمد نجيب هاشم، وذلك فى مواجهة تعنت وكيل الوزارة (ووزيرها فيما بعد)، كما أنه يلقى رعاية وعون والد الوزير كمال الدين حسين حتى يحصل من إدارة البعثات على راتب مقابل قيامه بالمسئولية عن المكتبة التى يضمها مكتب البعثات فى لندن، فضلا عن أن تكون بعثته بإجازة من الوظيفة نظرا لما كان يتيحه القانون من حصول المدرسين على الحق فى إجازة دراسية من أجل الدراسات العليا التى يمكن أن تفيدهم فى أداء وظائفهم:

«وتقدم بطلب إلى وكيل الوزارة المختص عن طريق المدرسة يطلب منحه إجازة دراسية بمرتب، ولم ينتظر ناظر المدرسة أن يأخذ الطلب مسيرته الروتينية فى المنطقة وتلكؤه بين المكاتب فذهب بالطلب إلى وكيل الوزارة الكريم الخلق والنبيل السجايا الأستاذ أحمد نجيب هاشم، فتقبل الطلب قبولا حسنا ووافق عليه ليرفعه إلى وكيل الوزارة الدائم، وصديقنا مقدم الطلب كان قد تعرف على وكلاء الوزارة وكتب عنهم وعن مسئوليتهم من خلال صفحة الجامعة [يقصد الصفحة التى كان يحررها فى جريدة «الأهرام» لشباب الجامعات]، وهم يعرفونه شكلا، لكن صاحبنا يعرف أن أمام طلبه أكبر عقبة هى موافقة الوكيل الدائم للوزارة، وفعلا عند عرض الطلب عليه رفضه، واستفسر الأستاذ نجيب هاشم عن سبب الرفض فادعى أن مدرس اللغة العربية لا يحتاج لكى

يجيد عـمله إلى دراسة فى انجلترا، وخرج وكيل الوزارة المـساعد وقد اكفهر وجهه وعلاه الغضب المكظوم، وهذه كانت طبيعته السمحة حين يُمنع من فعل الخير الذى جبل عليه، وكان فتانا يحس مقدما بأن الوكيل الدائم سيرفض الطلب، فهو معروف فى الوزارة بأنه ليس سمحا، ولولا أنه كان قريب شخصية كـبرى فى الثورة ما كان وصل إلى هذا المركز، غير أن وكيل الوزارة [المـساعد] الخيّر أفهمـه أنه لم يبلغ مرحلة اليأس وطلب منه أن يدخل لتـحيـة وكـيل الوزارة الدائم ويجرى مـعه حـوارا للنشر، ودخل عليـهما الوكيل الخـيّر، وبعد أن انتهى الصحـفى وخرج قال لوكـيل الوزارة الدائم: هذا هو الصحـفى الذى رفض طلبه بـمنحه إجازة دراسـية أمس، فضحك وقـال: أعد عرض الموضـوع لعلى أجد سببـا أو مندوحة للتغييـر، وفى عرضه الثانى كتـب بجوار يرفض كلمة ويعرض، وافق الوكـيل الدائم شريطة أن يعمل بالوزارة بعـد عودته من الدراسة، وخرج الوكيل المختص يتهلل وجـهه بشرا من ابتسامة عريضة وهو يقول: مبروك، وبادر بالدخول بالطلب للاعتماد من السيد الوزير، وكان فى ذلك الوقت كـمال الدين حسين، وحين قـرأ الطلب سأل عن هذا المـدرس الطموح فـقال له: من بـلدك ياسيـادة الوزير، فضـحك وسأل: هل هو مـستـوف شروط الإجازة؟ فـأجابه بالإيجـاب وعقب: بالأمس أصدرت قرارا يجـيز أن يمنح طالب البعثة أو الإجـازة الدراسية المدة الممـنوحة له كلها مرة واحـدة دون تقسيمهـا إلى سنوات حتى لا يشغـل المبعـوث بالطلب وبانتظار المـوافقة كل سـنة ويتعطل مـرتبه، وأرجو أن يكون هذا الطلب أول تطبيق لهذا القرار، فكتب موافق ولمدة أربع سنوات متواصلة».

□

ويستأنف الدكتور على الحديدى رواية بقية المصادفات الحسنة التى هيأت له مزيدا من الظروف أو الاستثناءات أو التسهيلات التى كانت كفيلة بأن تجعل أمر ابتعاثه إلى لندن يسيرا ومعبدا من ناحية التمويل والمسئولية:

«تمت لفتانا الإجازة موقعة من الوزير، وخرج الوكيل [أى الدكتور أحمد نجيب هاشم] والدنيا لا تسعه من الفرحة، وهكذا أهل الخير يجدون متعة في قضاء مصالح الناس، وأنهى إلى صاحبنا بالخبر، وإذا بالوزير يخرج من حجرته فيجدهما أمامه فيهنئ صاحب الطلب وكان إلى جوار الوزير والده فقال: ولمدة ٤ سنوات كاملة، وهو أول طالب يسرى عليه هذا القانون، وطلب والد الوزير من الفتى أن يقابله غدا صباحا عند مدير البعثات، وهناك طلب منه والد الوزير أن يجد مخرجا لزيادة مرتب هذا المدرس المسكين الذى لايزيد على ١٨ جنيها، ولا يمكن أن يعيش فى بلاد الإنجليز بهذا المبلغ البسيط، وبعد المناقشة اهتدى مدير البعثات إلى أن بمكتب الوزارة بلندن مكتبة غنية بالمراجع والكتب باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهى مهملة منذ أن كان السيد أحمد نجيب هاشم مديرا للبعثات هناك، ويمكن أن يعمل بها المدرس المسافر بعض الوقت بمبلغ ١٢ جنيها فى الشهر، وهذا أقصى ما فى استطاعة البعثات أن تفعله، فشكره بعد أن كتب القرار وتعهد بأن يأخذ موافقة الوكيل المختص، وشكر المدرس مدير البعثات وصارت معرفة بينهما، كما شكر فتانا والد الوزير على جهده فى زيادة مرتبه، وعلى رعاية القرابة، ووعده بأن يبلغ والده بهذه الجهود الخيّرة ومسعاه فى زيادة المرتب».

(١٠)

ونرى الدكتور على الحديدى وهو يحـدثنا عن نفسه فى صدق وحنو على الذات، وقـد بدأ ينفـتح على الحـيـاة اللندنيـة وعلى المجـتـمع الأكاديمى فى لندن، وهو سعيد أن وجد الأمر سهلا حين انتوى أن يغير الأستاذ المشرف عليه فى رسالته العـلمية فإذا الأمل يتحقق بمجرد إبداء الرغبة المـهذبة دون حساسية مـفرطة أو غير مفـرطة، وإنما هو أمر من الأستـاذ للسكرتيرة بكتابـة خطاب للأستاذ الآخـر، وهذا هو كل ما فى الأمر، وهكذا أبدى الدكتور الحديدى تخوفه لأستاذه من أن يكون لنقل الإشراف عليه من أسـتاذ إلى آخر أثر نفسى لدى الأسـتـاذ، لكن الأستاذ أجابه بأن هذا من حق الطالب:

«ثم قال مسـتر كاون: فكر وحين تستـقر على موضوع أو شخـصية تعالى إلى المـدرسة لتحول الإشـراف من بروفيسـور سارجنت، وأبدى الفتى تخوفا من نقل الإشراف [من أستاذ إلى آخر] وما يتركه فى النفس من أثر، طمأن الفتى بأن هذه أمور روتينية لا يلتفت إليها أحد، فاختيار الموضوع والمشرف حق للطالب لا ينازعه فيهما أحد».

«قرأ الفتى كثيرا وكانت مكتبـة قسم اللغة العربية زاخرة بالمراجع عن هذه الفترة، ثم اختار ابتداء موضوع «أثر الاحتلال البريطانى على الأدب العربى متمـثلا فى عبدالله النديم نثرا ومحمود سـامى البارودى شعرا»، وذهب الفتى لمقابلة بروفيسور سارجنت وفى داخله شعور بالخوف على الرغم من طمـأنة مسـتر كـاون له، وأفضى إلى البـروفيـسور أنه جـاء للتـخـصـص فى الأدب الحـديث وفى أدب الصـحــافـة على وجـه

الخصوص، والصحافة لم تنشأ فى مصر إلا فى القرن التاسع عشر، وقد رأى أن الشخصية التى تجمع كل ذلك هو عبد الله النديم، ولم يكتب فيه أحد رسالة أكاديمية من قبل، وكان رد البروفيسور أنه لن يفيده فى هذا الموضوع، ومن الخير أن يبحث عمن يتولى الإ مراف عليه، وعرض الفتى اسم دافيد كاون فرحب بذلك، وانتهت المقابلة دون مشكلات كان يتحسب لها فتانا قياسا على ما يحدث فى مصر من حساسيات حين ينقل الإشراف من مشرف إلى آخر، واتصل البروفيسور سارجنت بزميله كاون تليفونيا وسأله: هل يقبل الإشراف على طالب فى الأدب الحديث وفى موضوع النديم؟ فوافق، وحينئذ أنهى إلى السكرتيرة أن تغير الإشراف على فتانا من سارجنت إلى كاون، وتم التحويل فى يسر ولم يستغرق أكثر من نصف ساعة، وشكر الفتى البروفيسور سارجنت شكرا جزيلا، وحين ذهب إلى دافيد كاون وجد أنه أصبح تابعا له ومسجلا فى موضوع النديم».

(١١)

ولنا أن نقارن هذا الموقف الأخير الذى يشى بسعة أفق الأساتذة الإنجليز بالموقف المتعسف الذى يرويه الدكتور على الحديدى قبل صفحات كثيرة من هذه المذكرات، والذى تعرض فيه لتعسف أساتذة معهد التربية العالى فى مصر، الذين أبوا على طلابهم إلا الانتقال إلى فرع بعيد للمعهد فى الزيتون من أجل تحقيق إحدى غاياتهم الوظيفية والمادية، غير عابئين بالمجهود الذى يتطلبه مثل هذا الانتقال من أبنائهم الطلبة، وهو الموقف الذى دفع صاحب المذكرات إلى تحريض زملائه فى ذلك المعهد على الثورة:

«وذهب الفتى فى اليوم التالى إلى إدارة معهد التربية، وكان مقره بالمنيرة، والمبنى الآن مقر لمعهد التعاون وفرع التعاونيات بشارع قصر العينى، وفوجئ الفتى بأن الإدارة أخذت عددا من أوائل من استجاب للالتحاق بالمعهد وسجلتهم بالمعهد الأساسى بالمنيرة والباقون سجلتهم بفرع المعهد الذى افتتح فى الزيتون بدعوى ضيق المكان، وعلم الفتى من إداريى المعهد أن فرع الزيتون افتتح لينال بعض الأساتذة درجات مالية جديدة ويعين أقدم أستاذ عميدا، ودخل الفتى حجرة عميد معهد المنيرة أ.د. عبدالعزيز القوصى، وهو مَنْ يخشاه الطلاب والأساتذة ويهابون الحديث إليه، دخل الطالب ورجاه فى أن يقبله بالمعهد بالمنيرة، وأخذ يشرح ظروفه من عمله بعد الظهر وأنه ناجح بدرجة ممتاز، وأنهى د. القوصى المقابلة بقوله: إما أن تلتحق بفرع الزيتون أو تظل فى الشارع، وفوجئ الفتى بهذا الرد القاسى فقال: سيدى العميد.. الأستاذ والد والمفروض أنه يعامل طلابه بالحسنى ولين الخلق، ولا يعاملهم بالقهر والدكتاتورية، وإن شاء الله أرجو أن يغلق فرع الزيتون ويعود طلابه إلى هذا المعهد حتى لا يتكلفوا تعبا أو نصبا».

«ذهب الفتى إلى فرع الزيتون والتف حوله زملاؤه الذين تخرجوا معه فى كليته، وبدأ يثير فيهم الغضب على ما هم فيه من تعب ومشقة ونفقات يتكبدونها كل يوم ذهابا إلى الزيتون وعودة وخطب فيهم ليوضح لهم سبب فتح هذا الفرع بعيدا عن معهد التربية الرئيسى وقد عرفه من موظفى المعهد بالمنيرة ذلك لينال فرد لقب عميد للمعهد ومجموعة

درجات مالية، ومعهد التربية فى المنيرة به أماكن تسع ضعف مَنْ فى هذا الفرع، إلى جانب التعصب ضد مدرس اللغة العربية بالأزهر ودار العلوم، والدليل أن أحدا من كلية الآداب فى أى قسم حتى اللغة العربية لم يحول إلى هذا المعهد، والمحولون فقط من دار العلوم والأزهر، وتواعد فتانا مع زملائه على اللقاء فى الثانية عشرة ظهرا بديوان وزارة المعارف لمقابلة الوزير، وفى الصباح الباكر عرف الفتى أن عدد الحجرات فى الدور الثانى خمس عشرة حجرة لا دراسة فيها من أول العام، وفى مكتب الوزير بعد الهتافات طلب عشرة من المتظاهرين ليعرف شكاتهم [شكواهم]، وبعد أن شرحوا أمرهم للسيد الوزير طلب الملف الخاص بمعهد التربية بالمنيرة والزيتون وعرف أن افتتاح فرع الزيتون حدث لضيق المكان بالمنيرة، وصرف الطلاب، وذهب بعضهم إلى المعهد بعد أن أحسوا أن معاليه فى مثل هذه الأمور، كما أخبرهم مدير مكتبه، يرى الأمر بنفسه، ولم يمض وقت طويل إلا والوزير يأتى إلى المعهد ويصعد إلى الدور الثانى دون أن يخبر العميد بحضوره ويطلب من الفراشين فتح الحجرات، وعرف أنها لم تشغل بالدراسة من أول العام، ونزل ودخل حجرة العميد وفوجئ العميد وطلب الوزير ورقتين إحداهما كتب فيها قراراً بإغلاق فرع الزيتون لوجود أماكن كافية بمعهد المنيرة، والأخرى كتب بها أمرا بضم طلاب الزيتون إلى طلاب المنيرة، وحين أنهى سكرتير الوزير إلى الطلاب أمر ضمهم إلى معهد المنيرة، تعالى هتافهم بحياة الوزير العادل والمنصف وحبيب الطلاب، وألغى فرع الزيتون وعاد طلابه إلى المعهد الأساسى بالمنيرة».

(١٢)

ونمضى مع المصادفات الحسنة التى قدر للدكتور الحديدى أن ينجو بها من تصاريف القدر، فقد أنقذه عمله الصحفى ومعرفته بالأستاذ أحمد الصاوى محمد من أن ينقل إلى الصعيد عقابا له على ضرب أحد التلاميذ فى مدرسة الناصرية بالعصا «ضربا خفيفا على باطن ساقه» على حد تعبيره:

«... كان مدرسنا يطبق النظريات التربوية التى تعلمها بالمعهد على تلاميذه، لكنها كثيرا ما كانت تفشل نتائجها فيضطر إلى استعمال الشدة فى بعض الحالات، بل استعمال الضرب الخفيف أحيانا، ويذكر أن تلميذا أعيت المدرس كل الحيل فى دفعه إلى عمل الواجب المدرسى، فاضطر إلى ضربه بعصا صغيرة لينة على باطن ساقه، وفى صباح اليوم التالى كان ناظر المدرسة فى انتظاره وفتح معه محضر تحقيق حول حادثة ضرب التلميذ بالعصا، وعرف أن والده وكيل وزارة المعارف قدم شكوى إلى المدرسة وإلى الوزارة، وفى آخر محضر التحقيق قال له الناظر: انتظر نقلك إلى الصعيد، وأسقط فى يد مدرسنا، وسارع بالذهاب إلى الأستاذ الصاوى وأخبره الخبر وقد عرف من الوزارة أن الشكوى وصلت صادق باشا جوهر الوكيل الدائم للوزارة، وأن أمرا بالنقل إلى ساحل سليم بالصعيد أعد وقضى الأمر، ولحسن حظ مدرسنا أن الأستاذ الصاوى كان صديقا لوالد التلميذ منذ مزاملته فى المدرسة، فتحدث إليه تليفونيا، وتكلم معه عن التربية الحديثة وكيف أنتجت شبابا لا يقدر على تحمل المسئولية، وقارن بين شباب ذلك

اليوم وشباب وكيل الوزارة والأستاذ أحمد الصاوى محمد، وذكره بما كان يفعله المدرسون معهم من ضرب و«تزنيب»، وها هم اليوم رجال يتحملون المسئولية، ثم طلب منه الصفح عن هذا المدرس، وأخذ يشكر له فيه، وأن كل أولياء الأمور يتحدثون إليه فى بيته وفى الأهرام يشكرونه على تعلق أبنائهم به، وأنهى إليه أنه يعمل معه محررا بالأهرام، فعفا عنه ووعد بأنه سيتحدث مع صادق باشا، وتم إلغاء أمر النقل، وكان درسا لمدرسنا فقرر ألا يمسك عصا فى فصل يدرس فيه، وليكن عقابه معنويا، وانتهت الأزمة بسلام بفضل الأستاذ الصاوى».

(١٣)

ومع كل هذه الظروف العاطفة على صاحب المذكرات فإنه وجد فى بداية حياته نوعا من الاختبارات والظروف القاسية التى قدر له بفضل عون والدته أن يجتازها على نحو كريم:

«فى العام الثانى من الالتحاق بالأزهر ١٩٣٦/ ١٩٣٧ تغير قانون الدراسة فى المعاهد الأزهرية فجعل مَنْ يرسب ولو فى مادة واحدة يرسب رسوبا كاملا، ورسب صاحبنا فى السنة الثانية ووجب أن يعيد الدراسة فى هذه السنة، وعرف بعد فترة أنه رسب فى مادة الإنشاء وكان موضوع الامتحان «خرجت فى نزهة خلوية يوم إجازة.. اكتب عن هذا اليوم وما شاهدته فيه»، ويذكر أن الخيال شطح به فكتب عن الزهور الطبيعية والورود البشرية من تلميذات المدارس اللاتى كن فى رحلة كذلك، ولم يعرف الطالب أن هناك محرمات يجب ألا يمسها قلم الطالب وهو بالأزهر، فكتب عما شاهده من الحور العين وغزلان

الحــدائق البشــرية وهن يقفــزن من مكان إلى مكان، وطبيــعى أن يكون الرســوب جزاؤه، ولم تشــفع له غزالة واحــدة أو حورية من حــوريات الرحلة، وكانت النتــيجة صــدمة للأسرة وللطالب، ولم يقــبل منه عذر يعتذر به، وأخذ مستقبله يناقش فى الأسرة، واختلفت الآراء، فمن رأى يوجهه إلى تعلم صنعة، ومن آخر [يحثه] على دخول مدارس الموسيقى بالجيش، ورأى ثالث يرى أن يعمل بالزراعة وتربيــة الماشية، وأخذ كل صاحب رأى يحبب صاحــبنا فيما اختاره له، وحتى تســتقر الأسرة على رأى أخير أخذ راسبنا يعمل فى الزراعة».

«لكن الأم الحقيقية وهى من القرية المــجاورة التى يعرف أهلها قيمة العلم ويحبــون لأولادهم التعلم، وقد ظهــرت منها شخــصيات لامــعة تسنّمت مناصب عالية، وكــان خال الأم الغريبة عن القرية عــائدا حديثا من بعــثة دراســية فى انــجلترا بعــد أن حصل عــلى الدكتــوراه فى علم الجغرافيا، انفردت الأم بولدها يومــا وأخذت تناقشه: هل هو حقا يكره التعليم كــما يقال ولا يريد الاستمــرار فيه؟ أم أن هذا العام كــان عارضا وسيــثبت للأســرة التى تكتلت ضــده أنه جدير بطلب العلم، وســيلحق بالذين نجحوا منهم فى السنوات القادمة، بل ســيصبح مثل الخال العائد من انجلترا مكللا بــالغار، وهى تذكر أن خالــها رسب فى السنة الأولى فى دراستــه، ومع ذلك بلغ النجــاح والتفوق فى الــسنوات التاليــة حتى استحق أن يرسل فى بعثة إلى الخــارج. كان هذا الحديث كطوق النجاة الذى أمسك به صبيــنا، فأخرجه من الدوامة التى كان يعــيشها ولم يعط فرصة ليفكر فى مستقبله، إذ كانت صدمة الرسوب شديدة وقاسية فكان

يعيش كالمخدر أو التائه الذى لم يعد يدرى من أمره شيئا، ولا يعرف لنفسه سبيلا».

«ولأول مرة بعد ظهور النتيجة بالرسوب انخرط صبينا فى البكاء وغلبته الفحمة فلم يستطع الحديث، وطالت نوبة البكاء، ولعلها كانت تغسل ما تجمع لديه من آثار سخرية الآخرين منه، والنظرات الدونية التى كان يتلقاها من الصغير والكبير، وتركته الأم برهة ثم عادت بكوب من عصير الليمون المحلى بالسكر ليشربه فيهدأ ما به من ألم وإحساس جريح، ووقع الصبى على يديها يقبلها، ولأول مرة يحس بأمومتها وعطفها وأنها الأم الحقيقية وليس الجدة لأبيه كما كان يظن الأطفال، وعاهدها على أنه سيجعلها تفخر به كما تفخر بخالها الدكتور إذا أعطى فرصة مواصلة الدراسة، وأعلنت السيدة الغريبة فى الأسرة أن صبيها سيواصل تعليمه، وستتحمل هى تبعة استمراره فى الدراسة، وما يتكلفه من مصروفات، وأخذت الأسرة حين فوجئت بهذا القرار، لكنها لم تستطع أن تعارضه أو تنقضه، لأنه لن يكلفها مالا، وبخاصة فى أزمتها المالية التى تمر بها».

(١٤)

ولكن صاحب المذكرات فيما قبل هذا يحرص فى صفحات مبكرة على أن يشير إلى مدى القسوة والشدة التى كانت والدته الحقيقية هذه تأخذه هو واخواته بهما فى مراحل تعليمهم الأولى، وهو يقارن بينها وبين امرأة عمه فيقول:

«ولا يذكر الصبى أن والده أو جـده أنزلا به عقابا، فالعقـاب موكول إلى الأم دائما، وكم كان أطفـالها يودون أن يكونوا أبناء زوجة العم، إذ كـانت لا تعاقب أولادها أبدا، فـإذا فعل أحـدهم خطأ يسـتحق عليـه العقـاب تقول: «بكرة يتـعلم»، وحين كـبر الأطفال ودخـلوا المدارس كانت أم صـبينا تقول لهم وهى تـودعهم عند سفـرهم إلى القاهرة: مَنْ رسب منكم فـالأفضل أن يرمى نفـسه تحت عـجلات التـرام ولا يرينا وجهه، أما زوجة العم فكانت تقول لأولادها: «طول العمر يبلغ الأمل، ومَنْ يرسب فى سنة ينجح فى التالية».

(١٥)

وبالإضافة إلى هذه الأحـاديث المستفيـضة عن ظروف تكوينه، نرى الدكتور الحـديدى حريصاً أيضا على أن يفـيض فى الحديث عن بعض إنجازاته الوظيفـية فى المرحلة الأولى من حياتـه حين تمكن من أن يعد مجموعة كبيرة من الكتب كـهدية من مصر إلى استراليا، وأن يصطحب هذه المجموعة معه فى سفـره حين قدر له أن يكون مدرساً للغة العربية فى الجامعة الاسترالية.

وهو يروى الانطباع تجاه هذه الهدية فيقول:

«وبدأت صناديق الكتب توضع فى شاحنة كبيرة وصلت بها أمام قسم الدراسات السامية كاملة العدد، وبهت مَنْ بالجامعة... ولما سألوا عن هذه الصناديق عرفوا أنها مليئة بالكتب التى أرسلتـها مصر هدية لجامعة ملبورن، ولتكون نواة لمكتـبة كبرى تتـزايد مع الأيام والسنين، وكذلك

كانت الصحافة فى انتظار هذا الأستاذ القادم من القاهرة على حساب دولته هدية لجامعة ملبورن، وظهرت الصحف فى اليوم التالى بالصور والمعلومات بعناوين كبرى على الصفحات الأولى: «بروفيسور حديدى المحمل بالكتب لجامعة ملبورن» واحتفت الجامعة وقسم الدراسات السامية حفاوة كبرى بالأستاذ الزائر، وكان هذ العمل تأكيدا ودعما لمركز بروفيسور بومان فى الجامعة، لأنه السبب فى كل هذا الفيض من الكتب العربية، ومجيء الأستاذ الذى تدفع له بلاده مرتبه ليعلِّم طلاب استراليا اللغة العربية والدين الإسلامى».

□

وهو حريص على أن يكرر الإشارة إلى الثناء الذى لقيه من الاستراليين، سواء فى هذا الرسميون والأكاديميون، وهو يكرر الإشارة إلى الثناء الذى أضفاه عليه السياسى الشهير منزيس رئيس الوزراء الاسترالى:

«وعلى مائدة العشاء قال منزيس: إن لدينا سفيرين لمصر، واحد للعمل الدبلوماسى والسياسى وتشترك معها كل الدول فى ذلك، لكنها انفردت بسفير لم تشاركها دولة فى مثيله وهو السفير الثقافى، فقد أهدتنا مصر سفيرا يعلمنا ويثقفنا فى مجاله ويتقاضى مرتبه من بلده، وهو أول ضيف يأتينا ويؤدى رسالته ويتقاضى راتبه من بلده مع أن الوافدين إلى استراليا جميعا جاءوا ليرتزقوا واستراليا تدفع لهم أضعاف ما يتقاضونه فى بلدهم. وكانت لفتة من سير روبرت منزيس فكت الجو المشدود بين البلدين وسارت الأمور سيرا حسنا إلى جو المصالحة ونسيان الماضى».

(١٦)

ويشير الدكتور الحديدى باعتزاز إلى أنه كان صاحب الاقتراح الذى لايزال يؤخذ به من وجود مجالس للآباء والمعلمين، وأن اقتراحه هذا قد خرج إلى النور فى أثناء عمله مدرساً فى مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية:

«كان على كل مدرس فى مدرسة نموذجية أن يقترح مشروعا يعمل فيه وتلاميذه طوال العام الدراسى، واقترح صاحبنا مشروعا بتكوين مجلس يضم الآباء والمعلمين فى كل مدرسة ينعقد ٣ مرات فى العام عقب امتحانات كل فترة ويناقش المشكلات العامة التى تواجه التلاميذ من ناحية المنهج، وكتب الدراسة، وطريقة التدريس، وأنشطة المدرسة، ونظام الإدارة فى المدرسة بحيث يحس التلميذ أن له رأيا فى كل نواحى المدرسة مدرسيا وإداريا، ومن ثم يأتى الترابط والولاء للمدرسة والإحساس بالفخر لأنه ابن هذه المدرسة، و ووفق على المشروع، وبدأ صاحبنا يضع خطوطه وأفكاره وطرق التنفيذ، ولم ينس المشروع التلميذ الذى لديه استعداد للانحراف، فقد واجهه بالجهتين المسئولتين عن تربيته ويمثلان عنده السلطة فى حياته المعيشية والدراسية: المدرس والأب، ونجح المشروع فى المدرسة وفى المنطقة، ثم طلبت الوزارة وضعه فى كتاب بحيث يوزع على المناطق التعليمية، ومن ثم على جميع مدارس القطر، وجعل له صاحبنا عنوانا «مجالس الآباء والمعلمين» ومازال موجودا بالمدارس حتى اليوم، ونسى المدرسون والجمهور صاحب المشروع ومع ذلك فهو سعيد أن يرى

مشروعـه معمما ومطبـقا حسب الخطة التى وضعـها له من قرابة نصف قـرن، ويكفى أن لديه نسـخـا من الطبـعة الأولى مكـتوبا عليـهـا اسم المؤلف، ويكفيه الرضا النفسى بأن عمله فى مدرسة الأورمان لم يذهب هباء».

(١٧)

ويحكى الدكتـور على الحديدى بألم شـديد عن نجاحـه المبكر فى إحدى تجاربه الصحـفية وعن أن هذه التجربة سرعـان ما فشلت بسبب قلة خبـرته بالبشر وشـرورهم وتوجهاتهم فى الحـياة المهنيـة حيث ظن أحسن الظن بمن تسبب له فى مكيدة قدمهـا له على هيئة نصيحة، وهو يتحدث عن الألم الذى ترسب فى نفسه نتـيجة لهذه التجربة من دون أن يقدم لنا السبب المباشر الذى مكن الآخرين من إيقاف هذه الصفحة بعد أسبوع واحـد، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور على الحـديدى قد أشار فى موضع آخر (نقلناه عنه) إلى أن هذه الصفحة قد ساعدته فى التعرف بوكلاء الوزارة، مما ساعده على إتمام بعثته إلى بريطانيا فيما بعد:

«. . . تجرأ صـاحبنا وطلب من الأسـتاذ أحمـد الصاوى محـمد أن يسمح له بإخراج صفحة للجامعات والشباب تصدر أسبوعيا، فيها أخبار الجامعات ونشاطات الشباب من رحلات ومعسكرات، إلى جانب بعض المقـتطفات والآراء من كبـار رجال التعـليم فى مصر، وكـان يخصص أسبـوعا لأخبـار كل وكيل من وكلاء الوزارة لـكى يعرّف به الجمـهور ويدرك كيف يسير دولاب العـمل فى الوزارة والإدارات التابعة لها، وفى أثناء ظهور هذه الصفحة وبعد أن أخذت وضعها واستقرت حدثت مكيدة

من الزميل «الشامى» بالمكتب مع دعواه بأنــه أصبح من أقرب الأصدقاء لصاحــبنا فبدأ يُسرب له أخــبارا وكأنهــا سرية بأن الصفحــة تلاقى حربا عوانا فى مــجلس التحرير، وبحــسن النية وعدم الخــبرة بالنوايا السيـئة استــمع إليه وإلى ما يقــوله من تخلى الأستــاذ الصاوى عن الصفــحة، وبالتالى يجب أن تجــد مَنْ يساندها فى مجلس تحرير الــجريدة، وكان الاقتراح هو عزيز مــيرزا، ولشدة حرص صاحبنا على صفــحته و«بهبله» وعدم تجربته بمقالب الصحفــيين صدق كلام الشامى وطلب من الأستاذ الصاوى أن يشرف عــزيز ميرزا على الصفحــة، فتغير وجــهه وسأله عن صاحب الفكرة فــأنهى إليه بالخــبر من أساســه ومَنْ هو منبته، فــعرف الصــاوى أنها مكيــدة مدبرة ضــد الصفحــة، وحقق الصــاوى لصاحــبنا رغبته، وتركه يتعلم من الدرس، والمهم أن الصفحة لم تظهر بعد ذلك غير أسبوع واحد، ثم صدر قرار بإلغائها. أدرك صاحبنا المكيدة، ولكن بعد فوات الأوان، وســارع بالاعتذار للأستــاذ الصاوى فتبــسم وقال له: لعلك قد استفدت من الدرس بحيــث لا تصدق كل ما يقال قبل البحث عن نوايا قائله واتجاهاته، وتقبل صاحبنا الهزيمة بعد أن تركت فى نفسه مــرارة قاتلة، وكــأن الصفــحة بنت مــن بناته قد وئدت، ولم يلهــه عن المرارة والألم إلا التفكير فى السفر إلى انجلترا».

(١٨)

وتحفل مذكرات الدكتور على الحديدى بعد هذا بأحاديث حانية على النفس عن تجاربه فى الحياة فى لندن، وهو على ســبيل المثال يتحدث عن السبب الذى جعله يترك سكنه الأول إلى مسكن آخر فيقول:

«وفى يوم مـاتت دجاجةٌ مـما تربى ربة البـيت فأعـدتها وطبـختـها واعتبرتها طعاما ممتازا وحفلا فاخرا، لكن صاحبنا كان يعلم أنها محرمة عليه فـامتنع متـعللا بألم ومغص!!، وكانت القـشة التى قصـمت ظهر التحمل».

□

كذلك يتحدث الدكتور على الحديدى بدقة ومهارة عن الأخطاء التى ارتكبـها دون قـصد فى المـسكن الثانى، وكـانت سبـبا فى أن ضـحى أصحاب المسكن بسكناه معهم، وطلبوا إليه أن يبحث عن سكن آخر:

«لكن صاحبنا ارتكب عدة أخطاء لم يفهم مدلولها فى انجلترا آنذاك، ومن أجل ذلك طلبت منه ربـة الأسرة الرحـيل، أول هذه الأخطاء [أنه] حين أراد الذهاب إلى السينمـا لم يطلب الآنسة التايلاندية لترافقـه، فقد خجل ودعا ابن الأسـرة وعمره ١٨ عاما ليـريه الطريق، وليس من عادة الإنجليز أن يدعو رجل صبيا للذهاب إلى السينما مع وجود آنسة مستعدة لتلبيـة الدعوة، وإلا ظنوا بهما الـظنون، وثانى هذه الأخطاء أنه قال إنه استأجـر حجرة مستـقلة، ولكن صبى الأسرة كان يشاركـه الغرفة، وفى ذلك حد من حريته، وبعد أسـبوع طلب من ربة المنزل أن تنفذ الاتفاق فخـرج الفتى وصار ينام فى حـجرة صغـيرة جدا أعـلى البيت، وثالث الأخطاء أن الفتاة وقد أزف الكريسماس ألغت سفرها إلى بلادها لتقضى العيد مع الأسرة فى لندن، فقد أصبح لهـا رفيق تقضى العيد معه، وفى حديث مـعهـا وهى تتلطف معه قـال لها إنه يحـترمهـا ويحافظ عليـها ويعتـبرها أخـتا له، وانقلب وجه الفـتاة وتغـيرت كأن ثعـبانا لدغـها،

وفارقـته، وكـانت هذه الجـملة هى الفاصلة، ولم يكن يعـرف أن هذه الجملـة إذا قيلت لفتـاة فى انجلترا تعنى أنـه لا يريد صداقتـها كـشاب وفتـاة، ولا مأرب له فيهـا، وأعلنت الفتاة لربة المنزل أنهـا عدلت عن رأيها وقـررت السفر إلى بلدها فـى العيد، وحـين تعود لا تريد أن ترى هذا المـصرى فى المنزل أو تخـرج هى منه، وفعـلا أنذرت ربة المنزل صاحبنا بالبحث عن مسكن آخر».

وبعد هذا السرد يعقب الدكتور على الحديدى فيقول:

«لم يعرف صاحبنا هذه الأخطاء إلا بعـد أن مارس الحياة فى انجلترا وعرف مدلول الكلمات».

(١٩)

ويتحـدث الدكتور على الحـديدى عن إصراره بينه وبين نفـسه على إجهـاض فكرة الزواج من الأوروبية الوحيـدة التى فكر فى الاقتـران بها وهو يورد تفصيلات صداقته وصحبته لها ثم يقول:

«ولعل هذه الفـتاة هى الأوروبية الوحـيدة التى وجـد نفسه مـشدودا إليهـا، وفكر فى الزواج منها، وكـاد ينحرف معـها الخط الذى رسـمه لنفسه فى الزواج، وبعـد أن دامت لقاءاتهما فترة أكـثر من شهرين دون ملل، فاتحها فى الزواج فكادت الفرحة تقفز من عينيها، وكتبت لوالدها وفاتحتـه فى الأمر، ولم يرفض الرجل لكنه اشترط أن يحضر صـديقها إلى ألمانيا ويتـجنس بجنسيتها كى يـتبناه، فهو كما تعـلم يملك مصنعا كبيرا للمـلابس ولم ينجب غيرها، فهى وزوجها سـيرثان هذا المصنع،

أما إذا سافرت إلى مصر مع مَنْ تتزوج فسيئول المصنع الذى أفنى فيه شبابه إلى الحكومة. والحق أن الفتى وجد أن حجة الرجل قوية، فتخلى عن فكرة الزواج لأنه لا يرضى بوطنه بديلا، وعادت الفتاة إلى ألمانيا نهائيا فى كريسماس ١٩٥٦».

□

وفى موضع آخر يتحدث الدكتور على الحديدى عن خطته التى انتهجها من أجل تحقيق سياسته التى استقر عليها بعدم الزواج من أجنبية فيقول:

«وعزم على عدم الزواج بأجنبية، وكان أميناً مع كل فتاة صحبها أو صادقها إذا جاءت سيرة الزواج بأنه لا ينوى أن يقدم عليه أبدا، واعتذر بأن هناك عوائق طبية تمنعه من الزواج إذ لا يمكنه أن ينجب، وكانت هذه الأكذوبة وصية أحد السابقين من الزملاء. وقراره بعدم الزواج من أجنبية كان نتيجة مستخلصة من السوابق الواضحة والكاشفة للمستقبل، والعاقل من اتعظ بما فعله غيره».

(٢٠)

ولا تخلو المذكرات التى بين أيدينا من حديث الدكتور على الحديدى عن بعض الفروق بين البيئتين المصرية والبريطانية، وهو يجيد مثل هذا الحديث حين يتحدث على سبيل المثال عن الفارق فى استقبال الوفاة بين الغرب والشرق، وذلك بعد أن يتحدث عن ألمه وجزعه لوفاة والده:

«وفى نفس الأسبوع مات شقيق «مس بين» فى بلدها ليدز شمال انجلترا، وسافرت لدفنه صباحا وعادت آخر النهار، وأراد الصديق أن يقدم لها العزاء، وما إن جلس حتى جعلت تعقد مقارنة بين طقوسهم والطقوس المصرية، وكأن المصريين قد جبلوا على إطالة الحزن وتجسيمه، أما هى فقد ذهبت وعرفت أن أخاها حين فارقته الروح عزفت له ابنته الوحيدة والطالبة بالجامعة قطعة موسيقية على البيانو كان يحبها، ثم أغلقت زوجته وابنته عليه الحجرة وذهبا إلى السينما فى الوقت الذى حضر فيه الحانوتى فأخذ الجثة لتظل عنده حتى يعدها للدفن، وفى اليوم الذى أعلن أنه يوم الدفن تلبس السيدات أجمل ما عندهن من ملابس وكأنها ذاهبة إلى كرنفال لا فرق إلا فى الطرحة السوداء التى تغطى بها قبعتها وتنزل على رأسها، ويجتمع المشيعون فى مقابر الأسرة، ويتلو القسيس بعضا من الإنجيل وينثر على صندوق الدفن بعض التراب، وينتهى حفل الوداع وينزل الصندوق الذى يحوى الجثة بحبال فى حفرة الدفن ويحثون عليه التراب، ويذهب كل فى طريقه».

«ولم يستطع صاحبنا أن يحكى لها ما يحدث يوم الوفاة عند المصريين من حزن قاتل، وإصرار على تذكر المتوفى، والبكاء أياما وليالى، وإحياء ذكرى الأربعين».

(٢١)

ولا تخلو المذكرات من تصوير لكثير من واقع مصر السياسى فى عصر الليبرالية الذى عاشه الدكتور الحديدى صبيا وفتى وشابا، ومن

الممـتع أن نقرأ على سبيل المـثال وصفه لدكـتاتورية إسماعـيل صدقى باشا فى مطلع الثلاثينيات، ولدهاء صدقى باشا نفسه وظرفه فى منتصف الأربعينيـات. كما تجيـد المذكرات تقـديم صورة شعب مصـر المؤيد للنحـاس باشا وللوفـد فى مقـابل ظلم صـدقى باشا الغـ شم فى مطلع الثلاثينيات حين تولى الحكم، وهو يقول:

«كانت عودة نظام السُخـرة أثراً من آثار تولى صدقى باشا الوزارة فى الثلاثينيـات، وكان من أهم أهداف هذه الوزارة طمس شـعبيـة النحاس باشا، وتحطيم حزب الوفد، وليفعلوا فى سبيل ذلك ما يشاءون، وأخذ صدقى باشـا يبحث عن عمـد يتولون الإدارة فى البـلاد، ويحولون بين الشعب وقـيادات حزب الوفـد، معتقـدا أنه بهذه الوسيلة سـوف يجعل الفلاحين يحيدون عن ولائهم لخلفاء سـعد زغلول باشا، وامتنع مشايخ البلد عن العمل، وقدمـوا استقالاتهم لمدير المديرية فـرفضها وأعلنهم باتهامهم بالعصيـان، وبمحاكمتهم بمقتضى الأحكـام العرفية المعلنة فى عهـد صدقى إذا ظلوا رافضـين العمل، فسحـب المشايخ الاستـقالات لكنهم انقطعوا عن العمل ولم يستجيبوا لدعوات العمدة للاجتماع بهم، وكان العمدة [من الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن هذا العمدة كان جد الدكتور الحديدى نفسه] داهيـة فى التفكير، ولم يرد أن تثور البلد ضده كما ثارت بلاد أخرى ضد عمدها الجدد، فعين ابنه شيخا للبلد، وولاه أعمال كل المـشايخ الممتنعين عن العمل، وبذلك أصـبحت القرية فى قبضة العمدة وابنه شيخ البلد».

ويستأنف الدكتور على الحديدى الرواية مشيرا إلى أحد المواقف الشعبية المصرية المهمة فى مواجهة طغيان حكومات الأقلية وتعسفها مع الوفد:

«وفى يوم ظهر فى الصحف أن النحاس باشا سوف يزور عضو الحزب [لا يذكر الدكتور الحديدى اسم هذا العضو] وأهالى القرية، فما كان من العمدة إلا أن قطع الجسور التى سوف يمر عليها موكب النحاس باشا، وعطل العمدة الزيارة، لكن حزب الوفد استعمل الحيلة بعد ذلك ولم يعلن فى الصحف موعد الزيارة التالية، بل أرسله فى خطابات مع رسل من رجال الحزب إلى العمد القدامى الذين مازالوا على الولاء للحزب، ولم يشعر العمدة إلا بخبر يأتيه بأن النحاس باشا فى عزبة عضو الوفد وقد خرج أهالى القرية والقرى المجاورة على بكرة أبيهم فى مظاهرة عارمة تحيى النحاس خليفة سعد، وخرج صبينا وزملاؤه من الكتّاب وذهبوا ليروا النحاس باشا رأى العين، فهم يسمعون عنه ولا يرونه، ورأوا النحاس باشا عدة مرات حين خرج إلى الشرفة ليشكر وفود البلاد التى جاءت لتحيته، وظلت هذه الصورة للنحاس باشا مرسومة فى ذهن صبينا على الرغم من أن الحياة مهدت له رؤية النحاس باشا بعد ذلك مرارا».

□

وفى مقابل هذا نقرأ للدكتور على الحديدى ما أجاد به تقديم صورة صدقى باشا فى تعامله مع طلاب دار العلوم (وقد كان صاحب المذكرات واحدا منهم) وهو رئيس للوزارة فى ١٩٤٦، وذلك بعد قيام الطلاب فى دار العلوم بمظاهراتهم ضد الوزارة:

«فى مقهى قريب تجمع فريق من الطلاب وكتبوا التماسا لصدقى باشا باستجابة مطالبهم والعفو عن المعتقلين من الطلاب، وذهبوا بهذا الالتماس إلى وزارة الداخلية، وكان مبناها القديم [من عندنا نقول: ولا يزال] بميدان لاظوغلى قريبا من الكلية، وانتظروا رئيس الوزراء ووزير الداخلية صدقى باشا، وحين أهَل ركبُه ونزل من السيارة هتف الطلاب باسمه نصيرا للعدل ومؤيدا للعلم، وقدموا له الالتماس، ومما قاله لهم صدقى باشا: «هذا أسلوب حضارى يتفق مع العلم والمتعلمين، فالمطالب تقدم بها مذكرة وسينظر فيها بعين الإنصاف، أما الإضراب والشغب فهو أسلوب همجى فوضوى متخلف»، وسكت الطلاب على مضض بعد أن وصفهم بالتخلف والهمجية والفوضى، وأخبروه بأن زملاءهم المعتقلين هم الذين أشاروا عليهم بكتابة هذه المذكرة وتقديمها لكم، ويثقون فى عدلكم وإنصافكم، فقال: «معنى هذا أنهم عادوا إلى رشدهم»، وأمر بالإفراج عن المعتقلين وعودة الدراسة بالمدرسة، وختم المقابلة بقوله: «لا تنسوا أن مدرستكم بنت الوزارة، أما كليات الأزهر فهى تابعة لشيخ الأزهر، ولابد من أن الوزارة تنصف أبناءها».

ويردف الدكتور على الحديدى بعد ذلك بتصوير جيد لمشاعر صدقى باشا حسبما تصورها:

«وهتف الطلاب بحياة صدقى باشا، وكان وهو يستمع الهتاف يبتسم وكأنه يسمع لحنا موسيقيا جميلا، ولعله كان فى شوق لسماع مثل هذا الهتاف الذى لم يسمعه من المتعلمين إلا اليوم، وفتحت المدرسة أبوابها وانتظمت الدراسة».

(٢٢)

ولا تخلو مذكرات الدكتور على الحديدى من تصوير بعض ما اطلع عليه من دقائق التاريخ السياسى فى أول عهد الثورة، وهو على سبيل المثال يروى قصة تعيين الأستاذ الصاوى رئيسا (منفردا) لتحرير الأهرام بعد فترة كان قائما فيها بهذا العمل دون أن يتولاه بصفة محددة، ومن الطريف أن نقرأ ما يقصه علينا الدكتور الحديدى من أن الثورة قبضت على كل الصحفيين الشوام العاملين فى الأهرام بسبب مقال للأستاذ عزيز ميرزا:

«وكانت أسهم الأستاذ الصاوى مرتفعة عند رجال الثورة، وبات من المنتظر أن يعين رئيس تحرير للأهرام، وقد ظل الأهرام بغير رئيس تحرير فترة وله نائبان (أى لرئيس التحرير) أحمد الصاوى محمد للشئون السياسية الداخلية والخارجية، وعزيز ميرزا للشئون الاقتصادية، أما سكرتير التحرير فهو نجيب كنعان، وكان (أى نجيب كنعان) كل شىء فى التحرير والنشر بحيث لا ينشر شىء حتى من نائبى رئيس التحرير إلا بتوقيعه. وفى هذه الأثناء كتب عزيز ميرزا مقالا اقتصاديا رأت فيه الثورة مساسا بها ودعوة إحباط لها فقبض عليه وعلى كل الشوام العاملين بالتحرير فى الأهرام، ولجأ الشوام إلى الصاوى ليسعى بعلاقاته الحسنة مع رجال الثورة ليبين لهم حسن النوايا، واستطاع الصاوى أن يثبت ذلك [أى حسن النوايا] لدى رجال الثورة فأفرج عن الشوام، ولم يعد هناك تنافس على رئاسة التحرير، وعين الأستاذ أحمد الصاوى محمد رئيسا لتحرير الأهرام، ونزل بمكتبه إلى جناح رئيس التحرير بالدور الأول فى

المبنى القديم بشارع مظلـوم، وأعدت غرفة لهيئة تحرير [يقـصد: هيئة مكتب] الرئيس الجديـد، وأصبح مكتب الصاوى كل ليلة ندوة لالتـقاء بعض أعضــاء قيـادة الثورة يعرض عليـهم مجريـات الأمور الخارجـية والداخلية، ويحلـلها لهم، وصار الصـاوى الصحفى الأثيـر لدى رجال الثورة وموضع ثقتهم».

(٢٣)

ومن المفيد لتاريخنا الوطنى المعـاصر أن نقرأ ما يرويه الدكتور على الحديدى عن حقيقة مـوقف حزب العمال البريطانى من حرب ١٩٥٦، وهو يلخص الخطاب الذى ألقـاه زعيم حزب العمل فى مـيدان «الطرف الأغر» وطـالب إيدن فيـه بألا يتصـرف مع عبد الـناصر تصـرف رجال الغابات فيواجه الاغتصاب باغتصاب مثله:

«وخرج المصـريون لينضموا جميـعا إلى المسيرة التى نظمـها حزب العـمـال، وكـان النداء الذى يرددون: «إيدن دكـتـاتور، لا حـرب بل مفاوضات»، وصـلـت المظاهرة ميدان الطرف الأغر، وصعد جـيتسكل على مرتفع وخطب فى الجماهير خطبة حـماسية ضد إيدن وضد إعلان الحرب وقال: «إنه لا يمارى فى أن ناصر اغتصب القناة، لكننا لسنا من رجال الغابات نواجه الاغتصاب باغـتصاب مثله كإعلان الحرب، ولكن لنكن حضاريين ونواجه الاغتصـاب بالتفاوض، وناصر يعلم قوة انجلترا فلن يستهين بهـا، ولن يظن أننا لن نحارب من منطلق الضعف، بل من منطلق العقل والحكمة».

□

ويروى الدكتور على الحديدى تفاصيل بعض المواقف المشرقة التى وقفها بعض الشبان المصريين الذين كانوا لا يزالون فى بدايات حياتهم الوظيفية، ومع هذا فإنهم ضحوا بوظائفهم وأهلهم من أجل إثبات وطنيتهم، ومن حسن حظنا أننا نعرف فى هؤلاء بعض أعلام وطننا الشوامخ فى الأداء المهنى والسلوك الوطنى حتى يومنا هذا:

«وكان من الذين احتجوا على إعلان الحرب على مصر والهجوم عليها مصريون يعملون فى هيئة الإذاعة البريطانية بلندن كمذيعين أو مخرجين، وعلى رأسهم الفنان الكبير محمود مرسى، وكان يعمل مخرجا للتمثيليات والبرامج، والدكتور محمد زكى العشماوى نائب رئيس جامعة الإسكندرية بعد ذلك، وكان يعمل مذيعا لنشرات الأخبار، بل كان أحسن من قرأ النشرة والأحاديث فى هذه الإذاعة، وقد أثبتا بعودتهما وطنية صادقة، فالإذاعة البريطانية تذيع أخبارا وأحاديث ووجهات نظر وتمثيليات موجهة ضد مصر، وعادوا مشيعين من المصريين بالمدح والثناء، وقاطع المصريون المقيمون فى لندن هذه الإذاعة لأنها تهاجم مصر بالحق وبالباطل، وكاد القسم العربى بالإذاعة البريطانية يتوقف لولا أنها استعانت على عجل ببعض الذين يتكلمون العربية من بلاد أخرى».

(٢٤)

ونأتى إلى بعض التجارب الشخصية المبكرة لصاحب هذه المذكرات، ونحن نراه وقد قرر أو رسم لنفسه طريقه بتأجيل الزواج حتى يُتم لنفسه تكوينها العلمى والمهنى، لكنه نقل للعمل فى مدرسة

المعلمــات لأسباب تتعلق بتنقــلات المدرسين الشبــان وما حظى به من استبقاء له فى القاهرة (بعيدا عن الصعيد. . وذلك بفضل توصية الأستاذ الصاوى رئيس تحــرير الأهرام)، ولم يكن وضعه فى مــثل سنه المبكرة طبيعيا فى هذه المدرسة، وهكذا فـقد أصبح محط أنظار طالباتها اللائى كن على وشك التخرج.

ولا ينكر الدكتور الحديدى معاناته النفســية والوجدانية بسبب الإقبال عليه وخطب وده، ومضى الطالبات فى هذا الاتجاه إلى مراحل متقدمة، وهو لا ينكر أن معاناته هذه كانت معانــاة لذيذة أو ممتعة لكنها مع ذلك كانت تترك آثارا فى نفسيته، وهذا هو يحدثنا عن نهاية تجاربه مع فتيات مدرسة المعلمات فيقول:

«كان العام الدراسى يخطو إلى نهايته، وإذا بجرس الباب يدق صباح يوم جمــعة [لا يذكر الــدكتور الحــديدى كيف عرفت الطــالبات عنوان مسكنه] وتقف بالبــاب طالبة جريئــة ممن كن يدرس لهن فتانا بمــدرسة المعــلمات، وتخبــره أن الفصل الذى كــان يدرس بالمدرســة فى زيارة للمعرض الزراعى ويردن رؤيتــه للتحية، فقــد فارقهن دون ذنب جنينه، وحتى دون كلمــة وداع، وأسقط فى يد الفــتى ولم يجد بدا من التلبــية والمعرض على بعد خطوات من منزله، وكان لقاء جميلا مع الطالبات، وزادت تليفونــات المعاكسات المــجهولة لكن أربع طالبــات كشفن عن شخصيــتهن (أى فى التليفون) ورغبن فى زيارته دوريا لمــجرد الصداقة والريادة والمشورة فيما يعرض لهن فى الحياة الطلابية والأسرية، وكلهن تخطين العشــرين، فقد كن فى سنة الدبلوم الأخيــرة، وأخذت زيارتهن مجتمعات تتكرر».

«ولا يخفى فتانا أن هذه الزيارات كانت تبعث نوعا من السعادة والرضا الذاتى للفتى، فمن ناحية أنه لا تشوبها شائبة من حرمة فى اعتقاده، ومن الناحية الأخرى أنه يؤدى واجبا إنسانيا فيما يقدم للفتيات من نصائح وشرح للدروس، لكن الأمر لم يسر كما يريد، فقد أرادت واحدة منهن أن تستأثر به حبيبا دون زميلاتها، وقد جاهرت صديقاتها بذلك، لكنه لم يكن مستعدا للارتباط بفتاة فى ذلك الوقت، ففى خيالاته أحلام كبيرة وآمال واسعة».

«وانفضت الجلسة الأسبوعية قبل موعدها وانقطعت تليفونات الثلاث العاقلات، ولم يبق غير تليفون التى خصته لنفسها دون أن تأخذ رأيه، وحاولت محاولات يائسة أن تقابله وتخرج معه لكنه رفض، وحين عرضت أن تأتى إلى بيته منفردة دون صديقاتها وأخذت تبكى، جاهرها بأنه لا ينوى الزواج إلا بعد أن يسافر إلى انجلترا ويحصل على الدكتوراه، وهو مشروع مقدر له عشر سنوات، وحينئذ تكون الأمور قد تغيرت، والأفكار قد تطورت، وقد لا يعجبها أو لا تعجبه، والأولى أن تيأس مما بنته من آمال، وانتهت المكالمة بأنه [أى بأن قالت إنه] يكذب عليها ليبتعد عنها وانقطعت مكالماتها هى الأخرى، وانتهت بذلك تلك الفترة الرومانسية الجميلة نهاية غير سارة».

(٢٥)

وتحفل المذكرات بعبارات الوصف الجميل التى يترجم بها الدكتور على الحديدى مشاعره الرقيقة تجاه كل جديد يقابله، فهو على سبيل المثال يتحدث عن ركوب القطار أول مرة فى طريقه من قريته فيقول:

«وجلس يشاهد من النافذة الأشجار والحقول تجرى إلى الوراء، وأعمدة الكهرباء تسرع لتدرك أعمدة التليفونات».

□

كذلك تحفل المذكرات بكثير من الطرائف التى تصور انتقال صاحبها من بيئة إلى أخرى ومعاناته مع تجارب تفرض عليه دون أن يكون واعيا لنهايتها، ومن ذلك ما يورده من قصته مع ضياع عمامته يوم تشييع جنازة الملك فؤاد فيقول:

«يذكر صبينا من أحداث هذا العام ١٩٣٥/١٩٣٦ حادث وفاة الملك أحمد فؤاد، خرج فيه الطلاب بعمائمهم وملابسهم الأزهرية واصطفوا فى شارع محمد على حتى يمر رفات الملك مسجى على عربة مدفع تجرها الخيول وملفوفا بعلم مصر ذى الهلال والنجوم الثلاث، ومن شدة الزحام طارت عمامة صبينا الصغير لقصره، وشغله ضياع العمامة عن مشاهدة عربة المدفع ورفات الملك [يقصد النعش الذى يحمل الرفات، فليس بوسع المشاهدين للموكب أن يشاهدوا الرفات]، ودارت بخلده عواقب كثيرة لضياع العمامة، ونهاه كثيرون عن البحث عنها فى هذا الزحام وإلا لدهسه المتزاحمون، وبعد أن مرت الجنازة وانتهى المشهد سمع مَنْ ينادى من طلاب الأزهر الكبار على مَنْ ضاعت عمامته، فزاحم الصبى حتى وصل إليه، واستعاد منه العمامة وشكره شكرا حارا، لكنه لم يضعها فوق رأسه، بل طواها ووضعها فى جيب الكاكولة كما يفعل وهو فى الطريق إلى المعهد تفاديا لما ينادى به أولاد الشوارع على الصغار من طلاب الأزهر الذين يلبسون العمامة».

يجدر بنا أن نشير هنا إلى ما تورده مذكرات الدكتور أحمد هيكل من تصويره للأذى الذى كان يلحقه أبناء مدينة الزقازيق بطلاب الأزهر حين يرونهم فى زيهم الأزهرى، وما كان يقابل هذا من السلوك المتحضر لأبناء الريف تجاه مَنْ يرتدون هذا الزى.

(٢٦)

وتحفل مذكرات الدكتور على الحديدى بتسجيل الإعجاب والتقدير لأساتذته الذين قدر له أن يتعلق بهم ويفيد من علمهم وخلقهم وفضلهم، وهو على سبيل المثال يروى كيف تعلقت نفسه منذ النظرة الأولى بالأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى [وزير شئون الأزهر فيما بعد] فيقول:

«فى السنة الثالثة الثانوية دخل فى حصة البلاغة شيخ فى زهرة الشباب، مهندم، عليه سيما الوقار بملابسه وحديثه، وكان وجيها، أنيقا فى شكله وملبسه، هو الشيخ عبد العزيز عيسى رحمه الله رحمة واسعة، وقد اختير وزيرا للأوقاف فيما بعد [الصواب أن الشيخ عبد العزيز عيسى اختير وزيرا لشئون الأزهر ولكن لأنه كان الوحيد الذى انفرد بشغل هذا المنصب من دون أن يضم إليه وزارة الأوقاف، فقد ارتسمت الصورة فى ذهن الدكتور الحديدى أنه كان وزيرا للأوقاف]، وأخذ يشرح الدرس باستفاضة، وبين الفينة والفينة يسأل طالبا عما فهمه من شرحه، ويسأل آخر وآخر حتى يطمئن إلى فهمهم، وأحبه الطلاب وتسابقوا على إرضائه باستعدادهم للدرس التالى، وكان طالبنا من أوائل مَنْ يستعدون لدروس الشيخ عبد العزيز، واتصلت بينهم العلاقة، فقد

استرعى الشيخ عبد العـزيز استعداد الطالب لدرسه، وطلب منه أن يأتى إلى منزله إذا استعصى عليـه فهم درس من الدروس، واستجاب الطالب وزار الشيخ عبد العزيز، وصار يزوره فى المناسبات والأعياد».

□

ويروى الدكتـور على الحديدى بعض مواقف هذا الـشيخ الجليل فى مواقف عديدة من حياته العلمية بعد ذلك، ومن هذا ما يرويه عن وقوفه معه فى محنة تعرضه للفصل بسبب مناوئته لجبهة الشيخ المراغى، وهى القصة التى روينا تفاصيلها فـى بداية مدارستنا لهذه المذكرات، وهو فى هذه القصة يصل إلى قوله:

«سافر فتانا إلى القاهرة ليشكر الشـيخ عبد العزيز عيسى على ما قدم له من عون حتى تخطى عقبة الثانوية الأزهرية، وكانت وصية الشيخ أنه لابد له من النجاح فى امتحان القـبول بدار العلوم وإنهاء صلته بالأزهر، لأن فى ذلك نجاة من مشكلاته مع طلاب الأزهر».

□

كذلك يثنى الدكـتور على الحـديدى فى مذكراته على علم الأسـتاذ عباس مـحمود العقاد وفـضله، وهو يروى كيف تمت معرفتـه بالأستاذ العقاد فيقول:

«وتردد فتـانا على ندوة الأديب الكبـير عبـاس محـمود العـقاد التى يعقدها بمنزله يوم الجـمعة، وكشف له عن هويته وأنه جـاء ليتزود من

علم العقاد الزاخر، ومن معلوماته القيمة عن النديم وقد عاصره وعايشه، وكأن الفتى قد فتح بابا للمعلومات على مصراعيه فأخذت تنساب من بين شفتي الأديب الكبير، وكيف التقى بالنديم فى صباه، وزود فتانا بمعلومات ثمينة كشاهد عيان ومصدر حى من مصادر المعلومات».

(٢٧)

ومن بين أساتذة دار العلوم يحظى العميد الأستاذ إبراهيم مصطفى بثناء وافر من الدكتور على الحديدى فى مواضع عديدة، وهو يشير إلى فضل أستاذه إبراهيم مصطفى على دار العلوم وتحولها إلى كلية ذات طابع أكاديمى متميز:

«والحق أنه كان عالما فاضلا يتميز بالسماحة، وطيب الخلق، والترجمة الحقيقية للحياة الجامعية، وكان انضمامه إلى كلية دار العلوم فى وقت تحتاج فيه إلى عميد تمرس بالحياة الجامعية، وعرف تقاليدها ونظمها وقواعدها، وقد تحقق ذلك فى إبراهيم مصطفى فكان خير عميد حظيت به دار العلوم فى مرحلة تكوينها الجامعية، إذ استطاع بحنكته ودبلوماسيته أن يسير بالكلية سيرا تدخل به غمار الحياة الجامعية، ويضعها على جادة الطريق فيتخطى الأزمات التى كانت تخيم على الدار من جراء اختلاف تفكير الأساتذة القدامى وسيرهم على طريق المدرسة العليا بحكم العادة، فى الامتحانات، وحضور المحاضرات، والدكتاتورية فى معاملة الطلاب، والأساتذة الجدد الذين يتعاملون بمبدأ الحرية للطالب فى الحياة الدراسية وحرية الأستاذ فى الامتحانات وفى

التفكير الحر».

□

ويصف الدكتور على الحديدى أستاذه فى الشريعة الإسلامية فى كلية دار العلوم الشيخ على حسب الله بوصف دقيق وتقدير وإعجاب فيقول:

«والشيخ حسب الله صاحب المدرسة العلمية التى تتحرى الأخف والأسهل فى الأحكام الشرعية والتوفيق بين المذاهب الدينية، مع أنه فى محاضراته وامتحاناته من أشد الأساتذة إن لم يكن أشدهم وأصعبهم على الإطلاق، لكنه ينادى دائما بأن دين الله يسر فلا تتشددوا على العباد فيشدد الله عليكم، ويأخذ بمبدأ: لن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

(٢٨)

وفى مذكرات الدكتور على الحديدى إشادة ببعض أعلام الوطن من المسئولين عن التربية والتعليم والجامعات، ويأتى فى مقدمة هؤلاء حديث صاحب المذكرات بكل الاعتزاز عن الأستاذ أحمد نجيب هاشم وهو يوجز رأيه فى شخصه وإنجازاته فيقول:

«علّم موظفى وزارة المعارف وإداراتها، وهو وكيل وزارة ثم وهو وزير، الدماثة وحسن المعاملة مع الجمهور، وكان عهده يعد العهد الذهبى لوزارة المعارف، وقد ودعه [الضمير يعود على صاحب المذكرات] وهو وكيل وزارة مساعد وعاد إليه عام ١٩٥٩ وهو وزير للمعارف».

□

وفى موضع آخر يروى الدكتور على الحديدى أحد المواقف النبيلة لهذا الأستاذ العظيم فيقول:

«وفى ١٨ من ديسمبر قدم مذكرة للسيد وزير [التربية و] التعليم طالبا تسويته بطلاب البعثات فى المعاملة المالية، إذ إن تقاريره من المشرف ممتازة، وقابل السيد أحمد نجيب هاشم وكيل الوزارة النبيل لتحيته، ورجاه مساندة المذكرة، فطمأنه وقال له: اعتبر الموضوع منتهيا إن شاء الله».

□

وهو يعبر عن مشاعره تجاه هذا الأستاذ النبيل عندما علم بتوليه الوزارة فيقول:

«وفى ١٤ من أكتوبر صدر قرار بتعيين أحمد نجيب هاشم وزيرا للتربية، وهذا الرجل له فى عنق صاحبنا أيادى كثيرة، سواء فى بداية الرحلة ليخرج فى بعثة دراسية، أو فى إسناد عمل إضافى له فى المكتبة الملحقة بمكتب البعثات ليستطيع العيش فى انجلترا، وكان رجلا ينبع منه الخير لكل من يطلبه ويجده مستحقا له، وهو كما قال عنه صاحبنا علّم موظفى الوزارة الأدب والكياسة والذوق فى معاملة الجمهور، وأرسل فتانا تلغرافا يهنئ الوزارة بهذه الشخصية العظيمة أن تولت رئاستها».

ربما نتوقف لنقول: ما أجمل هذا التعبير الذى يسوقه الدكتور الحديدى، ولكن كيف كتب هذا التلغراف الجميل؟! هل كتب إن المرسل إليه هو الوزارة؟ وكيف تسلمت الوزارة هذا التلغراف؟.

□

ويثنى الدكتور على الحديدى الثناء الحسن الجميل على مدير مكتب البعثات المصرية فى لندن الدكتور البطريق فيقول:

«وكان الدكتور البطريق من خير مَنْ ورد على المكتب من المدراء، قمة فى الخلق الكريم، لا يترك طالبا فى مشكلة إلا ويبحث لها عن حل، ولا يأتيه طالب من بلد بعيد فى بريطانيا إلا ويستضيفه فى منزله، وكان الطلاب يسمون بيته «بيت الأمة»، وكان سعيدا بهذه التسمية ويود أن تكون اسما على مسمى».

كذلك يثنى الدكتور على الحديدى على الدكتور مرسى سعد الدين الذى كان يشغل منصب وكيل مكتب البعثات فى لندن.

□

ويفعل الدكتور على الحديدى الشىء نفسه مع الأستاذ عبد العزيز القوصى، فمع أنه قاد ثورة الخريجين ضده حين أراد نقل الدراسات التربوية إلى فرع معهد التربية فى الزيتون، فإنه يعرف لهذا الرجل فضله مع ما ينتقده فيه من أسلوب التعالى على الطلاب فى محاضراته:

«الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى عميد المعهد، عالم قدير لاشك فى ذلك، بل هو عالم فى علم النفس على المستوى العالمى، له نظريات تدرس فى معاهد التربية ببلاد العالم. كان الدكتور العميد طيب الله ثراه حين يعطى المحاضرة ينظر إلى الطلاب من أعلى خلف نظارته وكأنهم حشرات، فإذا سأل طالب سؤالا لابد من تسفيهه أولا وإشعاره بالدونية والجهل، ثم لا يجيب السؤال».

وهنا يتساءل الدكتور على الحديدى ويحاول الإجابة فيقول:

«ترى هل هى رواسب بينه وبين الطلاب من إغلاق معهد الزيتون! أم لعلها طبيعته كعالم عالمى كبير يدرس لطلاب لا يفهمون شيئا فى علم النفس؟».

☐

ثم يعود الدكتور الحديدى إلى تقييم شخصية أستاذه الدكتور القوصى فيقول:

«ويقرأ الطلاب كتابه فيفهمونه، ويسمعون محاضرته فلا يستفيدون الكثير، لأن التواصل بين الطلاب والأستاذ منقطع. وفى يوم بعد أن ضاق الطلاب بطريقته ومعاملته وقف طالب ليسأل: سيدى الدكتور.. لماذا يشيع القول بأن كل أستاذ فى علم النفس يحتاج عالما نفسيا آخر ليعالجه؟ هل هذه المقولة صادقة؟ وإذا به يجمع أوراقه ويغادر المدرج، واضطر الطلاب إلى استرضائه فى حجرته حتى عفا عنهم واستمر فى محاضراته».

وبعد كل هذا يشير الدكتور على الحديدى إلى موقف كان هو فيه بمثابة المطالب بتكريم الدكتور القوصى فيقول:

«ومن الأقدار السارة أن فتانا والدكتور القوصى التقيا فى الحياة وصارا صديقين يحمل له فتانا كل إجلال واحترام، ويقدر مكانته العلمية العالمية، وأرجع الدكتور القوصى ما كان يحدث من الفتى إلى شقاوة

يتميز بها نوع من الشباب الذين لديهم طاقات أكثر مما يتعاملون فيها مع الحياة، وفى مستقبل الأيام رشح فتانا الدكتور القوصى ليكون أستاذا [يقصد: عضوا] من الخارج فى مجلس كليته لتنتفع الكلية برأيه وعلمه وفكره».

(٢٩)

ولا يقف ثناء الدكتور الحديدى عند حدود أساتذته، وإنما هو حريص أيضا على أن يثنى على بعض زملائه المتميزين، وهو على سبيل المثال يثنى على زميله الدكتور عبد الصبور مرزوق فيقول:

«هو الخطيب المفوه الذى يمتلك ناصية القول ولا يعوزه الأسلوب والجرأة، والأفكار والحصيلة اللغوية ترد إليه تترى».

□

كذلك يصف الدكتور الحديدى لقاءه اليومى بزميل دراسته إسماعيل الشافعى فى إطار من الحب والتقدير والاعتزاز بهذا الزميل، وكيف أن موعدهما فى اللقاء الصباحى كان هو أغنية أم كلثوم:

«كان إسماعيل الشافعى الصديق صاحب فضل، إذ يمر على طالبنا صباحا، وكان موعدهما أغنية أم كلثوم «ياصباح الخير ياللى معانا. . . الكروان غنى وصحانا»، وكان صوتها يُسمع من المذياع الذى يشق أجواز الفضاء من كل بيت فى الشارع، وكانت هذه الأغنية تذاع فى موعد محدد كل صباح، ويتزامل الطالبان فى السير مشيا إلى دار العلوم

بحى المنيرة، ويقطعان الطريق بالحكايات وبحل المسائل العلمية الغامضة فيما استذكراه بالأمس».

□

كما يشير الدكتور على الحديدى إلى بعض ما عرفه وخبره من نبل زميله وأول دفعته المغفور له الأستاذ محمد الجرح، وهو يصفه فيقول:

«كان عجيبة زمانه بين زملائه فى ذاكرته اللاقطة، وحافظته التى تصل حد الإعجاب والإعجاز، لا يعرف معنى الصعوبة فى المقررات الدراسية، وكان ترتيبه الأول دائما، وبينه وبين الثانى درجات وفروق كبيرة، طوف بالآفاق، وذهب فى بعثة إلى انجلترا ليدرس اللغة العبرية».

وهو يشير إلى الخدمات النبيلة التى قدمها له هذا الزميل دون تفكير فيقول:

«وكان عونا لفتانا فى حجز مكان له فى جامعة لندن ليبتعث إلى هناك، وهو الذى قدمه إلى إذاعة الـ«BBC» لكى يشارك فى برامجها كتابة وقراءة وإذاعة، وذلك جعله يعيش فى بحبوحة من الحياة أبعدته عن التقشف والضيق. وكان المصريون الذين يعملون فى هذا المجال يخشون الجديد الذى يأتى إلى مجال العمل خوفا من أن يحجبهم ويقطع أرزاقهم، ولكن الجرح كان من طيبة القلب ونبل النفس ما جعله يقدم الخير ويبادر بالعطاء دون نظر إلى العواقب، إيمانا منه بأن الرزق محدد».

الباب الثالث

صفحات من حياتى
مذكرات الشاعرة جليلة رضا

(١)

هذه ترجمة ذاتية متميزة لشاعرة قديرة أوتيت مجامع الكلم، ورزقت القـدرة على التـعـبـيـر الناضج الدقـيق عن مـشـاعـرها، وأفكارها، ومعتقداتها، كما رزقت حياة مـتميزة حافلة بالتفرد فى التجربة، ورزقت توفيقـا تلو توفيق فى مواجهتـها لمصاعب هذه الحيـاة وفى شق طريقها فيها، وهى لهذه الأسـباب المجتمعة تروى قصة حـياتها على نحو رائع وحافل بالاحتـفاء بالإيمان واليقين، كمـا أنها بشاعريتها المـرهفة قادرة على القـبض على لحظات متـواليـة من حيـاتها لتـؤلف منها حلقـات الحديث عن هذه الحياة فى صورة بديعـة متماسكة ومتكاملة فى الوقت نفسه.

وتحفل قصة حياة الشاعرة جليلـة رضا على نحو ما روتها فى كتابها بدفقـات شعورية تبلغ الذروة فى الصـدق النفسى من ناحيـة، والصدق الفنى من ناحية أخرى، كما تحفل المذكرات بقدر وافر من الشجاعة لم يتوافـر لأى سيـدة عربيـة أخرى روت بعض مـراحل تاريخ حيـاتها أو تجربتها فى سيرة ذاتية صريحة، أو فى عمل أدبى.

وفى جمـيع الأحوال فقـد نجحت جليلة رضـا فى أن تعيـد تصوير ملامح حـياة طويلة وعريضة فـى مجموعـة من الصفحات أو الفـقرات المرتبطة والمـترتبة على نحو مـمتاز من دون أن تنفى من حيـاتها جزءا

كبيرا ولا مرحلة من المراحل، إنما نحن نرى هذه الفصول المعدودة وقد تمكنت من أن تصور مراحل الحياة بدءا من وعى الطفولة وحتى حكمة الشيوخ، مرورا بالصور المتعاقبة لتفكير الشباب ونضجه ونزقه.

وبقدر ما نجحت الشاعرة جليلة رضا فى تصوير مراحل حياتها الشخصية والاجتماعية، وتعاقب هذه المراحل، فقد نجحت أيضا فى تصوير حياتها الإبداعية بدءا من مراحل التكوين والوعى والتأمل، ومرورا بمراحل التعبير المبكرة والتجربة والخطأ والتعلم، ثم وصولها إلى النضج واستوائها على قمة الناضجات من شاعرات وطنها، حتى أصبحت ولمدة طويلة بمثابة الشاعرة الأولى فى وطنها.

وبالإضافة إلى هذا وذاك نرى جليلة رضا وهى واعية كل الوعى للأحداث الكبرى التى تمر بوطنها، ونراها وهى صاحبة موقف وانتماء من كل هذه الأحداث والتيارات وهى تعترف بأن موقفها كان على هذا النحو أو فى هذا الاتجاه دون أن تقرن هذا باعتقادها فى صواب ما فعلت، ولا بتعصب للسبيل الذى سلكته، وهى تعترف فى ثقة الناضجين بأنها كانت مخطئة شأن غيرها ممن دفعتهم الحماسات والظروف إلى إهمال العقل والتفكير المنطقى، لكنها مع هذا لا تندم على موقف اتخذته، ولا على قرار سعدت به من قبل.

(٢)

وقصة حياة جليلة رضا نموذج جيد لما ينبغى لنا أن نشير على الفتاة المصرية بقراءته ودراسته فى مراحل تكوينها، وهى أيضا نموذج جيد

لما ينبغى لنا أن نشـير على المرأة المصرية أن تعود إلى فـراءته لتشحذ من خلالها قدرتها على الحكم على الأمور، وعلى تلمس الصواب، بل على إدراك الحق والخير والجمال.

ورأيى أن أعظم القدرات الفنية فى هذه الترجمة تكمن فى الجمع بين دقة التعبير عن الخصوصية التى تشى بها أحداث حياة جليلة رضا، وبين الحميمية التى تسود حديث جليلة رضا لنا عن ذاتها وحياتها وتجاربها.

فنحن نرى تعبيرا دقيقا عن حوادث وتفاصيل دقيقة، ونقرأ هذا التعبير فنحس كـما لو أنه كـتب لنا فى خطاب خـاص وليس فى كتـاب واسع الانتشار، كأنى أريد أن أقول إن جليلة رضا نجحت فى أن تصور لقارئها مدى احـتفائهـا به وهى تروى له فى حوار خـاص ما أرادت أن ترويه، وكأنها لا تكف عن محـاورته بينما هو يستمع إليها ويطلب التـفصيلات تلو التفصيلات، بل إنه فى بعـض الأحايين يبدو وكأنه يذكرها (دون أن نسمع صـوته) بنقطة وقفت عندها فى روايتـها لأحـداث معينة فـإذا بها تستجيـب إلى القارئ وتعود إلى هذه النقطة لتروى له أو لتسـتأنف معه رواية ما كانت قد توقفت عنده.

وبهذه القدرة الفذة على إيهام القارئ بالحوار معه نجحت جليلة رضا فى تسخير حميـمية من صنعها لتصوير خصوصيـة كانت بمثابة قدرها، وهذا فى رأيى مصدر العظمة فى هذه المذكرات الفريدة فى أدبنا العربى المعاصر.

(٣)

على أن أصعب ما فى هذه المـذكرات هو حرص صاحبـتها على ألا تشير إلي أسمـاء أزواجها الثلاثة إلا بحرف واحد للزوجـين التاليين (ع) و(س)، وبأنه أبو الأبناء للزوج الأول فحسب، كذلك تفعل جليلة رضا فى تعاملها مع مشروعين من مشروعات زواجها، مشروع كان قد وصل إلى النهاية لـكنها اعتـذرت عنه فى الليلة الأخيـرة، ومشروع آخـر كان يشغل وقتها وتفكيرها وتظنه مناسـبا لها، ولكنه لم يتم لسبب بسيط هو أن المرشح فيه لم يفاتحها(!!)

وتلجأ جليلة رضا إلى نفس الأسلوب فى الحـديث عن أحد الشعراء المرموقين هام بها فلما لم يصل إلى مبتغاه لم يتورع عن أن يهجوها فى ديوان كامل، وهى تكتفى من اسمه بحرف واحد (م).

وهكذا يجد القارئ لقـصة حياة جليلة رضا نفسـه وهو يقرأ أحاديث ممتعة عن أحداث وقعت فى العصر الذى يعيش فيه، وكان أبطالها أدباء وشعراء من المـشاهير الذين يعرف أسـماءهم وبعض آثارهم، لكنه من خلال هذه المـذكرات التى بين يديه لا يستطيع أن يعـرف مَنْ الذى قام منهم بدور البطولة الذى يجد ملامحه وتفصيلاته مكتملة الأركان أمامه، مع أن بعضنا يسـتطيع فك هذه الرموز بحكم المعـرفة المتـاحة بالمناخ الأدبى أو المحـيط الشعرى، فإن هذا لا يمنع الإقـرار بأن رموز جليلة رضا تقف حائلا أمام فهم الصورة كلها.

ولا أظن أن أحدا من قراء هذه السيرة الذاتية لم يندفع إلى سؤال مَنْ يعرفهم من معاصرى الشاعرة عن هؤلاء الذين وردوا فى سيرتها مرموزا

لأسمائهم بحروف، بينما وصفت الشاعرة ملامح حياتهم وتصرفاتهم بكل دقة وتفصيل.

ومع أننا نقرأ مذكرات جليلة رضا فنسعد بقراءة قصة إبداع وتألق وبتفاصيل تجربة أدبية ناضجة التكوين، إلا أننا مع هذا نظل مأسورين بقصة حياة إنسانية فى المقام الأول.

ولسنا نستطيع أن نتغاضى عن تجربة الحياة الواسعة العريضة التى قدر لها أن تعيشها متنقلة فى بيوت متعددة فى القاهرة والفشن والإسكندرية، ثم فى مدرسة داخلية، ثم بعد زواجها الأول فى قنا وسوهاج وقوص وأسيوط.

ولسنا نستطيع كذلك أن نتغاضى عن الإشارة إلى زيجاتها الثلاث، وإلى حبها المتعدد الذى روت لنا أكثر من أربع تجارب منه لم تتوج بالزواج.

ولسنا نستطيع أن نتغاضى عن تجاربها الفنية العديدة ومكانها فى المجتمعات الأدبية المختلفة.

(٤)

تروى جليلة رضا كيف بدأ إحساسها الفنى ينضج وكيف بدأت شاعريتها فى الظهور، بينما هى تعيش حياتها مع زوجها الأول فى شبابها وتنتقل ما بين مساكن مختلفة بمدن الصعيد حيث عمل زوجها فى سلك النيابة:

«وتشبثت بهوايات كثيرة طيلة تلك الأعوام.. العزف على البيانو، الرسم بالفحم وبالزيت، الحياكة، القراءة طبعا، ثم أخيرا تأليف الأغانى».

«كتبت عن الغربة، عن القطار الذى كان يمر أمامنا فى سوهاج، عن الحب والهجر، عن السهر والقلق والورد الذابل».

«ثم بدأت أتغنى بهذه الأغانى فى أثناء عملى المنزلى، وأعجبتنى ألحانى وأعجبنى صوتى فملأت البيت به، ودونت كثيرا من الأغانى فى نوتة صغيرة واحتفظت بها عندى».

□

على هذا النحو البسيط والمركب فى الوقت ذاته بدأ إحساس هذه الشاعرة ببعض موهبتها، ولكن حسن الحظ يقيض لها فى فترة قريبة مَنْ تولى رعايتها وتوجيهها بكل حب وإخلاص وهى تحكى قصة لقائها الأول بالشاعر إبراهيم ناجى الذى قدر له ولها أن يكون راعيها الأول، وربما لا يتعجب القارئ من هذا العطف والاهتمام اللذين كان ناجى يبذلهما، فنحن نعرف عنه رومانسيته وإخلاصه، لكننا فى الوقت ذاته لا نملك أنفسنا إلا أن نغبط هذه الشاعرة الناشئة على هذه الفرصة المواتية:

«وبدأت أحس بآلام عنيفة قاسية فى الأمعاء، وعرضت نفسى على بعض الأطباء فلم أبرأ».

«وقالت لى جارة: بجوارنا طبيب ماهر فلتذهبى إليه».

«سألت ما اسمه؟ قالت: إبراهيم ناجى».

«وذهبت. . كان ذلك عام ١٩٥٢».

«وعندما جاء دورى، وعبرت باب حجرة الكشف توقفت فى دهشة وتعجب».

«رأيت أمامى حلقة دائرية من الشباب تنحنى وترتفع، ملتفة حول رجل تجاوز الخمسين من العمر، يجلس فوق ذراع مقعد خشبى».

«كان الرجل ضئيل الحجم نحيلا، بعيدا عن الوسامة، ذا مقلتين واسعتين حائرتين، فيهما حدة نظرات الصقر، وبراءة عين الطفل، وهما تدوران مع الدائرة كموج وسط دوامة».

«لست أدرى كيف أفسح لى بعضهم مكانا بينهم، ووقفت أستمع إليه وإليهم».

«وذكرنى ما سمعت بالأغانى التى ألفتها فى بيتى أيام الزواج وفى أقاصى الصعيد، وحانت فرصة فقلت:

«إن عندى الكثير من هذا الكلام».

«ولأول مرة يلتفت إلىّ الشاعر الكبير، يلتفت إلى صاحبة هذه الجملة فى لهفة وتفرس صائحا:

«هاتى. . قولى ما عندك».

«قلت: لا أستطيع، فأنا مريضة جئت للكشف علىّ، ولكنى دونت

مثل هذا الكلام فى نوتة صغيرة عندى فى البيت».

«وتم الكشف، وودعنى الطبيب مؤكدا على ضرورة إحضار «هذا الكلام» فى الزيارة المقبلة».

«وفى المرة التالية تصفح ناجى النوتة وقرأ من بعض ما قرأ:

مضت الأيام تجرى
بين هم وعذاب

وسهرت الليل وحدى ... فى شجون واكتئاب

لم يكن قلبى يحوى ... غير آمال كبار

كفراش حائرات ... بين ليل ونهار

كنتُ كالزهرة حسنا ... كل ما حولى نعيم

أنشد اللهو وأسرى ... بين طيات النسيم

«وصاح ناجى هاتفا:

«مرحى.. مرحى.. هذا ناجى الصغير، هذا شعر.. شعر.. ينقصه دراسة العروض والقراءة.. تعالى».

«وجذبنى بشدة إلى مكتبة عريضة تتوسط حجرة بالعيادة، وفتح مصراعيها قائلا:

«خذى ما تشاءين من كتب الشعراء».

«قلت حائرة:

«ولكنى لا أعرف الشعر ولا الشعراء».

«وطفق ناجى يلتقط كتبا من هنا وهناك، ويكتب الإهداء».

«حافظ إبراهيم، خليل مطران، الأغانى.. وغيرها».

«قلت: وكتاب العروض؟».

«قال: اسألى عنه فى مكتبات شارع محمد على».

«وخرجت هذه المرة وأنا مشحونة بانفعالات مبهمة عنيفة».

(٥)

وتواصل جليلة رضا الحديث عن موقف الشاعر إبراهيم ناجى منها، أو عن فضله عليها وعلى شاعريتها، وتمزج هذا برسم صورة معبرة عن سلوكه وأدائه وانفعالاته، وهى صورة بديعة على كل الأحوال:

«وسرعان ما عكفت على دراسة العروض.. وبدأت أنظم الشعر، وأطلع الشاعر الكبير عليه».

«ما من مرة أطلعت ناجى على قصيدة لى إلا وكان رأيه يدفعنى إلى المزيد من الكتابة».

«ولأول مرة سمحت لرجل غريب أن يزورنى فى بيتى، كان بيتى فى طريق عيادته، فكان يمر علىّ بعد انتهاء عمله».

«كان يتحدث إلىّ مبتهجا دون توقف، فى صوت متعجل متحمس،

وبيدين صغيرتين عصبيتين دقيقتين تعيدان وتكملان فى صمت ما تفوه به الشفتان، كنت معجبة به، يقولون إن الإعجاب ليس الحب، ولكن قد يحدث أن يفضل المرء الإعجاب على الحب. كنت معجبة به، وهو يتكلم دون أن أنظر إلى وجهه. كان يسمعنى أشعاره الرومانسية المجنحة.. وكان يكاد ينسى نفسه حين يلقيها».

«أية قوة فى شاعر عبقرى لا يحس وجود نفسه؟ أية ثقة يحملها فى الكلمات الهاربة من عقله وقلبه؟».

«ومن حين إلى حين يعتريه شبه صمت.. ماذا كان ينتظر؟ هل أصفق له وأنا الوحيدة المستمعة؟ هل أصفق وأنا معلقة بين سحر الأحلام الطائرة وجلستى الساكنة الخجلى؟».

«حقا.. إن بعض الشعراء يظل مراهقا مهما كبر.. فما من وقت لدى الشاعر كى يغير نفسه».

«كنت عقب خروج ناجى أحس بشحنة خلاقة.. كنت أحس أحاسيسه فأقلد حركاته وسكناته».

«وأخذنى الغرور فتطلعت إلى نشر ما أكتب، وفاتحت ناجى فى الأمر، فاتصل بالشاعر الراحل محمد الأسمر، وكان آنذاك يرأس صفحة الأدب فى جريدة «الزمان»، وأعطانى عنوانه فى شبرا فذهبت إليه».

(٦)

وتواصل جليلة رضا رواية بعض ملامح علاقتها بالشاعر ناجى فتشير إلى تواصل المراسلات بينه وبينها بينما هى تقضى الصيف فى رأس البر، وتشير إلى قصيدة «الرحيل» التى كانت هى على حد روايتها ملهمة الشاعر فيها، ثم تتحدث عن فجيعتها بوفاته ثم عن مشاركتها فى حفل تأبينه:

«وجاء الصيف وسافرت أنا وأولادى إلى رأس البر، وكان ناجى رقيقا مجاملا فودعنى عند القطار، واحتفظت له بهذه اللفتة النبيلة، وراسلته من هناك، وأرسل هو لى خطابين سلمتهما فيما بعد إلى «رابطة الأدب الحديث» حين بلغنى أن الرابطة ستطبع كتابا عنه بعد وفاته».

«وحين عدت من المصيف كانت مفاجأة تنتظرنى، فقد أطلعنى ناجى على قصيدة «الرحيل» وكنت أنا ملهمته.. وأنا لم أخرج مع ناجى غير مرتين بعد إلحاحه.. الأولى إلى فندق سميراميس قبل هدمه، والأخرى إلى نقابة الصحفيين».

«وكان مطلع القصيدة:

هنا سميراميس هل تعلمين؟

وها هنا بالأمس طال السهر

«هذا كل ما كان بينى وبين الشاعر الراحل.. من ناحيته، عناية أستاذ بتلميذته.. ومن ناحيتى حب أخوى صادق، وإعجاب بشعره الرقيق».

«ومضى عام كامل على معرفتى بالشاعر، وذات صباح قرأت نبأ نعيه على صفحات الجرائد».

«اعترانى ذهول، وانتابنى دوار، وتأكد لى عدم المداومة على نظم الشعر. . فقد ولى الحافز ومضى المشجع!».

«واقتربت ليلة الأربعين. . فاتصل بى المرحوم محمد ناجى شقيق الراحل، ودعانى إلى إلقاء قصيدة رثاء فى حفل تأبينه، وكان يرأس رابطة الأدب الحديث».

«ولأول مرة أخرج من عزلتى، وأقف أمام الجمهور وألقى قصيدة لا بأس بها حازت الإعجاب».

□

وتحكى جليلة رضا بعد هذا أن القصيدة الجميلة التى نظمتها فى رثائه بعد عام من رحيله لم تكن إلا صورة من صور التأثر بشعر الراحل العظيم:

«وجاء صيف العام الثانى بعد وفاة ناجى وسافرت كالعادة إلى رأس البر».

«كنت لم أزل أذكر الراحل، وأقدر فداحة مصابى فيه. كنت أحس بالغربة بعد أن وجدت الأخ والناصح، وكان شعرى قد تأثر كثيرا بشعره فقلت:

«ها هى الشمس تهاوت فى دماها غارقه

وعلى الأفق غيوم جاثيات خافقه

ناشرات فوق ذاك الميت أكفان الفناء

تابعات ظل نعش كان رمزا للضياء

حائرات بين أجواء الفضاء الشاهقه».

* * *

هنا فى أضلعى قلب جريح فى شرود

كان بالأمس له ضوء وإشعاع فريد

فخبا.. وى! كيف يخبو ذلك النجم الرفيق

أين أمشى؟ كيف أخطو والدجى ملء الطريق

ما لعين أن ترانى.. أو لقلب أن يقود».

(٧)

والشاهد أننا نرى الشاعرة جليلة رضا فى مذكراتها التى بين أيدينا وهى تكاد تلخص مراحل حياتها الشعرية متواكبة مع حياتها العامة والشخصية، فديوانها الأول «اللحن الباكى» يصدر بعد وفاة إبراهيم ناجى، وديوانها الثانى «اللحن الثائر» يصدر بعد طلاقها من زوجها الثانى.. وهكذا.

وفى الحقيقة فإن جليلة رضا قد أجادت فى هذا التقسيم البديع لمراحل حياتها الإبداعية، وربما أتاها هذا بالفطرة النقية بدلا من أن تبحث عن مبررات أخرى تتخذها علامات على طريق شعريتها.

ومن الحق أن نشير أيضا إلى أن جليلة رضا كانت حريصة على أن تعترف وتشير إلى تشجيع بعض كبار الشعراء لها فى بداية حياتها، لكنها على سبيل المثال حريصة على رواية الفرق بين تشجيع كل من الشاعرين إبراهيم ناجى ومحمد الأسمر:

«لم يكن ناجى شاعرا وإنسانا فحسب، بل كان عالما نفسانيا خبيرا، يلمس نقط الضعف فى النفوس البشرية.. وكان الأسمر محاسبا قانونيا ومهندسا حريصا على وضع البناء فوق أسس متينة سليمة راسخة».

«كنت أنظم القصيدة فلا يكاد يقرؤها ناجى حتى يقفز كعادته مهللا:

«ليس فى الإمكان أحسن مما كان».

«فيعترينى فرح دافق مع علمى جيدا بأن هذه هى جملته المنتظرة».

«وأمضى إلى الشاعر الأسمر بنفس القصيدة فيقرأها عابسا مزمجرا:

«ماذا تريدين أن تقولى؟ أنا لا أفهم منها شيئا مطلقا».

«فأصاب برعشة خوف وحزن».

«ولكن.. مع توازن الكفتين كان الأمل يطغى على عوامل اليأس».

□

ولا يفـوت جليلة رضا أن تروى أيضـا بعض مظاهر تقـدير الشعـراء العرب لها:

«كنت أكتب أسبـوعيا فى مجلة «العـالم العربى» لصاحبهـا المرحوم أسعد حسنى».

«كانت المجلة منتشرة فى جـميع البلاد العربية، فكان كل أديب يأتى إلى القـاهرة يسـأل عن عنوانى ويزورنـى، ومنهم أديبـات لم أزل على صـداقة وثيـقة بهن.. كـانت منهن الأديبـة منور فوال والأديبـة سلوى الحومانى وغيرهن».

«وعرفت فائق السـمرائى وهلال ناجى وغيرهـم أيضـا، وكلهم أحبوا شعرى، وكانوا يقدروننى كثيرا».

. . . .

«كنت قد ارتبطت بـندوة المرحوم الشـاعر خالد الجـرنوسى، وكان يفخر بى ويعتز، وكان الشاعر (ع) أحد أعضائها المؤسسين».

«كنت أقف فـوق المنصة، وأبدأ فى إلقـاء القصيـدة بصوت جـميل وإلقاء سليم للغاية، وكثيرا ما كانت أبيات قصائدى تستعاد وتستعاد كأنى مطربة كبـيرة، ويشتـد التصفـيق، وأسمع خلفى صـوتا رنانا هو صوت الشاعر (ع) يقول:

«أنت خطيرة يا أستاذة.. خطيرة».

وبفطرة الأنثى القادرة على التمـييز والفرز تتأمل جليلة رضا مـاضيها وتعبر عنه فى عبارات قصيرة مركزة التعبير وتقول:

«والتف حولى أدباء كثيرون وشعراء أكثر. . فيهم مَنْ أعجب بوجهى واستحسنه، وفيهم مَنْ أعجب بشعرى وقدره».

«فيهم مَنْ تقرب ليصغى إلى إلقائى».

«وفيهم مَنْ تقرب طمعا فى الزواج بى».

(٨)

على أن مذكـرات جليلة رضا تبدو وكـأنها حريصـة على أن تجعلنا نشارك صاحبتها معاناتها فى الحب والحياة، وواقع الأمر أن جليلة رضا فى كل ما كتبته كانت حريصة على أن توحى لنا بأن جوهر مشكلتها فى الحياة [وفى الـحب على وجه التحديد]، أنهـا كانت تحب حبيـبا آخر تفضله على الرجال جميعا وهو الصـدق، وأن ولعها بهذا الحبيب أفسد عليها حبها للـجنس الآخر، وهى لا تشغل أذهاننا بهذا الصراع بين هذه القيمة وبين الناس، ولكنها تصـوغ من هذا الصراع حلقات متواصلة فى قصة حيـاتها أو سيرتها، وإن لم يمنعـها هذا من أن تعطى هذا الجانب «النظرى» أو «الأصولى» فى الصراع حقه، وهى تقول فى هذا المعنى:

«أنا أحب الصدق، أحبه بكل ما أملك من مشاعر، لذلك لم أستطع أن أحب أحدا من الرجال الذين صادقتهم فى حياتى».

«لم يستطع أحدهم أن يستولى على تفكيرى وإحساسى. كنت أحس بالنفور، كلما اكتشفت فيمـن أحسست له بالإعجاب أنه غير صادق فى

بعض تصرفاته أو كلمـاته. . فأنا لسوء حظى ذكية إلى حـد ما، ولسوء حظى أيضا لا تظهر على سماتى معالم هذا الذكاء».

«لذلك أراد الكثيرون استغـفالى، وتمردت فى قرارة نفسى على هذه الإهانة».

□

وتنتبه جليلة رضـا بسرعة إلى ضرورة التحـفظ على مثل هذه الفكرة وعلى مثل هذا التعميم فتقول:

«وليس معنى ذلك أن الكذب من صـفات الرجل وحده، فقـد كانت فى محيطى نساء يفـقن الرجال مكرا وخبثا. . . ولقد عاشرتهـن جميعا كمـتغابـية بلهاء، حـتى لا أثير حـقدهن علىّ. . ولكنى انسـحبت من صحبتهن بهدوء ورفق».

«فـالصدق عندى هو مـعنى وجـود الإنسان، فـإذا فـقدناه ضـاعت الإنسانية».

□

وربما لهذا السـبب نجد جليلة رضا فى افتتـاحية قصة حيـاتها تؤكد على معنى مهم، وهو أنهـا ستحتفظ ببعض الوقـائع والأسرار بعيدة عن الرواية، ومع أن أحـدا لم يطلب منهـا هذا إلا أنها تشـعر أنهـا لابد أن تعترف بهذا وإلا فإنها تكون قد خالفت ما تحب وتعشق من الصدق.

وهى تشير إلى هذا المعنى بكل وضوح وصراحة فتقول:

«فرغم ما سأكتب وما سأسرد، لابد أن تظل أشياء كامنة فى النفس لا تريد الخروج، لا تريد أن تقف أمام الشمس عارية سافرة».

(٩)

ومن أبدع ما يمكن لنا أن نقرأ فى هذه المذكرات قصص الحب الذى لم يكتمل، وتفسير صاحبة هذه المذكرات لأسباب عدم الاكتمال من وجهة نظرها، ذلك أن تحليل الشاعرة لهذه العلاقات يجمع ما بين الشجاعة والصدق ومع هذا فإنه يتبدى فى بساطة متناهية.

وهى تحكى ـ على سبيل المثال ـ قصة الشاعر الفيتورى الذى ترمز له بحرف الميم ، [وقد فك هذا الرمز الأستاذ كمال النجمى فى مقال من مقالاته نشر أيضا فى كتابه «القلم والأسلاك الشائكة»] فتقول:

«وتقرب منى شاعر من قطر آخر يدعى (م)، وكان شعره حريقا يأكل ما حوله، كان عاصفة تحت جمجمة».

«أحببت شعره، أعجبت بصاحب هذا الشعر الملهم، بيد أنه أحبنى أنا قبل شعرى».

«كان يصغرنى بكثير. . وكنت من ناحيتى لا أفكر مطلقا فى أن أرتبط يوما بزوج أصغر منى سنا، فذلك أمر يجعلنى لا أضمن حياتى معه فى المستقبل».

«ورفضته. . لقد ضايقنى كثيرا، سامحه الله، بل نظم ديوانا كاملا يهجونى فيه».

«غير أنى أعلم أنه كان مخلصا صادقا فى حبه».

(١٠)

أما قصة زواجها من الشاعر عبدالله شمس الدين زوجها الثانى [وللأستاذ كمال النجمى أيضا فضل فك الشفرة] فتبدو وكأنها تغطى صفحات كثيرة من الصفحات الأولى عبر كتابها، لكنها فى أحد المواضع تلخصها فى بعض فقرات:

«وأصبح من الطبيعى أن أراه دائما وأن يلازمنى فى عودتى إلى بيتى ليلا بعد الندوة بحجة الخوف علىّ».

«كان يرافقنى حتى باب البيت حيث يظل واقفا مستندا إلى الحائط فترة طويلة يعود بعدها إلى بيته فى حى شبرا».

«كان يظهر لى من المشاعر أنبلها: الخوف علىّ من وحدتى، الشفقة والحنان من أجل ظروفى العائلية، الصمت، الخجل، والإيمان العميق بالله عز وجل».

«وأنا الآن أعترف والله يشهد أنى لم أفكر مطلقا فى الزواج به، بل أقولها فى ثقة بأن قلبى لا يخفق من أجله، بل أحببت حضوره وسط الجميع، فلم يدخل بيتى مطلقا».

«وذات يوم جمعتنا الظروف بالشاعر (ع) وصديقة لكلينا.. فسألته الصديقة أمامى:

«ماذا تريد يافلان من الشاعرة؟».

«أجاب: الزواج طبعا، لقد سئمت الوحدة».

«قلت: هل يسأم الزوج وهو متزوج؟».

«أجاب فى دهشة: ومَنْ قال لك إنى متزوج؟ إنى مطلق منذ عامين وأعيش وحيدًا».

«وأحسست براحة، لقد زال من نفسى ما كنت أحس به من قلق الضمير.. إذًا هو غير مرتبط بزوجة، وعلىّ أن أفكر.. وفكرت.. فكرت كثيرًا».

......

على هذا النحو تلخص الشاعرة المنحنى الذى أوصل الأمور إلى نقطة الذروة فى العلاقة «الرسمية» أو «الشكلية».

ونحن نراها حريصة دون داع على أن تنفى جوانب الهيام عن هذه العلاقة فإذا بها تردف بأن تعترف أن زواجها به كان زواج مصلحة من أجل ابنها، ولم يكن زواج عاطفة، لكنها كانت تفكر على نحو ما تروى بهذه الطريقة التى تسأل فيها نفسها أمامنا على الورق الذى نطالعه:

«كيف أتزوج زواج مصلحة لا عاطفة؟».

«لماذا لا أحمل لهذا الشاعر قطرة إعجاب به وبشعره مادمت لا أحمل له عاطفة حب؟».

«ولكن ما الذى أحمله للشاعر (ع) من شاعر؟ هل هى صداقة تفوق الحب».

■

وتحاول الشاعرة جليلة رضا أن تجيب نفسها وتجيبنا عن موقفها من

هذا الصراع النفسى والعقلى الذى وجدت نفسها فيه:

«إن الحب حنين العقل للعقل والجسد للجسد».

«وأنا لا أميل إلى أفكاره وآرائه، لا لأنها غير سليمة، بل لأنى أحمل أفكارا مختلفة عنها».

«كل ذلك كنت أحس به عند لقائى بحبيبى الأول».

«وأنا لا ترعشنى لمسة يده أو كتفه».

«كنت أتناثر شظايا حين أراه».

«أجل.. إن الحب الجارف ضعف.. لكنه هو الحب.. فى الماضى وفى حبى الأول كانت لدىّ الجرأة التى بها أتسلل خارج البيت لأراه فى الطريق العام دون علم الأهل».

«ولأن الحب نادرا ما يكون عاقلا ورشيدا».

«ولأننا لكى نصادفه نسير فى طريق ملتو ومضاد».

«فهو يفتح تحت أقدامنا مهاوى الكذب والخداع على مَنْ أمنوا شرنا».

□

وهنا تصل الشاعرة جليلة رضا إلى مناطق من مناطق الإبداع حين تلخص ما عرفته عن الحب فى عبارات محملة بكل الحكمة العاطفية والجنون العقلى تقول فيها:

«ولذلك يجب أن نحب بشـره ونهم حتى ننسى فى غـيبـوبة سكرتنا جرائم الحب العديدة».

«إن الحب الجارف النارى مطهر للنفوس بمـا فيه من عذاب، لذلك يجب على مَنْ يحب أن يستغل كل قواه الخارقـة، كل أحلامه المجنحة لكى يفلت خـارج هذا العـالم. . خـارج قـوانينه ليـصـيـر أعـمى أو مجنونا. . . عند ذاك نعلن براءته».

□

وتصل جليلة رضا إلى تسجـيل حكمها على طبيعة عـلاقتها مع هذا الشاعر الذى كان متقدما للزواج منهـا من وجهة نظرها فتقرر أن العلاقة ليست علاقة حب لأنها لم تستكمل جنون الحب:

«نعم الحب أعمى ومجنون، وأنا مع الشاعر (ع) لست عمياء ولست مجنونة».

□

وتبلور جليلة رضا فى عبارات قـصيرة استنتاجها عن طبيعـة علاقتها بالشاعر الذى أصبح زوجها فتقول:

«إننى أنظر إليه وأجد فيه ما فى كل آدمى من نقائص، أنا لست عمياء إذن فأنا لست عاشقة».

وهى تستدرك لتصور ما حدث بالفعل:

«لكننى موجة صاخبة ضائعة تبحث عن شاطئ تستريح عليه».

(١١)

على هذا النحو تروى الشاعرة كيف قبلت الزواج حين جاءها الشاعر إلى بيتها وقد صحب المأذون والشهود، وكيف انتقلت مع الشاعر إلى بيت جديد، لكنها سرعان ما تحكى كيف جاءتها زوجته الأولى بعد أسبوعين من زواجهما فإذا بها تقرر أن تطلب منه الطلاق.

. . . .

«وأخيرا فإنها إذا تأكدت أننى أحبه فهى على استعداد أن تتركه لى من أجل «عيونى».

«كل ذلك وأنا صامتة كعادتى أنظر إليها وأتأمل. . ما أسخف الرجال!».

«ها هى ذى امرأة كلها إغراء، كلها فتنة، لا ينقصها شىء».

«وأخيرا قلت لها:

«اهدئى ياسيدتى، أنا لا أبنى سعادتى على أطلال سعادتك، أنا لم أتزوج به إلا بعد تأكدى من أنه انفصل عنك منذ عامين. . ثم. .».

«ولم أكمل. . فقد انفتح باب البيت ودخل الشاعر مع صديقه. . رآها جالسة فشحب وجهه ثم احمر وصاح بها:

«لماذا أتيت؟ اتركى هذه السيدة فى حالها (مشيرا إلىّ) ثم اصطحبها معه إلى الخارج».

«ومرت الساعات، وأقبل الليل، وعاد الشاعر (ع) وحيدا، وتركت له الحجرة ونمت مع ابنى فى هذه الليلة، بل سهرت الليل أفكر».

«واستقررأيى على الطلاق، لقد عشت تجربة رهيبة، لابد لها أن تنتهى».

. . . .

«ومر يومان وأنا أردد طلبى».

«تشبثت بموقفى.. وقابلنى بالصمت.. وأخيرا أحببت أن أحرك كبرياءه فصحت:

«لا أريد أن أحمل اسمك».

«وطأطأ رأسه صامتا، ثم أجاب فى حزن:

«لك ما تشائين».

(١٢)

على هذا النحو من إجادة الحديث وإجادة الصراحة فى الوقت ذاته، تحدثنا الشاعرة جليلة رضا باقتدار شديد عن قراراتها المتعارضة فى حياتها الشخصية، وعلى هذا النحو أيضا تصدقنا الشاعرة جليلة رضا الحديث عن كثير من مشاعرها النفسية والعقلية الخاصة بها، من ذلك حديثها عن حيرتها فى مدى قيمة وحقيقة بعدها عن خلق الغرور:

«طوال حياتى الشعرية لم أحس يوما بذرة من الغرور».

«دائما أبدا لا أثق بمقدرتى الشعرية».

«لست أدرى هل كان ذلك فى صالحى أم العكس».

«لست أدرى».

«لماذا أحس دائما قبل الأوان بالإخفاق والفشل؟».

«لماذا أحس بالعجز؟».

«هذا هو سر فشلى».

□

والشاهد أننا نرى مصداقـا لرأينا هذا وهو يتجلى فى موضع آخر من مذكـرات هذه الأديبة المـبدعـة وذلك عند حديثـها عن مـيلها للـعزلة والانطواء حيث تقول:

«كنت أيضا لا أقبل الجلوس فوق المنصة مع المتكلمين من الشعراء حتى لا أصير عرضة لأنظار المستمعين فى الصالة».

«كنت أتحاشى المـجتمعـات الأدبية والزيارات الطويلة.. أجل لابد لى من أن أعـرض هنا عيـبا كـبيرا هـو أكبر مـا بى من عيـوب.. هو الانطواء».

«فأنا انطوائية أميل إلى العـزلة ولكن رغما عنى.. كم كنت أحب أن أكون أنيسة جليسة مختلطة بالناس.. كم كنت أحب أن أحضر السهرات الأدبية المنزلية، وأن أناقش وأجادل وأبدى الآراء، وأختلف وأتفق كبقية الأديبات والشاعرات».

«ولكن عبثا. . لا أستطيع».

«بى شىء أسميه الخجل، ولكنه فى الحقيقة عدم الثقة بالنفس، كما ورد فى علم النفس».

«لماذا؟ لماذا أخجل من نفسى وليس بى شىء منفر؟».

«لماذا؟ ولماذا لا أثق بنفسى وكل مَنْ حولى يقدرنى ويحترمنى؟».

«ربما كانت رواسب طفولتى».

«ربما كان تأثير زواجى المبكر من زوج عنيف رغم معاملته الطيبة».

□

وتعبر صاحبة المذكرات عن هذا المعنى بطريقة أخرى فتقول:

«دائما أحس بالفراغ أمام الناس، وأشعر وحدى بامتلاء. . مع الناس أرى الغابة والصقور، والقهر والعدم، ووحـدى أحتضن الجمال والخير والعدل والحق. . وفوق ذلك كله الحقيقة العارية لمعانى الحياة».

«هذا هو قدرى. . وهذه طبيعتى».

(١٣)

بل إن جليلة رضا تتجاوز الحديث عن الصـفات التى تحتمل وجهى المدح والذم لتحدثنا عن صفات أخرى من التى يغلب الذم على تصورنا لها مهما تكن إنسانية الطابع، كالغيرة على سبيل المثال، وتفاجئنا جليلة

رضا بكل جسارة وهى تفعل هذا ضمن حديثها الكلى المتدفق فى مذكراتها، ونحن نراها وهى تعترف فى شجاعة وجسارة بمشاعر الغيرة تجاه سيدة أخرى أصبحت زوجة شاعر كان يحبها هى لكنها (أى جليلة رضا) كانت قد صارحته بأنها لن تقبله زوجا لها على الرغم من إعجابها به:

«. . . كان هناك شاعر رقيق دمث الأخلاق كثيرا ما كنت أشاهد كل خطوة يمشيها نحوى وأسعد بها. . كان يبهجنى ببساطته القلبية، وصراحته اللفظية، وكنت فى قرارة نفسى أفخر بإحساسه العميق بى، وأجد المتعة فى قراءة شعره».

«كان أبيا نقيا. . حاول الكثير كى يستحوذ على قلبى، وعانى من صراعه، وتعذب».

«وكنت أنا لا أفكر فى الزواج به عندما أقارنه بالشاعر (ع)، فلم يكن يصلح أن يكون أبا لولدى، إنه رقيق حيى، خيالى التفكير، وديع إلى أقصى حدود الوداعة، وفوق ذلك كله يصغرنى بعدة أعوام».

«وكنت قبل زواجى من الشاعر (ع) أحاول مرارا أن اصارح هذا الشاعر الرقيق برفضى له، ثم أؤجل هذه المصارحة. . كنت وأنا بعيدة عنه أحس القوة والعزم، ولكنى وأنا قريبة منه وهو أمامى مشبوب العاطفة، حيى، يمدحنى برقة، ويهب نفسه لى قلبا وقالبا فى تطوع طبيعى، كاشفا أحاسيسه بكل مابها من فضائل أو نقائص. . عند ذاك كانت تخوننى جرأة المصارحة».

□

وعند هذا الحد تتساءل الشاعرة جليلة رضا على عادتها حين تتجاوز المشاعر لتسأل عن طبيعتها بالمنطق ثم تجيب لنفسها على تساؤلها فإذا بها تنتصر للمشاعر على المنطق، وعلى كل ما يأتى به المنطق، وإذا المشاعر عندها تتألق رغم كل شىء، وها هى جليلة رضا تقول:

«أية فكرة جنونية لامرأة جاوزت عهد الشباب أن تكون محبوبة؟»».

«أية نشوة مسكرة لمن هو على وشك الوقوع إلى السفح؟».

«كنت أهم دائما بالتمرد على نفسى وبمصارحته بالحقيقة.. ثم أصمت حتى لا أعكر صفو لقائه بى لتعود إليه البسمة الرقيقة والنظرة الحانية وربما.. مَنْ يدرى.. لكى يداوم على حبى».

«وكان هو ولأول مرة أغير من الاسم، فهو شاعر معروف، وليكن اسمه (ق)».

«كان يغار علىّ من النسيم كما يقول المثل».

«وذات يوم قلت له: من الأفضل أن تنسانى».

«فأجاب فى بسمة ساخرة:

«أهذا ممكن؟ يوم أنساك يوم العدم».

«وبغتة لم يرنى.. فقد تزوجت بالشاعر (ع) ثم انفصلت عنه، لم لزمت البيت».

«وعندما عدت إلى الندوات لأول مرة تلفت لأراه، ورأيته.. كان الجميع يهنئونه بزواجه، وأحسست بالغيرة».

□

وتنتقد جليلة رضا نفسها بصوت عالٍ فتقول:

«عجيب أمر المرأة!».

«لقد بعدت عنه وتزوجت.. وكنت أحزن أحيانا وأبتهج حينا، وأعيش كما يعيش الآخرون.. أنشغل بعملى المنزلى وبالحياة.. أرقب غروب الشمس وأتطلع إلى شروقها».

«وتمر الأعوام وأسمع أن رجلا كنت أمتلك ذات يوم قلبه وعقله قد أحب غيرى، وقال لها ما كان يقوله لى، ونظر إليها كما كان ينظر إلىّ.. فأغضب!!».

«ولماذا الغضب؟! هل على الرجل أن يكون أوفى قلبا وأعمق ذاكرة؟».

«هل له أن يعيش راهبا من أجل امرأة؟!».

«لم التذمر؟ ولم الضيق إذن؟».

(١٤)

ونأتى إلى صاحب الشخصية التى تمنت صاحبة المذكرات أن يكون اهتمامه بها لشخصها لا لشعرها فحسب، وهى تعترف فى شجاعة أنها

ذهلت حين حاولت معرفة طبيعة شعوره نحوها، على حين كانت تعتقد أنه أنسب إليها من كل المجموعة التى عرفتها، ولست أدرى لماذا بخل علينا الأستاذ كمال النجمى فى مقاله بفك شفرة اسم هذا الشاعر، وأغلب ظنى أن السبب فى ذلك يرجع إلى الأخلاق الشرقية المسيطرة على الأستاذ النجمى وعلى غيره بمن فيهم الشاعرة جليلة رضا نفسها، ذلك أن الحديث عن المشاعر التى لم تتوج بزواج يظل شيئا مستهجنا فى عقيدة الشرقيين، وعلى كل الأحوال فلابد لنا من أن نقرأ هذا النص الذى تعبر فيه جليلة رضا بصراحة وشجاعة عن اكتشافها لحقيقة تفكير هذا الرجل والتفاته إلى شعرها لا إلى نفسها، ونحن نرى فى هذا النص تعبيرا ساميا وجسورا عن نوع من أنواع خيبة الأمل:

«. . . كان هناك أيضا كاتب كبير وأديب شهير يدعى (م) يتقرب إلىّ قبل زواجى بالشاعر (ع)، ورأيته بعد انفصالى عن الشاعر (ع) وأحببت أن ألمس ما جد واستجد منه، ولكنى ذهلت».

«وجدته يحمل لى نفس الشعور الصادق الوفى، ونفس التقدير والملاطفة النبيلة».

«كان هذا الرجل أنسب إلىّ من كل هذه المجموعة التى تحيط بى فى الوسط الأدبى».

«كان قبل كل شىء فى سن معقولة ومركز محترم».

«وكنت كلما استعرضت أمامى مَنْ يليق بى كزوج بعد زوجى الأول، ومَنْ هو الذى أستطيع فى أمان وعدم حرج أن أعلن زواجى منه لا أجد غيره».

«ولم يكن هذا الأديب قد فاتحني بشـعوره نحوى، ولكنى كنت أكاد أجزم بحـبه. . كان يقـدر شعرى تقـديرا كبيـرا، ويكاد يقدس فيّ هذا الفن».

«ولست أنسى ذات ليلـة حين وقـف أمام إحـدى شـاعـرات الوطن العربى المشهورات، وهو يمدحنى ويرقى بشعرى إلى السماء السابعة!».

«لم يكن قـد تزوج بعد، وربمـا كـان زاهدا فى الزواج، وكنت فى حيرة من أمره، إنه يعاملنى كطفلة. . طفلة حبيبة إلى قلبه، كان يذكرنى بزوجى الأول ولكن بلا عنف ولا غيـرة، بل فى رقة متناهيـة، وإصرار على تعريف الناس بى، والعمل على تقديرهم لشعرى، أجل كنت فى حيرة من أمره. . لا أدرى هل كان ذلك حباً لى أم لشعرى».

□

وتحاول جليـلة رضا أن ترسم تفاصـيل أكثـر للصورة على نحـو ما أدركتها فتقول:

«كل حركاته كانت تؤكد لى المـيل إلىّ، ولكن فى صمت صموت. أما أنا فكنت أحس براحـة كبيرة وأنـا جالسة أمامـه، ولم يكن هو يجد حـرجا فى أن يمـسك بيدى أمـام الحاضـرين ليـجذبنى إلى المنصـة، وليقدمنى إلى شلة أدباء كبار، أو ليجعلنى ألقى بعض الأشعار، لم يكن أيضا يجد حرجـا فى أن يربت على كتفى فى ابتسامـة رقيقة حنون وهو يسرد نكتة أو حادثا ما».

□

بل إن جليلة رضا تعبر عن مشاعرها تجاهه حين كانت تراه وتتشجع بوجوده وتترجم هذه المظاهر إلى قناعات واعتقادات:

«وكنت أنا حين أراه وسط هذا الخضم البشرى من الزملاء أحس أنى بجوار الأخ الأكبر الذى يحمينى من الغرق، ويبعث فى نفسى الجرأة والحماس، ويبعد عنى الرهبة من الناس والخجل من التحرك والكلام».

□

وبعد هذا كله تتحفنا جليلة رضا بالأبيات التى صورت بها هذه التجربة شديدة الخصوصية والعمق:

«وكنت حين أرى كل ذلك منه لا اشك فى أنه يحمل لى مشاعر حب كبير، حتى إذا عدت إلى بيتى تبخر هذا اليقين ورحت أنظم هذه الأبيات:

عجبا لمن يشدو بشعر جليلة ويكاد يتخذ القريض دليله

شعريى قدره يقدس فنه ويراه نجوى حرة وأصيله

لكننى أنثى وقبل قصائدى لى قلب عاشقة ووجه جميله

فإذا نظمت له الهوى قال الهوى فى شعرها هدف وليس وسيله

وإذا شدوت الحب صاح مصفقا ياكم تجيد بصوتها ترتيله

وإذا دنوت فما يرى فيما يرى منى سوى الأوزان والتفعيلة

□

ثم تفاجئنا جليلة رضا بحقيقة أخرى لا تقل غرابة عن القصة نفسها:

«واستمرت مشاعرنا النبيلة حتى اليوم، أى بعد خمسة وعشرين عاما».

(١٥)

ربما يقودنا هذا ونحن نتأمل تجارب ثرية لسيدة قادرة على التعبير إلى أن نتأمل فى مشاعرها وهى تفاضل بين وضع ووضع، وضع تعيشه ووضع آخر تتمناه. ثم تتولى بالنيابة عن نفسها وعن القراء تشخيص ما أحست به، وتقول إنها تعترف أن شعورها بالحب لم يكن هو الشعور الطبيعى:

«لقد خفق قلبى كثيرا وكثيرا.. خفق عنيفا ومجنونا، ولكن لم تستمر خفقاته أكثر من أسبوع واحد».

«أجل.. كنت خلال هذا الأسبوع أمتنع عن الأكل والشرب من فرط شعورى بالحب.. ثم..».

«ثم.. بغتة يتهاوى التمثال الإله، وينكفئ على وجهه، وتنطفئ الهالة ويسود الظلام».

«كانت أقل همسة، أقل لمسة، أقل نظرة، أقل حركة غير مستحبة من الشخص المحبوب تذهب بمشاعرى بعيدا نحو واد من الفناء، وتحضر لها قبرا من فولاذ.. حيث لا عودة ولا رجوع».

«كنت أتعامل مع الحب بالخيال، بالملائكة، بالأجنحة الرفافة، وبالوهم الكبير الذى سيطر علىّ منذ وجودى بالمدرسة الداخلية».

□

وتصل جليلة رضا بعد هذا إلى أن تعبر عن رغبتها فى أن تحظى بالسعادة التى تحظى بها خادمتها وأن تتخلى عن نوع السعادة الذى تعيشه وهى تتمنى لو أنه كان بقدرتها أن تبادل خادمتها الموقف ونراها لهذا تخاطب خادمتها تطلب إليها ألا تناديها بأنها سيدتها وتقول فى مونولوج طويل:

«غير أنى أتمنى.. آه من قلب المعنى»

«أن أكون اليوم أنت.. أن تكونى اليوم ستى»

«أنت تجرين كما تجرى الحمامة.. وأنا حولى غمامة»

«أى شىء لك يفرح.. يشرح الصدر ويفتح»

«وأنا الدنيا بعينى ضيقة..»

«واحتمالات نعيمى مرهقة..»

«لا تقولى اليوم ستى.. أنت ستى».

□

وفى هذا الإطار ذاته، أى فى إطار تمنى المستحيل، نرى جليلة رضا وهى تحاول أن تستعيد ذكرياتها من شبابها وتحدثنا عنه فتقول:

«ما أعظم الشباب وما أجله!»

«طالما يوجد شباب فلا شىء مستحيل».

«ما هو الشباب عندى؟ إنه طنين مستمر للأمل والحلم كطنين سرب من النحل يلف ويدور».

«كان الشباب عندى هو بلوغ الأشياء غير السهلة.. هو تقويم الالتواء».

«هو الصراع الأبدى للوصول إلى المجهول».

«ما أقسى الزمن.. كل هذا كان..».

«وأنا الآن أتحدى آلام الصحة والجسد الجريح، والوهم السافر، والشعور بأنفاس الموت المتستر تلفح وجهى! ما أقسى الزمن!».

(١٦)

من ناحية أخرى نرى صاحبة هذه المذكرات حريصة على أن تربط الحديث عن الشباب بإحساسها بابنها وما أصيب به من تخلف عقلى تلخص تطوره وشعورها به على مدى السنوات المتوالية فتقول:

«ظهرت عليه أعراض التخلف منذ السنة الثالثة من عمره، ومع ذلك ففى شبابى لم أتأثر كثيرا لهذه النتيجة، فقد طغت حيويتى على حالتى النفسية، فكنت أهون الأمر على نفسى».

□

وتصل جليلة رضا إلى أن تلخص حياتها فى نهائياتها وبعد فقدها لابنها فى كلمات مفعمة بكل ما هو ممكن من يأس واكتئاب فتقول:

«والآن لا شىء.. خواء.. خواء فى قلبى، وفى عينى، وأخشى أن يصيب الروح هذا الخواء!».

«كل شىء فى قوانينى اختصر فرغ العالم من كل البشر

لم يعد فى الكون غير.. وأنا أتلظى فى حريق مستعر».

«يا ولدى.. ما الذى أصنع اليوم بحريتى ويومى؟ لقد كنت القيد الذى يربطنى بالحركة».

لم حطمت يا بنى قيودى لم آثرت أن تزيل هوانى

معصمى شل يا بنى بلا قيد ونام الدجى على أجفانى».

□

ثم هى بعد كل هذا التصوير الذكى والتعبير الشجى تعمد بذكاء شديد إلى أن تختار لنهاية ما ترويه من قصة حياتها ما كتبه الرافعى فى كتابه «المساكين» حيث تقول:

«مَنْ يهرب من شيء تركه وراءه إلا القبر، فما يهرب أحد منه إلا وجده أمامه.. هو أبدا ينتظر غير متململ وأنت أبدا متقدم إليه غير متراجع.. وليس في السماء عنوان لما لا يتغير إلا اسم الله، وليس فى الأرض عنوان لما لا يتغير إلا اسم القبر».

«وأينما يذهب الإنسان تلقته أسئلة كثيرة.. ما اسمك؟ وما صناعتك؟ كم عمرك؟ كيف حالك؟ ماذا تملك؟ ما مذهبك؟ ما دينك؟ ما رأيك؟».

«ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها فى الفم الأخرس.. وهناك يتحرك اللسان الأزلى بسؤال واحد للإنسان: ما أعمالك؟».

(١٧)

وبالإضافة إلى هذه القضايا الكبرى المرتبطة بالحياة والموت والحب والاقتران والارتباط والشعر والتعبير عن الذات، لا نعدم فى مذكرات الشاعرة جليلة رضا كثيرا من أحاديث متأملة عن الزمان الذى يمضى بالبشر على أنماط متفرقة من العيش والكفاح، وبحكم المهارة الشعرية التى كانت جليلة رضا تتملكها فإنها تجيد الإمساك بالتفصيلات المهمة فى حياة البشر، ومن باب القدرة تصور لنا جليلة رضا فى مواضع كثيرة من مذكراتها كيف يمكن للحوادث العابرة أن تشكل وعى الإنسان وطباعه، وعلى سبيل المثال فهى تروى لنا السبب فى أنها أصبحت نباتية لا تتناول اللحوم:

«وعندما بلغت العاشرة من عمرى، انتقل والدى إلى بلدة «الفشن» بالصعيد».

«كان بيتنا هناك من أجمل بيوت البلدة، على طريق الترعة، وبجوار مركز البلد، وكانت شقتنا تطل على فناء المركز، أى قسم البلدة».

«وبمناسبة هذا الوضع لبيتنا حدث الشىء الذى مازلت حتى اليوم أعانى منه الكثير.. فأنا «نباتية» لا آكل اللحوم ولهذا قصة».

«فقد كانوا فى كثير من الأحيان ينتشلون غريقا من مياه الترعة، ويأتون به لتوه إلى فناء القسم المكشوف بالنسبة لشقتنا، فكنت أذهب أنا وأخوتى إلى الشرفة حيث نستطيع مشاهدة ما يصنعون».

«كانوا يمددون الغريق على أريكة خشبية، وينهمك الطبيب فى تشريحه، واضعا الكبد فى قارورة، والرئة فى أخرى، فاتحا بطنه على مصاريعها!».

«كان منظرا بشعا رهيبا، ولكن مع الوقت اعتدناه وامتنع أخى عن أكل اللحوم مدة عامين، ثم عاد إليها، أما أنا فقد امتنعت إلى الأبد».

(١٨)

ولا تبخل علينا جليلة رضا فى مذكراتها بأحاديث عائلية وتاريخية مهمة، وعلى سبيل المثال تروى جليلة رضا بالتفصيل قصة حياة والدتها «التركية» وما آل إليها بسبب هذه الحياة والنشأة من أموال عند وفاة السيدة حنيفة السلحدار التى كانت قد تبنت والدتها، وتحفل قصة الأم

على نحو ما صورتها جليلة رضا فى اختصار بملحمة تصور جانبا من الحياة الإنسانية فى المجتمع المصرى (والتركى) فى ذلك الوقت، وأعتقد أن الأفضل أن نروى تفصيلات القصة كاملة على نحو ما روتها جليلة رضا دون تفصيل أو تدخل:

«كانت أمى تسكن فيللا فى مدينة «أنقرة» بتركيا، وكان لها شقيق واحد، وذات يوم كانا يلعبان فى حديقة بيتهما حين انقض عليها فرسان ملثمون خطفوها فوق ظهر جواد أحدهم حيث جاءوا بها إلى القاهرة وعمرها ثلاثة أعوام ليبيعوها إلى الأسر التركية القاطنة فى مصر منذ زمن. . أسر فاحشة الثراء كانت فى حاجة إلى جوار بيض إما للتبنى أو للخدمة».

«وكانت السيدة حنيفة السلحدار زوجة على باشا ثابت الموظف الكبير فى الحكومة المصرية، كانت عاقرا لا تنجب».

«كانت السيدة حنيفة تملك ألفى فدان غير ثروة زوجها».

«وحين أوصت أن يأتوا لها بطفلة صغيرة كانت تريد أن تتخذ منها ابنة فى قصرها العظيم الموجود حاليا بشبرا، وقد أصبح اليوم مدرسة كبيرة».

«وعندما تسلمت السيدة حنيفة والدتى من التاجر، تسلمت معها فتاة شابة لتعمل فى القصر كوصيفة ولم تكن هذه الفتاة مخطوفة، بل كان حضورها برغبتها، وهى التى أخبرت أمى بعد ذلك بنبأ خطفها من حديقة بيتها فى أنقرة».

«وتربت أمي في ذلك القصر معززة مكرمة، تقضى الشتاء فى القاهرة والصيف في قصر جليمونبلو بالإسكندرية».

«كانت أمي رائعة الجمال، ومن الغريب أن جمالها كان مصريا، كانت ذات شعر أسود فاحم ناعم طويل، وعينين واسعتين سوداوين، ووجه كوجه البدر، بيضاء البشرة، تميل إلى السمنة».

«هكذا اعتدت أن أراها وأنا صغيرة، ولكن مع مرور السنين، وفى أعوامها الأخيرة، هزلت وأصابها مرضا السكر والضغط، وأفل جمالها وإن ظلت منه مسحة».

«وعاشت أمي سعيدة بجوار هذه السيدة التى جاءت لأمى بمدرسين، أحدهما ليعلمها اللغة الفرنسية، والآخر سيدنا ـ وهو شيخ معمم ـ كان يدرس لها اللغة العربية».

«وكانت لأمى حجرة خاصة تستذكر فيها دروسها، وأخرى للنوم، ومن أغرب ما حدث أن السيدة حنيفة أوصت هذين المدرسين أن يعلما أمى القراءة فقط، دون الكتابة، فكنت أرى أمى تقرأ الكتاب الظريف كثيرا، أو الجرائد دون أن تكتب، وعلمت بعد ذلك أن السيدة حنيفة خشيت على أمى من الغواية فمنعتها من تعلم الكتابة حتى لا تراسل أحدا إذا هي تعلمت الكتابة».

. . . .

«ومرت الأيام وكبرت أمى ونمت وأينعت وازدهرت، وآن لها أن تتزوج».

«وكانت هناك سيدة شركسية تسكن فى إحدى الشقق من بيوت جدى بالدرب الأحمر اسمها: أم فريد، وكانت أم فريد هذه على صلة بقصر السيدة حنيفة السلحدار وبوصيفاتها، وعندما علمت بعزم والدى على الزواج فاتحت جدى فى أمر أمى، فرحب بالفكرة، ورجاها أن تكون واسطة خير بينه وبين السيدة حنيفة».

«ولم تمانع السيدة حنيفة، فقد تبين لها أن والد العريس ذو مركز محترم، والأسرة محافظة عريقة».

«وتم الزواج، وانتقلت أمى من القصر الفخم، إلى البيت العتيق، فى حى الدرب الأحمر، حيث تمضى أياما هنا وأياما هناك».

«ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان».

«غضبت السيدة حنيفة على أمى وخاصمتها عدة أعوام، بل منعتها من الزيارة، فعاشت أمى حزينة بائسة، رغم وجود زوجها وأطفالها الصغار».

«أما السبب فكان فى غاية من الغرابة».

«لقد أفاقت أمى عندما صارت أما، حنت إلى أخبار أهلها فى تركيا، كانت قد بلغها من الفتاة التى جاءت معها إلى مصر ما جعلها تفاتح السيدة حنيفة فيما إذا كان من الممكن أن تبدأ فى البحث عن أهلها، مع بعض المسافرين إلى تركيا».

«وهنا كانت الصاعقة! فقد وقع الخبر على السيدة شديدا مروعا».

«ولم يسعهـا إلا أن تقاطع أمى فترة من الزمن، بـل وأكثر من ذلك، فقد غيرت من وصيتها، ولم تترك لأمى إلا ما يسد حاجتها، بعد وفاتها هى.. ومع ذلك فـقد كـان هذا الإرث يكفى حـاجتنا ويفـيض، لكن الحياة عادت مرة أخرى إلى مجاريها، وعادت أمى إلى زيارتها».

«كانت أمى تصحبنى قبل انتقالهـا إلى الفشن، لأقضى معها أياما فى بيت السيدة حنيفة».

«كنت فى الخامسة أو السادسة من العـمر أنعم بالحياة هناك فى قصر شبـرا، وأجرى وأصعـد، وأهبط، كأنى فى بلد كبـير، محـاط بأسوار عالية».

«وكانت السيدة حنيفة تجمعنى وطفلة مثلى، ابنة صديقة لها، وتلقى إلينا بحفنة من القروش: «نصف الفرنك» الجديدة الـفضية، فنحبو على ركبنا، ونتسابق فى التـقاطها من فوق السجادة الفخـمة.. ومازلت أذكر أيام الصيف ونحن فى سـراى الإسكندرية، وكانت توقظنى فى السـاعة الرابعة صـباحا مـاريكا «الكمريرة» لأصحـبها ـ بناء على رغـبتى ـ إلى البحر لنستحم».

«وعندما انتـقلنا إلى الفشن، وبدأ والدى يستـعد لشراء جهـاز أختى الكبيرة المـخطوبة، أرسلت إلينا السيدة حنيفة كى تذهب والدتى ومـعها العروس إلى القاهرة لشراء ما يلزم بيت الزوجية، على حسابها الخاص، وأذكر أننى ذهبت مع والدتى وأخـتى ورأيت كيف كانت السيـدة حنيفة السلحدار تهبط من عربتها أمام مـحل «صيدناوى»، وكيف كان الخواجة

صيدناوى بنفسه يهرع نحوهـا منحنيا، ليقبل يدها، ويفسح لها الطريق، وكيف كانت تربت على ظهر أختى قائلة:

«اختارى ما تريدين».

«فتـختار أخـتى ما تريد! وترجع دون أن تدفع الثمن، فهذه أشـياء تخص سكرتير السـيدة، فمن العيب أن تتعـامل السيدة حنيفـة ماليا مع الآخرين!».

«وعدنا أخيرا إلى الفشن بعد قضاء خمسة عشر يوما فى القاهرة».

(١٩)

وتحفل مـذكرات الشاعرة جليلة رضـا بالتعبيـر عن كثير من مـعاناة المرأة المصـرية من الأنظمة الاجتمـاعية، سواء تقـبلت هذه الأنظمة أم لا، وعلى سبيل المثـال نرى جليلة رضا وهى تستشعر فى نفـسها نوعا من الضيق بحب أبيها لشقيقها الوحيد:

«كان أبى وديعا، طيبـا، لكنه كان محبا لابنه الذكر، وكثـيرا ما رأيته يزحف على ركـبـتيـه ويديه حـتى يتـسنى لأخى إبراهيم أن يمـتطيـه ضاحكا، رغم كبر سنه وبدانته المفرطة».

☐ وفى موضع آخر نراها وهى تؤكد على هذا المعنى:

«لقد كانت رغبات أخى أوامر عند والدى ينفذها راضيا. لم يكن أبى قاسيا على بناته، بل كان يعاملنا بحنان ورفق».

□ وفى موضع ثالث تلفت صاحبة المذكرات النظر إلى المفارقة:

«بيد أنى مازلت أذكر أيضا كيف كنت مريضة بالحمى التيفودية، وأنا راقدة فى سريرى الخاص الصغير، وأمامى أختى الكبرى جالسة تحيطنى بعنايتها وتهش عنى الذباب فى حين أسمع من الحجرة المجاورة أصوات طبل وزمر وغناء بمناسبة ختان أخى إبراهيم».

□ وفى موضع رابع، وقد وصلت هى وإخوتها إلى مرحلة الصبا، تروى بعض مواقف حياتهم فى الفشل:

«لم يكن يعكر صفو بيتنا شىء فى تلك الآونة إلا تمرد أخى إبراهيم وعصيانه».

«كان مدللا، كثير المشاغبة، محبا للتبذير، عنيف المعاملة، وكثيرا ما كان يهرب لاجئا إلى أحد زملائه بالمدرسة، مختفيا عنده، تاركا فوق كل باب وجدار من البيت هذه الجملة المعهودة مكتوبة بالطباشير:

«سوف لا تروننى بعد هذا اليوم!».

«ويجرى أبى هنا وهناك لاهثا قلقا ليسأل عنه، ثم يأتى به وقد تصالح معه».

(٢٠)

ولا تخلو مذكرات جليلة رضا من تعبير متناه فى قدرته البيانية عن شعورها ببعض المقدمات لمركبات النقص، أو ما قد نصفه تجاوزا بهذا المصطلح، وعلى سبيل المثال فقد كانت ترى نفسها فى موضع أدنى

من شقيقتها بسبب صغر سنها من ناحية، وبسبب عوامل شخصية فى تركيبتها النفسية من ناحية أخرى، ومن حسن الحظ أن هذا الإحساس بالدونية لا يتضخم عند جليلة رضا:

«كنت أحس دائما أننى «فوق البيعة». . رغم أنه (أباها) لم يقصر فى حق من حقوقى مطلقا، لكنه كان كثير الحديث مع شقيقتى، قليل الكلام معى».

«ربما لأننى كنت صغيرة، وربما لأننى لم أكن أحسن الحديث وإبداء التعاطف معه».

□

وفى موضع آخر تعبر الشاعرة عن هذا المعنى وعن افتقادها للعاطفة بطريقة أخرى وتقول:

«فى حياتى لا أذكر أنى نعمت بقبلة من أمى. . وفى حياتى لا أذكر أيضا أنى وضعت على ثغرها قبلة! كانت رغم بساطتها وتواضعها، تجبرنا على احترامها كاحترامنا لسيدة غريبة عن البيت، كزائرة أو ضيفة».

وفيما بعد وفاة والدها وهى زوجة وأم تستعيد شريط حياتها فتتذكر طباعها وتقول:

«فأنا إنسانة تنظر إلى الدنيا نظرة تشاؤمية».

«من صغرى أشعر بالغربة فى كل مكان».

«كنت ـ كما سبق أن قلت ـ الأخت الثالثة والأخيرة لشقيقتين جعلهما تقارب السن والطباع فى صحبة دائمة، ووفاق مستمر».

«ومن ثم تركتا على سجيتها تلك الطفلة الصغيرة الحمقاء، التى كثيرا ما كانت تنطوى على نفسها فى ركن ناء من بيت الأسرة، إثر لفتة صغيرة إلى خطأ ارتكبته، حتى أصبح اسمى «القماصة»، أى التى تغضب دائما ولأتفه سبب!».

«ومن صغرى لم أدر معنى لجمال الطفولة، أبى مشغول بالولد الوحيد، فخور به، منهمك فى العمل على تسليته وأداء مطالبه ورغباته».

«وأمى بحكم غربتها عن موطنها الأصلى تبدو سريعة الانفعال، يكاد ينضب معين حنانها على الأبناء، وعلى الأخص أنا بالذات».

«ولم أدر قط ما السبب؟ ربما لأننى جئت الحياة رغما عنها، وربما لأننى لم أهضم لغتها التركية، وبالتالى فشلت فى مخاطبتها بهذه اللغة».

«وصرت كما كانت تقول لى: فلاحة!».

(٢١)

ومع أن صاحبة المذكرات تعترف على نحو ما أوردنا فى موضع سابق بأنها كانت انطوائية، وأن هذا كان من عيوبها، إلا أنها مع هذا حريصة فى موضع آخر على أن تعبر عن ضيقها من تطفل الناس على

حياتها الشخصية، وهى تعبر عن هذا الضيق بما يشبه الانتحار الوجودى فتقول فى اللحن الثائر:

«سأغيب حتى يرتقى فى مصر مجتمع شقى

سأغيب حتى يختفى وجه المنافق والغوى

لأعود يوم أرى المحبة والصفاء بكل شى

وأحس أن الآدمى رعى أخاه الآدمى».

□

وفى موضع آخر تروى لنا جليلة رضا كيف حصلت على حريتها بالانفصال دون أن تدرى كيف يمكن لها أن تستغل هذه الحرية:

«وانتهت الإجازة، وجاء موعد العودة مع زوجى إلى أسيوط، ورفضت، رفضت بكل قوتى أن أعود».

«وعبثا تردد هو علينا محاولا إقناعى بالعودة».

«وعبثا حاولت أسرته الكريمة أن أعود معه».

«لقد رحل والدى رب الأسرة، وانشغل أخى بزواجه، ولم يبق من رجل يرغمنى على العودة».

«وصممت.. وسافر زوجى وحيدا.. بلا زوجة ولا أولاد».

«ما أقسى حكم الشباب! وما أشد جموحه!».

«واستردت حريتى. . ملكتها بقبضتى يدى، كنت نشوى بالحياة مبهورة، نشوى بجمالى وشبابى وحريتى».

«نشوى بأمومتى. . فقد نام طفلاى تحت جناحى، أصحو وأنام وهما فى أحضانى. . وأنا فى أحضان الكون. . وفى حى شبرا وفى درب ضيق من دروبها المتفرعة استأجرت شقة متواضعة».

«وبدأت أتخشن وأسترجل حتى أقضى لوازم بيتى، وأكون الرجل والمرأة!».

«كان مبلغ نفقة الأولاد وما تعطيه أمه لى كل شهر كافيا يسمح لى بعيش متوسط».

□

وتواصل جليلة رضا حديثها إلى نفسها:

«بدأت أفيق على وهم كبير. . لقد امتلكت حريتى، فماذا أنا صانعة بها؟!».

«هل أخرج؟ وأين أذهب وأنا لا أحب الخروج، ولا أستطيع أن أترك الأولاد بلا رقيب؟».

«أيتها الحرية. . دبرينى. . ماذا أنا صانعة بك؟ وكيف أستغلك؟ فى الحب، وقلبى لا يريد أن يخفق؟».

«بدأت أتبين الحقيقة، أنا لم أستفد شيئا بانفصالى عن زوجى ومع ذلك فلن أندم».

«فى حياتى لم أندم على شىء قررت بطيب خاطر أن أفعله ووجدته خطأ».

(٢٢)

هل لنا أن أن ننتقل الآن إلى الماضى الأول لنتحدث عن وعى الشاعرة صاحبة المذكرات لمراحل تكوينها مبتدئين بأقوى نقاط الذروة فى هذا التكوين حين واجهت الشاعرة أولى ملامح التحدى الدراسى عندما أهلها ذكاؤها لأن تلتحق بالصف الخامس من مدرسة الراعى الصالح، بينما لم يكن ما تعرفه من الفرنسية يتوازى مع ما تدرسه طالبات هذا الصف، وهى تحكى تجربتها فى تلك الفترة فتقول:

«وكان علىّ أن أستميت حتى أفهم وأكتب الإنشاء وأحل مسائل الحساب».

«وبواسطة قاموس فرنسى - عربى عشت فى صراع وكفاح وجهاد عنيف طوال العام، خصوصا أنهم كانوا يمنعون الطالبات فى الفصل وفى الفسحة من التخاطب باللغة العربية، وقد حددوا قرشا غرامة لمن تتكلم بها».

وعلى الرغم من تنقل جليلة رضا مع أسرتها بين بيوت كثيرة فى القاهرة وغيرها، إلا أنها تبدو مدينة لمدينة الإسكندرية بالجمال ومشاعر الحب:

«وانتـهت السنة الدراسيـة، وبدأت إجـازة الصـيف، والصـيف فى الإسكندرية وأمام البحر الخلاب وجمال الطبيعة، يبدو كالمارد».

□

وهذه هى شاعرتنا تتحدث عن تجربتها الحالمة فى مدينة الإسكندرية حيث عرفت الحب لأول مرة، وهى تلقـى بعبء الحب ومشاعر الحب على ما تسميه الخلايا البشرية:

«بحر ساحر، ونسيم منعش، وفتاة صبـية فى عمر الزهور المتفتحة، وإجازة طويلة من الـمدرسة، وكـتب ألتهمـها بنهم، كلهـا حب وغرام وعاطفـة، وخيال جامح، وقلب ظامئ، وأنا على أبواب عـامى الثالث عشر، لى قوام فتاة فى العشرين».

«كنت أخرج مع صاحباتى للتنزه على كورنيش البحر ساعة الأصيل، وذات يوم قابلته.. صادفته.. وتلاقت عيوننا.. ثم تكرر ذلك مرات.. والتقينا.. ومشينا وحدنا أخيرا».

«كان الأفق يحترق كحريق فى غاب».

«كانت الشـمس تهبط وتتـهادى نحـو البحر، وتغـيب كزورق يعـبر المُنطَلق».

«وعبـر الدروب التى سرناها أنا وهو.. كـانت النساء فى شـرفاتهن غارقات فى العرق، يتنهدن ويحلمن بالحب.. هكذا خيل إلىّ!».

«كان الليل القناص يسدد سـهمه ليصيد البـذور الدافقة والعطشى فى أجساد كل النساء».

«بينما كانت خلايا تلك البذور النائمة، تلك الخلايا الدفينة فى أعماق الجسد الآدمى كجذوع الشجر، خلتها تتفتح فى الظلام وتبدو بذورا فى حقول نامية، خلتها تقتحم ظلمة التراب وتنبثق خضراء ندية، ثم تمتد وتمتد وتمر الحقول بالنبات الخصب».

«آه من تلك الخلايا البشرية التى ترعش القلوب، وتبعث فيها الإحساس بالحياة، وتسرى فيها حتى الروح.. فتتفتح كالثمرة الناضجة الشهية، وتنغلق نضجا، ثم تنكسر لتهب دمها القانى إلى النحل الشادى المحلق فى الأجواء».

«آه من تلك الخلايا الصغيرة التى تتغذى برغبات الحياة.. وقت الأصيل، وفى الصيف الحارق، حين يجرى الدم فى العروق، ويهدر كالرياح العاصفة، فى جهازنا الآدمى».

«آه من تلك الخلايا السجينة فى الجسد اللدن الغض، التى تود أن تنفجر وتتحرر عندما تتقاسم الأمل الأبدى مع مَنْ تحب».

□

وتخاطب شاعرتنا خلاياها البشرية بعد أن تطلق عليها وصف الخلايا المشرئبة بحديثها عن مسئوليتها عن هذه العواطف وكأن عقلها غير مسئول، وكأنها تريد أن تقول إن للجسد من خلال خلاياه دورا لا يستهان به فى التفتح للحب فتقول:

«أيتها الخلايا المشرئبة.. فيك أحسست بوحدة الزمان والمكان من الأزل إلى الأبد.. بل غنيت للحب، والحب هو الخلود».

(٢٣)

ثم إننا نلاحظ أنها وهى فى هذه السن التى بلغت فيها سن النضج أى عندما كتبت مذكراتها كانت حريصة بشدة على أن تستعيد ذكرياتها

عن حبهـا الأول وتصف تفاصيل الحب والحبيب والمشـاعر على نحو بديع لا يخلو من الشاعرية، بل إنه يحفل بها على نحو ممتع:

«أجل.. أحببت.. وكان حبا قويا، عنيفا، أنهك قلبى الصغير، فعاش عمره عليلا، خائفا، مترددا، منطويا، مشلولا».

«كان فى التاسعة والعشرين، وكنت لم أكمل بعد الثالثة عشرة، كان وسيما، رقيقا، عاقلا ورزينا».

«كـان من أصل جزائرى، ينتمى إلى الحماية الفرنسية فى ذلك الوقت».

«كان يشغل عملا متواضعا بالنسبة لأسرتى».

«وكنا نلتقى فى الطريق الهادئ ونسير».

«نسير ساعة الأصيل، وقد أوشك الضوء على الرحيل، وكانت هيبة تلك الآونة تعلن حبى للحياة، وكان البحر قربى يبارك شعورى، وأنا أهب شفتى وصدرى للنسيم العليل، وأكاد أقف حتى لا أسمع دبيب قدمى».

□

وبعد فقرات نكتشف مع جليلة رضا جوهر مأساتها الأولى حين شاء أهلها لحبها أن ينتهى على غير ما أرادت:

«ثم.. فجأة حضر والدى إلى الإسكندرية وأخبرنى أنه سيسافر إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى ليدخلنى مدرسة فرنسية، بناء على رغبة ابن عمتى».

«وعندما أبديت عدم قبـولى وتمردى صاح بى أبى وأخى فى غضب عنيف:

«لن تعودى إلى البيت بالإسكندرية».

«قالا هذه الجملة وهما يكادان ينهالان علىّ ضربا».

«عند ذاك - وعند ذاك فقط - فهمت».

«عـرفت أنهمـا يعـرفـان عنى كل شىء.. وذهبنا إلى القـاهرة عند شقيقـتى، وقرر والدى بعد البحث أن يلحقنى بمـدرسة الراعى الصالح «البون باستور» بشبرا بالقسم الداخلى».

(٢٤)

وتحدثنا الشاعرة جليلة رضـا (فى صورة الاعـتراف) عن معـرفتـها المبكرة بنوع آخـر من الحب «العذرى المثلى» الذى خبـرته فى مدرسة الراعى الصالح، ويختلط تقـييمها لهذا الحب مـا بين الإدانة والتقدير، وهى تصف هذا النـوع من «الحب المـثلى العـذرى» على نحـو غـيـر مسبوق:

«أجل كان فى المدرسة وباء كبير منتشر».

«كان هناك حب وتدله من نوع آخر».

«لأول مرة عانيته.. وشاهدته.. بل وعرفته.. كان هذا الحب غراما وصبابة وهلاكـا وأرقا ونارا.. كل طالبة فى المدرسـة تحب وتعشق.. سواءكانت فى القسم الداخلى، أو الخارجى».

«كل طالبة تحب راهبة أو طالبة أكبر منها سنا.. المهم أن المعشوقة أكبر من العاشقة».

«وأصابتني العدوى».

«وكان نصيبي إحدى الراهبات القبطيات ذات الجمال الصارخ، والصوت الرقيق المنغوم، والبسمة الساحرة، والهدوء المريح».

«كانت تعرف العربية بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن تتكلم بها أمامنا إلا إذا زارتها أختها من الخارج».

«ومن الغريب أننا لم نكن نغار من بعضنا نحن الطالبات حين نحب واحدة بالذات».

«بالعكس، كنا نلتف حولها ونتمنى منها أن تمنحنا نظرة أو بسمة».

«كنا نتمنى منها كلمة ولو جوفاء، ونقضي أوقات فراغنا في ابتكار الكلمات المشبوبة والرسوم التي تعلن عن شعورنا الصادق، ثم نهدي تلك الوريقات إلى مَنْ نحب، فتأخذها منا في حنان وصمت».

«أما الشيء الشائع فهو الحفر بالدبوس على ظهر الكف، حفر الاسم المحبوب، حيث تنبثق الدماء ثم تجف تاركة آثارها أمام أعيننا في أغوار لحمنا الآدمي. ورحت أحفر اسم حبيبتي على ظهر راحتي بحروف من دماء. ومن الغريب أن هذا الحب الشاذ كان أفلاطونيا طاهرا، لا يختلط به شعور الجنس، مثلي في ذلك مثل بقية الزميلات».

«وجاء وقت كنت فيه العاشقة والمعشوقة: العاشقة للراهبة.. والمعشوقة لتلميذة صغيرة أحبتني بنفس الطريقة، لم أكن أحسست بعد بشعور المعشوقة. فإذا به يفوق شعور العاشقة»

«إنه شيء يمتزج به الزهو بالخيلاء، والثقة بالنفس، وبالفخر، وبالكبرياء. فهناك مَنْ يتعذب لأجلي، وهناك مَنْ يترصد حركاتي،

وهناك مَنْ ينتظر منى كلمة. أى كلمة! ما أغرب الإنسان.. فيه كل المتناقضات!!».

(٢٥)

ونرى شاعرتنا وهى تتحدث بقدر من الألم عن حرمانها من استكمال التعليم (فى آخر مرحلة) على الرغم من قرب نيلها للشهادة المدرسية، وهو الأمر الذى دفعها فى اتجاه التفكير فى الهرب من متاعب هذه الحياة إلى الترهب:

«وبدأت أستعد لدخول الفصل الثانى لنيل الشهادة».

«وانتقل والدى إلى القاهرة، واتخذت أسرتى سكنا فى الحلمية الجديدة بجوار شقيقتى، وذهبت بالطبع لزيارتهم، وتفرع الحديث بينى وبين أخى إبراهيم فأبديت رغبتى فى العمل بعد نيلى آخر شهادة فى المدرسة، وكتم أخى غيظه، فقد كان من العار عنده أن تصير أخته موظفة يوما ما».

«وحانت له فرصة لمنعى من إتمام تعليمى».

«طلبنى ابن عمى للزواج، وقبل والدى كعادته كلما طلب يدى أحد، لم أكن مخطوبة رسميا لابن عمتى، فصرت مخطوبة لابن عمى بنفس الطريقة! ولكنها كانت سببا قويا لدى أخى للعمل على إخراجى من المدرسة».

«وبدأت أستعد للانتقال إلى بيت الأسرة وترك المدرسة بما فيها من ذكريات حلوة ومرة».

«والتفت الصديقات حولى وباركن زواجى مقدما، واقتربت الراهبات فنصحننى النصائح الزوجية، لكننى كنت فى واد عميق، وعميق لا يحس

به أحد، كنت قد قررت نهائيا فيما بينى وبين نفسى أن أفر من بيت الأسرة لكى أكون راهبة».

«أجل.. كانت فى عقلى أفكار رهيبة خطيرة.. وفى روحى نفور وتقزز من فكرة الزواج.. كان فى قلبى جرح دام لم يلتئم مهما أنكرت من حبى الأول.. كان فى خيالى خيال حياة أخرى».

«حياة كلها إفناء للذات الآدمية والصعود إلى ما فوق بروح مجنحة، نحو الحق والعدل والخير والحنان والتسامح».

«هكذا كنت أفكر دون أن أدرك ما هو الدين ولمن سأصلى».

□

وتروى جليلة رضا أنها اندفعت فى طريقها لتنفيذ هذه الخطة لولا ما صادفته من وعى رجل الدين المسيحى وتبصره ونصيحته الهادئة:

«وانتقلت إلى بيت الأسرة فى بداية العام الرابع، وفسخ أخى خطبتى من ابن عمى لأسباب واهية».

«وبدأت أعمل على تنفيذ خطتي، فاستطعت بعد جهد أن أخرج من البيت دون حراسة خادم».

«وذهبت توا إلى كنيسة «سان جوزيف» بباب اللوق، وطلبت مقابلة راهب فظنونى أريد أن أعترف كما هى عادة المسيحيين، وركعت أمام كرسى الاعتراف والقسيس داخله لا يرانى ولكن يسمعنى وقال بالفرنسية:

«ماذا تريدين يا ابنتى؟».

«قلت بالفرنسية:

«أنا مسلمة وأريد أن أكون راهبة».

«وانتظرت الجواب فترة من الزمن خلتها دهرا وسألنى الراهب:

«كم سنك؟».

«ستة عشر عاما».

«وسمعت صوته قلقا حائرا:

«أنت صغيرة جدا، لم تبلغى سن الرشد».

«قلت فى إصرار وتحد:

«ولكننى سأهرب، فهم يرغموننى على الزواج».

«وجاءنى الصوت فى حنان وأسف:

«سيعيدونك إلى البيت بقوة القانون».

«قلت فى نبرة حزينة يائسة:

إذن ما العمل؟ ما العمل؟».

«قال فى حزم ورقة:

«عودى يا ابنتى إلى بيتك ولأهلك، لا تكونى سببا فى جلب المشاكل لنا، وانتظرى حتى تبلغى سن الرشد ثم افعلى ما تريدين».

«وصمت برهة ثم استطرد:

«إن لم تكونى قد تزوجت بعد، ونسيت كل ذلك».

«وقد كان هذا الراهب على حق وصواب.. فقد نسيت كل ذلك، نسيت كل شيء».

(٢٦)

وعلى الرغم من كل هذا الثراء العاطفى الذى تحفل به المذكرات، فإن صاحبتها لا تغفل عن التعبير عن مشاعرها الوطنية، ونحن لا نرى مذكرات الشاعرة جليلة رضا منفصلة عن تاريخ وطنها ومعاناة هذا الوطن وتطور أحواله، ويكفى أن نقرأ بعض ما ترويه فى إطار حديثها عن أثر هزيمة يونيو فى نفسيتها وشعورها بالمرارة الشديدة:

«ثم جاءت هزيمة يونيو، هزيمة نكراء، سميناها نحن بالنكسة، كأننا كنا مرضى قبل ذلك ثم شفينا ثم انتكسنا».

«كان قلبى مليئا بحب مصر، لا أدرى كيف نما وشب واستمر هذا الحب الطاغى العنيف».

«كان حب مصر هو شغلى الشاغل، كان شعورى بالانتماء إلى وطنى أصبح واقعا ملموسا، يلفنى معه كدوامة هائلة، والحق أقول إننا كلنا نحن الشعب كنا نشعر بهذا الحب الصارخ الملح، لذلك أحسسنا باللوعة عند هزيمتنا غير المتوقعة، كلنا ذبحنا.. كلنا كدنا نفقد العقل، بل فقدناه فعلا.. كلنا تمزقنا إربا إربا.. لذلك لم يكن من السهل علينا بعد ذلك أن نعود إلى «لملمة» أوصالنا المتقطعة المنثورة.. لم يكن من السهل لأم جراحنا وإفاقة أرواحنا الميتة.. حتى ولو بانتصار كبير فى حرب أكتوبر».

«كانت الصدمة ضخمة قوية للغاية حطمت مثلنا العليا. . كان الألم عملاقا. . ماردا، شيطانا، نثرنا شظايا فوق ميدان المستقبل بكل انتصاراته وزهوه وعزته ومجده».

«كانت الخيبة كبيرة فهربت ثقة نفسنا بنفسنا. . كان مرضنا خبيثا لا يرحم فلم نبرأ. . بعد».

«ولنطلب من الله أن نبرأ مع الزمن. . وصرخت :

«يا الله. . يارب الأمان ورب الإعصار

«ارحمنا. . فالبرد القارس جبار

«وعظام الأحياء مناخل، والريح تبعثرنا مزقا

«وتزلزل أعماق الأشجار

«والوطن المزهو الشامخ مقلوب الأوضاع

«والسطح يغوص، يغوص، يغوص إلى القاع. . ياالله!».

□

وفى المقابل تتحدث جليلة رضا عن نصر أكتوبر بكل حب وامتنان وسعادة:

«وجاء عام ١٩٧٣، جاءنا النصر فى حرب أكتوبر ولم يكن انتصارا معجزة كما يقال، وإلا فقد آلينا على أنفسنا ألا ننتصر بعد اليوم، فالمعجزة لا تتكرر».

«ولكنه كان انتقام نفوسنا الأبية من نفوسنا الذليلة. . فللحرب سببان، إما ثورة على الظلم أو استنكار لاعتداء. . ولقد ثرنا على الظلم فانتصر الحق وزهق الباطل».

(٢٨)

ولا يخلو هذا الكتاب شأن كل كتاب صادق من تصوير بعض ملامح الجو النفسى الرهيب الذى عاشه المثقفون (فى مجموعهم) فى ظل حكم الثورة حين كانت قبضة الدولة تؤذيهم وتقتل بعضهم وتدمر نفسيات ومستقبل البعض الآخر، وهى على سبيل المثال تروى أزمة زوجها الثالث الصحفى الكبير الأستاذ محمد السوادى مع نظام الرئيس عبد الناصر فى عبارات مليئة بالصدق الفنى والشعورى والألم والعبرة:

«كان زوجى موسوعة علمية ضخمة. . شيق الحديث. . يسيطر على مستمعيه فى لباقة ويسر وجدارة. . يتنقل من أدب إلى علم إلى دين إلى سياسة إلى طب إلى قانون. . لم أره قط محرجا فى الرد على سؤال ما. . وكنت أستمع إليه وأغترف من هذا النبع الدافق ما يعزينى عن فراق ولدى الوحيد».

«كان زوجى يتكلم فى السياسة من كل نواحيها بإسهاب حتى إذا اقترب من الرأس الأكبر تحاشى الذكر، وحرص على أن يكون فى حديثه حيادى الرأى والفكر لا يمدح أو يذم».

«سبحان الله، لقد ألجم ذلك اللسان الذى كثيرا ما أطلقوا عليه السليط».

«لقد أصبح لا يخشى من شىء قدر الخوف من العودة إلى المعتقل».

«وكنت أرى أنه على حق.. فقد بدأت صحته تضعف، ولم يعد في مقدوره احتمال ما قاساه من قبل».

«كنت أنا في ذلك الوقت متيمة ولهانة في حب عبد الناصر.. كان يسكن في قلبي كإله هرب من الجنة.. وكان لي العذر، فقد خرست الأقلام الصحفية إلا من الإشادة به. فهو المخلص والمنقذ للوطن والعروبة، كنت أنظم القصيدة تلو الأخرى ثناءعليه في صدق وإخلاص».

«أما زوجي فكثيرا ما كان يغرق في الصمت شاردا واجما وهو جالس فوق مقعده كسجين داخل سجنه، وكنت أسأله سبب شروده وصمته فيمسك بالقلم بين أصابعه ويحركه في عصبية وهو يكاد يبكي:

«وكنت أعرف السبب».

«إنها مهنة الصحافة تنبض في عروقه. إنها صاحبة الجلالة تأمره بالطاعة والخضوع. إنها الرغبة في الكتابة تغلي في دمائه. إنه القلم الذي يريدأن يتحرك».

«ولكن.. كيف؟ وهو محظور عليه العمل؟».

«قلت له ذات يوم:

«اسمعني.. لماذا لا تكتب وأنت في البيت؟».

«نظر إليّ ساخرا وقال:

«ماذا أكتب؟ ومَنْ سينشر لي؟».

«قلتَ على حذر:

«اكتب عنه شخصيا، اكتب عن عبدالناصر، وجه كتابك إليه».

«نظر إلىّ فى بسمة حزينة قائلا:

«إنك تمزحين، لا داعى لهذا الكلام».

«وتشجعت فاستطردت: لماذا لا تؤلف كتابا تشرح له فيه كل انفعالاتك ومشاعرك؟ كيف كنت تظن فيه السوء كعميل لأمريكا فى السنوات الأولى من الثورة، ثم لماذا عدلت الآن عن هذا الظن؟».

«وانتظرت لحظة ثم همست مبتعدة عنه:

«ربما يعيدك إلى عملك الصحفى، أو ربما يسمح لك بالسفر إلى بلد عربى تجد فيها العمل.. بل لعلك أخيرا تستريح وقد استخدمت القلم».

«وذات مساء رأيته يكتب واقتربت وقرأت العنوان «الرجل الذى تآمرت عليه».

«لم أنبس ببنت شفة.. ومضى هو يكتب ويكتب والقلم فى يده كسهم جامح، دون توقف، دون أن يجعل للأصل مسودة، دون أن يمزق ورقة واحدة أو يشطب حرفا أو سطرا فى أسلوب أعرفه جيدا، أسلوب أجمع الآخرون على انفراده وتفرده».

«وتم الكتاب.. لم أحاول قراءته.. وليتنى فعلت قبل طبعه.. ربما كنت أبديت بعض الملاحظات المفيدة، فقد كان يحوى جملا عادية التعبير، عميقة المعنى لمن يتأنى ويفكر».

«وقال لى ذات يوم وهو يدخل البيت سعيدا:

«أعطيت كتابى لصاحب مطبعة، وسينشره على حسابه الخاص».

«وطبع الكتاب من ستة آلاف نسخة صودرت كلها فى التو اللحظة».

«وعاد زوجى إلى همومه وأشجانه».

وبعد عشر صفحات تلخص حياة زوجها معها:

□

وهى فى النهاية تلخص القصة كأنها غير مصدقة لوقائعها وتفصيلاتها فتقول:

«أجل.. عاش زوجى الصحفى عشرين عاما عاطلا محظورا عليه العمل، بعيدا عن أصدقاء الأمس حتى يأمن شر الحاضر، عاش فوق هذا المقعد الذى هو..»

«مهبط الوحى وياهوة شمس المغرب

«ايه ياعرش مليكى ووساد المتعب

«كنت للغائب دنيا من أمان وسلام

«كنت حصنا قد تحدى فيك إعصار الظلام

«كنت مأوى فكره الحر.. وسجن المذنب».

الرابع

هم وأنا

مذكرات الأستاذ صالح مرسى

(١)

هذه سيرة من نوع خاص جداً كتبها أديب بارز ليروى اللمحات البارزة فى علاقته الشخصية بخمسة من أعلام الأدباء العرب، وقد كتبها صاحبها الأستاذ صالح مرسى بطريقة تلقائية تماما حيث حرر الذاكرة من القيود لتستدعى الأحداث كما أراد عقله الباطن أن يستدعيها، ووفق ترتيب الأهميات التى يراها صاحب التجربة معبرة عن نفسيته وعقليته وتكوينه الأدبى والفكرى، وهو يذكر لنا فى المقدمة قصة تكاد تكون حقيقية تماما تبين سبب تفكيره فى كتابة هذا الكتاب على هذا النحو، وإذا جاز لنا أن نصطنع الشك فى هذه القصة فاننا نكاد لانبتعد عن الحقيقة أيضا، ذلك أن التكنيك الظاهر جدا فى كتابة هذه الفصول الخمس يتوافق تماما مع ما رواه لنا صاحب المذكرات فى مقدمة الكتاب من أن فكرة هذا الكتاب جاءته عندما كان يتحدث عن علاقته بهؤلاء الأعلام ذات مساء على شاطئ الساحل الشمالى فى حضور صديقته الأديبة فوزية سلامة وفى حضور زوجه أيضا، ولم تشرق شمس الصباح التالى إلا وقد اختمرت فكرة تقديم هذه التجربة فى انطلاقة محببة الى نفوسنا على هذا النحو الجميل، وتمضى الايام لتجتمع هذه المقالات والفصول فى كتاب جميل يقدمه الناشر «مدبولى الضغير» فى معرض القاهرة للكتاب «١٩٩٧»، ويزدان هذا الكتاب بغلاف جميل ومعبر استطاع مصممه الفنان محمد الصباغ أن يتخذ له من اللون الأخضر الجميل أبرع إطار بل وأبرع جو يدل على كل المعانى الجميلة

التى يقدمها لنا المؤلف فى هذا الكتاب.. ثم يظهر عنوان الكتاب بطريقة قوية وجميلة عندما لجأ الفنان إلى الحروف (الممتلئة) لكتابة هذا العنوان ثم لجأ إلى اللون الذهبى والى البصمة القوية ليطبع هذه الحروف وسط هذه الساحة الخضراء.. وهناك إلى أعلى اليمين جلس صالح مرسى كما صورته الفوتوغرافيا بينما اجتمع الأدباء الخمسة الكبار فى بورتريهات جميلة ومعبرة رسمها الفنان عمرو فهمى وضمها مع بعضها على هذا النحو الجميل فى صورة موحية.

فاذا ما تجاوزنا الغلاف إلى المتن كما يقول أهل صناعة الكتاب استمر إعجابنا بالتنسيق الفنى الجميل لصفحات الكتاب وفصوله، ولهذا التميز لأرقام الصفحات، ولكننا نكاد ننزعج إلى ما لا نهاية لكثرة الأخطاء المطبعية القاتلة التى تحفل بها صفحات هذا الكتاب فمن إهمال لنقطتى التاء المربوطة حتى تظهر هاء إلى وضع هاتين النقطتين على الهاء المربوطة لتظهر تاء، أما المفعول به فانه نادراً ما يحوز علامة النصب كذلك فإن جمع المذكر السالم والمثنى لاينالان أبداً حظهما الصحيح من علامات الإعراب.. ومع هذا كله فإن صياغة الجملة سليمة شأن كل كتابات صالح مرسى بالطبع.. وهكذا يقف الانسان حائرا أمام دور الناشر العربى فى نهاية القرن العشرين.

(٢)

إذا ما انتهينا من قراءة هذا الكتاب راعتنا هذه القدرة الفائقة لمؤلفه على التجرد للحقيقة فى شأن حياته هو نفسه وفى شأن حيوات الأخرين، ذلك أن صاحب هذه المذكرات لايكتب هذا الكتاب من أجل

إعلاء شـأن فكرة محـددة، أو نظرية معـينة، أو رؤية ذاتية، وانـما هو يكتب هذا الكتاب من اجـل استكناه الحقيـقة فى شأن نفـسه هو. . هو يستعيد شريط حياته أمام عينيه، وقد يوهمنا أنه يستعيد هذا الشريط أمام أعيننا كـذلك، ولكنه فى حقيقـة الامر معنى بذاته، واسـتكناه ما تقلب عليها طوال السنوات الماضية، وهو لهـذا يصل إلى درجة رفيعة وعالية من الصدق مع النـفس من دون أن يجأر بهذا لأنه بالفـعل كان حـريصا على الصـدق مع النفس، بل لأنه فى واقع الأمر لم يكن يفـعل إلا هذا الصدق، ومن العجـيب أنه كان يفعل هذا ليصادق نفـسه، أعنى أنه كان يصدق نفسه ليصادقها. . فـقد كتب صالح مرسى هذه الفصول فى تلك المـرحلة التى يكون من حظ الانسـان أن يصل إليـها حـين يجلس فى مقاعد المتـفرجين ليتأمل نفسه وإنجازاته على مـدى السنوات الماضية، وقد أتاح القدر لصالح مرسى هذه الـفرصة النادرة، ثم إن صالح مرسى أتاح لنا أن نشاركه هذه اللحظات الممتعـة التى خلا فيها إلى قلمه وإلى ماضـيه، فاذا بـه يكتب لنا هذه الفصـول الجميلة على هـذا النحو من التـتابع والتـواصل والاطراد والتشـويق الرائع والممـتع والمحـبب إلى النفس.

(٣)

وإذا كان لنا أن نجيب عن سؤال تقليدى عن أبرز السـمات الشخصية فى صالح مرسى كما تنبئنا هذه الفـصول فسوف نقول بلا تردد إنها «قوة الشخصية» ولن نلجأ إلى كثير من الوسائل لاقناع القارىء بهذه الفكرة، ولكننا نستطيع أن ندعو القارىء إلى تأمل الـوضع لو كتب كتاب آخرون

مثل هذه المذكرات كيف كانت الصورة ستكون؟ إن القارىء إذا تأمل فى هذا السؤال وحاول أن يضع له هذه إجابة فسوف يصل بالطبع إلى موافقتنا على القول بأن قوة شخصية صالح مرسى تتضح فى هذا الكتاب على نحو ساطع.

ومع هذا فإن صفات عظيمة أخرى فى صالح مرسى تكاد تنازع قوة الشخصية فى هذه المكانة.

فخلق الوفاء العميق يكاد يكون هو الآخر صفة غالبة على كل نصوص هذا الكتاب، ذلك أن صالح مرسى يتجاوز فيما كتبه فى هذه الفصول أدوار الصديق والزميل والدرويش والمعجب والصاحب والمصاحب ليؤدى دور الانسان المصاحب للانسان، وهو لهذا ينجح تماماً فى أن يعطى لصفة الوفاء دورها الذى لابد للانسانية منه، وهو يفعل هذا بحس إنسانى نادر لأنه تمكن من فهم النفس الانسانية بجوانبها المختلفة التى خلقها الله عليها، ولم يلجأ على سبيل المثال إلى الصفات الكاريكاترية ليصنع من خلالها شخصياته بما يريده هو، أو بما يفهمه، أو بما يدركه.. إنما هو فنان متمكن قادر على أن يفتح الطريق أمام تيار الوعى لتتدفق منه حقائق عديدة ترسم لنا صورة مثلى للحقيقة قد لا ندركها بالوعى وإنما ندركها بما هو وراء الوعى، وربما مرّ صالح مرسى نفسه من قبلنا بمثل هذا الموقف حين أسعفه ما وراء الوعى فى فهم الصور والمواقف المتلاحقة على مدى السنوات حتى تكونت لديه فى النهاية هذه اللوحة الجميلة الرائعة لكل من هذه الشخصيات الخمس، وإذا به حين ألف هذا الكتاب أو حين أملاه يهدينا

هذه اللوحات الخمس مصفاة صافية، وإذا بهذه الهدية الرائعة لاتصلنا على هذا النحو إلا بعد رحيله.

(٤)

ربما كنت فى حاجة إلى أن أذكّر القارئ أنه ربما يكون من البدهيات أن الأديب الحق يتمكن من النقد مع كل ممارسة يقدمها فى مجال الإبداع.. وقد يكون من البدهيات أيضا (ولكن بدرجة من البداهة أقل) أن الأديب ناقد متنكر أو متخفف وراء الابداع.. وقد يكون من البدهيات أيضا أن تحول الأديب إلى ناقد أمر طبيعى وأن نكوص الاديب عن الكتابة فى النقد أمر يستدعى البحث والتنقيب إلى الحد الذى يتشكك فى أن يكون كل أديب، من الأدباء قد كتب بعض النقد ولكنه آثر ألا ينشره لكثير أو قليل من الأسباب والدوافع المشروعة.

وقد لا تكون هذه البدهيات الثلاث التى زعمتها سلفاً من البدهيات أصلاً.. ولكنى مع هذا لاأستطيع أن أتنازل عن اعتقادى فى بداهتها، سواء كان اعتقادى خاطئا أم صائبا، وبخاصة إذا ماكان مثل هذا الكتاب «هم وأنا» بين يدىّ.. فهذا أديب ترك أثرا بعيداً فى جماهيره بما تفوق فيه من إبداعاته الغزيرة.. ومع هذا فانه ينزع إلى النقد وإلى التأريخ الأدبى نزوعا محببا إلى نفسه وإلى نفوسنا، وهو لايقف فى آرائه النقدية العابرة عند العمل الواحد أو الابداع المنفرد أو المفرد أو المنفرد، ولكنه يتجاوز هذا إلى أن يتناول تجربة المبدع كلها وإلى أن يقارن بين أعماله السابقة واللاحقة ليكتشف لنا الخط الذى يسير فيه هذا المبدع مؤديا دور الناقد ومؤرخ النقد معاً.. ثم إذا هو حريص على ألا يبدى آراءه فى

أحـد المبـدعين من دون أن يضـمه فى مكـانته بين نظرائه ومـعاصـريه ومجـايليه، ثم إذا هو قـادر على أن يفعل هـذا مع كل هؤلاء الخمـسة الذين كتب عنهم ومع غيرهم حين يأتى ذكر هذا الغير بل هو يفعل هذا مع نفسـه دون تحيز أو تواضع زائف فى نفـس الوقت، وهو حفى إلى أبعد حدود الحفاوة أن يكتنه سر العبقرية، وسر القدرة أيضا، وهو يفعل هذا كله في إطار فهم عميق لطبيعة العبقرية والإلهـام، وأنهما من عند الله، وليسا من صنع الظروف الطارئة.

ثم إن صـالح مرسـى ينجو تمـامـا من أن يكون أسيراً من أسـرى الأحكام النهائية، ومن الأحكام المطلقة، ومن الأحكام البراقة، وهو فى نجاته من الوقوع فى براثن هذه الصور المختلفة من الدكتاتورية بصورها المختلفة يتـيح لنفسه ولقارئه بل للشخصـيات التى تحدث عنها فى هذا الكتاب ذلك القـدر المباح من الحـوار ومن حرية الحركة حـتى بعد أن ارتحل هؤلاء وتوقف عطاؤهم، ذلك أنه يـفتح البـاب ولا أقول يتـركه مفتوحـا، لإعادة القراءة واعادة الفهم وإعادة التأمل. . وهو فى حـقيقة الأمر لايفـتح بابا واحدا وانما أبوابا عديدة، وهو لايفـتح أبوابا وجدت من قـبل على أنهـا أبواب، ولكنه يعـمد إلى أشـبـاه الحوائط والجـدر ليحـولها بقدرة الأديب والناقد إلى أشـباه أبواب وإلى أبواب. . ولست أنكر أنى من المـغـرمـين بفـتح الأبواب، ولـست أنكر أيضـاً أنى من الممتنين بعمق للذين يبذلون الجهد فى فتحها.

(٥)

ولكن. . هل يمكننا القول بأن صالح مـرسى قد قدم فى هذا الكتاب سيرته الذاتية؟

بالطبع لايمكن القـول بذلك رغم كل هذا الثـراء الذى حـفل به هذا الكتاب، ونعود لنسأل هل قدم لنا صـالح مرسى فى كتابه هذا مقاطع أو قطاعات أو قطعـات من هذه السيرة؟ بالطبع يـمكن القول بنعم رغم أن هذا الكتاب يصور لنا الأمر على أنه يقدم علاقاته أو ذكريات عن خمسة نجوم.

هل احتال علينا صـالح مرسى مثلا وهو يقدم لنا مـاكتب عن نجيب محفوظ ليقدم لنا بداياته كأديب؟

أغلب الظن أن الجـواب بالنفى هو الأقرب إلى الصـواب مع أن مثل هذا الاحتـيال محبب إلى نفـوسنا، ذلك أن المسألة كمـا يدرك القارىء أعمق من هذا الفهم المتسرع.

وربما كان الأجدر بنا أن نقول إنه أراد أن يـكتب عن علاقته بهذا أو ذاك فاذا به يحدثنا وهذا أمر طبيـعى عن علاقاته بآثارهـم الأدبية. . نحن لا ندافع عن حق مـشروع ولا عن إبداع لا يحـتاج إلى الدفـاع، ولكننا نريد أن نقول شيئاً أهـم وهو إن توفيق الحكيم مثلا ليس هو هذا الرجل فحسـب، ولكنه بالطبع وبالحق هو كل هذه الكتابات التى أنتجـها وكل الآثار التى تركتها هذه الكتـابات فى نفوس القراء. . أليس هذا هو معنى ما نكرره دائما من أن أصحاب الأعـمال الأدبية والفنية لا يموتون لانهم يتركون ما يخلدهم. . فلماذا إذاً لا نسـتطيع أن نفهم أن علاقة الفرد منا بالعلم من هؤلاء الأفلام قد تـمتد لتشمل الآثار الناجـمة عن الاحتكاك بآثاره الأدبية؟

ولكن هل يمكن القـول بأن أدب صـالح مرسى فى هذا الكتـاب لم يكن إلا نتـاجا لأدب السـابقين عليـه وتفـاعله معـهم ومع آثارهم ومع آرائهم. . ربما يكون هذا هو الخطأ بعينـه، فنحن فى النهاية وفى البداية أيضاً أمام أديب مقتدر يكتب رؤيته للآخرين من خلال حديثه حين يروى روايته التاريخية ومن خـلال الخلجات العميقة فى نفسيـات شخصياته، وكـأنما هو طبـيب يصف لنا المـرض من خلال رسم المخ الكهـربائى ورسم القلب الكهربائى وقـد وفق إلى أن يحصل على الصور المـتزامنة فى كـلا الرسمـين، وعلى أن يجيـد الربط والوصـول إلى العلاقـات الحقيقية بين كل نبضة عقل. . ونبضة قلب.

(٦)

تتضمن هذه المذكرات كثيراً من سـيرة حياة صاحبها، بيد أنه آثر أن يقدم هذه السيـرة من خلال نوافذ غيـر تقليدية، كأن يقدمـها من خلال حديثه عن أثر الآخـرين فى مسيرته، أو كأن يقدمـها من خلال حوارات دارت بينه وبين الآخرين، أو كـأن يستدعى الأحـداث حين لا يمكن لنا أن نتخيل أنه يستدعيها.

ومن حق صـالح مـرسى علينـا أن نشـيـد بدوره الوطنى فى الأدب المصرى المعاصر، ولست أحب أن أحصر هذا الأدب فيما هو شائع فى أذهان المـثـقـفـين من دوره فى كـتـابه بعض مـلامح التـاريخ الوطنى للمـخابرات، لكنى أحب أن أشـير إلى أدوار إيجـابية واضـحة مـيزت مساهمـات هذا الرجل وإسهاماته فى التاريخ الأدبى المعـاصر، وسوف أكتفى بنموذج علمى كاشف عن هذا المجال، وذلك بأن أنقل بعض ما

يصور به صالح مرسى نفسه تأثير هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ على كيانه وإنتاجه، ولست أستطيع الزعم بأن استقصاء هذا الأثر كان أمرا صعبا، كما أنى لست أحب التواضع المصطنع فأقول إن مثل هذا التفكير وتتبعه أمر سهل نهل، وعلى كل حال فمن حسن الحظ أن صالح مرسى نفسه قد استدعى من ذاكرته ما يدلنا على هذا الأثر الذى أحدثته الهزيمة النكراء فى أدبه، بينما كان يتناقش فى حوار عميق مع الأستاذ توفيق الحكيم، وهو يدلنا بما يستدعيه على نقطة تحول هائلة حدثت له وجعلته يتعرف إلى إعادة ترتيب أولويات اعتماده على وسائل الاتصال الجماهيرى، وقد قاده ظنه أن القضاء على الهزيمة والخلاص منها يتطلب تكثيف الاتصال الجماهيرى، وهو لا يدافع عن مثل هذه النظرية التى تبدو وجيهة على الرغم من أن الهزيمة كانت نتيجة حتمية لأخطاء أخرى أكبر من تصور صالح مرسى.

لكننا على كل حال نقابل فيما يرويه صالح مرسى عن تلك الفترة ملحمة من ملاحم العطاء الأدبى الذى لا يتوقف عند حدود فى بذله الفكرة تلو الفكرة من أجل تبصير أبناء قومه بحقيقة الأحداث والتطورات والأزمة السياسية، وهو على سبيل المثال يروى ما يدلنا على أنه كان قادراً على أن يجيد تصوير العلاقة بين الرئيس عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر من خلال مسلسل «الحوت» حيث كان تتر المسلسل يقول أربع مرات فى اليوم: «إنه قصة قرية داهمها الخراب فجأة».

كما أنه يدلنا على قصة مسلسل آخر كان أكثر صراحة فى انتقاده للنظام وقد جعل عنوانه «قاتل يبحث عن نفسه»، وقصة سهرة تليفزيونية

بعنوان «محاكمة سرحان البحيرى»، وفيها صرح صالح مرسى بكل وضوح بأن الانتهازى لا ينتحر لكنه يوقع غيره فيما ارتكب هو من جرم!!

وهذه على كل الأحوال رواية صالح مرسى عن هذه الفترة:

«كنت بعد نكسة ١٩٦٧، قد كفرت بالأدب كوسيلة لتنبيه الناس أو حثهم على الفعل الإيجابى، ورحت أردد أننا نكتب لمن لا يقرأ، وإننا شعب تصل نسبة الأمية فيه إلى قرابة الثمانين فى المائة... كان كل شىء من حولى ينهار... غير أنى لم أفعل ما فعله البعض منا، لم أتقوقع ولم أغلق علىّ بابى وأنعزل عن الناس، كان قرارى هو النزول إلى الناس مباشرة، ومخاطبة هؤلاء الذين لا يقرءون لأنهم لم يتعلموا، أو لأنهم لا يملكون ثمن مجلة أو كتاب... ولذلك، فلقد اندفعت بكل ما أملك من موهبة وقدرات إلى العملين الإذاعى والتليفزيونى... كان لابد وأن تصل كلمتى إلى الناس، وبهذا الإحساس المضنى كتبت مسلسلا إذاعيا بعنوان «الحوت» وجد صدى رهيبا وسط الناس، كان المسلسل يحكى بشكل رمزى طبعا، قصة العلاقة بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الذى كان وقتها قد انتحر... ولقد لعبت بطولة هذا المسلسل نخبة من الفنانين العظام الذين تحمسوا حماسا شديدا لأداء أدوارهم... كان فيهم محمود مرسى الذى لعب دور البطولة، إلى جانب سعد أردش، وجلال الشرقاوى، وزوزو نبيل، وعبد الرحيم الزرقانى، وسهير المرشدى، ومديحة حمدى... وكان نداء المسلسل فى بداية التيتر هو «الحوت» قصة قرية داهمها الخراب فجاة... ووصل

نجاح المسلسل إلى حد أن الصديق محمد عروق وكان مديرا لصوت العرب وقتها. كما كان مديرا لمكتب وزير الداخلية وأمين أمانة التنظيم فى الاتحاد الاشتراكى، الراحل شعراوى جمعة... التقى بى ذات مرة معاتبا:

- بقى معقول تقول أربع مرات فى اليوم: قصة قرية داهمها الخراب فجأة؟!

- وهى لسه ماخربتش يا عروق؟!

كان هذا هو جوابى، فإذا به يقول:

على العموم الراجل متأثر منك قوى!

«ولست أدرى حتى اليوم مَنْ يكون هذا الرجل... هل هو جمال عبد الناصر، أم إنه وزير الداخلية شعراوى جمعة، والذى كان عروق أقرب مساعديه إليه».

«إلى جانب الحوت كان هناك مسلسل آخر أذيع من صوت العرب بعنوان «قاتل يبحث عن نفسه!» يحكى قصة وكيل نيابة ارتكب جريمة قتل فى نفس المنطقة التى يعمل بها، وكان عليه أن يحقق فى الحادث الذى ارتكبه، وأن يكتشف القاتل!».

«وبطبيعة الحال، فإن المعنى لم يخف على أحد، ولقد أثار المسلسل لغطا شديدا... غير أنى لم أتوقف، فكتبت سهرة تليفزيونية بعنوان «ناس بتحب» وأخرى بعنوان «محاكمة سرحان البحيرى»...

وسرحان البحيرى هو بطل رواية «ميرامار» لنجيب محفوظ، ذلك البطل الانتهازى الذى انتحر عندما انكشف أمره.... ولقد ألفت شخصية سرحان البحيرى من جديد، قلت إن الانتهازى لا ينتحر، لكنه يوقع غيره فيما ارتكب هو من جرم.. وهذا ما حدث فى تلك السهرة فلقد رقى سرحان البحيرى من مدير إلى رئيس مجلس إدارة، مما أثار غضب الكثيرين وكان منهم وزير الداخلية الراحل «شعراوى جمعة» الذى انتهز فرصه ظهوره فى برنامج تلفزيونى بعنوان «شريط تسجيل» كى يهاجمنى بالاسم هجوما عنيفا استضاف فيه نجيب محفوظ، من أجل هذه السهرة بالذات!».

«وفى حقيقة الأمر كنت راضيا تماما عما أكتبه، ذلك أن رد الفعل الشعبى لهذه المسلسلات وصل إلى مافوق تصورى.... غير أن هذه الأعمال لم تعجب بعض نقاد الأدب الذين رأوا فيما أصنع مايصنعه بالتحديد الترزية الذين يكتبون لافتات تحمل مع أسمائهم كلمتى «تاجر وترزى»!!».

«كان التشبيه قاسيا قسوة شديدة... غير انى لم آبه له ليقينى أن مثل هؤلاء يتحدثون عما فعلته بهم النكسة وهم جلوس خلف مكاتبهم لا يصنعون شيئا... غير أن هذا النقد كان دافعا إلى التفكير... فلقد أحسست فجأة أنى كمن حكم عليه بالسجن قبل أن يولد... لقد ولدت فى دولة محتلة، الوطن نفسه سجين، وكنت سجين تقاليد وعادات بالية تحد من رغبة أى إنسان فى الانطلاق والتحرر، وشببت فى البحر حيث القوانين صارمة فكنت سجينا فى السفينة، وعندما تحررت من البحر

وتحررت من الوطـن كنت سجين أفكار يـعتبـر الخروج عنهـا نوعا من الخروج إلى فـضاء بلا هواء أتنفـسه. . . ومـا كادت تمر سـنوات حتى وقـعت الكارثة وحلت النكـسة. وإذا بى مـرة أخـرى فى وطن سـجن باحتـلال جزء من أرضه، عندمـا أردت الصراخ بمـا آمنت به، وضعنى البعض فى سجن الإسفاف فـأصبحت تاجرا للأفكار وترزيا للفن! كانت تلك مرحلة مخـيفة بحق، وكان طبيعـيا أن أجلس إلى المكتب وأكتب روايه «السجين».

(٧)

والشاهد أن صالح مرسى يحدثنا عن سيـرته الذاتية من خلال معرفته بالرواد فى الفن الذى وهب حياته له، لكنه لا ينسـى فى خضم أحاديثه أن يشير إلى بعـض اللمحات التى أثرت فى مسيـرته الأدبية، ومن هذه اللمحات أنه قرر ألا يتقدم لجائزة من الجوائز بعد أن ضاعت منه جائزة الدولة التشجيعية بسبب موقف مبدئى للأستاذ عباس العقاد، وهو يروى القصة نقلا عن الدكتور عبد القادر القط:

«فى قهـوة عبد الله بالجـيزة كان لقائى مع دكـتور عبـد القادر القط عضو اللجنة المانحة لجائزة الدولة التـشجيعية بالمجلس الأعلى للآداب والفنون. . وكـان مـا كـان من قولـه لى بأنى كنت الأحق بأول جـائزة تشجيعية للدولة فى الأدب!».

«وفى حقيقة الأمر فلقد سـعدت ودهشت فى الوقت نفسه. . سعدت حقا لأنى لم أكن فى انتظار الفوز بهذه الجائزة، بل - ربما صفاقة منى -

لم يكن يعنينى أن أفوز بها. . ذلك أنى أكتب لأنى لا أستطيع إلا أن أكتب، فأنا لا أكتب كى أحصل على جائزة، ولا سعيا وراء شهرة أو اسم، فهذا بالتحديد لا يدخل فى دائرة اهتمامى».

. . . .

«قال لى الرجل: إن لجنة الجائزة التشجيعية أجمعت كلها على أن مجموعة قصص «الخوف» لصالح مرسى هى الأحق بجائزة الدولة التشجيعية، كل اللجنة بلا استثناء عدا رئيسها!!».

«ولقد كانت اللجنة برئاسة الأستاذ والعلامة الكبير عباس محمود العقاد! ولكى نضع النقاط فوق الحروف، ونضع الأمور فى نصاب أنفسنا استشهادا!! فإن الأستاذ الراحل عباس محمود العقاد كان له موقف ثابت من كل جديد. . كان ـ على سبيل المثال ـ رافضا للشعر الحديث. . وكانت معاركه ونقده الحاد والجارح للشعراء الجدد ـ وعلى رأسهم الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور ـ يملأ الساحة الأدبية. . وبالتالى فلقد كان رفضه، وربما عداؤه، للعامية فى الحوار أو السرد بالنسبة للقصة أو الرواية، رفضا مبنيا على موقف مبدئى ومنطقى فى الوقت نفسه. . حقا لقد ذهب العقاد وبقى الشعر الحديث، بل وتطور وقطع أشواطا وفراسخ هائلة فى التعبير عن الوجدان الإنساني، كما أن العامية بقيت وأثبتت الأيام أنها تصلح للأداء الأدبى كالفصحى تماما. . لكن يبقى أن العقاد لو بقى على قيد الحياة، لما تغيرت نظرته للأدب، ولا للشعر الحديث، ولا للعامية!».

«قال لى الدكتور عبد القـادر القط: إن العقاد هو الوحيد الذى وقف ضد حصـولى على الجائزة، رغم اعترافـه بالمستوى الجيـد لقصصي، ولأدائى كقصاص، وكانت حجته فى ذلك هى أن استخدامى للعامية فى الحوار يخرج القصص من دائرة الأدب، فالعامية ليست أدبا، ولا تصلح أن تكون!».

«ولقد تصدى للأسـتاذ اثنان: دكتور عبد القـادر القط، ودكتورة بنت الشاطئ».

«الغـريب فى الأمر أنى لم أسـأل الرجل ليلتـها وهو يقص علىّ مـا حدث، ومبسـم الشيشة بين شفتـيه على رصيف قهوة عبـد الله بميدان الجيزة، عن بقـية أعضاء اللجنة ولا عن موقفـهم. . وأنا حتى اليوم لم أسـأل. . ذلك أنى لم أنظر للأمر على أنه مـشكلة تخـصني، فلم يكن العقاد يعرفني، إنه لم يرنى ولـم ألتق به مرة، وإنمـا كان موقفه المبدئى من العامية. . وإنى لأذكر تلك المقدمة التى كتبها أستاذنا الراحل دكتور طه حسين للكتاب الثانى ليـوسف إدريس الذى يحمل عنوان «جمهورية فرحـات» وموقفـه الرافض للعامـية. . غيـر أن موقف طه حسـين كان مختلفاً، كان الرجل رافضا للعامية حقا، لكنه أيضا كان حاضنا للفن فى شتى صوره، بدليل أنه كتب تلك المقدمة التى سجل فيها اعتراضه على العامية، لمجموعة قـصص ورواية ضمها هذا الكتاب، وكانت القصص والرواية جمـيعا تزخـر بتعبيـرات يوسف إدريس العامـية، واستخـدامه العبقرى لها!».

«وعلى كل الأحـوال فلم يفلح موقف دكـتورة عائشـة عبـدالرحمن ودكتور عـبدالقادر القط ودفاعـهما المسـتميت عن كتـابي، فى زحزحة العقاد عن موقفه!».

«وضاعت منى الجائزة!».

«فلم أتقدم بعدها لنيل جائزة، أية جائزة!».

«هكذا قصت دكتورة بنت الشاطئ قصة الجائزة وما حدث فى اللجنة فى تلك الجلسة التى ضـمنتى مع الأستاذ توفيق الحكيم ودكتـور حسين فوزى والصديق فؤاد دوارة.. كنت أعـرف ما كانت تحكيه لكنى لزمت الصمت.. فماذا أقول!!!».

«كـان العقـاد قد رحل عن عـالمنا.. وكنت أشـعر بشكل غـامض بالذنب حياله، فلقد جاء علىّ وقت أحـسست فيه أنى أكرهه بالرغم من اقتناعى بموقفه المبدئى.. ولقد كان هذا إحساسا رخيصا بكل المعاني، وكنت أشعـر بالخجل بيـنى وبين نفسى لأنى كـرهت رجلاً لمـجرد أنه اختلف معى فـى الرأى.. وإذا كانت هذه الأحاسيس شائعـة فى عالمنا العـربي، فمـا هذا إلا نوع من التخلف الوجـداني، وعدم القـدرة على الاستبصار والاستـشفاف للمستقبل الذى يحمل فى رحمـه الحقيقة التى سوف تفرض نفسها على الجميع!!».

. . . .

«كنت قد أدركت حقيقة موقف العـقاد، لا منى فأنا بالنسبة إليه كنت مجهولا لا يعنى شيئا.. لكنه المبدأ الذى دفعه إلى موقفه هذا».

(٨)

ويصـور صالح مـرسى صـورة نفسـه فى صـورة الأديب الذى اهتم بالأدب دون أن يهتم بالشهـرة، والحق أنه لم يستطع أن يبلور فكرته فى هذه الجزئية على نحو قاطع، على حين أن المذيع المصرى الأستاذ عبد الوهاب قتاية بلور المعنى بصورة أفضل فيما يرويه صالح مرسى:

«أذكر أن الأسـتاذ عبـد الوهاب قتاية، الـمذيع المصـرى الذى عمل لسنوات طويلة فى تـليفـزيون أبو ظبي، قـد سألنى وهـو يسجل مـعى برنامجا تليفزيونيا يحمل اسم «لآلئ عربية»، وكان هذا فى عام ١٩٨٦: «لماذا كان أدبك أشهر منك؟!».

«وبقدر ما كان السـؤال ذكيا ولماحا، بقدر ما كـان مدهشا.. كانت هذه حقيقة، ما كدت أهم بالرد حتى انبرى الرجل إلىّ فى حماس: «إن الناس تعرف زقاق السيد البلطى وتـتحدث عنها، لكنهم لا يذكرون اسم الكاتب، كـذلك الأمر بالنسبـة لرواية وفيلم الكـذاب!».. قال هذا ثم توقف قليلا ليضيف: «وحتى فيلم الصعود إلى الهاوية، ومع كل الشهرة التى نالهـا، وآخر جـملة فـيه التى أصـبحـت مثـلا يتردد فى الشـارع المصرى: هى دى مـصر ياعبلة!! والذى يعتبر عـلامة جديدة فى تاريخ السينمـا المصرية، يتـحدث الناس عنه وعن أبطاله فى حمـاس شديد، لكن أحدا لا يذكر مبدعه ومؤلفه.. فلماذا؟!.. لماذا؟!».

«لقـد تركت كـتابة هـذه السطور وعـدت إلى مشـاهدة شـريط هذا البرنامج التليفزيونى الذى سـجل فى أثناء كتابتى لرواية ـ لا المسلسل ـ

رأفت الهجان، فإذا بى أشاهد هذا المذيع الوقور المنضبط، وقد أخذه الحماس مع الدهشة.. وابتسمت، بل الحق أقول شعرت بالرضا تماما!».

«قلت لعبد الوهاب قتاية، وكنت صادقا كل الصدق والله شهيد على ما أقول وأكتب:

«إن اسمى لا يعنى بالنسبة لىّ شيئا، إن ما يعنينى فى المقام الأول هو أن يصل إلى الناس ما أريد أن أقول.. ذلك أنى مقتنع أشد الاقتناع أن الكاتب الحقيقى هو مَنْ يملك فكرا يريد أن يوصله إلى الناس، لا أن يوصل إليهم اسمه.. وعلى سبيل المثال فإن أحدا لا يعرف كم المعاناة المخيفة التى عانيتها فى أثناء كتابتى لفيلم الصعود إلى الهاوية.. ولقد وصل الأمر إلى حد المأساة الشخصية، والتضحية التى لا يمكن لأحد أن يتصور مداها.. لا لشىء إلا لأنى أدركت أن الناس لا تعرف ما كنت لا أعرفه أنا أيضا، وأنه من الجرم التخلى عن هدف سام مثل هذا مهما كانت المعاناة أو العذاب.. وكان أن تحملت كى يصل الفيلم إلى الناس، وقد حدث!!».

«لقد كان ما قلته صحيحا كله، ولم يكن صعبا أن أضع اسمى فى مكانه اللائق مع كل الذين شاركوا فى الفيلم، كان هذا سهلا للغاية، فالأساليب معروفة والدروب ميسرة.. غير أنى لفرط ما عانيت من متاعب لم أسع إلى هذا بأى شكل من الأشكال، بل قد يدهش البعض إذا ما قلت إنى لم أشاهد فيلم الصعود إلى الهاوية إلا بعد عرضه بخمس سنوات كاملة، وكان هذا فى عرضه الثانى ـ لا الأول ـ بالتليفزيون المصرى!».

(٩)

يقدم لنا صالح مرسى تصويرا دقيقا وحيا لبداية علاقته الوثيقة بنجيب محفوظ الروائى والمؤلف حين يبلـور مشاعره تجاه رواية «بداية ونهاية» التى قرأها وهو على سرير المرض عـقب إجرائه عملية جراحية مـفاجئة فى المـستـشفى البـحرى بالإسـكندرية، وما إن علم أصـدقاؤه الثـلاثة الأقربون حـتى جاءوا لزيارته، واصطحبـوا معهم «بدايـة ونهاية» لتكون بمثابة الهدية التى يقدمونها للمريض وهو يحدثنا عن كل هذا حديثا أدبيا طويلا نجتزئ منه قوله:

«. . . تقدم منى حسن الحداد، وكان - كعادته حتى اليوم رغم مرور نيف وأربعين عاما - يحمل فى يده مجموعة من الكتب، التقط من بينها كتابا قدمه لى وهو يقـول: قلنا لو جبنا لك ورد، الورد هيدبل. . . إنما الكتب عمرهـا ما تدبل! تناولت الكتاب وما إن نظرت إلى غـلافه حتى هتفت: «نجيب محفوظ!»

قال علاء: «بداية ونهاية»

وأضاف الدرينى: «اقرها حاتخف على طول!».

تناولت الكتاب، ولـم أكن أدرى أن هذه الرواية بالذات، سـوف تغير مجرى حياتى!».

. . . .

وبعد صفحات روى لنا فيهـا صالح مرسى قصته مع «بداية ونهاية»، بل وروى فيها ملخصا لشخصيات القصة إذ هو يحدثنا عن أثرها فيه بعد أن قضى الليل كله فى قراءتها ولم ينته منها إلا مع طلوع الفجر، فيقول إنه ما إن سرى أذان الفـجر من مئذنة مـسجد المرسى أبو العـباس حتى كان يطوى صفحات الرواية وقد جف دمعه ثم يقول:

«. . . حاولت النوم فلم أستطع، أحســست أنى كنت كالملاح التائه يبحث عن مرفـأ فإذا هو على قيد ذراع منه. . لم يقتـصر الآن على دقة التـصـوير وبراعة الأداء والبـناء، بل لقد أحـسـست أن ها هنا المـأوى والمصـير، هذه هى قـارتى المفقـودة وقد صـعدت من قلب المـحيط كالشـمس تبزغ كى تضىء فى صـدرى وعقلى عـوالم كانت غـارقة فى الضبـاب. . . وإذا كان البحث عن الذات أو النفس أو الطريق هو سـمة الشـباب بشكل عـام، فإن هوايتى للأدب وقـراءاتى فى الفلسفـة وعلم النفس، لم تكونا سـوى الجزء الرفيع فى حـياتى الذى أنتـمى إليه دون سـؤال أو جـواب أو حتى هدف سـوى الإبحـار فى مـحـيطات الفكر المختلفـة، القراءة عندى هى الزاد والزواد، أملأ حقيـبتى بالكتب أينما رحلت أو أبحرت. . انكب عليها انكباب العاشق يبحث بين السطور عن مـحبـوبة غامـضة، يمـلؤنى شوق الصـدّ إلى لحظة وصل يغنى فـيهـا وجودى. . كنت كلمـا قرأت كتـابا أحسست كم أنا غـارق فى الجهل، فيزداد نهمى إلى المزيد لعلى أروى به بعضا من عطشى الحارق!».

«أما الكتـابة فهى تأتى فى المقـام التالى، أعبـر بها عمـا يجيش فى صـدرى أو يلوكه عـقلى. . . أكـتب لا لأنشر، فـالنشـر أبدا لم يخطر

بالى، وإنمـا أكتب لأنى كنت أشـعر بالحاجـة إلى التحـدث مع نفسى بصوت مرتفع!»

«هكذا كنت حتى جـاءت بداية ونهاية كعلامات الـطريق المرشدة.. أحسست وكأن نجـيب محفوظ قد اغترف من الواقع المصـرى مجموعة من الناس، ثم ألقى بـهم فوق الورق وتـركهم يتـحـركـون ويعيـشـون حيواتهم دون تدخل مـنه... وإذا كانت مصر بالنسبـة لجيلنا كله، هى الهدف والأمل والحب، ففى يقينى أن أحدا لم يعها ويفرزها مثل نجيب محفوظ فى المدينة!».

«وضعت الرواية إلـى جوارى، أحسـست برغبة شـديدة فى البكاء، ليس من أجل هذا المصير الذى آلت إليه نفـيسة أو حسانين أبدا.. إنما هى تلك الرغبة الـتى تنتابك إذا ما امتلأت نفـسك بالرضا، وهى نفس الرغبة التى تنتاب البحار إذا ما طال به التـرحال، وعادت سفينته ـ أخيرا ـ إلى مرفئه ورحمه الذى منه جاء!!»

ويسـترسل صـالح مرسـى ليحكى لنا أنه قـرأ كل مـؤلفات نجـيب محفوظ فى إجازة الأسابيع الثلاثة التى أعقبت عمليته الجراحية.. وهو يحدثنا بإعجاب شديد عن «رواية زقاق المدق» ويصل إلى القول بأنه إذا كانت «بداية ونهاية» هى كلمة السر التى فتحت مـغاليق نفسه الخفية فإن «زقاق المدق» كـانت اكتشافا يستـحق من أجله أن يغير مجـرى حياته، ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أن صالح مرسى يجعل عبارة «الطريق إلى زقاق المـدق» بمثـابة عنوان فرعى تحت اسم نجـيب محـفوظ فى الفصل المخصص له.

. . . .

ومع هذا فإن صالح مرسى يبلور فى بساطة علاقته بأدب نجيب محفوظ فى عدة عبارات موجزة حيث يقول:

«كنت فى تلك الأيام قد تجاوزت العشرين بعام أو بعض العام، وكان لنجيب محفوظ تأثير قوى على نظرتى للأدب ووظيفته... ولقد أحسست، لفرط حبى لأعماله التى كثيرا ما كنت أعود إليها، وكأنى كوكب صغير أدور فى فلكه، ولطالما شعرت وأنا أعود إلى زقاق المدق، وكأنى أدلف إلى متحف فذ للنماذج الإنسانية.. غير أن بداية ونهاية ظلت، وحتى اليوم، هى روايتى المفضلة.. فالبناء فيها بلغ شأوا عاليا من الدقة والإحكام حتى خيل إلىّ، فى بعض الأحيان، أنى أعيش مع عائلة المرحوم كامل أفندى على!».

«وثمة ملاحظة تبعث على الدهشة، ظلت تحيرنى حتى اليوم، فبالرغم من هذا التأثير والتأثر، فأنا - أبدا - فى تلك المرحلة، لم أحاول أن أكتب الرواية، بل إنى لم أفكر، ولسنوات بعد ذلك، فى الإقدام على هذه الخطوة رغم خصوبة الواقع من حولى، خصوبة لم أذق حلاوتها منذ غادرتها وحتى يومنا هذا!».

«ولقد ظللت على وفائى للقصة القصيرة، كان هذا الشكل الفنى يتسلل إلى مدارى النفسى فأجود فيه وأغير وأبدل.. عشرات القصص التى كانت تدور، فى أغلبها الأعم، فى ذلك المحيط الذى كنت أعيش فيه، فى البحر...»

(١٠)

كذلك يحدثنا صالح مرسى أنه أحس طوال السنوات الخمس التى انقطع فيها نجيب محفوظ عن الكتابة بشىء من القلق، حتى إنه قد هُيئ إليه أن ذلك الرجل صاحب «بداية ونهاية» قد ركن إلى الصمت!! وبعد صفحات عديدة يحدثنا عن لقائه الأول بنجيب محفوظ فى مكتب يحيى حقى ويروى كل ما يستطيع تذكره من تفاصيل هذا اللقاء ثم يعقب على هذا الذى يرويه بقوله:

«عندما يتذكر الإنسان دقائق كتلك التى عشتها فيما بين عملاقين مثل يحيى حقى ونجيب محفوظ وأنا مازلت أحبو على أول الطريق سائرا تارة متعثرا تارة أخرى، عندما يقارن المرء بين اهتمام كل منهما، واهتمام الآخرين، يشعر بالامتنان غامرا.. ذلك أن الفنان فى خطواته الأولى، يشعر، إذا ما كان رومانسى الإحساس مثلى، أنه يخطو إلى عالم قدسى... اهتمام الآخرين به حتى ولو كان إنتاجه متوسط الجودة، لاشك سوف يعطى دفعات ودفقات من حماس..».

....

وحين يحدثنا صالح مرسى عن ندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا فإنه يدلنا على قدرات وأخلاق رفيعة تميز بها نجيب محفوظ وإن لم تكن قد لقيت بعد حظها من التقدير، يقول صالح مرسى:

«لم تكن الندوة اجتماعا لمجموعة من الأدباء والشعراء والمثقفين للدردشة وإزجاء الوقت... بل كانت دائما مجالا لحوار كان يمتد

لساعات. تتطـاير فيها الآراء وتتفـاعل، ذلك أن الندوة كانت تضم أدباء من مدارس الأدب المختلفة، والتى كانت خلافاتها فى تلك الفترة تزداد ازدهارا. . . وكان نجـيب محفوظ يبدو وكـأنه حكم فى مباراة ثقـافية، سؤاله يبدو مثل صفارة حكم يعيد بها المناقشة إلى مسارها الطبيعى. . . كنت فى تلك الأيام أستمتع حقا بـذلك الأسلوب الذى كان يتبعه، فلقد أدركت مرة بعد مرة، ما كان الأستاذ يعنيه بسؤاله إذا سأل. . سيطر على فكرى ذلك الإحسـاس بسيادة المنهج السـقراطى على أسلوب الرجل، ذلك المنهج الذى أطلقـوا عليه اسم «التـهكم والتـوليد». . كـان سؤال نجيب مـحفوظ دائما يحـمل فى طياته نكتة أو طرفة تضـحك أو تبعث على الابتسام، لكنه كان فى نفس الوقت يعيـد الأمور إلى نصابها إذا ما اشتط الحديث!».

ويصل الأمر بصالح مرسى إلى أن يجاهر باعـتقاده أن الأستاذ نجيب محفـوظ كان يجيد مراقبـة الناس ورصد تحركاتهم وأساليـبهم إلى حد مذهل، وأن قصصه ورواياته القصـيرة التى احتلت مكانها فى مرحلة ما بعد الثـلاثية وأولاد حارتنا كـانت التقاطا بالغ الذكـاء لأنماط من هؤلاء الذين كانوا يتحلقون حول الأستاذ سواء فى ندوة الجمعة أو فى غيرها، وينبهنا صالح مرسى إلى مـا اكتشفه من أن نجيب محفـوظ كان حريصا جدا على استبقاء مسافة بينه وبين الآخرين حتى لو حاول الآخرون إلغاء هذه المسافة. . وهو يدلف من هذا إلى القول:

«وكان طبيعيا ـ حتى اليـوم ـ أن أقرن اسمه بلقب أستاذ. . لكنى أبدا لم أسمعـه ينادينى مرة باسمى مجردا. . ولطالمـا تمنيت أن يفعل ذلك

على مدار عشر سنوات كنت أراه فيها بشكل شبه منتظم، بل كنت دائما ما أسعى إليــه، سواء فى القاهرة، أو فى ندوته المتــأخرة بالإسكندرية، والتى كانت تعــقد فى مقهى بترو مع راحــلنا العظيم توفيق الحكيم.

لكنه - أبدا - لم يفعل!!»

(١١)

ويحدثنا صالح مرسى عن موقف نقدى عظيم للأستاذ نجيب محفوظ حين تمت مناقــشة رواية صالح مــرسى «زقاق السيــد البلطى» فى ندوة نجيب محفوظ فيقول:

«... فى الندوة لزم نجيب مــحفوظ الصــمت، كان يعلق على رأى بكلمة، أو قفشة، لكنك تشــعر يقينا أنه دائما هنا، يتابع، ويحض... حتى إذا مــا شارفت الندوة على الانتهاء وجــه إلى سؤالاً! كنت أجلس قبالته تماما، أذكر هذا اليــوم وكأنه كان بالأمس القريب، فإذا به يسأل: «لكن أنت مع التقدم واللاضده؟!».

«كانت أحداث الرواية تدور فى شاطئ فقــير، يملك أصحابه قوارب صغيرة للصــيد، يكسبون عيشهم يوما بيــوم... حتى صعد رجل منهم استطاع أن يكون ثروة، وبهذه الثروة شــارك [رجلاً إنجليزيا]- وكان هذا وقت الاحتلال وللإنجليز مالهم من سطوة وسلطان - لشراء سفينة صيد كبــيرة تستطيع أن تصــيد من الأســماك فى رحلة واحدة مــا كان سكان الشاطئ يصطادونه فى أسابيع طويلة، وكان معنى شراء مثل هذه السفينة خراب حياتهم بالكامل.. كان سؤال الأستاذ موجها إلى بؤرة الصراع فى

الرواية كلها، ذلك الصراع الذى تحدد حول قضية بالغة الأهمية. . هل يتمسك الناس بما فى أيديهم من أدوات بدائية، أم يرحبون بالجديد القادم فى شكل سفينة هائلة، حتى ولو كان الشريك هو المستعمر الذى يمتص خيرات الوطن كله لا الشاطئ وحده؟!».

«كانت إجابتى واضحة ومحددة: أنا مع التقدم ومع شراء السفينة على أن يجتمع رجال الشاطئ للولوغ فى العصر الجديد، والمشاركة لشراء سفينة جديدة. . . وهذا ما كانت الرواية قد انتهت إليه بالفعل. . . استمع إلىّ الأستاذ حتى إذا ما انتهيت قال: «كده كويس!!».

«هل كانت كلماته هذه رأيا؟!»

«لم يحيرنى الأمر طويلا. . فبعد شهور قليلة جاءنى رأيه فى صورة إهداء على مجموعة قصص «دنيا الله» . . وكان الإهداء يقول: «مودة لشخصه، وإعجابا بزقاقه!».

وأصبحت إهداءات الأستاذ لى، رسائل أعتز بها وأفخر. . فبعد عامين كنت قد نشرت رواية الكذاب. فإذا به يرسل لى مجموعة قصصه التالية التى تحمل عنوان «بيت سيىء السمعة»، وكان الإهداء يحمل نوعا من التوجيه، كان يقول «تحية لروحه الملهمة، وفنه المقتحم!» .

□

وعلى هذا النحو يمضى صالح مرسى فى رواية فضل الأستاذ نجيب محفوظ عليه وعلى سيرته المتصلة فى فن الرواية، بل وفى الحياة، وهو يفعل هذا بتواضع شديد لا ينم إلا عن ثقة شديدة فى النفس.

على أن أعظم مـا ينبغى أن نلتـفت إليه فى دروس نجـيب محـفوظ لصالح مرسى هو ذلك الدرس الذى فرض نفـسه عند لقاء صالح مرسى بنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم بعد قيامـه بنشر قصة حياة تحية كاريوكا فى مجلـة الكواكب. . ومن الأفضل أن ننقل للقـارئ ما يرويه الأسـتاذ صالح مرسى عن هذا الدرس حيث يقول:

«. . . وكتبت قصة تحيـة كاريوكا. . ونشر الفصل الأول، وصدرت الكواكب تحـمل على غلافـها عنوان الحلقـات «كاريوكـا». . فى هذا اليوم، كنت أسعى - كما تعـودنا فى تلك الأعوام كلما كان الواحد منا فى الإسكندرية - إلى مقهى بترو».

«عندمـا وصلت كان الوقـت مبكرا. . وكـان المـشهـد الذى طالعنا غريبا. نجيب محفوظ يجلس إلى جوار توفيق الحكيم. . أمامهما البحر بكل امـتداده، والكورنـيش الخالى من السـيـارات فى ذلك الوقت من الصـبـاح. . وفى المـقـهى عـدد من الرواد لايزيد على عـدد أصـابع اليدين. . عندما اقتربت كان كل منهـما ساهما، وكل منهما يضع تحت يده، فوق المـائدة، عددا من الكواكب التى كانت قـد صدرت فى هذا اليوم. . ألقيت بالتحـية، فجاءنى الرد فاترا، جلست إليهمـا فإذا الفتور يسرى إلىّ. . . ظننت أن ثمـة ما يشغلهـما، هممت بالانصـراف، فإذا توفيق الحكيم يهتف بى غاضبا: «إيه اللى انت عملته ده يا أستاذ؟!».

«كان الـرجل قبل عـامين من هذا اليـوم قد طلب أن يرانـى، وكان الوسيط هو فؤاد دوارة، وكان بيننا حديث وأحاديث. . وعندما سألته فى

ذلك الصباح عن سبب غضبه، صاح رحمه الله: «ليه سميت اللى انت كاتبه ده كاريوكا!؟»، «لأنها كاريوكا ياتوفيق بك!».

«قال نجيب محفوظ والأسى يقطر من بين شفتيه «طب ما تسميها قصة راقصة يا أخى!».

«نظرت إليهما غير فاهم، انهال علىّ التقريع من توفيق الحكيم، كان يحدثنى عن أعمالى، عن قصصى، عما أستطيعه، عما تنتظره الرواية على يدى... عن... عن..».

«وإذا كان راجى عنايت يطلق علىّ لقب «المندهش دائما»، فلقد كانت دهشتى فى ذلك الصباح صارخة.. كنت أعرف ما الذى يحمله لى هذا الرائد العظيم، كنت أعرف رأيه فى أعمالى القليلة... كنت أعرف هذا غير أن ما قاله لى - غاضبا - فى ذلك الصباح كان يمثل لى تاجا أعتز به مدى الحياة!».

«وعلى كل... فلقد رحت أستمع اليه فى صمت وإجلال وأنا أتساءل: هل أستحق حقا كل هذا الغضب!».

«حتى إذا ما كانت لحظة، مال «الأستاذ» نحوى كى يلقننى واحدا من أعظم أسراره الفنية وهو يشير إلى المجلة الراقدة فوق المائدة:

«اللى أنت كاتبه ده أدب!»

«يا أستاذ نجيب......»

فى حدة قاطعنى:

«انت كاتب أدب!»

«لذت بالصمت انتظارا للحكمة القادمــة. . . ما لبث [الأستاذ نجيب محفوظ] أن قال: «أنا لو سميت اللــص والكلاب» «محمود سليمان» ما كانتش بقت رواية» .

أحسست أن جسدى كله يتفصد بالعرق، مع السعادة حزن غامر، مع الفرحة شعور غريب بزوالها.

كان نجيب محفوظ يشير إلى قصة محمود سليمان الذى أطلقوا عليه فى الســتينات لقب الســفاح، والذى كــان قد تحــول بين يوم وليلة إلى أسطورة تحدثت بها مصر من أقصاها إلى أقصاها. . كان هذا الاعتراف وحده، كنزاً - بالنسبة إلى - لا يوزن بكنوز الأرض جميعا! ».

«عاد الهــدوء إليهمــا أخيرا. . أشــعل نجيب محــفوظ سيــجارة حل موعدها، علت وجهه - وقد لحظ شحــوبى وسهومى - ابتسامة حانية، قال: «وبرضه كانت حاتبقى كاريوكا، مش حد تانى!».

□

هكذا نمضى مع صــالح مرسى وهو يروى لنا فضل نجيب مــحفوظ فى قيادة خطواته وتوجهاتهــا أو فى محاولة قيادة هذه الخطوات، ونحن نلاحظ أن نجيب محفوظ ظل وفيا للدور الذى قرر القيام به تجاه صالح مرسى على الرغم مما حققه صالح مرسى من شهرة واسعة، وليس أدل

على هذا من موقف يرويه صاحب المذكـرات، وقد حدث هذا الموقف بعد أن صبح اسم صالح مرسى على كل لســان بعد النجاح الذى حققه عرض مسلسل «رأفت الهجان».

يستـدعى صالح مرسى من ذاكرته مـحادثة تليفونيـة جرت بينه وبين الأستاذ نجيب محفوظ ثم يعقب عليها:

«كان آخر ما قاله لى فى مكالمة تليـفونية وكان هذا بعد صدور رواية «رأفت الهجان»: «ألو يا أستاذ نجيب!».

«أهلا بالهجان!».

وعند هذه النقطة يسائل صالح مرسى نفسه ويقول:

«تحية كانت. . . أم إنها تذكرة؟!».

ويجيب صالح مرسى:

«سؤال لم أجد الإجابة عليه حتى الآن!».

وهكذا ينهى صالح مرســى هذا الفصل الجميل عن نجيب مـحفوظ بأن يلفت نظرنا إلى ما لفت نظره إليه نجيب محـفوظ من قبل حين نبهه إلى أنه ربمــا عاد إلى تكـرار نفس الخطأ القـديم، وربما كـان هو يظن نفسه قد وجد حلا وسطا.

(١٢)

نكاد نلحظ أن صالح مرسى كان حريصا على الدوام أن يجد ليوسف إدريس مكانا إلى جوار نجيب محفوظ، على الأقل فـيما يتعلق بعلاقته

بالجيل السابق عليه من الأدباء، فهو حين يبدأ الحديث عن يوسف إدريس يقارن بين أثره فيه وبين أثر نجيب محفوظ عليه ثم هو بعد صفحات أخرى يضع لنا بعض الأحكام التى تصور مكانة الرجلين من بعضهما ومن النثر الفنى المعاصر، ولعل القارئ يود لو أننا استطعنا أن نستعرض معه كل هذا من خلال ماكتبه صالح مرسى نفسه، وسوف نكتشف للقارئ حقائق كثيرة فى مثل هذه المقارنات، ها هو صالح مرسى يقارن على سبيل الإجمال بين أثر كل من نجيب محفوظ ويوسف إدريس عليه فيقول:

«وإذا كان نجيب محفوظ يمثل بالنسبة لى ذلك **الرائد** الذى اهتديت بخطاه، فلقد كان يوسف إدريس هو **القنبلة** التى فجرت من حولى كل ما كنت قد أقمته من أبنية فنية أو أدبية، كان فى البداية انفجارا بفنه.. ثم أصبح زلزالا بشخصيته تلك الفذة، والتى من الصعب أن تتكرر!

وبعد عدة فقرات يحاول الأستاذ صالح مرسى أن يلخص الموقف فيقول:

«وعندما جلست كى أكتب عن يوسف إدريس، عن الكتاب ثم الكاتب... وجدت نفسى أخوض فى بحر من الأحداث، أحداث بعضها قريب، وبعضها يبعد عنا بأربعين عاما كاملة.. يطاوعنى القلم حينا، ويخذلنى حينا آخر، كأن هناك معركة فيما بين العقل والقلب، أتوقف عن الكتابة للحظات، ثم تشدنى الذكريات إلى الورق شدا... ولقد طال الصراع واحتد واحتدم، حتى فكرت فى العدول عن الكتابة،

لولا أن الحقيقة راحت تفرض نفسها عليّ فرضا لافكاك منه.. تلك الحقيقة التي تقول: إن «ارخص ليالي» كان هو الكتاب الثاني الذي هزني حتى الأعماق.. وكان يوسف إدريس، هو الشخصية الفريدة التي التقيت بها، فوجدتها تمارس وجودها وحقها في الحياة، بحرية قلما وجدتها في إنسان غيره».

«هل هو الصراع فيما بين الإنسان عندي، وبين رحيقه الفذ من الفن؟! ربما...».

□

ويجدر بنا أن ننقل بعض ما يصور به الأستاذ صالح مرسي انطباعاته عن مجموعة من هذه المجموعات القصصية ليوسف إدريس حيث يقول:

«تلك كانت ليلة من ليالي العمر الحميمة، ذلك أني، منذ السطر الأول في القصة الأولى انتابني ذلك الإحساس الذي يغمر البحار إذا ما اكتشف قارة جديدة.. قارة طال التنقيب عنها في بحور الدنيا !!»

«كانت قصة «أرخص ليالي» - أولى قصص المجموعة - مثل ضربة قاضية.. ربما لأني قضيت طفولتي وصباي وصدر شبابي الأول، في مدن صغيرة تحيط بها القرى وتتناثر من حولها أينما توجهت... ذلك أن «عبد الكريم» ـ صاحب أرخص ليالي، والباحث عن ليلة لا تكلفه قرشا أو مليما ـ كان هو هو، دون وصف لملبسه أو شكله، ودون تعليق أو فذلكة، نفس الفلاح الذي كنت أراه في كفر الزيات أو طنطا..

وكانت القرية التى ألقى بها يوسف إدريس على الورق، دون ذكر اسمها أو كسمها، هى هى نفس القرية التى كنت أراها فى كل قرية مزروعة فى قلب الدلتا من حولى!

«كان شيئا محيرا هذا الذى قرأته، غير أنى، ما إن انتقلت إلى قصة «نظرة» حتى توسمت العبقرية البكر فى أجلى صورها!».

....

وهذه مقارنة من المقارنات العديدة التى تفوق صالح مرسى فى عقدها بين نجيب محفوظ ويوسف إدريس حيث يقول:

«وإذا كان نجيب محفوظ هو المؤرخ الأدبى للقاهرة فى القرن العشرين لايباريه فى تأريخه أحد فإن يوسف إدريس كان، فى هذه المجموعة الأولى، هو الفنان الذى انتزع الفلاح المصرى بكل ذكائه ودهائه وطيبة قلبه وغراباته، من عمق طين الدلتا، كى يضعه فوق الورق، كما هو كائن بلا رتوش».

وفى وضع آخر يعود صالح مرسى لهذه المقارنة فيصل إلى استنتاج جميل ومدهش يقول فيه:

«هل كان الفقر فى روايات نجيب محفوظ هو البطل؟!».

«نعم... ولكن البطل فى قصص يوسف إدريس كان «الإنسان الفقير!».

□

ويبلغ صالح مرسى ذروة نجاحه فى النقد والمقارنة والفهم العميق لتاريخ الأدب العربى المعاصر حين ينجح فى بلورة ما أضافه يوسف أدريس إلى القصة العربية مقارنا إنجازه وتفوقه بإنجاز وتفوق وتميز السابقين عليه والمعاصرين له فيقول:

«ذلك أن القصة قبل يوسف إدريس، كانت شيئا آخر تماما غير هذا الذى أبدعه الرجل.. لم تكن قصصه من نوع قصص راحلنا العظيم الدكتور **طه حسين**... فأنت فى مجموعة «المعذبون فى الأرض» على سبيل المثال - تقرأ عن الفقر والفقراء حقا، تستمع إلى سوناتات شجية، يلهيك النغم المتدفق واللغه الجليلة عن حقيقة الشكل... أنت مع طه حسين تقرأ لأستاذ وعلامة ينبئك بنبأ هؤلاء المعذبين الذين يتحدث عنهم، فإذا أنت تستمع إليه فى خشوع، لايعنيك بالدرجه الأولى ما يعانونه من فقر أو عذابات بقدر مايعنيك حسن الاستماع والاستيعاب!».

«وأنت عندما تقرأ قصص **يوسف السباعى**، تنتقل من الواقع الذى تعيش فيه، إلى عالم حالم، عالم يحلق صاحبه بأجنحة من خيال مزركش... وعلى العكس كانت قصص إحسان عبد القدوس القصيرة، يجتذبك بأسلوبه الساحر هذا، كى يكشف فى براعة عيوب طبقة مترفة، ثم يزيح الستار عن غرابات المرأة فى مجتمع محافظ تسيطر عليه تقاليد كالسلاسل... هناك حلم وأحلام وردية، وهنا قضية تبحث عن حل».

«وحتى **إبراهيم الوردانى** الذى كان يغمس قلمه فى مشاكل الشعب، ثم يحيلها على الورق إلى نوع من الإبداع فى الأسلوب، تقرأ القصة

فتعجب بتعبير هـنا وتخريج لغوى هناك، حتى إذا انتهيت، **لا تجد بين يديك** سوى هذا السوار من الكلمات تزين به الورق».

«ولقد كان **سعد مكاوى** - رحمة الله عليه - **أستاذا فى فن القصص**، ولكنه أستاذ بلغ به الوقار حدا يقف بينك وبين مايقول... **تقرأ قصصه** عن الفلاحين أو حـتى سكان المدن، **فلا تشعر أن هناك أحـدا غيره،إنه يذيب شـخصـياته فـى ذاته، يذيبهـا كى يقـدم فكر سعـد مكاوى عن «السائرون نياما»** هذه الرواية الجميلة التى **تعد من أشهر أعماله»**.

«**فإذا مـا انتقلت إلى الـجيل الجديد، جـيل يوسف إدريس نفـسه، فلسوف يطالعك أول ما يطالعك من هذا الجـيل، ذلك الفيلسوف الذى اسـتطى قلم أديب، إن يوسف الشارونى** كان شـيئا - ومازال - **قـائما بذاته... يكتب عن** «زيطة صـانع العاهات» **إحدى شـخصيـات نجيب محفـوظ فى زقاق المدق** - فيشرح، ويفـسر، ويقارن، ويقص... **ثم يجمع هذا فى فكرة يطرحها**، أو فلسفة يسخر بها مما كان **يحيط بنا»**.

فـإذا ما انتـقلت إلى **محمود السعدنى**، طالعك الولـد الشـقى **وهو يحكى لك عما رآه أو قرأه أو حدث له... تحاول أن تقترب من إحدى شخـصيـاته، فيـقف أبو حنفى بينكمـا كى يتحـدث هو بالنيابة عنـها، وهو... وهو ملك الكلام فى جيله بلا منازع!»**.

«**فى ذلك الوقت كـان صلاح ذهنى مـديرا أو سكرتيـرا لدار الأوبرا وقصـاصا يقص عليك قـصصه وهو مـمسك بمـبسم ذهبى للسـجائر، يرتدى مع الفراك** «بـابيون» لاربطة عنق، **أنيق اللفظ والجـملة.. تقرؤه**

فكأنك أتيت من الريف كى تشاهد أوبرا لفيردى أو بوتشينى، ويصبح عليك أن تحملق متفرجا فاغر الفم، وليس مهما بعد ذلك أن تفهم!».

«حتى إذا ما وصلنا إلى **إسماعيل الحبروك**، هذا الذى اختطفه الموت مبكرا، وجدنا أنفسنا أمام أول تلامذة إحسان عبد القدوس، وعندما رحل لم يكن نموه الفنى قد اكتمل بعد...».

«أما **الخميسى** فلقد كان يكتب - دائما ـ «قمصان الدم» اسم مجموعه قصصية له - وكعادته فى الحياة كانت قصصه تهتف وتصيح وتصرخ... فإذا أنت بعد قراءة قصة له، تشعر وكأنك خارج لتوك من مظاهرة تهتف بحياة الوطن، وبسقوط الإنجليز!!».

«وماذا بعد؟!».

»هل نسيت أحدا؟!».

«فليكن... غير أن هذه هى الساحة التى نزل إليها يوسف إدريس. هنا مكمن العظمة وموطنها فى هذا الفنان الفريد... إنه لم يكن مثل الآخرين، لم يقلد أحدا، ولم يؤثر فى أدائه أحد... وكأنه - لفرط ماقرأ الجميع بإمعان - لم يقرأ لأحد!».

«كنت أشعر ـ فى ذلك الصباح الباكر - أن هذا شاب ـ كان يوسف يكبرنى بعام وبعض العام - يسبق سنه، ويسابق تجربته... ويغمس قلمه فى قلب الناس، ثم يكتب بدمائهم أو عرقهم دون تدخل منه، دون

أن يحول بـينك وبينهم، هو يقدمـهم لك ثم يمضى إلـى حال سبـيله، حتى ولو كان هو القاص والحاكى معا!».

□

هكذا يُمتعنا صالح مرسى وهو يمارس رواية علاقته بيوسف إدريس على المستـوى الإنسانى فى فقرات متواصلة بل حلقـات متواصلة. ليس عندى شك فى أن هذه الصفحـات الطوال تمثل إنجازا أدبيا كـبيرا نجح فى تصوير اللقـاء الفكرى والوجدانى بين اثنين من أبناء المـهنة الواحدة رزقا الحب والإخلاص لبعضهما.

وربما لا يكفى أن نقترح علـى القارئ أن يراجع قصة الخطاب الأول ثم قصة اللقاء الأول بينـهما، وقصة هذه الأيام التى قضيـاها فى صحبة بعضهما بعضا فى الإسكندرية وفى بحرها الجميل وفى الزقاق التاريخى الحـافل بكل ما يثيـر الوجدان والفكر وفى صـحـبة الريس الحـديدى «البحار» والشاعر الشعبى أبو جمعه وفى «البوظة».

ومع هذا فإننا نحب أن ننقل للقـارئ فقرة من التى يبلور فيـها صالح مرسى طبـيعة العـلاقة واللقاء بين الرجلين حـيث يصف إحدى زيارات يوسف إدريس له فى الإسكندرية بتفصيلات دقيقة ويصل إلى قوله:

«فى السادسة مساد التقيت بيوسف، وبدا لى وكأنه مشحون بطاقة لا قبل له باحتـمالها، كان يريد أن يعرف، يريـد أن يفهم، يريد أن يغوص فى قلب تلك الليلة التى قضـيناها معا.. سرنا من الفندق حـتى محطة

الرمل دون أن يكف عن الحديث. . كان يتحدث عن شارع السبع بنات، عن الحانة والبحارة، عن الرجال وبوظة شلوفة. . هذا عالم أسطورى لابد أن يقدم للناس الحياة ثرية وثراؤها فاحش ونحن لا نزال محصورين داخل جدران فكرية لابد لنا من التحرر منها. . الفن هو أسمى شىء فى الوجود، لذلك يمارسه الناس كما يمارسون التنفس، منبهر هو بأبى جمعة وشعره المرسل، غير أن الحديدى بالنسبة إليه رجل خطير!!».

«كانت الإسكندرية فى ذلك الزمان مثل غانية تتزين بألف قطعة من الحلى، كنت تستطيع أن تقضى ليلتك فى أى مكان تتوق إليه نفسك، فى محطة الرمل التقى يوسف مصادفة بالراحل إبراهيم عبد الحليم وقرينته، كان اللقاء بينهما وبين يوسف حميما، وعندما عرفت أن هذا الرجل هو صاحب «دار الفكر» وجهت إليه الدعوة كى يصطحبنا فى الغد. . كانت الدار ـ قبل أسابيع ـ قد أصدرت الديوان الأول للراحل صلاح جاهين الذى كان يحمل عنوان «كلمة سلام». . ودعنا الرجل وقرينته على موعد فى الغد، وعندما سألت يوسف فى أية دولة أوروبية يريد أن يسهر فيها، نظر إلىّ باسما وهو يقول: اليونان».

«وكانت التافيرنا أمامنا على بعد خطوات. . . هاهنا، فى هذا المكان، كنت إذا ما خطوت خطوة إلى الداخل، أحسست أنى عبرت البحر من الإسكندرية إلى أثينا. . . فكل شىء فيه، من الموائد إلى الحيطان واللوحات والطعام والموسيقى والأغنيات، كان يونانيا صرفا. . . اخترت مائدة فى ركن المكان، وحتى الثانية صباحا لم نكف

عن الجدل أو المناقشة. . . كان يوسف إدريس فى تلك الليلة متفجرا بالحياة وكأنه اكتشف فيها كنزا كان مخبوءا من الفلسفة إلى علم النفس إلى الفن طاف بنا الحديث وجال. . . كنت متحيزا إلى الفلسفة لأنها علم العلوم، وكان هو متحمسا للفن لأنه روح الحياة. . اختلفنا واتفقنا فى كثير وفى قليل، لكن حرارة اللقاء ضمتنا فى تلك الليلة وأغرقتنا بالدفء. . . كل منا غريب عن الآخر لا يزال، وكان كل منا يسبر غور صاحبه ويحاول الاقتراب منه. . وأنا اليوم، وعندما أعود إلى خطابات يوسف إدريس التى كان قد أرسلها قبل هذه الزيارة وبعدها، وقد مرت أربعون عاما، أشعر بأن ثمة قدرا أراد لنا أن نقترب فى زمن ما».

(١٣)

وفى حقيقة الأمر فإن صالح مرسى يعترف بلا مواربة بأن يوسف أدريس هو صاحب الفضل عليه فى «تحريكه» من الإسكندرية إلى القاهرة ليبدأ مشواره فى عالم الأدب، وقد ظل صالح مرسى عندما ألف هذا الكتاب محتفظا بخطاب يوسف إدريس إليه، وينشر صالح مرسى الخطاب كاملا ليسجل صورة لما كان عليه هذا الجيل من رواد أدبنا المعاصر فى التعامل مع زملائهم اللاحقين، ولكن ربما كان لنا أن نجد فى قصة هذه الرسالة شيئا آخر لا تقل أهميته عما يلفت صالح مرسى نظرنا إليه وهو أن نتأمل جانبا آخر من التجربة الإنسانية، وعلى سبيل المثال فإننا نقرأ تعليق والد صالح مرسى لابنه عندما قرأ رسالة يوسف إدريس إليه وحيرة صالح مرسى وهو يتخذ فيما بينه وبين نفسه قرار الانتقال إلى القاهرة وترك البحر، وها هو صالح مرسى يروى لنا هذه

اللحظة التى دار فيها الحوار البليغ شبه الصامت بينه وبين والده باقتدار فنى رائع فيقول:

«... أحسست بالخوف مما يمكن أن يحمله لى المستقبل من مفاجآت... كان ما جاء فى الخطاب يحسم فى صدرى ذلك الصراع الذى احتدم احتداما شديدا فى الأيام الأخيرة.. فماذا لو تركت البحر والوظيفة المضمونة والحياة الآمنة، وألقيت بنفسى فى خضم الغيب الذى لا أعرفه... ماذا لو أنى فشلت؟!».

«وكان الإشفاق من جهد كنت موقنا أنى لابد أن أبذله، لا فى العمل الذى لا أعرف عنه شيئا إن وجد، بل فى التحصيل والمتابعة، وفوق كل هذا، فى المذاكرة لاجتياز سنوات الدراسة فى الكلية! ».

«كنت جالسا وحدى فى غرفتى البسيطة تلك... كان مقعدى خلف المكتب يواجه شرفة صغيرة تطل على الطريق، وكانت الشرفة مغلقة، والصمت عميقا والخطاب أمامى عندما دق الباب دقة واحدة فتح بعدها كى يطل منه والدى رحمة الله عليه».

«كانت نظرة واحدة منه تكفى لأن يعرف أن فى الأمر شيئا فظن - هكذا قال لى فيما بعد - أن رأى يوسف فى قصصى جاء محبطا، فابتسم متسائلا:

«إيه الحكاية؟!»

«نهضت إليه بالخطاب وقدمته له وعدت إلى مكانى، وضع منظاره الطبى فوق عينيه وراح يقرأ. . . رحت أتامل أساريره التى كانت تنبسط لحظة بعد أخرى، حتى إذا ما انتهى من قراءة الخطاب، تقدم من المكتب، ووضعه فوقه، وأطال النظر إلىّ طويلا وكأنه استشف أن القرار قد اتخذ وانتهى الأمر».

«ربنا معاك»

«هكذا قال وهو يغادر الغرفة دون كلمة أخرى».

□

وربما كان حريا بنا الآن أن نطلع القارئ على نص رسالة يوسف إدريس إلى صالح مرسى:

«عزيزى صالح

«قرأت «زقاق السيد البلطى» و«الحياة تسير» و«خمر وناس» و«الأمواج»، وحين قرأتها تغير رأيى فيك تماما، فأنت لست بكاتب قصة فقط، ولا أنت مجيد فقط، ولكن مستواك غير عادى فى الكتابة، أنت فنان!».

«حتى الخطب والحكم التى تبدأبها قصصك والتى لا داعى لها مطلقا، حتى هذه ضاع أثرها فى الفيض الدافق من الإحساسات الحية التى أوردتها فى قصصك. أنت بقصصك هذه قد وضعت قدمك على أول الدرج، وبدت فيها موهبتك الفطرية كقصاص، والباقى ليس بالأمر

السهل أبدا، الباقى كفاح رهيب لتصعد السلم قدما، وتضيف إلى موهبتك كل ما تستطيع إضافته من تراث البشرية الثقافي، وتضيف إلى تجاربك التى لم تزل غضة، تجارب أكثر عمقا وأكثر نفوذا فى قلب الحياة الملتهب. أنت الآن فى يدك مادة خام دسمة، وعليك وحدك تشكيلها، قد تصنع منها بهلوانا، وقد تصنع منها مسخا، وقد تصنع كاتبا عظيما، وأريدك أن تصنع هذا الكاتب. أريدك أن تقرأ وتعيش وتكتب، وأريدك ألا تمل القراءة والعيش والكتابة، فبهذا وحده ستستطيع أن تضيف إلى تراث البشرية الثقافى شيئا، وتضيف إلى الأدب الإنسانى مادة جديدة!».

«هذا عن نفسك، أما عن قصصك فضم الزقاق إلى الحياة تسير وأعد كتابتهما، وأجهد نفسك كثيرا وابتكر واجعل منها ملحمة واحدة خالدة، سأحاول نشر قصة الأمواج، فقط أرجو أن ترسل لى منها نسخة مكتوبة بخط يدك، أما خمر وناس فهى أكبر من أن تسعها مجلة أو صحيفة، ولست أدرى ماذا أفعل فيها، وأرجو أن أوفق فى إعطائها لإحدى المجلات الأدبية.. وأرجو من ناحيتك أن ترسل بعض قصصك إلى مجلة الأديب أو الآداب فى بيروت».

«الحقيقة أنت لست فى حاجة إلى مساعدتى لكى تنشر، إن قصصك فى حد ذاتها تحمل معها بطاقات توصية كثيرة. إنى أحييك وأشد على يدك وأرجو أن تبلغ السيد الوالد تحياتى واحتراماتى».

المخلص - يوسف».

□

وعندما يصل صالح مرسى إلى العشرين من ديسمبر ١٩٥٥ حين انقطعت علاقته بالبحر فى ذلك اليوم وأصبح حرا فإنه يتوقف عن رواية ذكرياته مع يوسف إدريس عند هذا الحد، وبحس الاستطلاع نجد القارئ يسأل نفسه: لماذا توقف صالح مرسى فى روايته لعلاقته بيوسف إدريس عند هذا الحد، ومن السهل أن يجيب القارئ ببساطة بأن هذه الأيام القليلة وتلك الخطابات المعدودة كانت بمثابة الأساس الذى بنيت عليه علاقة من أجمل علاقات الصداقة فى حياته.

يجيب صالح مرسى نفسه عن تساؤلنا فيقول:

«ولقد يسأل سائل: لماذا تتوقف فى ذكرياتك عن يوسف إدريس عند هذا الحد؟!».

«وأقول دون تردد:

«إن هذه الأيام القليلة، وتلك الخطابات المعدودة، كانت هى الأساس الذى بنيت عليه علاقة من أجمل علاقات الصداقة فى حياتي.. ولقد جرفت كل منا أمواج الحياة، غير أن يوسف إدريس كان دائما هناك، مهما باعدت بيننا الأيام، حتى إذا ما التقينا هبت من القلب عاصفة من الحب لا تخفى على أحد منا!».

«غير أن الصدق مع النفس يدفعنى إلى التوقف أمام واقعة حدثت بينى وبينه».

«ففى تلك السنوات الأخيرة من العقد الخامس من هذا القرن، كانت موهبة يوسف إدريس قد تألقت تألقا فريدا.. وكان يكفى أن تنشر له

قصــة فى أية جريدة أو مــجلة حتى تصــبح حديث الناس. . ولــقد أثر يوسف فى الكثيرين من كتّاب القصة، ولقد كنت واحدا من الذين تأثروا به لردح من الزمان. . لم أكن معــجبا به فقط، بل كنت مفــتونا بقدرته الفذة على القص، حتى إذا كان يوم كتبت قصة بعنوان «المولد» ونشرت القصــة فى مجلة الهــدف، ورغم أنى كنت أعمل بالمــجلة، ورغم أنى راجعت القصة قبل طباعتها، فــما أن صدر العدد حتى رحت أقرأ القصة من جديد، هذه عــادة لازمتنى حــتى اليوم، فــأنا أول قارئ، وأول من ينتــقدنى، أقــرأ لى وكــأنى غريــب عنى. . هى عادة أفــادتنى كــثيــرا، وعلمتنى كثيــرا. . ذلك أن عيوب أى عمل مهما كانت صــغيرة تبدو لى فى هذه القراءة صارخة وزاعقة».

«لذلك ما أن صدر ذلــك العدد من الهدف حتى رحت أقــرأ القصة، وإذا بى أصاب بالفزع؟ وجــدت نفسى أمام تقليد يكاد أن يــكون محكما لأسلوب يوسف إدريس. . ولقــد استــغرق الأمــر بعض الوقت حــتى استطعت أن أتمــالك نفسي، رفعت ســماعة التليــفون وطلبت يوسف، فطلب منى الحضور!».

«كان يومــها يقطن فى شارع مــحمد عــز العرب. . وعندمــا فتح لى الخادم وجــدته لا يزال فى الفراش، ألقيت عليــه تحية الصبــاح وكانت المجلة فى يده وكان يقرأ قصتى مستغرقا».

«بعد أن انتهى من قراءة القصة سألته:

«إيه رأيك؟!».

«كويسة!».

«مضت لحظة صمت سألته بعدها:

«مش ملاحظ فيها حاجة؟!».

«وإذا به يطلق ضحكة صاخبة خلت أنها تنتزع قلبه انتزاعا، وسرت عدوى الضحك إلىّ فرحت أنا الآخر أضحك معه حتى دمعت عيناي، وجاء الخادم بالشاى، فرحنا نحتسيه دون أن نناقش الأمر أو نخوفض فيه مرة أخرى. لذلك ففى كل مجموعات القصص التى صدرت لى، لن يجد أحد قصة تحمل عنوان «المولد».

(١٤)

ونأتى إلى ثالث الشخصيات التى يستعرض صالح مرسى حياته وتجربته الفنية من خلال علاقته بها، وهو يوسف السباعى وبعد مقدمات طويلة وجميلة من الفكر المنصف للذات وللآخرين نجد صالح مرسى وهو يروى كيف بدأت علاقته بيوسف السباعى فيقول:

«كانت الخطابات، خاصة إذا ما وجدت رد فعل إيجابى من الطرف الآخر، تمثل لى نوعا من الحياة أصبو إليه!».

«كان يوسف السباعى منذ صدور العدد الأول من الكتاب الذهبى قد تعود أن يكتب فى باطن الغلافة عمودا يطرح فيه قضية من قضايا الأدب، وما أكثرها فى تلك الأيام، لكنى، وقبل أن نخوض فى الموضوع، لابد من الإشارة إلى حقيقة أراها مهمة.. وهى أن يوسف

السبـاعى كان أديبا مـعروفا قبل قـيام الثورة، وهو لـم يكن من الضـباط الأحرار، لكنه كان محل ثقة الزعيم الراحل جـمال عبد الناصر. . ولقد كانت قصص يوسـف السباعى تثير كـثيرا من الجدل والمناقـشة. . كان يبدو فى تلك الأيام مثل فارس يخـوض معركة الأدب فى حرارة، وهى معركة كان يواجهها سور الصين العظيم، هكذا أطلق أحدهم وقتها على الجيل السابق من عمالقة الأدب!!».

«فى واحدة من تلك المـقالات القصيـرة التى كتبـها الراحل يوسف السباعي، كـتب رأيه فى الأدب. . وهو رأى رأيتنى أختلف معـه فيه. . ذلك أنى كنت، ومازلت، مقتنعا أن الأدب تعبير ذاتى فى لحظة ما، فى زمن ما، عن قضية ما. . هكذا كتبت إلى يوسف السباعى فى وقت كان الجدل فيه محتدما بيـن أنصار الفن للفن، بزعامة أستاذنا الراحل توفيق الحكيم، وأنصار الفن للحياة بزعامة هذا الرعيل من اليساريين المصريين وعلى رأسهم الأستاذ محمود أمين العالم، والدكتور عبد العظيم أنيس، والفنان الراحل حسن فؤاد».

«كتـبت رأيى إذن وأرسلته إلى الرجل، ولم أكن بطبـيعـة الحال فى انتظار رد منه، بل إنى أذكـر جيـدا أنى كتـبت الخطاب بأسلوب من لا ينتظر ردا، لقد كتبته فقط كى أدلى بدلوى وأهمس برأيى إلى واحد ممن كانوا يخوضون تلك المعركة الفنية فى القاهرة!».

«ولكن. . . ما الذى ربطنى بيوسف السباعى بداية؟!

هل هى مسـرحية «وراء السـتار» التى صدرت فى العـدد الثالث من الكتاب الذهبى؟!

أم هى تلك القصص التى كنت أقرؤها له وأنا صبى فى الخامسة عشرة من عمرى فى طنطا، والتى كانت تنشر فى مجلة «مسامرات الجيب» وكان يرسمها الفنان الكبير «الحسين فوزى»؟!».

«الحقيقة أن لا هذه أو تلك... فلقد كان أول كتاب ربطنى بيوسف السباعى، هو «أرض النفاق»!».

«كان نظام الحكم قبل الثورة قد وصل درجة من الاهتراء ينذر بالانهيار، كانت فضائح الترقيات الاستثنائية والمحسوبية تزكم الأنوف، وكان النفاق لعنة تلاحق الناس فى كل مكان وكل موقع... وكانت فكرة رواية «أرض النفاق» بسيطة كل البساطة، كان يكفى طرحها فى عمل جذاب مثل هذا الذى كتبه يوسف السباعى، كى تجعل شابا مثلى يتوسم فى هذا الكاتب خيرا كثيرا.

ويستطرد صالح مرسى ليقول:

«غير أن روايته «السقا مات»، كانت ولاتزال ، من تلك الأعمال التى تصلح لأن تكون علامة فى حياة أى أديب... كانت السقا مات من أجمل ما كتب يوسف السباعى... ولذلك، فلقد كنت حريصا أشد مايكون الحرص، على البحث عن جو هذين العملين فى كل ما كتب هو بعد ذلك! ».

«ولقد أمضيت أسابيع طويلة منذ أن كتبت ذلك الخطاب الذى أبديت فيه رأيى فى الأدب، مضت الأسابيع حتى نسيت الخطاب تماما، ولكن، فجأة وبعد صمت طويل، وصلنى رد منه!».

«بداية، كان أول مالفت نظرى فى الخطاب الذى لم يستغرق سوى صفحة وبعض الصفحة من القطع المتوسط، هو الخط.. كان الخط يوحى بأن الرجل الذى كتبه، فعل هذا وهو يجرى... تشعر وأنت تقرأ مخطوطات يوسف السباعى، أن الرجل وراءه من المهام والمشغوليات الكثير... لكنه، رغم هذا، وجد وسط هذه المشغوليات، أنه من الضرورى أن يكتب لك ردا على رأى لفت نظره... كان الرجل الشهير يتفق معى فى أن الأدب، والفن عموما نتاج ذاتى، لكنه يختلف معى فى أنه معبر عن مرحلة ما فى زمن ما فى مكان ما... فهذا التحديد، من وجهه نظره، من الصعب أن يكون حاسما... وإلا، لو كان الأمر كذلك، فكيف تُكتب الروايات التاريخية؟!».

«وعلى كل حال، فلقد سررت بخطاب الرجل... كان أكثر ما أعجبنى فى رده، هو هذا الإحساس الذى يداخلك فور قراءة كلماته... فبالرغم من شهرته، ومكانته، وعدد الكتب الذى صدر له... إلا أنك تشعر وأنت تقرأ كلماته - بالعافية كنت أفسرها! - أن الذى يتحدث إليك صديق حميم تعرفت إليه وتعرف إليك منذ زمان طويل».

«ولقد شجعنى هذا على أن أبدى رأيى فى بعض ما كان يكتب فى مقاله القصير ذاك الذى كان ينشره فى الغلاف الداخلى لأعداد الكتاب الذهبى... وهكذا تبادلنا الرسائل كما قلت لعامين أو أكثر قليلا... حتى إذا مانزحت إلى القاهرة، كان لابد لى بعد أن وجدت عملا واستقرت الأمور بعض الشيء أن ارتاد بين الحين والحين «نادى القصة».. ذلك النادى الذى أسسه يوسف السباعى مع

إحسان عبدالقدوس، والذى كانت مكاتبه تشغل شقة فى عمارات «سيف الدين» بشارع قصر العينى!».

«وكان يبدو لى، منذ مجيئه وحتى انصرافه، مشغولا بعشرات المشاكل، كان يتحدث إلى هذا، ويداعب ذاك، ويختلى فى أحد الأركان مع واحد من أدباء جيله، ثم يناقش أديبا ناشئا فى أمر من الأمور... و... ».

«ولقد كان رحمة الله عليه شعلة من الحيوية والنشاط... ولقد أتاحت لى معرفتى بأبناء جيلى من الأدباء، وارتياد ندوة نجيب محفوظ، أن أعرف آراء البعض فيه.. وكان الشىء الذى لفت نظرى أكثر من غيره، أن الكثيرين ممن كانوا يهاجمون الرجل فى جلساتهم الخاصة هجوما لاذعا وحادا... كانوا، إذا ما التقوا به، كالوا له المديح بكلام مختلف تمام الاختلاف عن هذا الذى كانوا يسلقونه به فى ندواتهم!».

....

هنا ينبغى لنا أن نتوقف ونقول إن قصة علاقة الأستاذ صالح مرسى بالأستاذ يوسف السباعى على نحو ما صورها فيما نقلناه من فقرات تكاد تكون شيئاً طبيعيا أو روتينيا لا تستدعى كل هذا الإسهاب فى ذكر هذه التفصيلات كلها، فما بالنا ننقل كل هذه التفصيلات ونفرضها على القارئ فرضاً بينما نحن نتدارس هذه المذكرات الشيقة؟

حقيقة الأمر أن ما يرويه صالح مرسى من كل هذه القصة لم يكن إلا بمثابة مقدمة لما أتى بعدها بإحدى عشرة صفحة بالضبط حيث يروى لنا

صالح مرسى فيما يروى ما يبلور لنا طبيعة شخصية فريدة كشخصية يوسف السباعى، وطبيعة مجتمع يعانى من بعض الأمراض الاجتماعية كالمجتمع الذى عاشه كل من يوسف السباعى وصالح مرسى، وليس الحدث هو الذى يهمنا مما يرويه صالح مرسى، لكن الحوار نفسه هو الذى يهمنا ويدفعنا إلى أن نلفت نظر القارئ إليه.

وسوف نترك القارئ يقرأ القصة بشىء من التفصيل ليطلع بنفسه على كل الملابسات والانفعالات وصدق اللحظة ودفئها فيما يرويه صاحب المذكرات عنها حيث يقول:

«كان..... قد مضى على وجودى فى السكرتارية [أى فى نفس المؤسسة التى كان يوسف السباعى على رأسها] قرابة شهر ونصف الشهر... كنت أجلس فى مكتبى المشترك مع زميلة لى، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا بقليل، عندما فتح الباب فجاة، واندفع منه يوسف السباعى بادى الانفعال، رمانى بنظرة غاضبة وهو يسألنى:

- أنت اسمك الثلاثى صالح مرسى صالح؟!

- نهضت واقفا وقد استبدت بى الدهشة، أجبت:

- أيوه!

- أنت كنت بتشتغل فى البحر قبل كده؟!

- ابتسمت، أدركت أن الرجل قد تذكر تلك العلاقه البريدية بينى وبينه قبل أن أترك عملى بالبحر، قلت: تمام!

- إحنا مش كنا أصحاب لسنتين ورا بعض؟!

- ده حقيقى!

- فى انفعال صادق هتف:

ولما هو حقيقى، ليه ما قلتليش قبل كده؟!

«أسـقط فى يدى، لم أكن أسـتطيع تلفـيق سـبب. . . عندمـا لحظ الرجل ترددى، طلب من زميلتى أن تترك الغرفة فـتركتها وهى فى حاله ذهول - هكذا قالـت لى فيمـا بعد - كان مـاقاله الرجل بالنسـبة إليـها غـريبا، إن أيا من الأدباء والفنانـين فى ذلك الوقت، كان يسـعده أشـد السعادة أن يتعرف على يوسف السباعى وأن يقترب منه لا أن يخفى عنه علاقة صداقة كانت بينهما ذات يوم. . . ما إن غادرت الفتاه الغرفة حتى جلس الرجل على حافة مكتبها وطلب منى أن أجلس فجلست، أشعلت سيجارة وقد استبدت بى الحـيرة، ساد الصمت لثوان قال بعدها الرجل مفسـرا موقفه: «أنا من عادتى، لمـا احب ارتاح، اطلع الجوابات اللى عندى وأقراها من تانى. . . فوجئت امبارح بالليل بجواباتك، كنت دايما باسأل نفسى، الراجل ده اختفى فين وليه، لكن فيهم جواب كان أسلوبه هو أسلوبك بالضبط، ولأنك كنـت بتبعت الجوابات باسـمك الثلاثى، قلت اسألك!! أحسـست بالسعادة حقا فى تلـك اللحظات، أسعدنى أن الرجل، رغم مشغـولياته ومناصبه العديدة، مازال يحن فى أعـماقة إلى تلك السنوات التى كـان فيهـا أديبا يراسل الأدباء ويراسلونه، أحـسست بالدماء تحتقن فى وجهى عندما هتف:

ـ أنا سألتك سؤال ياأستاذ وعاوز إجابة صريحة عليه!

- صريحة يايوسف بيه؟!

- أيوه صريحه!

كانت ثمة مشاهد عديدة تمر بذهنى فى تلك اللحظات، أولها جميعا ذلك المشـهد الذى رأيته فى نادى القـصة من ذلك الأديب اللامع الذى هاجم الرجل فى مقهى الفيشاوى ذات مساء هجوما مقذعا، لكنه عندما التقى به، راح يكيل له قصائد مديح فى نفاق يبعث على التقزز، مضت ثوان قبل أن أقول:

ـ شوف يايوسف بيه، أنا كـان ممكن، من قبل ما اشتـغل معاك فى الرسالة الجـديدة، أنى آجى لك فى نادى القصـة وأفكرك بالحوار اللى دار بيننا. . .إنما. . . . .

مرة أخرى ترددت فى البوح بحقيقة الأمر، فإذا به يهتف:

- إنما إيه؟!

- إنما خفت انك ما تفتكرنيش!

- أنت كذاب

- ده صحيح

- إيه الحقيقة

- الحقيقة إن حواليك منافقين قوى

- وإيه يعنى

استفزتنى إجابته فنهضت منفعلا وأنا اقول:

- أنت تعرف أن أول صدمة أخدتها فى القاهرة كانت بسببك؟!

وقف الرجل أمامى مباشرة وهو يسأل:

- انت قريت «أرض النفاق»؟!

- ماهى دى المصيبة!

ضحك ساخرا، قال:

- الدنيا كـده. . . والناس كده. . . وإذا كنت متخـيل إنى مش فاهم وعارف مـين اللى بينافقنى، ومـين اللى بيحبنى بـحق وحقيـقى، تبقى غلطان!

هتفت متحديا:

- طب إزاى بتساعد المنافقين. . . . فهمها لى دى؟!

- لأنهم بشر!

- والا علشان ينافقونك أكثر؟!

بدا الحزن على وجهه طاغيا:

- انت قليل الأدب

- كتر خيرك!

- المنافق بينافق ياصالح لأنه محتاج!

- دى حجة ملهاش دليل قوى، فيه منافقين مش محتاجين!

- الحاجة مش للمال بس يابنى آدم!

- يايوسف بيه ده فيه ناس..............

ضحك، قاطعنى، أحسست أنه لايريد أن يسمع:

ـ انت عندك فكرة إن كل منافق بييجى يقولى على اللى بيتقال على؟!

ـ دول بيفتنوا على بعض!

ـ وسيادتك مبسوط كده؟!

هات لى بشر ياصالح فى الدينا، فى أى حتة فى الدنيا، مافيهمش الداء ده!».

والشاهد أنه عند هذا الحد يصل صالح مرسي إلى ما أراد أن يسجله ابتداء فيقول:

«لم أجد لدىّ جوابا على ماقاله... كان كل منا الآن يواجه الآخر فى تحد... ورغم فارق السن والشهرة والمركز معا كان إحساسى

غامرا بانى أقف مع صديق. . . ذات لحظة بدا لى الرجل وكأنه اختطف من أمامى، سرحت عيناه إلى بعيد، حتى إذا ما كانت لحظة، زفر زفرة خلت أنها تقتلع قلبه، غمغم:

- على العموم اللى انت عملته ده كويس قوى!

ابتسمت.

أردف فى حزن حقيقى:

- على الأقل الواحد يقدر يحس أن فيه حد بيحبه بحق وحقيق!

وصعد الدمع إلى عينى، أما هو فاستدار منصرفا. . قبل أن يفتح باب الغرفة استدار نحوى وقال:

- مش عاوز حاجة؟!

- سلامتك يايوسف بيه!

قلتها من قلبى، من أعماق قلبى!

□

ولا يقف صالح مرسى فى حديثه عن يوسف السباعى عند هذه الحدود التى يستعرض فيها ملامح شخصيته القوية الآسرة القادرة على الصفاء وعلى العطاء، كما أنه لا يقف فيما يقدمه عند حدود الكتابة الأدبية الموحية، وإنما هو يلجأ فى بعض الأحايين إلى أن يتحدث عنه

بنبرة خطـابية مبـاشرة فى أكثـر من موضع من مـقدمات كـل حلقة من الحلقـات الأربع التى يتكون منها الفـصل الذى خصـصه للحـديث عن السباعى، ومن هذه المقدمات الخطابية ننقل للقارئ قوله:

«. . . عندما يجلس الإنسان إلى الورق والقلم، يشعـر أنه عار تماما حتى من ذاته. . . وأنا، عندما جلست كى أكـتب عن يوسف السباعى، أحسـست أن هذا الرجل الذى رحل عنا منذ سنوات طويلة، والذى ذاق مرارة الهجوم عليه لسنوات بعد سنوات، إنما ظلمه هؤلاء الذين أحاطوا به أكثر من الذين هاجموه. . . إن أحدا من هؤلاء أو أولئك، لم يستطع أبدأ أن يضع يده على نقطة الضعف والقوة معا فيه. . . تلك النقطة التى تتلخص فى جـملة من كلمـتـين، وهى أنه كان: «أديـبا ضـابطا». . . ويقينى الـذى لا يتزحزح، أن مـصرعه جـاء نتيجـة لكونه هذا الأديب الضابط، الذى سمع الأمر فأطاعه وكان فى هذا مصرعه!»

. . . .

ومع أن العبارات التى كتـبها صالح مرسى تبدو وكـأنها واضحة، إلا أننا لا نستطيع إلا أن نقول إن مثل هذا الحكم أو التـقرير لا يزال يحتاج إلى كثير من التفسير.

ومن إحـقـاق الحق أن نقـول إن صـالح مـرسى كـتب عن يوسف لسباعى بعاطفة متقـدة إلى أبعد الحدود، مع أنه كان فى وسعه أن يلجأ إلى العقل فى كثير مما كتبه، لكننا نستطيع أن نفهم أن العاطفة القوية لا تدع مجالا للتفكير فى ضرورة الإقناع أو المواءمة.

وربما كان من المناسب أن نختم حديثنا بما ختم به صالح مرسى هذا الفصل الرائع من حديث عن السباعى فى كلمات قليلة قال فيها:

«لقد اختلف السباعى مع الكثيرين، وخاصم الكثيرين كما خاصمه الكثيرون. . . لكنه قبل الخصام أو الخلاف وبعده، كان إنسانا يحمل فى صدره قلبا من ذهب».

(١٥)

ويمثل يحيى حقى رابع الشخصيات التى يتناولها صالح مرسى فى هذا الكتاب، ولسنا فى حاجة إلى كثير من الجهد لندرك أن صاحب المذكرات كان معجباً أشد الإعجاب بالقدرات الفنية لهذا الأديب العظيم، ومنذ السطور الأولى لهذا الفصل يتلألأ التعبير المزدان بالحب والإعجاب العميق. الذى يكنه صالح مرسى.

ومن الإنصاف أن ننقل للقارئ بعض عبارات صالح مرسى التى يتحدث بها عن مشاعره بعد قراءة «قنديل أم هاشم» حيث يقول:

«. . . غير أن شيئا ما استوقفنى فى العمل ككل، شىء لم أتبينه جيدا وإن كان قد أوقعنى فى الحيرة، حيرة دفعتنى إلى قراءتها مرة أخرى بعد نحو أسبوع أو أكثر قليلا. . . وإذا بى فى القراءة الثانية أصاب بمتعة مَنْ يستمع إلى الموسيقى، كانت السلاسة فى القصة تبدو لى مثل معجزة حقا، وإذا كان يوسف إدريس - بعد يحيى حقى بكثير - قد استطاع أن يفرض العامية على أسلوب القص فرضا فنيا ارتفع بها إلى مستوى الفصحى، فإن يحيى حقى لم يفرضها بل استعملها فى

الحوار، مع استئذان فى استعمالهــا فى السرد أحيانا إذ كان يضعها دائما بين قوسين».

«سبق يــحيى حقــى يوسف إدريس فى العامــية، كــما سبق نــجيب محفوظ فى تلك الحــيرة التى كانت تمزق الشباب فــيما بين الموروثات وبين الواقع والرغبة فى التطلع نحــو مستقبل أفضل، وقع إســماعيل فى الحيرة فيما بين زيت قنديل أم هاشم ومعطيات العلم الحديث، كما وقع كمال - فىَ بين القصرين - فى الشك حول ضريح الحسين!».

«ورغم هذا بقيت فى صدرى رغبــة فى البحث عن شيء آخر، شيء غريب، شحنة غامضة تحويها الكلمــات وتركيبة الجملة وطبيعة الحدث معــا... أناقــة هى؟! فلتكن... قدرة على امــتلاك ناصــية اللــغة؟!، ربما... حرص شديد على بناء متــماسك؟! قد يكون الأمر كذلك... ولكن، بعــد كل هذا، أو ربما قبــله، كان ثمة شيء بــاق، شيء خفى ودفين، شيء كــان يقينى يزداد بوجوده كلمــا قرأت ليحــيى حقى شيــئا جديدا... فما هو هذا الشيء؟!».

والحاصل أنه عند هــذا الحد يعتــرف صالح مرسى أنه لا يزال غــير مدرك لسر الصنعة عند يحيى حقى:

«أكذب لو قلت إننى اكــتشفت هذا اللغــز الذى ظل هائما فى رأسى سابحا وسط ضبــاب كثيف وكثير من الافتراضــات والتخمينات التى لم يصل أحدها إلى حد اليقين».

....

ويحدثنا صاحب هذه المذكرات حديثا دافئا عن انطباعاته عن اللقاء وجها لوجه مع الأستاذ يحيى حقى فيقول ضمن فقرات متعددة:

«... ترك لقائى الأول مع يحيى حقى فى مكتبه بمصلحه الفنون، أثرا لم ينمح حتى الآن، ولقد اكتشفت مع الأيام، وبعد أن قرأت كل مانشره هذا الأديب العظيم، أن سره الدفين، هو هذه الثقافة الشاملة التى حصلها طوال سنوات عمره... وأنا حتى الآن، شهادة لله إذا ما أردت قراءة شىء ليحيى حقى، فلابد لى، قبل أن أفتح الكتاب، أن أكون مستعدا تماما لاستقبال هذا الفيض من الأحاسيس، وهذا العمق فى طرح الأفكار».

ويستطرد صالح مرسى لينبئنا بجوهر رأيه فى أدب يحيى حقى بعد أن تكاملت فى ذهنه المعرفة بهذا الرجل:

«اكتشفت أن الرجل عندما يكتب، يتحول من أديب إلى صائغ ذى ذوق رفيع، فهو ينتقى الكلمة المناسبة للكلمة التى تسبقها والتى تليها، تتحول الكلمات فى يده إلى فصوص من الألماس والعقيق والزمرد واللؤلؤ... هو جهد مروع لو عرف الناس المعاناة التى يعانيها هذا الأديب الذى يعشق، بعد الحقيقة، الصدق: أن توضع الكلمة فى مكانها الصحيح، كى تعطى المدلول الدقيق للموقف أو الإحساس... التدفق موجود، والعطر يفوح، والعاطفة متأججة.... غير أن هذا كله، لابد وأن ينتظمه عقد يبهر أصحاب الخبرة الرفيعة بالجواهر، وما أندرهم.»

هكذا نرى صالح مرسى وقد وضع يحيى حقى فى مكانه الجدير به بين أعلام الأدب المعاصر الذين يقرأ لهم القراء فيسعدون ويقرأ لهم الموهوبون فيبهرون بهم.

أما على الجانب الإنسانى فقد التقط صالح مرسى بحسه الأدبى العميق جوهر شخصية يحيى حقى فى معاملته لمعاصريه، وهو يروى لنا أحد هذه المواقف بشىء كثير من الإيحاءات الكفيلة بتكوين الصورة الدقيقة عن نهضتنا المعاصرة فقد كان يحيى حقى بحكم الوظيفة يمثل الحلقة المتوسطه بين رئيسه الدكتور حسين فوزى ومرءوسه الأستاذ نجيب محفوظ، ويبدع صالح مرسى فى نقل صورة ماحدث من حوار فى ذلك اللقاء فيقول:

«. . . كان لقائى الثانى مع الاستاذ يحيى حقى مصادفة، لكنها مصادفة أضافت إلى شخصية الرجل بعدا جديدا كان له أكبر الأثر فى معرفتى به».

«كنت فى مكتب الدكتور حسين فوزى رحمة الله عليه لإجراء حديث عن الموسيقى والفولكلور، ولقد كانت كلمة «الفولكلور» فى ذلك الوقت - ١٩٥٦ ـ من المصطلحات الجديدة التى بدأت تظهر مع مصطلحات علمية أخرى. . . وكان حسين فوزى قاموسا ثقافيا يسير على قدمين، كان رجلا واسع الاطلاع موسوعى المعرفة، فإلى جانب كونه طبيبا، كان واحدا من علماء البحر القلائل فى مصر والشرق عموما، ورغم تعمقه فى علوم البحار احتلت الموسيقى فى حياته المقام

الأول، فهو من عشاقها ودارسيها المتعمقين، كما كان كاتبا ذا مذاق خاص. . . تشعر وأنت تقرأ له، أنك تقرأ لأستاذ يلقى محاضرة فى اكسفورد أو كمبردج، لكنه يلقى محاضرته بعامية أهل حى الحسين القاهرى، ولد حسين فوزى فى حارة الميضة المواجهة لميضة مسجد الحسين، وكان حتى آخر أيام حياته، يتحدث بلهجة أولاد البلد. . . هو شىء ممتع حقا أن تستمع لابن بلد يتحدث عن موزار أو بيتهوفن أو تشايكوفسكى فإذا هؤلاء الفنانون العظام مع أعمالهم يتسللون إلى وجدانك دون جهد تحسه أو تشعر أنك تبذله. . . وعلى كل، ففى لحظة ما، كان الرجل مستغرقا فى الحديث معى عن موسيقى سيد درويش، فتح باب المكتب، كى يدخل يحيى حقى كالإعصار هاتفا:

- إيه يافوزى اللى انتوا بتعملوه ده؟!

«كانت مصلحة الفنون تتبع وزارة الإرشاد القومى، وكان حسين فوزى وكيلا لهذه الوزارة، كما كان مكتبه الواسع فى قصر عابدين. . . ولقد هبّ حسين فوزى تاركا مكتبه كى يلتقى مع يحيى حقى فى منتصف الغرفة الواسعة وهو يقول:

- يايحيى مش فيه قوانين بتحكمنى؟!

«كانت هناك مشكلة لم أتبينها ولم أسع إلى معرفتها فلم يكن هذا الأمر يهمنى فى كثير أو قليل. . . ذلك أن الصورة التى كانت أمامى بدت لى مناقضة تماما لصورة أخرى رأيتها فى زيارتى الاولى ليحيى حقى فى مكتبه، عندما دخل علينا الأستاذ نجيب محفوظ بكل أدبه

والتزامه وحفظ المسافات بينه وبين الآخرين. . . التقى الرجلان «أي حسين فوزى ويحيى حقى» فى منتصف الغرفة وراحا يتجادلان حول تلك المشكله الادارية التى من أجلها ترك يحيى حقى مكتبه كى يناقش وكيل الوزارة فيها وجها لوجه. . . وأنت عندما يمنحك القدر فرصة لأن ترى وتسمع مثل هذا اللقاء بين اثنين من كبار مثقفى الأمة وهما يناقشان أمرا إداريا سوف يعطل أو يعرقل تلك الانطلاقة التى أرادها يحيى حقى لأحلامه فى مصلحة الفنون، فلسوف تجد أن المتعة الحقيقيه هنا، هى معرفة طبيعة الأمور فى كواليس صنع الثقافة المصرية فى مرحلة من مراحل الأمة التاريخية. . . كان يحيى حقى عنيدا، لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه وكان حسين فوزى مقيدا بما لايملك التخلص منه وبالرغم من هذا فلقد استسلم أمام عناد ذلك الأديب الناشف الرأس، عاد إلى مكتبه وأمسك بالقلم استعدادا للتوقيع على أوراق كان يحيى حقى يحملها معه:

- أنا حاوافق على مسئوليتك يايحيى!

- إزاى يافوزى؟!

- زى الناس مش ده اللى انت عاوزه؟!

- وانت لازم تقف جنبى؟!

ران الصمت للحظات حسم يحيى حقى الأمر بعدها بقوله:

لو مطرحى، تحب منى إيه؟!

هم حسين فوزى بالحديث عندما أردف يحيى حقى:

لازم تتحمل المسئولية معايا، انت حاتسيبنى لوحدى للوحوش دى؟!

ووقع حسين فـوزى، وقدم الأوراق ليحيى حقى الـذى عندما تناولها انفرجت أساريره وهو يلتفت نحوى:

أنا آسف ياأستاذ صالح اللى ماسلمتش عليك أول ما دخلت!

انتفضت واقفا وأنا أصافح يده الممدودة، قال

شايف الروتين بيعمل فينا إيه؟!

سأله حسين فوزى دهشا وهو ينظر نحوى:

- انت تعرفه؟!

- اتعرفنا قبل كده هو ما قالكش؟!

- قال لى إيه؟!

- الأستاذ صالح مرسى قصاص مبشر جدا!!

فى فرحه غريبة التفت حسين فوزى نحوى متسائلا:

- انت بتكتب قصة؟!

قبل أن أجيب، قال يحيى حقى:

أنا قريت قصة«أم» اللى قال لى عليها نجيب، القصة كويسة قوى،إنما إحنا لازم نقعد مع بعض!

قال هذا وهو ينصرف بأوراقه... غير أنه قبل أن يفتح الباب مغادرا التفت نحوى قائلا:

أنا تليفونى معاك، ابقى اتصل بى من فضلك!

وكانت سعادتى شديدة، وكان فخرى أشد!»

(١٦)

وعلى النقيض من هذه الروح العاطفة الحانية التى أحسها صالح مرسى فى لقائه بيحيى حقى وحسين فوزى وغيرهما، نرى سفورا آخر أقرب إلى الاغتراب عندما يحدثنا عن لقائه بالدكتور لويس عوض:

«ولقد اختصرت القصة (قصة الخوف) مع قرار بألا أكتب للشعب مرة خرى، ونشرت القصة فى يوم ٨ مارس عام ١٩٥٨، وكانت المفاجأة مذهلة!».

«وإذا بالقصة تصنع لغطا شديدا فى الوسط الأدبى، وإذا بالكثيرين من الأدباء يثنون عليها ويتحدثون عنها.. غير أن المفاجأة التى أذهلتنى حقا، عندما اتصل بى الأستاذ عبد السميع، كى يخبرنى أن الدكتور لويس عوض قرأ القصة وأعجب بها، وهو يريد أن يلقانى!!».

....

«لم أكن أعرف الرجل، كما لم أكن قد التقيت به سوى مرات معدودة.. وعندما ترددت فى تلبية الدعوة، تبرع الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى أن يصحبنى فى تلك الزيارة، فوافقت».

«ذهبت مع حجازى إلى بيت الدكتور لويس عوض حسب الموعد المحدد وهو الثالثة بعد الظهر.. وعندما دلفنا إلى غرفة مكتبه، كان يتناول غداءه فى طبق واحد وضعه أمامه على المكتب.. إلى جواره، كان يربض كلب هائل الحجم من نوع الوولف.. استأذن منا حتى ينتهى من غدائه، فرحت أرقب مكتبته من حولي.. كانت المكتبة تشغل الجدران الأربعة من الأرض وحتى السقف.. وكانت الجرائد والمجلات متناثرة هنا وهناك فى فوضى امتدت إلى المكتب حيث تكدست المراجع والأوراق التى كان يستعين بها فى كتابة سلسلة من المقالات كان ينشرها أسبوعيا فى الشعب عن شكسبير.. ولقد كان لويس عوض شخصية ذات قوام خاص.. ما أن انتهى من طعامه حتى حمل الطبق إلى الخارج ثم عاد إلينا.. تناول من فوق المكتب صندوق سجائر وأشعل سيجارة، ثم مالبث أن جلس ناظرا إلىّ فى إمعان نظرة من تفحص كائنا غريبا.. لزم الصمت لثوان ثم سأل باستعلائه هذا المحبب إلينا:

ـ أنت اللى كتبت قصة الخوف؟!».

«رددت على سؤاله بالإيجاب.. ولما كانت القصة تدور أحداثها فى البحر، فلقد تطوع حجازى فى أن يشرح الأمر للأستاذ قائلا: إننى كنت

فى بداية حياتى العملية بحارا، وأن جزءا كبيرا من قصصى تدور أحداثه فى البحر. . استمع إليه لويس عوض ثم إذا ما انتهى امتدت يده إلي أحد أرفف المكتبة، وتناول منها عدد الجريدة التى نشرت به القصة. . دفع الجريدة نحوى قائلا: «

«خد. . اقرأ لى القصة!».

«كان الطلب غريبا، وكان أسلوب أغرب. . ذلك أن معنى إعجابه بالقصة أنه قرأها، فما سبب طلبه ذلك؟!».

«ولأنى من ذلك النوع من البشر الذى يسعى إلى الحقيقة مهما كلفه الأمر، فلم أسأله، ولم أستفسر، إنما تناولت منه الجريدة ورحت أقرأ القصة أمامه. . مضت السطور، واندمجت فى القراءة حتى إذا ما وصلت إلى منتصف القصة، إذا بلويس عوض ينهض من مقعده سائرا فى الغرفة وهو يردد بالإنجليزية:

«اكسلانت. . اكسلانت!».

«ازدادت دهشتى وتوقفت عن القراءة ناظرا إليه. . وإذا به يلتفت نحوى فيما يشبه الغضب، وكان قد توقف فى أثناء سيره بجوار باب الغرفة وكلبه إلى جواره، ثم سألنى بلهجة المعلم الذى يؤنب تلميذه:

«وقفت ليه؟!».

«ولم أرد. . عدت إلى قراءة القصة من جديد، حتى إذا ما انتهيت منها عاد إلى مقعده، وقد كان يبدو قلقا طوال قراءتى للقصة، ثم نظر إلىّ مليا وبعدها سأل:

«عارف أنا طلبت منك تقرا القصة ليه؟!».

«كان هذا بالتحديد هو ما أريد معرفته، ولم أجبه بالنفى قال:

«أنا كنت عاوز أعرف إذا كانت الشاعرية اللى فى القصة مقصودة ولا لأ؟!».

«ولقيت إيه يادكتور؟!».

«عاوز تعرف؟!».

«طبعا!».

«أنت كاتب قصة ممتار، ولو استمريت بالشكل ده حاتعمل حاجة!».

«لذت بالصمت، ومرت لحظات قال بعدها:

«أيوه.. هاتعمل حاجة!».

(١٧)

ويمكن لنا القول إنه على مستوى العلاقات الشخصية نكاد لانرى أحدا من الخمسة الكبار الذين حدثنا عنهم صالح مرسى قد حظى بمثل هذا الامتنان الذى أبداه صالح مرسى تجاه الأستاذ يحيى حقى، وهو، على سبيل المثال، يتحدث عنه فى لهجة واضحة ومباشرة ويقول:

«... هل أثار الحديث عن يحيى حقى فى نفسى كل هذه الشجون، بل هل أثار لقائى به ومعرفتى إياه فى نفسى كل هذه الطموحات إلى المعرفة، لا الأدبية فقط وإنما المعرفة الشاملة؟!».

«أقولها اليوم، بعد رحيل الرجل... نعم؟!».

«هكذا كان يحيى حقى بالنسبة إلىّ كان مثل قنديل يضىء لى طريق الفن ويكشف لى خباياه وأسراره، كان مرشدا ودليلا ومعلما يضنى مَنْ يتعلم على يديه حقا، ويلزمه، إن كان جادا، باتباع الطريق الصحيح وإلا ضلّ الطريق!... والغريب فى الأمر أن الرجل - على مدار السنوات - كان عند حسن الظن به، بل كان يكلف نفسه مالم يكن مطلوبا منه، لا لكى يقوم بدوره حيال جيل كان يشب بين يديه فقط، بل لكى يخدم الفن... هكذا كان مبتغاه وهكذا ظل حتى آخر يوم فى حياته».

والشاهد أنه يبدو لنا أن صالح مرسى نفسه كان فى حاجة حقيقية إلى أن يعيد التأمل والتفكره فيما يتعلق بما كان يلقاه من حنو يحيى حقى وعطفه وفضله على الأدباء من أمثاله ومن جيله، وقد اضطره هذا إلى أن يروى لنا قصة لقائه بالدكتور لويس عوض، التى أوردناها منذ قليل، ولكن مايهمنا هنا أن نشير إلى انطباعاته بعد رواية هذه القصة حيث يقول:

«... هكذا انتهى اللقاء... خرجت من بيت لويس عوض وأنا أشعر بضيق لم يغادرنى حتى اليوم رغم حبى الشديد لهذا الرجل، ذلك الضيق الذى منعنى من إرسال أى كتاب لى إليه، حتى كتاب الخوف نفسه!!!!!».

ويمضى صالح مرسى ليقول:

«ولقد يتساءل البعض عن السبب الذى من أجله جنحت ـ أثناء الحديث عن يحيى حقى - إلى هذا الاستطراد الذى طال بعض الشيء... وإذا كانت الذكريات ينادى بعضها البعض بالتداعى، فلقد رأيت أنه من المهم للغاية، أن أقارن بين أسلوبين مختلفين لأستاذين تعلمنا منهما الكثير... وإذا كان لويس عوض قد قال ما قال واعتبر الموضوع منتهيا بقوله إنى قد أصنع شيئا وكأنه قد قلدنى وساما ـ!!! فإن يحيى حقى كان على النقيض تماما... فعندما أتيحت لهذا الرجل الفرصة أن يقول رأيه فى عملى... جاء قوله حاسما، مانعا شاملا غائصا فى أعماق القصة إلى درجة كشفت لى نفسى، وعرتنى من ثيابى الأدبية، لا أمامى فقط، وإنما على الملأ!!».

ولهذا السبب ولغيره من الأسباب المشابهة فإن صالح مرسى يعبر بكل فخر واعتزاز عن سعادة بالغة وهو يحكى لنا عن موقف يحيى حقى النبيل غداة نشر قصة «حب للبيع» فى روز اليوسف فيقول:

«كانت روز اليوسف لاتزال فى مبناها العتيق ذاك فى شارع محمد سعيد... وكانت مكاتب المجلة - كالعادة - تشغى بالأدباء والزملاء والشعراء والزوار والقراء، عندما فوجئنا جميعا، بالأستاذ يحيى حقى، يدخل إلى صالة التحرير عصاه فى يده، وعيناه تبحثان عن شخص ما».

هببنا جميعا مرحبين به، ظننا أنه جاء لزيارة أستاذنا الكبير إحسان عبد القدوس، غير أن الرجل ما إن توقف وقد أحطنا به، حتى نظر إلىّ قائلا:

«أنا جاى مخصوص علشان أهنيك على القصة التى نشرت امبارح فى روز اليوسف!» .

كان هذا فوق الاحتمال، وفوق الخيال، وفوق التصديق أيضا، أردف الرجل:

«تقدر تعتبر قصتك دى، نموذج مثالى للقصة القصيرة!».

«لم تكن سعادتى لأنه امتدحنى. . . لكن سعادتى الحقيقية كانت، لأنه علمنى كيف يكون الأستاذ عملاقا، وأستاذا».

. . . .

على أننا، بعد كل هذا، نجد أنفسنا طوال هذا الفصل ونحن مبهورون بهذا الفصل وبالنهاية الجميلة القصيرة التى كتبها صالح مرسى فى نهايته وهو يقول:

«رحم الله يحيى حقى، وبوأه فى الآخرة مكانته التى عزف فى الدنيا عن اعتلائها».

(١٨)

وحين نأتى إلى حديث الأستاذ صالح مرسى عن الأستاذ توفيق الحكيم نجد أنفسنا فى مواجهة فقرات متواصلة يشع منها التقدير العميق لهذا الرجل العظيم حين يبدأ الحديث عنه، وحين يمضى فيه، وبعد صفحات معدودة نجد الأستاذ صالح مرسى يجاهر فى شجاعة مقرونة

برأى متفرد له مبرراته وإن يكن مخالفا للراى الشائع فى مسرح الحكيم وشخصيته وأدبه، وهو يعترف بمنتهى الوضوح والصراحة أنه لم يكن مرتاحاً إلى تلك الأحكام النقدية الشهيرة التى يتداولها الكتاب عن مسرح الحكيم، من قبيل القول بأنه مسرح ذهنى. كما أنه كان يعجب من أن يتقبل الأستاذ الحكيم مثل هذه الأقوال الجائرة على فنه، وهو فى مقابل هذا يعيد تأمل أعمال توفيق الحكيم حتى يخرج منها بصورة عميقة للفن وللأدب، وهى، على وحد وصفه، صورة لا يستعصى إدراكها على مَنْ يخلصون أنفسهم من شوائب التقعر والتفذلك والاستخفاف:

«. . . أنا لست ناقدا، ولا يعنينى ما يكتبه النقاد إلا إذا أضافوا إلىّ شيئا ولقد توقفت أمام هذه المقولة أضرب أخماسا فى أسداس، وإذا كانت كلمة مسرح تعنى فى المقام الأول «الفرجة» أى أن يكون هناك خشبة مسرح وممثلون ومتفرجون، فإن القول بأن مسرح الحكيم مسرح ذهنى، هو نوع من العجز لم أقبله وإن كان هو شخصيا قد قبله أو على الأقل سكت عنه!!».

هكذا يقول الأستاذ صالح مرسى وهو يستأنف الحديث شارحا وجهة نظره فيقول:

«ولذلك عندما عرضت هذه المسرحية فوق خشبة المسرح القومى لم أجدها. . . لم أجد الكامن بين سطورها من معان وأفكار ورؤى واستنباطات ومحاولة لتفسير الفكرة خلف هذا الحدث أو ذاك. . . بل

رأيت ممثلين يتحركون وفق منهج بالغ الغرابة، منهج يطالبهم أن يكونوا أفكارا لا بشرا من لحم ودم، وخرجت من المسرحية حائرا ثائرا ضيقا بنفسى، ولم يكن منطقيا أن يصفق الناس جميعا دونى، وأن يعجب بها الناس جميعا إلاى. . . ذلك أنى كنت ومارلت أرى أن «أهل الكهف» لو عرضت وقد تحولت شخوصها إلى بشر دونما بذل الجهد فى التقعر أو التفذلك أو الاستثقاف [من الثقافة!!] لجاءت المسرحية على أحسن ما يكون الأمر، ولوصلت أفكار الحكيم إلى الناس جميعا!. وهكذا، قبل أن ألتقى بتوفيق الحكيم، كان قد أصبح معركة فنية فى صدرى ورأسى ووجدانى جميعا. . . كنت أقرأ كل ما يكتبه، وأقرأ كل مايكتب عنه».

عند هذا الحد يشير صالح مرسى إلى مقال صغير ليوسف إدريس عن توفيق الحكيم وشخصيته، وهو يذكر أن هذا المقال بالذات قد لفت نظره:

«كانت الأعداد التجريبية الأولى من مجلة الفجر - التى كانت ستصدر كل ثلاثاء عن دار التحرير ١٩٥٧، وكان قد خصص للراحل يوسف إدريس برواز على نصف صفحة يكتب فيه رؤيته لشخصية عامة. . . وكانت أول شخصية كتب عنها، هى توفيق الحكيم!».

«قال يوسف إدريس فى بروازه هذا إن توفيق الحكيم بدأ حياته محبا للتمثيل، لكنه - لسبب طبقى واجتماعى - لم يكن ممكنا أن يخوض التجربة. . . ففى صدر شبابه تعرف على المسرحيين القدامى والتقى بهم

وكتب لهم، لكنه احتفظ فى وجدانه بتلك الرغبة الدفينة فى التمثيل، ولأنها كانت رغبة حقيقية، فلم يكن هناك بد من ممارستها. . . ولذلك، فإن توفيق الحكيم راح يمثل فى كل شىء. . . إنه يمثل البخل لكنه ليس بخيلا، كما أنه يمثل بارتدائه البيريه الشهير الذى كان يضعه فوق رأسه بدلا من الطربوش كى يتحدث الناس عنه، وهو يمثل بعصاه ويمثل بحديثه مع حماره. . . إنه، كأى ممثل، لايستطيع إلا أن يظل دائما تحت الأضواء، فهو يفتعل المعارك، ويفتعل البخل، لكى يمارس هوايته الحقيقية!».

«هنا يتساءل أديبنا ويقول: . «فهل كان توفيق الحكيم يمثل حقا؟! سؤال لن أجيب عليه، ففى الذهن، أكثر من أديب مارس التمثيل حتى يظل تحت الأضواء، الفرق بينهم وبين توفيق الحكيم، أنه كان يمثل دون أن يكف عن الأدب، لكنهم راحوا يمارسون التمثيل فكفوا عن الأدب!!».

□

أما انطباع الأستاذ صالح مرسى عن لقائه الأول بتوفيق الحكيم وحواره معه فيلخصه فى فقرات حافلة بالتقدير والانبهار من مستوى الحكيم الفكرى والفنى والمعرفى، والحق أن هذا الجانب من جوانب شخصية توفيق الحكيم لا يزال فى حاجة إلى الاستكشاف والتقدير، وهو يقول:

«. . . ومازلت حتى اليوم أذكر تلك اللحظات التى كنت أغادر فيها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، كى أيمم يسارا إلى حيث

طريق الكورنيش والنيل فى الزمالك، ثم أقطع الطريق إلى مجلة الهدف - فى الدقى - سائرا على قدمىّ. . . وطوال مسيرتى تلك، لم يخامرنى شك فى أن الطريق أمامى لايزال طويلا طويلا، كان حوارى مع الرجل يختلف عن تلك الحوارات التى كنت قد بدأت الاستماع إليها والمشاركة فيها مع الأدباء الشباب. . . كان الفارق مخيفا وشاسعا، كما كان اختلاف التجربة وتأثيرها كفيلين بأن يشعرا مَنْ كان مثلى بالعجز، أو. أو يدفعانه إلى التحصيل كى يواكب هؤلاء الذين سبقوه وترهبنوا فى محراب الثقافة والأدب والفن حارمين أنفسهم من كل متعة، سوى تلك المتعة السرمدية للبحث عن الحقيقة!».

□

وحين يروى لنا صالح مرسى، من وجهة نظره بالطبع، ما يراه وما يذكره من وقائع مشاركة توفيق الحكيم فى مسرح العبث فى الستينات بمسرحية ياطالع الشجرة نجده يتوقف ليقول:

«ولعلى أستأذن فى التوقف قليلا، كى أسرد حادثه قصها علىّ صديق العمر الفنان الكبير سعد أردش، وهى واقعة تشير بوضوح صارخ، إلى طبيعة توفيق الحكيم وشخصيته معا».

«كان من عادته ألا يحضر عرضا لإحدى مسرحياته، ورغم النجاح الشديد الذى لاقته مسرحية ياطالع الشجرة، إلا أنه لم يشذ عن عادته، عرضت المسرحية إذاً، وسجلت تلفزيونيا - أبيض وأسود - وانتهى عرضها. . . وبعد أسابيع عرضت المسرحية فى التليفزيون. . . وفى

صبيحة اليوم التالى، تلـقى سعد أردش من الحكيم مكالمة هاتفية طلب منه فيها أن يزوره فى مكتبه فى الأهرام، ولبى سعد دعوة الرجل!».

«قال لى سعد أردش - ولقد راجعـته فى هذه الواقعة أثناء كتابة هذه السطور - إن توفـيق الحكيم مـاإن انفرد به حـتى قـال: ياأخى حاجـه غريبة... أنا لما كتبت المسرحية دى، كنت فاكر نفسى باكتب عبث أو لامعقول، لكن لمـا شفتها فى التليفزيون، اكتـشفت إن أنا برضه توفيق الحكيم من غير غموض ولا عبث!!!».

وهنا يردف صالح مرسى بقوله:

«ولقد تذكرت، لحظة أن قص علىّ سعد [أردش] هذه الواقعة، ذلك الإحساس الذى انتـابنى يوم أن شاهدت مسرحيـة «أهل الكهف» عندما وجـدت المـمثلـين يعرضـون أفكارا وليس شـخـوصـا من دم ولحم! ولكن... هذا هو توفيق الحكيم، يبـدو لك مقنعا، وهو فى الحقـيقة شديد السفور».

....

هكذا نجد أنفسنا ونحن نطالع آراء صالح مرسى وذكرياته عن الأستاذ توفيق الـحكيم نحس وكأنمـا آثر صالح مرسى أن يـتقمص شـخصـية الحكيم فى الكتابة، فهو لا يواجهنا بما يريد أن يصدر من أحكام، لكنه يحكى ويحكى حـتى يصل بنا إلى ما يريد أن يحـدثنا عنه من رأى ومن فكر، وهو لا يقدم الفكرة جاهزة لكنه يقدمـها بعد حكاية أو من خلال حكاية، وهو يبدو وكأنه حائر متسائل بينمـا هو فى حقيقة الأمر قد مال

إلى ما مـال إليه من آراء، كـأنما يريد صـالح مرسى أن يقـول إن تأثره بالحكيم كان عميقاً حتى إنه لا يتحدث عنه إلا بمثل أسلوبه.

□

ونأتى إلى قصة اللقاء الفكرى الذى لايزال مؤثرا وحاضـراً فى كيان صالح مرسى ووجدانه حتى ذلك الوقت الذى كتب فيه هذا الكتاب قبل رحيلـه، وقد كان لقـاء من نوع خاص مع توفـيق الحكيم فى حـضور الدكتور حسين فوزى والدكتورة بنت الشاطئ وفؤاد دوارة.

وقد أفـاض صالح مرسى فى رواية مـقدمات هذا اللقـاء والحوارات الأولى التى دارت فيه على مدى الصفحات ٢٧٠ - ٢٩٣ وهى صفحات مهمة جدا لتاريخ حياة صالح مرسى ولتاريخ حياتنا الأدبية، ولكن الأهم منها مايرويه صـالح مرسى بعد ذلك كله عن حوار الحكيم حـول قصة «السجين» الـتى نشرها صالح مرسى مـسلسلة فى مجلة «صبـاح الخير» حيث يقول:

«. . عندما انتهت الدكتورة عائشة عـبد الرحمن من حكايتها فوجئت بسؤال لم يـخطر لى ببال، فلقـد التفت الأستـاذ توفيق الحكـيم نجوى متسائلا:

«انت خلصت من رواية السجين ولا لسه بتكتب فيها؟!».

وعلى نحو مـا تعودنا من صـالح مرسى من إظهار مـفاجئ وجـميل للدهشة المباغتة نراه يستكمل حديثه مباشرة ويقول:

«الحق أقول، ودون أدنى قدر من المبالغة، لقد فزعت!».

وهو يستأنف حديثه ليشرح سبب مفاجأته ودهشته:

«كانت رواية السجين تنشر فى مجلة «صباح الخير» فى تلك الأيام مسلسلة... ولم يخطر ببالى أن أستاذا فى قامة توفيق الحكيم، من الممكن أن يكون قد قرأ فيها كلمة... فأنا نفسى لا أقرأ الروايات مسلسلة... ثم، ثم إن للسجين معى قصة غريبة، قصة كان عضوا فيها الشاعر الراحل صلاح جاهين والذى كان رئيسا لتحرير صباح الخير فى ذلك الوقت... وعلى كل فلقد أجبت:

- أنا سلمت الروايه كاملة لصلاح ياتوفيق بيه!

مال توفيق الحكيم على مكتبه مسددا إلىّ نظرة غريبة وهو يقولُ:

- يعنى خلصت منها؟!

- إيوه ياتوفيق بك!

- انت عارف انت عامل إيه فى السجين؟!

«وكان ما سمعته من الرجل عجبا بكل ما تحمل الكلمة من معنى!».

«ما إن سألنى الأستاذ توفيق الحكيم عن رواية السجين التى كانت تنشر مسلسلة فى مجلة صباح الخير ذلك الوقت، حتى تداعت الذكريات إلى ذهنى بالرغم منى».

«ذلك أن ثمة ظاهرة غريبة واكبت كتابتى لهذه الرواية».

. . . .

. . . .

. . . .

«تذكرت كل هذا وأنا جالس إلى الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى والدكتورة بنت الشاطئ والصديق فؤاد دوارة. . . وعندما سألنى الرجل سؤاله هذا: انت عارف انت عامل إيه فىّ السجين؟!. . . لم أجد ما أرد به عليه غير أن سألته وقد ألمت بى الدهشة:

- هو سيادتك قريت اللى اتنشر منها؟!

اعتدل توفيق الحكيم فى جلسته وهو يقول:

أنا مش ممكن أقرا روايات مسلسلة، حتى روايات نجيب مش باقراها إلا لما تطلع فى كتاب!

التفت بعد ذلك نحو الدكتور حسين فوزى واستطرد:

عارف ياحسين، أنا كنت فى ليلة مش جاينى نوم، لقيت مجلة صباح الخير جنبى، مسكت المجلة وقلت أقرا حاجه أنام عليها. . . لقيت الفصل الأول من السجين بتاعة صالح مرسى، قلت آدى أديب كويس لما أشوف هو بيقول إيه. . . ولما خلصت الفصل، النوم طار من عينى، واستغربت!

التفت نحوى بعد ذلك متسائلا:

- هى فاضل فيها كام فصل؟!

- ثلاثة!

هز رأسه فى ارتياح مَنْ انزاح عبء من فوق صدره، ثم أردف:

أنا بقيت باستنى صباح الخير كل أسبوع، وفى كل أسبوع، بابقى خايف ألا تنشط كده ولا كده!

كان حديث هذا الأستاذ باعثا على الدهشة حقا، ولكنى لم أفهم بالضبط ما الذى يقصده بالشطط، ولابد أن ملامحى وشت بحيرتى تلك فإذا به يسألنى:

- أنت قريت جيمس جويس؟!

ما اكدبش عليك ياتوفيق بيه، أنا قريت له كام فصل فى رواية نسيت اسمها وما قدرتش أكمل!

هتفت:

- إذا كانت الترجمة صعبة بالشكل ده، يبقى الأصل شكله إيه؟!

- مية فى المية الترجمة وحشة!

«هكذا قال الرجل فلذت بالصمت، وانبرى دكتور حسين فوزى يتحدث عن الترجمات الرديئة، وعن نتائج تلك الترجمات «الطيارى» -

على حد تعبيره - التى تصدر بها غالبية مشروع الألف كتاب... ثم عرج إلى الحديث عن الترجمة المثالية التى قام بها المثقف العربى الكبير دكتور سامى الدروبى لأعمال ديستويفسكى الكاملة.. وما كاد الرجل ينتهى من حديثه حتى وجه توفيق الحكيم حديثه إلى قائلا:

- لازم تقرا جويس.. د أنت مطور أسلوبه فى السجين!!

صعقت، هتفت وقد داخلنى الخوف من أن يكون حديثه اتهاما مغلفا بالتقليد:

- بس أنا ما قريتوش حقيقى ياتوفيق بيه!

- أنا عارف ده كويس، ماهو انت لوكنت قريته، يمكن ماكنتش كتبت السجين!

«مرة أخرى شدنا الحديث إلى تأثير الأدباء على بعضهم البعض، وكيف أن الفنان قد يتأثر بفنان آخر فليس فى هذا عيب... لكنه، إذا كان فنانا حقيقيا، سوف يفرز فنا خاصا به حتى إن أراد التقليد، ذلك أن ذلك التقليد يختفى فى ظلال الإبداع الجديد... قال لى توفيق الحكيم، إن تلك الفصول القليلة التى قرأتها لجيمس جويس، تركت بالتأكيد فى نفسى أثرا دفعنى إلى كتابة السجين بهذا الأسلوب الذى يرى فيه تطويرا لأسلوب هذا الأديب الكبير!».

«قبل أن أنصرف فى ذلك اليوم، قال لى وهو يصافحنى:

- خلى بالك من نفسك!

هممت بأن أشكر له اهتمامه، فإذا به يردف:

- الفنان الحقيقى هو اللى يعرف قيمة نفسه ويحافظ عليها!

. . . .

وعلى الرغم من هذا الاعتراف المفصل بمدى السعادة المعرفية العارمة التى اجتاحت صالح مرسى نتيجة حضوره هذا الملتقى، فإن صالح مرسى يعترف بأنه لم يكرر هذه التجربة:

«ولقد يسأل سائل: هل واظبت على حضور تلك الندوة الخاصة بعد ذلك ولقد يدهش، إذا ما عرف الجواب. . . وهو أن هذه كانت المره الأولى والأخيرة!».

أما السبب: فلا أعرفه!

. . . .

. . . .

ومن الإنصاف أن نشير إلى ما يرويه الأستاذ صالح مرسى عن بعض التوجهات السياسية والفكرية للأستاذ توفيق الحكيم على نحو ما أدركها من حوار خاص معه، ومن الطريف أننا نرى الحكيم فيما يرويه صالح مرسى وكأنه حاضر أمام أعيننا بخفة دمه، وذكائه، وانتباهه إلى جوهر القضايا التى يتناولها الحوار، وهو يطلع صاحب المذكرات على حقيقة انطباعه تجاه دولة المخابرات، وأسباب هزيمة ١٩٦٧ :

«غير أن ثمة لقـاء انفردت به فيه، كان اللقاء مصـادفة. وكان الحوار غريبا!».

«ففى أواخـر ١٩٦٩ كنت فى زيارة لصديق فى الاهـرام، كانت هذه هى المرة الاولى التى أدخل فيها مـبنى الأهرام الجديد، وعندما هممت بالانصـراف، سـألنى صـديقى إن كنت أرغب فى المـرور على توفـيق الحكيم فى مكتبه، ولقد رحبت بطبيعة الحال... كنت قد أعدت قراءة روايته الشهيرة «بنك القلـق» التى كانت قد صدرت فى عام ١٩٦٦ على ما أذكر.... والتى قد أطلق عليها - مراوغا - اسم «مسرواية» ذلك أنه خلط فيها بين تكنيك الرواية والمسرحية، بينما كان هو - فى واقع الأمر - يكتب عن جهـاز المخابرات وتلك التجاوزات التى أثـارت الكثير من اللغط حـتى وصل الامر - كمـا عرفت فـيمـا بعد - إلى الرئيس عـبد الناصر شخصيا».

«عندما دخلت مكتب توفيق الحكيم، وجدته محاطا بعدد لا بأس به من الأدباء والمثقفين... ما إن رآنى حتى رحب بى ترحيبه ذاك الحار، وكان الوقت مـتأخرا كمـا كان هو يهم بالانصراف... وعندمـا عرض عليه البعض أن يقوم بتوصيله إلى بيته، نظر إلى وقال:

- أنا ما قعدتش مع صالح كفاية!

ثم التفت نحوى حاسما الأمر:

- انت معاك عربية والاحا تمشينى لحد البيت؟!

ما إن ركبنا السيارة حتى قلت:

- توفيق بيه.. أنا قريت بنك القلق تانى الأسبوع اللى فات!

فى حدة غير منتظرة قال:

- لو كانوا سمعوا الكلام ما كانش حصل اللى حصل!

«كان الرجل يشير إلى النكسة، وإلى الأزمة التى نشبت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الذى سانده صلاح نصر رئيس المخابرات وقتها، والتى كشفت محاكمته عن العديد من الممارسات التى تعدى بعضها الحدود... غير أنى سألته:

- لكن بتوع المخابرات ما احتجوش عليك وقتها؟

- مايحتجوا يا أخى، يحتجوا زى ما هم عاوزين بس يقروا، ويفهموا!

التفت نحوه باسما فإذا به يقول:

- بص قدامك إحنا مش ناقصين... قل لى، إيه آخر رواية كتبتها؟!

ولم أكن قد كتبت شيئا فلذت بالصمت، وإذا به يقول:

- ماتسيبش نفسك، واكتب.. اكتب حتى ولو كان اللى حاتكتبه مايتنشرش النهارده، حايجى عليه يوم ويتنشر!

عندما توقفت بالسيارة أمام بيته، وهبطت كى أوصله حتى الباب، قال وهو يصافحنى:

- الكتابة قدر... ارض بقدرك وما تنتظرش غير وجع القلب!

وضحك، وتركنى...

«رحم الله توفيق الحكيم، فلقد ظل يكتب حتى وهو جالس فى فراشه فى انتظار ملاك الموت!!».

....

هل لنا فى نهاية مدارستنا لهذه المذكرات الممتعة أن نطلع القارئ على فقرة مهمة من الفقرات التى تمثل جوهر حديث صالح مرسى عن نفسه فى هذا الكتاب، وسنختار للقارئ هذه الفقرة المعبرة:

«اكتشفت مبكرا، أن الفن بالنسبة إلىّ ليس هدفا فى حد ذاته، لكنه وسيلة أنقل بها للناس ما أريد أن أبلغهم إياه... هكذا كنت دائما، وربما كان لسنواتى فى البحر وأنا فى مقتبل العمر تأثيرها الشديد على... كان البحر يمدنى كل يوم بجديد أدهش له وأفرح، كما كانت حياتى فى القاهرة، خاصة فى تلك السنوات الأولى، اكتشافا مستمرا

لشخـصيـات طالما عـشتـها بخـيالى وأنا أقـرأ لهم أو أشاهد أفـلامهم ومسرحيـاتهم. . . فوق هذا وذاك، كان عليّ أن أحصل ما يجعلنى قادرا على مواكبة ما يحدث حولى، أو ما قد حدث وفاتنى قطار معرفته!».

الباب الخامس

رحلتى مع الراوية
مذكرات الأستاذ فتحى أبو الفضل

(١)

هذه مذكرات قصيرة جدا اقتصر فيها كاتبها على تجربة واحدة مرت به فى حياته الطويلة، لكنها كانت فى واقع الأمر تجربة طويلة جدا امتدت أربعين عاما هى معظم عمره الأدبى.

ومن الطريف أن هذه المذكرات كتبت بطريقة متميزة جدا، وكأنها قصة لا هى بالقصيرة ولا هى بالرواية، وإنما هى بين بين.

ومن الطريف أيضا أن كاتبها وقد تمكن من الفن الروائى، قد آثر أن يجعلها على صورة حديث طويل بضمير المتكلم، ولكنه مع ذلك استطاع من خلال هذا الحديث الطويل أن يوظف الحوار ليخدم أغراضه الفنية، وقد أجرى هذا الحوار بينه وبين نفسه فى فقرات كثيرة، وبينه وبين عدد من أعلام أدبنا المعاصر فى فقرات أخرى، وبينه وبين إحدى صديقاته من الفنانات فى فقرات أخرى.

ومن الطريف، للمرة الثالثة، أن كاتب هذه المذكرات قد استطاع أن يقدم لنا فيها فى بساطة شديدة وعفوية أشد، لمحات مهمة من قصة حياته كلها وكأنه لا يفعل أكثر من أن يستطرد.

(٢)

تحفل هذه المذكرات القصيرة بحب شديد وعميق للأستاذ الكبير توفيق الحكيم، وإذا جاز أن هذه الرحلة قصة، وأن لهذه القصة عقدة، وأن للعقدة حلاً، فإن صاحب الحل هو توفيق الحكيم، الذى يعترف المؤلف بالفضل التام له فى توجيه خطواته إلى النجاح الحقيقى فى فن الرواية.

وإذا عرفنا أن هذا الكتاب قد صدر فى أوج مجد المغفور له الأستاذ فتحى أبو الفضل كروائى عظيم دانت له أرقام التوزيع وأفلام السينما وقلوب الجمهور، لأدركنا مدى التواضع العظيم الذى مَنّ الله به على هذا الرجل العظيم، وسوف نتناول بالطبع بعض التفاصيل التى يصور بها فتحى أبو الفضل فضل توفيق الحكيم فى قيادة خطواته نحو الطريق إلى المجد.

يروى صاحب المذكرات بتفصيل كيف أعيته الحيلة مع أولى رواياته حتى لجأ إلى الأستاذ توفيق الحكيم الذى كان له الفضل عليه فى توجيهه من ناحيتين، الناحية الثانية أن قوم أسلوبه وتقنياته فى كتابة الرواية كما سنرى، أما الناحية الأولى فإنه هداه إلى السبيل الأمثل للتعامل مع الرواية حين تستعصى عليه.

أما أن هذه التجربة جديرة بالقراءة مرة بعد أخرى لكل أولئك الذين يعانون من أجل الوصول فأمر لا شك فيه. ولكنى أخشى أن الأجيال الجديدة لن تجد توفيق الحكيم الذى علق أبو الفضل الحل على وجوده وعلى نصيحته الغالية.

ولنقرأ هذه الفقرات التى نقتطفها من تيار ذكريات الأستاذ فتحى أبو الفضل:

«. . . وتوفيق الحكيم لم يكن غريباً علىّ ولا أنا غريب عليه، فهو الذى وقف إلى جانبى فى بدء محاولاتى الأولى عندما بدأت أكتب القصة القصيرة، فكنت أزوره فى مكتبه بوزارة المعارف العمومية حيث كان يشغل منصب مدير إدارة التحقيقات بالوزارة، فأقدم له القصة التى كتبتها فيتناولها منى بلطف بالغ ثم (يرجونى) أن أمر به بعد أسبوع، ليعيدها لى بعد أن يكون قد قرأها، ليبدى لى رأيه فيها».

«وكنت عندما أعود إليه بعد أسبوع يناقشنى فيما كتبت مناقشة فنية ممتعة كانت تسحرنى وتبهرنى، وفى كل كلمة ـ ولا أقول كل جملة أو عبارة ـ كنت ألمس توجيهاً منه سعياً لقيادتى نحو الأفضل».

□

ويروى فتحى أبو الفضل بكل الحب والتقدير أن توفيق الحكيم كان **لا يبخل عليه بالجهد فى القراءة الناقدة المصححة لتجاربه القصصية الأولى:**

«. . . وأعود إلى بيتى لأرى إن كان [المقصود هو: توفيق الحكيم] قد كتب عبارة أو رأيا على إحدى صفحات القصة، فإذا به قد أضاف بين سطورها وعلى هامشها الكثير بقلمه الرصاص: فهنا كلمة، وهنا جملة، وهنا عبارة كما كان يحذف مما كتبت بعض العبارات التى لا يرى ضرورة لها ثم يربط بين بدء ما حذف ونهايته بكلمة ليستقيم المعنى. «كان ـ دائما ـ يقول لى : ستكون كاتبا قصصيا مجيدا وكل ما

استطيع أن أقوله لك: أن تقرأ أكثر مما تكتب، وأن تستوعب ما تقرأ استيعاب من يسعى للاستفادة مما يقرأ».

«توفيق الحكيم إذاً هو الذى أقام عودى وأصلح من وضع القلم بين أصابعى، وأعطانى أجمل وأنبل ما يعطى الأستاذ تلميذه: الرعاية والاهتمام والتوجيه الصحيح».

□

ونأتى إلى الموضع الذى أشرنا إلى فضل توفيق الحكيم فيه حين هدى صاحب هذه المذكرات إلى الطريقة المثلى للتعامل مع الرواية حين تستعصى عليه، فإذا لاحظنا أن الحكيم قد قدم هذه النصيحة لفتحى أبو الفضل فى روايته الأولى أدركنا سبب كل ما كان صاحب المذكرات يكنه لهذا الرائد من امتنان وولاء:

«سعيت إلى أستاذى وصديقى الكبير توفيق الحكيم عندما استبدت بى المرارة من حيرتى مع الرواية. قصصت عليه القصة من أولها ـ من لحظة أن سمعت أحداث الرواية من صديقتى الممثلة الكبيرة الشابة ـ حتى اللحظة التى سعيت إليه فيها فى ذلك اليوم البعيد».

كنا آنذاك فى أول الخمسينيات

لاذ الحكيم بصمته قليلا ثم قال لى بهدوئه المطبوع:

دع هذه الرواية التى كتبتها مرتين وابدأ كتابة رواية غيرها لا تمت للأولى بصلة.

سألته على استحياء شديد :

وبعد؟

أجابنى كمن يريد أن يهون على الأمر كله:

بعـد أن تفـرغ من روايتك الجـديدة ـ أبدأ فـورا رواية غـيـرها، ثم غيرها . . ثم غيرها، ولا تعد لهذه الرواية التى عذبتك إلا إذا عادت هى إليك!

ابتسمت وأنا أسأله :

وكيف تعود هى إلى ؟

ابتسم الحكيم وهو يقول:

هذه الرواية التى لم تفز بتقـدير لجنة تحكيم لها وزنها عندما كتـبتها لأول مرة، ثم لم تفز بتقديرك الشخصى بعـد أن كتبتها مرة (ثانية). . . هذه الرواية لم تفـتح لك مغاليق كنوزها، ربـما لأنك ما تزال مـحدود التجربة مع الرواية.

أسرعت أقول :

أنا فعلا محدود التجربة مع الرواية، وهذه تجربتى الأولى.

عادت ابتسامة توفيق الحكيم تنبسط أكثر وهو يقول:

عندما يمتنع قلب امرأة على رجل ربما لأنه محـدود التجربة، فتعذبه وتؤرقـه، وتصل به حد اليـأس من الدنيـا وما فـيهـا ـ فإنه يسـعى إلى غيرها.

قلت : هذا صحيح.

ثم تشوق التجـربة الرجل، فينتقل من غيرها إلى غيـرها. . ومن غير غيرها إلى غير غيرهـا، ومن هذه وتلك وغير هذه وتلك يكتسب الخبرة التى كانت تنقـصه والتى أعجزته عن الوصـول إلى قلب المرأة الأولى، لأنه عجـز عن الوصول إلى الشـفرة السـرية أو السحرية التى تـفتح له مغاليق هذا القـلب العصى، فإذا ما جمـعت الظروف ـ ثانية ـ بينه وبين هذه المرأة الأولى التى دوختـه، سواء سعى هو إليها شـوقا، أو سعت هى إليه غيرة عليه من غيرها وغير غيـرها ـ ساعدته خبرته التى اكتسبها من هذه وتلك وغـير هذه وتلك على أن يصل إلى كنـوز قلبهـا بعد أن تكشف له ـ طواعـيـة ـ عن هذه الكنوز الغـالية التى امـتنعت عليـه فى محاولاته الأولى وكان معدوم ـ أو شبه معدوم ـ الخبرة والتجربة!

قلت له ـ أعنى لتوفيق الحكيم ـ فى صوت شاحب:

بدأت أفهم !

وعاد يضيف بتواضعه الآسر الجميل:

أنت كاتب، وهذه حقيقة لاشك فيـها، وكل ما فى الأمر أن التجربة الكافيـة تنقصك، فـأنا أريد منك ـ كمـا قلت لك الآن ـ أن تبدأ كـتابة

رواية جديدة، اكتب رواية وروايتين وثلاثا وأربعا وعشرا، ولن تتعثر فى النشر، فأنت كما أعتقد ـ لم تعد ناشئا، واسمك أصبح مقروءا ومسموعا من عشرات الألوف ومئاتها عن طريق قصصك القصيرة وتمثيلياتك الإذاعية وأفلام السينما التى يتصدرها اسمك.

ثم بعد لحظة صمت قال:

ابدأ بسرعة، ابدأ كتابة رواية جديدة، فسيسعدنى أن أسمع منك قريبا أنك بدأت فعلا».

(٣)

ولا يقل اعتراف صاحب المذكرات بفضل الأستاذ أحمد حسن الزيات عليه عن اعترافه بفضل الأستاذ توفيق الحكيم، وهو يورد لنا تفصيلات جميلة عن لقائه بالأستاذ الزيات بعدما لم يفز فى مسابقة أعلنت عنها مجلة «الرواية» التى كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يرأس تحريرها، ونحن نرى فيما يصوره فتحى أبو الفضل من أبوة الزيات وأستاذيته ونبله ما يضيف إلى صورته الجميلة المتكونة فى أذهاننا، ومن الفقرات التى يقدم بها الأستاذ أبو الفضل قصة لقائه بالأستاذ الزيات نقتطف للقارئ هذه الفقرات:

«وفاز بالجائزتين كل من الكاتبين الكبيرين نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير يرحمه الله. الأول بروايته الفرعونية «رادوبيس»، والآخر بروايته التاريخية العربية «سلامة القس».

«لا أنكر أننى أحسست بخيبة مرة أليمة».

«كيف جرى هذا؟».

«إننى تقدمت برواية جميلة الفكرة، واضحة العبارة، وقد كتبتها بعناية لاشك فى أننى بذلت فيها جهداً لا ينكره إلا مكابر».

«فكيف فشلت؟».

«ومع ذلك فقد وجدت العزاء فى أن نجيب محفوظ هو الفائز، وأن على أحمد باكثير هو شريكه فى الفوز، وكلاهما جدير بما فاز به».

«فنجيب محفوظ عرفته على صفحات مجلة الرواية- أخت الرسالة - التى ظهرت فى منتصف عام ١٩٣٤ تقريبا، عرفته كاتبا للقصة القصيرة وقد بهر كل مَنْ يقرأ العربية فى العالم العربى بقصصه التى كان يكتبها، وقد بهرنى ضمن مَنْ بهر من مئات الألوف الذين بدأوا يقرأونه».

....

«وباكثير أيضا - وإن لم يكن إنتاجه فى غزارة إنتاج نجيب محفوظ - من كتاب الرواية الممتازين، وكان نجمه قد بدأ صعوده، ليأخذ مكانه بين البارزين فى أدب الرواية».

«وبرغم عزائى الذى التمسته فى أن كاتبين كبيرين، وليس اثنين من النكرات، هما مَنْ فازا بجائزتى المسابقة، فقد بدأ فشلى يعذبنى ويؤرقنى ووجدت نفسى أسير رغبة جارفة لأعرف ما يعيب روايتى «امرأة أحبت».

«لقد بذلت فى كتـابتها جهـداً كبيرا. صفـحات كاملة أعدت كتـابتها لأننى لم أقتنع بها عند مراجعتى إياها، ومواقـف لا عدد لها غيرت فيها وبدلت وأنا أختار ألفاظ الحوار الذى يـجرى على ألسنة أطرافها وصولاً للكلمة الأحلى، والعـبارة الأجمل، والمعنى الأسـهل. وغير هذا وذاك مما لا يتسع المقام لحصره مما استأدانى [أى تطلب منى] جهوداً مضنية قرابة أربعة أشهر كاملة».

«ثم ماذا بعد ذلك كله؟».

«لا شىء».

«وسمعت نفسى تقول لى:

«لم لا تقوم بزيارة للأستـاذ الزيات فى مكتبه، لتسأله فـيما يعن لك من أسئلة؟».

«إنه يستطيـع ـ على الأقل ـ أن يخبرك: لمـاذا لم تنجح روايتك فلم تفز بالجائزة».

«وراقتنى الفكرة».

«يجب أن أقابل الأستاذ الزيات».

«وفى اليـوم التالى رحب بى الرجـل فى لطف بالغ، وفى بر أستـاذ بتلميذ من تلاميذه، وقبل أن يسألنى حاجتى بدأت حديثى، فقلت له:

«. . . لقد اشتركت فى المسابقة الروائية التى دعوت لها حضرتك على صفحات [الثقافة] برواية كتبتها بعنوان «امرأة أحبت» وأرجو أن أذكر لحضرتك ـ بكل الأمانة والصدق ـ أننى لم أسع إليك اليوم محتجاً أو غير راض أو مقتنع بالنتيجة التى أعلنت، فهذا صغار أجل نفسى عنه، فأعضاء لجنة التحكيم كلهم أساتذة كبار لهم وزنهم الأدبى، ولا غاية لهم إلا الوصول إلى أفضل الروايات التى تقدم بها أصحابها للمسابقة ليمنحوا صاحبها الجائزة وقد كان».

«فالأستاذ نجيب محفوظ أستاذ كبير عرفته وقرأته على صفحات الرواية، والأستاذ باكثير كذلك روائى أستطيع أن أقول مطمئنا: إنه نسيج وحده».

«ابتسم الأديب الكبير وهو يقول لى:

«والله هذا أجمل ما سمعت من أديب ناشئ يعرف قدر الآخرين فيذكره، ولا يجحدهم أقدارهم برغم أنهم فازوا عليه فى مسابقة ما!».

«ثم لحظة صمت أضاف بعدها:

«أنا تحت أمرك، وسيسعدنى أن أحقق لك كل ما تريد».

«قلت:

«بل إننى أرجو ولا أقول أريد».

«تفضل».

«أن أعرف عيوب روايتى التى لم تؤهلها للفـوز لأستفيد منها، أعنى أستفـيد من هذه العيوب، لأتجنب الوقـوع فيها فى مـحاولاتى الروائية المقبلة، أو عندمـا أفكر فى إعادة كتابة «امـرأة أحبت» من جديد، وهى تجربتى الأولى فى كتابة الرواية».

«فى هذه اللحظة استأذن علينا أحـد القائمـين على الخدمـة فى دار الرسالة، فقـدم لى القهوة وانصرف، وسمعت الأسـتاذ الزيات يقول لى فى رفق شديد:

«أرجو أن تعجبك قهوتنا».

«ابتسمت شاكراً له رقته البالغة، ثم سمعته يقول لى:

«إن كل أعضاء اللجـنة الذين قرأوا الروايات التى تقدم بها أصـحابها للمسابقـة وأصدروا النتيجـة، قد سافروا إلى المصـايف، ولكنى أعدك بأننى سآمر الآن بأن تكون روايتك «امرأة أحـبت» على مكتبى صباح غد لأقرأها بنفسى، ولو شرفتنى بزيارة أخرى بعد أسبوع - مثلاً - فسيسعدنى أن أبيّن لك أوجه النقص التى سأرى - من وجهة نظرى الشخصية - أنها تعيـبهـا والتى قد تكون، من ثم، هى الـتى حالت دون فوزهـا بإحدى الجائزتين».

«شكرت للأستـاذ الزيات لطفه البـالغ، وشربت قهـوتى، وقد أزاح حديثه القصير هماً كـان يثقل قلبى ونفسى، ثم استأذنته فى الانصراف، وبارحت دار الرسالة».

ثم يحكى الأستاذ فتحى أبو الفضل عن لقائه الثانى بالأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن يصل إلى قوله:

«. . . ثم بدأ الرجل حديثه بصوته الخفيض الودود، صوت الأستاذ المعلم المتواضع:

«أولا أحب ـ بأمانة شديدة ـ أن أهنئك بهذه الرواية الجميلة، فهى جميلة بحق».

«قلت وأنا أرجف لتحيته الرقيقة:

«أشكر للأستاذ الزيات هذا الرأى الذى سأعتز به طوال حياتى».

«قبل كل شىء أعجبنى فى كتابك احترامك البالغ الملحوظ للغة العربية، فأنت حريص على إحيائها، وأنت لا تلجأ إلى العامية فى إدارة الحوار كما يفعل الكثيرون، وهو عجز منهم وقدرة منك».

«أجبته وقد أحسست أن قامتى تطول أكثر:

«إنى أرى الكتابة بالعربية أسهل بكثير منها بالعامية، هذا إلى جانب أنها ـ أعنى الكتابة بالعربية ـ صيانة محققة تعلم الكاتب من الانزلاق إلى سوقية اللفظ العامى فى كثير من الأحيان».

«وأضاف الأديب الكبير:

«أسلوبك أسلوب روائى، وهذه حقيقة لاشك فيها، وأنت تحسن ـ كما لاحظت ـ استعمال الجملة الاعتراضية ووضعها فى مكانها الصحيح».

«ثم لحظة صمت ليضيف الأستاذ الزيات بعدها:

«استرعت انتباهى واهتمامى وإعجابى إحاطتك الدقيقة بالمعلومات الطبية والقانونية التى وردت فى سياق الأحداث، ولست أعلم إن كنت من دارسى هذين الفرعين حتى تكتب ما كتبت بكل هذه الدقة والإحاطة عندما استدعت أحداث الرواية أن تتعرض لبعض النواحى القانونية، وبعض ما يتطلب من الكاتب ثقافة طبية واسعة».

«أجبته فى بساطة شديدة:

«إننى لم أدخل الجامعة ياسيدى بعد أن مرضت مرضاً خطيراً خطيراً خطيراً قمت منه بقدرة الخالق وحده بعد أن فتح باب مدفن الأسرة لاستقبالى! ولكنى وجدت فى مكتبة المرحوم أبى ما عوضنى أكثر مما كنت سأحصله فى كليات الجامعة مجتمعة».

....

«قدم لى الأستاذ الزيات الظرف الكبير الذى أمامه، والذى يضم روايتى وهو يقول:

«هذه روايتك، أردها لك شاكرا جهدك الكبير الذى بذلته فيها، أردها لك برغم شروط المسابقة التى لا تجيز رد الروايات التى لم تفز فى المسابقة إلى أصحابها، ولكنى أردها لك استثناء تحية منى لأديب ناشئ أتنبأ له بمستقبل كبير بإذن الله.. وستجد داخل الظرف صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة تتضمن ملاحظاتى الشخصية عليها».

«وأضاف الأديب الكبير بأدبه العالى وبر الأستاذ بأحد تلاميذه:

«لا أسمى هذه الملاحظات «عيوبا» شابتـها فعابتها ومن أجل هذا لم تفز بإحدى الجائزتين، لكنها مجرد ملاحظات فاتتك وأنت تكتب، ربما لأنها تجربتك الأولى، ولم تفت مثل نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير لأنهمـا ـ ربما ـ أكبر مـنك سناً وأكثر خبـرة وأقدم تجربة، ولهـذا فازا بالجائزتين».

«تناولت الظرف منه وقد أسرنى أدبه العالى وسمعته يضيف:

«نصيحة منى».

«أسرعت أقول له:

«أرجوك».

«لا تعَد لكتابة هذه الروايـة بذاتها سريعاً، بل اتركهـا فترة من الوقت قبل أن تحاول كتابتها من جـديد، وكلما طالت هذه الفترة أكثر ازدادت فى وجدانك نضـجاً حتى إذا عدت إليـها لتعيـد كتابتهـا برؤية جديدة، وجدتها أكثر طواعية مما كانت عند محاولتك الأولى».

«شكرت له من كل قلبى لطفـه البالغ، وكل ما اسـتطعت أن أقوله: «إننى مهما حاولت أن أعبر للأستاذ الزيات عن مدى عرفانى فسيعجزنى التعبير حتماً».

«ابتسم وهو يجيبنى:

«أنا لم أفعل شيئـا، ولكنى أرجو أن تبعث لى بقصة قـصيرة أنشرها لك فى «الرواية»، إنك تكتب القصة كما أعتقد، فقد قرأت اسمك أكثر من مرة فى كثير من صحفنا الأسبوعية».

«شكرت له ـ مرة ثانية أو ثالثة ـ لطفه ورقتـه وبره، وقمت فصافحته وسار معى حـتى باب مكتبه مودعـاً وهو يؤكد انتظاره لقصتى القـصيرة التى سألنى أن أبعث بها إليه».

«وأسرعت إلى بيـتى وبدأت قراءة المـلاحظات التى أخذها الأسـتاذ الزيات على روايتى، وضمنها الصفحة التى أرفقها بها عندما ردها لى».

«قرأتها عـشر مرات، عشـرين مرة، لا أذكر عدد المـرات بالضبط، ولكن الشىء المـؤكد أننى كنت أفـوز من كل قراءة بشـىء أضيفـه إلى معلوماتى، وأزداد اقتناعاً بأن كل ما أشـار إليه قد فاتنى فعلاً وأنا أكتب روايتى الأولى».

«وأحسـست براحة نفسيـة كبيرة، فـأعدت الورقة التى تتـضمن هذه المـلاحظات إلى الظرف الذى يضـم الرواية، وأودعـتـه أحـد أدراج مكتبى».

. . . .

ثم يعبـر الأستاذ فـتحى أبو الفضل عن سـعادته حين أتاح الأسـتاذ الزيات له نشر إحدى قـصصه القصيـرة فى «الرواية»، ونلمح فى حديثه مدى الفرحة الطاغية التى يصورها بأنها فاقت كل فرحة سابقة:

«ونُشرت القصة على صفحات «الرواية» بعد أسبوع واحد، وفاقت فرحتى بنشرها فى «الرواية» كل فرحة سبقتها كلما نشرت لى إحدى الصحف الأسبوعية قصة من قصصى. فـ«الرواية» كان لها مستواها الخاص، والأسماء التى تكتب على صحفاتها أسماء أعلام وكبار الكتّاب فى التأليف والترجمة معاً».

(٤)

ولأن فتحى أبو الفضل روائى ممتاز، فإنه يأبى أن يترك هذه التجربة الذاتية التى يقدمها للقارئ من دون أن يعطى دورا للبطولة فيها لعنصر نسائى، ومن الجدير بالذكر أننا من وجهة النظر الفنية أو العملية أو التجريبية يمكن لنا أن نحذف دور البطولة النسائية من هذه الرحلة مع الرواية التى سجلها لنا الأستاذ فتحى أبو الفضل دون أن يختل توازن هذه الرحلة أو هذا العمل الأدبى، أو هذه التجربة الذاتية، وليس لنا أن نقترح هذا على الأستاذ فتحى أبو الفضل ولا على تجربته، فليس هذا من حقنا، كما أنه يبدو لى أن هذا لن يرضى الأستاذ فتحى أبو الفضل أو أن هذا لم يكن ليرضيه، إذ كيف تستقيم الحياة القصصية بدون المرأة.

ومع كل هذا الذى نقدره فإن بوسعنا أن ندرك حين نتأمل النصوص أن هذه البطلة التى قدمها الأستاذ أبو الفضل فى تجربته الذاتية هذه لم تلعب دورا حقيقيا فى الصراع على مدى السنوات الأربعين التى استغرقتها رحلة صاحبها مع الرواية، لكن الأستاذ فتحى أبو الفضل يأبى إلا أن يعطيها هذا الدور لأنه لا يكاد يتصور أن جمهوره يصدق أن تكون

هناك قصة بدون بطلة، وكأنما هو يكتب تجـربته الذاتية بينما عينه على السينما التي لا تصلح فيها قصة بدون بطولة نسائية.

(٥)

أما جوهر الدرس الثرى فى حياة أبو الفضل وفى تجـربته مع الرواية فإنه ليس فى حاجـة منا إلى أن نبحث عنه ولا أن نستقـصيه، ذلك أن هذا القاص العظيم، وقد حاول فى كتابتـه لتجربته الذاتية هذه أن يتحرر من أسلوب القصـة والرواية وتكنيكهمـا لم يجد أى حـرج فى أن يقدم ثمرة تجربته بطريقة مباشرة وصريحـة موجهاً حديثه للشباب فى وضوح وصراحـة ومبلوراً بكل ثقة جوهر تجـربته الروائية مـتمثلاً هذه التـجربة العـريضة كلـها فى تلك الرواية الـتى قدر له أن يخـوضـها مع إحـدى الروايات التى لم تكتمل كتابتها إلا بعد أربعـين عاماً من كتابته لها للمرة الأولى.. وكـأنه وهو يقـدم تجـربته الـذاتية تحـت عنوان «رحلتى مع الرواية» لايقدم إلا تجـربة واحدة مع روايته الأولى الـتى لم يتمكن من كتابتـها على النحو الذى أرضاه إلا بـعد أربعين عاماً،وكـأنما «الرواية» التى فى العنوان رواية مـحددة،وليست جنس الرواية،أو هـكذا يبدو لنا فتحى أبو الفضل فى كثير من لحظات تعلقه بروايته الأولى العزيزة على قلبه.

وهو يصل إلى المباشرة حين يبلور فـكرته التى خرج بها من تجربته ويقول:

«... وخرجت من التجـربة بتأكيد أو بتـرسيخ عقيدة اسـتقرت فى وجدانى منذ فجـر شبابى: الصبر، الصـبر بلا حدود، والجلد، والدأب

والمثابرة مع الإصرار والحرص على القراءة الدائبة المستمرة حتى نهاية العمر. كل هذه مجتمعة هى عدة (الروائى) الذى يسعى لتحقيق ما يعيش بأمل تحقيقه، أن يصبح روائيا يخاطب جمهورا عريضا من الجنسين ومن مختلف الأعمال والثقافات».

□

وقبل هذا فإن الأستاذ فتحى أبو الفضل يروى تجربته مع تلك الرواية بتفصيل واف فى فقرات طويلة نجتزئ منها للقارئ قوله:

«بدأت أخط أول كلمة فى رواية «امرأة أحبت»...

«بدأت أكتبها للمرة الثالثة بعد نحو أربعين عاما عاشت خلالها فى وجدانى منذ سردت على أحداثها صديقتى الكبيرة الشابة عام ١٩٣٨ أو نحوه».

«كتبتها للمرة الأولى عام ١٩٣٩ عندما تقدمت بها لمسابقة مجلة الثقافة، ولم تفز بالجائزة، وكتبتها للمرة الثانية بعد عشرين عاما من هذا التاريخ ولم أرض أنا عنها بعد أن وضعت فى نهايتها كلمة الختام، فألقيت بها فى أحد أدراج مكتبى لأعود إليها فى عام ١٩٧٧: أى بعد نحو عشرين سنة أخرى، فيكون مجموع صبرى عليها أربعين سنة بالتمام والكمال [يقصد تقريباً: لا بالتمام ولا بالكمال]، أعيد هذا الرقم عليكم مرة أخرى وأصرخ به فى آذان من يسمون أنفسهم «أدباء الشباب»».

«أربعون عاما انتظرتها فى صبر يقتل النفس والروح والوجدان لأننى لم أشأ أن أقدم عملا مبتسرا ناقصا شائها يجعلنى أضحوكة أمام نفسى وأمام من يقرءوننى!».

«وبدأت أكتب وقد لبسنى إحساس غريب».

«إحساس مَنْ تحرر من الخوف ومن الرهبة ومن الحذر الشديد الشديد الشديد الذى تؤدى شدته أحيانا لأن تختلط الأمور على الإنسان وهو يؤدى عملا ما، فإذا به فى النهاية أمام عمل أبرز سماته الافتعال أو الانفعال الذى يدفعنا لأن نخلط بين ما يجوز وما لا يجوز!».

«وكنت قد اكتسبت الخبرة الطويلة اللازمة بعد أن كتبت إحدى عشرة رواية، وأحسست بسهولة أن هذه الخبرة قد ساعدتنى أكثر على اختيار الإطار الجديد الذى أكتب فيه «امرأة أحبت».

«كتبتها بتناول جديد فى إطار جديد، ونحيت من ذاكرتى ـ وأنا أكتبها للمرة الثالثة ـ كل سطر من سطور المحاولتين الفاشلتين السابقتين»

«كنت أحس بأننى أكتب عملا جديدا علىّ، جديدا جدة تامة لا يربطه بالمحاولتين السابقتين إلا الأحداث التى روتها علىّ صديقتى الممثلة الكبيرة منذ نحو أربعين سنة».

(٦)

هكذا نرى فتحى أبو الفضل وقد قيّم تجربته الروائية، ومن حسن الحظ أن هذا الأديب لا يبخل علينا بكثير من الأحكام النقدية أو

التعريفية المهمة التى يوردها ضمن نسيج حديثه عن تجربته، وهو على سبيل المثال يقدم تقديره الفائق لفنية الأستاذ نجيب محفوظ وتفوقه الروائى من خلال حديثه عن مسابقة مبكرة جمعتهما معاً وفاز فيها نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير بالجائزة، وهو يعترف للأستاذ نجيب محفوظ بقيمته الرفيعة ومكانته المتميزة فى الفن القصصى، وهو يتخذ فوز نجيب محفوظ فى المسابقة التى تقدم هو إليها بمثابة مدخل أو مناسبة مواتية ليحدثنا عن رأيه فى نجيب محفوظ فيقول فى عبارات واضحة حافلة بالتقدير العميق ما لم يكتشفه الآخرون إلا بعد عشر سنوات حين فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل:

«. . . كان نجيب محفوظ شيئا جديدا وقلما جديدا وفكرا جديدا وأسلوبا جديدا وعرضا جديدا، ولغة تكاد تكون جديدة، ولم يكن فى ذلك الوقت قد جاوز الثانية والعشرين من عمره بشهور: فنجيب محفوظ من مواليد الحادى عشر من شهر ديسمبر من عام ١٩١١ وقد بدأ كتابة هذه القصص فى منتصف عام ١٩٣٤».

«فى هذه السن المبكرة طاول نجيب محفوظ كبار كتاب القصة القصيرة فى العالم العربى، بل وبزهم بأدبه المحكم العالى، وتعتبر المجموعة التى نشرتها له «الرواية» على مدى سنوات متعاقبة من أعظم ما نُشر فى القصص القصيرة قيمة حتى يومنا هذا، وقد أحسن صنعا عندما جمع هذه المجموعة الفريدة من القصص التى كتبها فى هذه الفترة التى اعتبرها من أخصب فترات حياته الأدبية فى المجموعة التى تحمل عنوان «همس الجنون»، وأنا أستأذنه فى تقديم نصيحة لمن

يسمون أنفسهم أدباء الشباب ـ إذا جاز لى هذا ـ أن يقرءوا هذه المجموعة قراءة متأنية واعية، ليروا كيف كان نجيب محفوظ يكتب وهو فى منتصف العام الثالث والعشرين من عمره».

(٧)

وعلى الرغم من أن الأستاذ فتحى أبو الفضل قاص وروائى فى المقام الأول كما قدمنا، إلا أنه كتب تجربته الذاتية هذه بأسلوب يجمع بين الأسلوب القصصى وأسلوب كاتب المقال، وهو لا يجد أى حرج فى أن يضمن تجربته كثيرا من الجمل الاعتراضية أو الالتفاتية التى لم نتعود على ورودها فى النسيج القصصى بقدر ما تعودنا على ورودها فى المقالات، وغنى عن البيان أن القارئ يدرك أن هذه الجمل الاعتراضية الشارحة أو الموضحة للمعنى اللغوى أو المعقبة على صحة بعض الألفاظ لا ترد على هذا النحو فى القصص، وهكذا نجح فتحى أبو الفضل بذكاء شديد فى أن يقطع التواصل القصصى ليبدو فى بعض اللحظات وكأنه يعالج تجربته الذاتية بصيغة المقال وليس بصيغة القصة، وكأنه يريد من حيث لا يدرى أن يعبر عن اعتقاده فى أن كتابة التجربة الذاتية قد تتطلب أيضاً بعض القدر من فن المقالات لا الفن القصصى فحسب.

(٨)

ولا يفوت الأستاذ فتحى أبو الفضل أن يضمن تجربته الذاتية ما يشى بإحدى سمات شخصيته الحريصة على إبراز فكرة أنه يعتز بصداقته

للنصف الآخر، وهو اعتزاز عُرف عنه وعرف به، وهو يأبى إلا أن يضع المرأة فى الصورة المثلى السامقة التى تليق بها وتليق به، ولننظر إليه على سبيل المثال وهو يصف هذه السيدة الفنانة التى عرفها فيقول:

«. . . الأعوام ـ وهى تمضى ـ أتاحت لى صداقة كريمة ربطتنى بفنانة كبيرة شابة من ممثلات الفرقة القومية المصرية، كان هذا اسمها فى عهدها الأول ـ منتصف الثلاثينيات ـ أيام كان يرأسها المغفور له الشاعر خليل مطران».

«كان من أهم ما ربط بينى وبين الممثلة الكبيرة الشابة أنها تكتب وتكتب عن عشق للقلم، وعن اطلاع مستمر على كل ما تخرجه المطابع ـ تقريبا ـ من الرواية الطويلة، وقد شرفتنى عندما قالت لى: إنها تتابع ما أكتب، وإنها شديدة الإعجاب به !».

□

ثم هذا هو صاحب التجربة يفاجئنا وهو يتأمل شريط الحياة أنه لا يزال بعد أربعين عاما يحتفظ لهذه الفنانة بالتقدير التام، وهو ما قد يندر بل ما قد يستحيل حدوثه على مدى هذه الفترة الطويلة بين رجل وامرأة. ولننظر إليه وهو يقول وكأنه يعترف أو وهو يوهمنا أنه يعترف:

«. . . وقفة قصيرة هنا ـ أرجوكم ـ [هكذا يضع فتحى أبو الفضل رجاءه على هيئة جمل اعتراضية قصيرة يمكن حذفها، لكنه حريص على أن يحتفظ بها] فها هنا لفتة لم تكن متوقعة منى خلال رحلتى الطويلة مع الرواية: فقد اتصلت بى صديقتى القديمة الكريمة الممثلة الكبيرة

وأخبـرتنى أن منتجا من منـتجى أفلام السـينما قد عـرض عليها القـيام بتمثيل دور فى إحدى رواياتى التى سينتجـها فى فيلم سينمائى، ولكنها عندما اطلعت على الدور اكتشفت أنه صغيـر صغير صغير لا تستطيع أن تقبل القيام به، فاعتذرت للمنتج بأدبها المشهود لها به، ومن فرط أدبها - هذا - اتصلت بى، لتخـبرنى بهذا، حتى لا يحـرجها رفضـها الدور، لأنه حقـيقـة لا يليق بقدرها ولا بمكـانتها وتاريـخها الفنى الـعريض، ووعدتهـا بأن أستبـقى لها الدور الذى يليق بهـا فى أول عمل سـينمائى جديد يتم نقله وتنفيذه عن إحدى رواياتى إلى الشاشة الكبيرة».

(٩)

ونحن نرى الأستاذ فتحى أبو الفضل وهو يتـوحد تمام التوحد مع ما يكتب ويسجل ويروى من تفـصيلات تجربتـه الذاتية، ونحن ندرك هذا التوحد حين نراه وهو يكتب هذا الكتـاب يبدو لنا وقد وضعنا فى صورة قارئ حديث المعرفة بالكاتب وبما كتب كأننا نقرأ ما كتبه فى ذلك اليوم الذى صدر فـيه فقط، وهو لذلك يتحـدث عن الأسابيع القادمة القـريبة وعن الأسابيع الماضـية القريبة، بل ويصل به الحـد إلى أن يرتب قائمة كتبه فـيشير فيهـا إلى ما يتوقع صدوره فى خلال أسبوعـين، وما انتهى منه، وما لا يزال فى المطبعة، وهكذا يبدو صاحب التجربة أمامنا أو فى مواجهتنا وكأنه يؤكد أنه يروى لنا فى يوم ما تجـربته الماضية كلها حتى ذلك اليوم، وكأنه يـتطلع إلى أيامه القادمة فى ثقـة شديدة بعد أن وضع قدميه باقتدار على الطريق.

كأني أريد أن قول إن هذا الأديب المتمكن الذى مرت على تمكنه وجدارته سنوات قد نجح فى أن يبدو لنا من خلال روايته لتجربته وكأنه أحرز النجاح لتوه فى هذه الرحلة الطويلة مع الرواية.

(١٠)

ومن الإنصاف أن نقتطف للقارئ بعض الحوارات النفسية الجميلة التى أدارها بينه وبين نفسه، أو التى دارت بينه وبين نفسه ثم سجلها لنا، وسنقتطف من هذه الحوارات تلك التى يلخص بها رحلته مع الفن القصصى بدءا بالقصة القصيرة قبل أن يصل إلى الرواية.

. . . .

«أطرقت برأسى وكأننى أقرأ كل كلمة سمعتها من نفسى، فأنا ـ فعلاً ـ يحرقنى الشوق لأن أكتب الرواية بعد أن كتبت نحواً من ثلاثين قصة قصيرة».

«ثلاثون قصة قصيرة وأنا فى نحو العشرين، ربما أكبر بأشهر لا يجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة».

«وعاد صوت نفسى يرتفع قليلاً وهى تقول:

«يا رجل.. اعقل واعرف قدر نفسك! ولا تفسح المجال لمن اعتادوا السخرية مما تكتب برغم أنه ينشر فى مجلاتنا الأسبوعية وتُؤجر [يقصد: تُكافأ، لأنه لا يمكن لأجر أن يوفى الكتابة حقها] عليه! لا

تفسح المجال لهؤلاء الساخرين! بالفـرصة لمزيد من سخريتهم الجارحة وتعليقاتهم الجاهلة».

«أنت تكتب الرواية؟

«لم؟ وفيم».

«أنت تكتب القصـة القصيرة منذ سنوات، وقد حـققت فيهـا نجاحاً ملحوظاً، فقـد فزت بالجائزة الأولى فى المسابقـة التى دعت لها مجلة الجامعة بقصتك «نهاية غرام».

«ثم شـفعت هذا الفـوز بفوز ثـان عندما فـازت قصـتك «شهـرزاد» بالجائزة الأولى فى المسابقة التى دعت لها مجلة الكاتب».

«ثم عـززت هذين الفوزين بـفوز ثالث أكـبر عـندما فـازت قصـتك «إحـدى اللواتى ينتظرن» بفـوز مـماثـل فى المسـابقـة التى دعت لهـا «مجلتى»، ومـجلتى ـ كما تعلم ـ مـقصورة على أقـلام عمالقة القـصة والرواية من أمثـال طه حسـين وتوفيق الحكيم والمازنـى وهيكل باشا، ففيم نبذك أو هجرك مـا تحسنه وقد أحسنته فعلاً وحقـقت فيه أكثر من فوز بتجربتك الطويلة الشاقة، إلى غير ما تحسنه ولا خبرة لك به؟».

«نصيحتى أن تبقى كما أنت، وأن تكتفى بكتابة القصة القصيرة، وأنا زعيمة بأن أؤكـد لك أنك ستصبح من أعلامها خـلال أعوام لن تتعدى العشرة بحال! والمهم أن تستمر».

«وبدأ صوت نفسى يخبو بعد أن أسمعنى ما لا أحب!».

«لقد كنت فى حاجة لمن يقول لى غير ما قالت لى نفسى».

«كنت فى حاجة ماسة لمن يشجعنى، ويشد من أزرى.. لمن يقول لى:

«ولم لا؟ حاول أن تكتب الرواية».

....

وعند هذا الحد يبدأ الأستاذ فتحى أبو الفضل فى اللجوء إلى أدواته الروائية فيدخل ببطلته إلى نسيج تجربته الذاتية وينسب إليها التشجيع التالى الذى دفعه إلى أن يخوض مجال الرواية، لكن الحوار لا ينتهى إلى هذه الغاية من أول فقراته، وإنما هو على عادة الروائى المحترف يمر فى طريقه ببعض المحطات الأخرى، ومن هذه المحطات محطة المسلسلات الإذاعية:

«سألتنى الصديقة الكريمة يوماً:

«لم لا تكتب تمثيليات ومسلسلات لإذاعتنا المصرية؟»

«فأجبتها أن الاختبار صعب، لأن الدكتور طه حسين هو الذى يقرأ كل ما يرد إلى مراقبة التمثيليات من نصوص فيجيز ما يراه صالحاً ولا يجيز غير الصالح، وأنا أخشى طه حسين وحكم طه حسين! فأجابتنى: بأن عكس ما أظن هو الصحيح! فوجود طه حسين على رأس جهاز التمثيليات هو الضمان الوحيد المؤكد لقبول العمل الجيد الذى يليق بأن

يذاع على الملايين، ثم دقت ظهر كفى بأطراف أصابعها وهى تقول بلطفها البالغ وبلهجة ملؤها الثقة:

«اكتب تمثيلية وقدمها وسترى».

«وكتبت التمثيلية، وكان عنوانها «ليلة الورد» وأنا أعرف أن هذا العنوان مستعار من شاعر فرنسا «ألفريد دى موسيه»، لأنه عنوان إحدى لياليه «ليلة مايو»، لكننى كنت مفتوناً بالعنوان وبصاحب العنوان، ولم أجد حرجاً فى أن أجعله عنوان تمثيليتى الإذاعية الأولى».

«وقُبلت التمثيلية فوراً، فقد كانت شيئاً جديداً على أدب التمثيلية الإذاعية شكلا وموضوعا وصياغة، فقد كتبتها باللغة العربية، وكان هذا شيئا نادرا بالنسبة لتمثيلية الإذاعة».

«وأديت [التمثيلية]، وأستأذن فى أن أقول: إنها نجحت نجاحا منقطع النظير، وبدأ الإذاعى الكبير محمد فتحى - وهو معلم جيل بأسره من الإذاعيين اللامعين - يرعى ما أقدمه من تمثيلياتى التى تتابعت، واستطعت أن آخذ مكانى بسرعة إلى جانب كاتبين أو ثلاثة كانوا يكتبون تمثيلية الإذاعة فى هذا الوقت، وكان فى مقدمتهم الصديق الكبير يوسف جوهر أول من بدأ المسلسلات بمسلسلته التى لا تُنسى «حسن القرنفلى».

«كل هذا لم يقنعنى، ولم يكفنى».

(١١)

ونحن نرى فتحى أبو الفضل متيماً إلى أبعد الحدود بفن الرواية، وخائفا فى الوقت ذاته من هذا البحر الروائى القادر على إغراقه، وهو يجيد التعبير عن هذا المعنى فى كثير من فقرات مذكراته، ومن هذا قوله:

«. . . الرواية كالبحر الواسع العريض، يضل الكاتب طريقه فى متاهاته البعيدة، وهى مسئولية ضخمة تحتاج إلى استعداد خاص وموهبة خاصة و«نفس طويل»! وقد لا تكون جميعها ضمن مكوناتى الفنية، فلا تسعفنى قدراتى العاجزة عند الكتابة، فأعجز عن تقديم عمل له من القيمة الفنية مثل ما استطعت أن أحقق فى القصة القصيرة أو فى تمثيلية الإذاعة».

وهو يمضى بعد صفحات من الحديث فى تواضع شديد أو فى كبرياء أشد، كى يقارن بين كتابة الرواية وكتابة القصة القصيرة فيقول:

«بعد فراغى من كتابة ثلاثة فصول منها أحسست إحساسا غريبا، إحساس جراح ناشئ شق بمبضعه بطن مريض، ثم فوجئ بحيرة غريبة فيما يفعل بعد أن اختلط الأمر عليه لحداثة عهده بالجراحة! إنها أول جراحة يقوم بها، ووجد نفسه فجأة أمام خيارين:

«أن يخيط الجرح ويعيد إقفاله التماساً للسلامة،فيضمن إنقاذ حياة المريض، وليترك علم الجراحة لمن هيئ له بأكثر منه».

«أو يستمـر فى العبث بأحشاء المريض دون أن يضمن سـلامة النهاية فتكون الكارثة!».

«وقفـزت أمامى العبارة الـساذجة التى يرددها كـتّاب القصة القصـيرة بصفة دائمة:

«إن كتابة القصة القصيرة أصعب بكثير من كتابة الرواية الطويلة».

«أحسـسـت أن هذه العبارة ليست إلا أكـذوبة كبيرة يغطى بهـا كتّاب القصة القصيرة عجزهم عن كتـابة الرواية بعد أن اكتشفت بصورة عملية أنه لا وجـه للمقـارنة قط بين الجهـد الذى تستـأديه كل منهمـا ليـبذله الكاتب فى أثناء الكتابة أكثر من هذا».

«أحسست أيضا أن الفرق بين كتابة القـصة القصيرة وبين كتابة الرواية كالفرق بين اثنين:

«رجل يبنى حجـرة على مساحـة من الأرض مجرد حجـرة واحدة: أربعةجدران يعلوها سقف، وهذا كل شىء، ورجل يبنى عـمارة ضخمة من عشرة طوابق أو أكثر».

«الغرفة لن تحتاج فى أثناء بنائها لأكـثر من أن يترك فى أحد جدرانها فـراغا لـباب يدخل إليـهـا أو يخـرج منهـا، ثم نافذة فـى جدار آخـر للتهوية».

«أما العـمارة فلها أكـثر من باب، ولهـا مدخل وممـرات وسلم عام وسلم للخدمـة ولها مـصاعد، وهى تتـألف من طوابق متـعددة، وبكل

طابق أكثر من وحدة سكنية، ولـكل وحدة من هذه الوحدات ضروراتها من حـجرات وشـرفات وأسـقف ونوافـذ وحمـامـات ومغـاسل ومطاه (ودورات) للمياه بأدواتها الصحية!».

«والعمارة لها مناور ومناشر ـ جمع منشور ومنشر إن صحت الكلمتان لغويا ـ والغرفة يستطيع أن يضيئها بانيها بمصباح (بتـرولى) صغير، أما العمارة فـيجب أن تجهز بالكهرباء والمـياه الجارية، وأن توصل أنابيب مصارفها بالمجارى العامة، ومئات من هذه الضرورات التى لا يمكن أن تقوم بدونها أى عمارة كبيرة أو صغيرة، لتصبح صالحة للسكنى!».

«وكما يرسم المهندس المعمـارى كل هذا فى تصميمه «على الورق» لأية عمارة يقوم على بنائها، كذلك الروائى عندما يتصدى لكتابة الرواية عليه ألا يغفل شيـئا مما يقوم عليه بناء الرواية التى يكتبـها من تفاصيل مهما دق شأنهـا، فمن مجموع هذه التفاصيل الصـغيرة يكتمل العمل، وبقدر الإحاطة بهذه التفاصيل ترتفع القيمة الفنية والأدبية للعمل الروائى ككل».

□

وفى موضع ثـالث يأتى على لسان فـتحى أبو الفضل أو علـى قلمه تشبيه بديع آخر فى سياق حديثه عن تأهبه للرواية وكتابتها، يقول فيه:

«. . . ويجب ألا أمسك القلم لأخط كلمة واحدة فيها قبل أن أحس أننى امتلأت بها، فهذه الفتـرة فى تقديرى تماثل فترة الحمل عند المرأة لابد لها من أن تستكمل شـهورها التسعة، لتـجد نفسها وبرغـمها تضع المولود المرتقب».

(١٢)

أما الجانب الإنسانى الرائع الذى أود أن ألفت نظر القارئ إليه فى ثنايا هذه التجربة فهو أن الإنسان فى كاتبها قد تمكن من أن يثأر لنفسه من الحياة الأدبية بأفضل وسيلة، فهو يروى لنا قصة صدور روايته الأولى«الثوب الضيق» على مرحلتين بينهما عشر سنوات، نبدأ بحديثه عن المرة الأولى ونؤجل حديثه عن المرة الثانية حتى ننتهى من قراءة حديثه عن المرة الأولى، فى المرة الأولى امتدح الرواية المستشار الثقافى لدار النشر الكبرى، وأشاد بها عضوا لجنة القراءة وقرظاها كل التقريظ، لكنهم تقاعسوا عن نشرها بسبب ما زعموا وجوده فيها من أدب مكشوف:

«. . . بدأت كتابة «الثوب الضيق»، واستغرقتنى كتابتها أربعة عشر شهراً، «الثوب الضيق» لم تستغرق كتابتها هذه الفترة الطويلة، لأننى تعثرت فى كتابتها، أو لأننى لاقيت بعض الصعوبات فى أثناء هذه الكتابة، لكنها كانت عملاً كبيراً طويلاً».

«لم أحس وأنا أكتبها المعاناة الشديدة المضنية التى لاقيتها وأنا أكتب «امرأة أحبت» فى المرتين، فالقلم بين أصابعى كان أكثر طواعية، والكلمة كانت أسهل، والجملة أو العبارة كانت أبرع وأحلى وأسرع وأجمل، واكتشفت بسهولة أن تحررى من أسر التجربة الأولى هو الذى ساعدنى وأعاننى على كل هذا».

«لم أكن أسيراً لإطار معين أتخبط بين أضلاعه الأربعة فى حيرة تكاد تذهب بصوابى، وأسرعت بها مكتوبة على الآلة الكاتبة فى نحو

أربعمائة صفحة من مساحة (الفولسكاب) إلى إحدى دور النشر الكبرى، وقدمتها إلى مستشارها الثقافى مقترحا أن تتولى الدار طبعها ونشرها، فتقبلها الرجل منى شاكرا وطلب منى أن عود إليه بعد نحو أسبوعين لأعرف قراره».

«زرته بعد انقضاء الأسبوعين فتلقانى بحفاوة بالغة وترحيب شديد، وقال لى بصوت ودود:

«تفضل».

وأمر لى بشراب مرطب وقهوة وبدأ حديثه معى فوراً:

«إنك ربطتنى خلف مكتبى هذا ست ساعات متوالية استغرقتها قراءة روايتك الممتعة».

«هزنى ما سمعت من الرجل الذى راح يتم حديثه:

«لم أتناول الغداء يومها فى بيتى كالعادة، فاتصلت «بالهانم» وقلت لها: إننى سأتناول غدائى فى مكتبى فإن بين يدى ما لا أستطيع الفكاك منه!».

«أجبته على استحياء شديد:

«أشكر لك هذه التحية ياسيدى».

«وعاد الرجل يقول:

«القصة جميلة ومثيرة وممتعة، ولا يستطيع من يبدأ قراءتها أن يتركها لأى سبب لكى يعود إليها بعد ذلك، والرأى ليس رأيى وحدى، لكنه رأى عضوى لجنة القراءة أيضا وهما من أعلام الرواية فى مصر، ولست فى حل من اطلاعك على التقرير الذى كتباه عنها، لكنى أستطيع أن ألخصه لك فى كلمات، جاء فى تقريرهما:

«إن «الثوب الضيق» عمل روائى كبير محترم لكاتب بارع يملك ناصية القلم والتعبير، كما أنه يملك كل الأدوات الفنية التى لا غنى لأى كاتب روائى عنها، وهو متمكن من لغته الروائية خاصة، ومن اللغة العربية بصفة عامة فى غير افتعال أو تعمل، وهو لهذا يتميز بأسلوب سهل رشيق سريع يلهث القارئ خلفه كلمة بكلمة!».

«لكنها ـ برغم كل ذلك وبرغم صورها المشرفة ومميزاتها التى لا يتسع لذكرها هذا التقرير ـ فإن الدار بما لها من مكانة مرموقة فى الأقطار العربية كافة يتعذر عليها طبع هذه الرواية إلا إذا حذف منها مؤلفها ما تحتويه بعض صفحاتها مما يسمونه بالأدب المكشوف! وهذا برغم عدم اعتراضنا الشخصى على هذه العبارات، بل ورضائنا عنها رضاء كاملا، ولكن رضاءنا ـ بكل أسف ـ شىء، والمسئولية الملقاة على عواتقنا نحو الدار شىء آخر».

«وانتهى المستشار الثقافى ـ عند هذا الحد ـ من تلخيص التقرير الذى كتبته لجنة القراءة عن «الثوب الضيق».

«وأحسست أننى أغوص فى مقعدى، وأننى أستحم فى عرق بارد غزير، ولكنى سرعان ما ملكت رباطة جأشى، وبدأت مع المستشار

الثقافى مناقشة هادئة حول مـا يسميه البعض بالأدب المكشوف، وقلت له: إنه ليس هناك أدب مكشوف وأدب غير مكشوف! فالأدب هو الأدب ولا يخرج عن صفتين: أدب جيد وأدب ردىء!».

«ابتسم الرجل وهو يقول لى:

«أنا معك، وأنـا أكثر منك أسـفا لهـذه الفقرة التى وردت فـى نهاية التقريـر لأنها ستحرم الدار طبـع عمل روائى جميل كهـذا العمل إلا إذا قبلت أن تحذف منه ما طلبوا حذفه».

«قلت له فى هدوء ودون أى انفعال:

«لا أستطيع أن أحذف كلمة واحدة!».

«أجابنى مسرعاً مؤيداً:

«وأنا فى صفك، فى جانبك وإلا شاه العمل وفقد روعته وبهره».

«وحملت الظرف الذى يضم الرواية، وودعت المستشار الثقافى لدار النشر الكبيرة، وانصرفت مؤكدا له شكرى الذى يعجزنى التعبير عنه».

«وصحبنى حتى باب مكتبه، وكانت آخر عبارة قالها لى:

«أرجوك. . لا تدع رغـبتك فى سرعـة نشر الرواية تغلبك، فـتوافق على أن تحذف منها كلمة واحدة، فهى ـ كما قرأتها ـ عمل فريد».

«أجبـته ـ وأنا أحاول إخفـاء إحساسى بالخيـبة والمرارة فى ابتسـامة شاحبة:

«ثق من أن هذا لن يكون، فإما أن تنشر الرواية كما هى، أو لا نتشر البتة».

«استعدوا، أرجوكم، لما سأقوله لكم فى السطور القليلة الآتية وتأملوه معى جيداً:

«دخت السبع دوخات» واغفروا لى التعبير الدارج، لكى أجد الناشر الذى يرحب بروايتى وينشرها، فبعد أن ارتفعت بى الفرحة إلى ذرى الأمل عندما عرفت رأى لجنة القراءة فى دار النشر الكبيرة، هبطت بى خيبة الرجاء إلى السفح المذل المهين!».

«فالجميع . . أقصد جميع الناشرين اعتذروا بأدب شديد، ودون أن يقرأوها، من عدم طبعها بحجة أن الورق قد ارتفعت أسعاره بشكل مخيف، وأنهم لا يطبعون إلا الكتب العلمية الجامعية اضطراراً».

«وفى النهاية يقول محدثى . . أعنى الطابع الناشر:

«نحن على استعداد لطبعها لك، لكن على نفقتك الخاصة وأن تتولى توزيعها!».

«ولم يقبل واحد منهم مجرد قراءتها».

«أليس من الجائز ـ إذا قرأها ـ أن يدرك بحاسته المهنية ـ حاسة الطابع الناشر التاجر ـ أن فى طبعها ونشرها كتابا كسبا ماديا كبيرا له؟».

«وأحسست بالمرارة تملؤنى، تملأ فمى وقلبى ونفسى ورئتى وكل مسام جلدى حتى أطراف أصابعى! أحسست بالمرارة تملأ الهواء الذى

أتنفسه، وسمعت نفسى تقول لى: ستطيع الرواية يوما، أنت تعيب على الناشئين تعجلهم نشر ما يكتبون، فما الفرق بينك إذن وبينهم؟».

«وألقيت بالظرف الذى يضم الرواية فى أحد أدراج مكتبى وأغلقته بالمفتاح، وأحسست بدمعة تفر من عينى!».

(١٣)

أما فيما بعد عشر سنوات فقد مضت الأمور فى الاتجاه الآخر الذى انتهى بصدور الرواية، وهنا يجد الإنسان فى فتحى أبو الفضل سعادته بذكر كل التفاصيل وكل الأسماء التى شاركت فى رؤية عمله النور، وهو ممتن بلاشك لكل هؤلاء الذين ساعدوه على ظهور روايته، لكنه بالإضافة إلى الامتنان حفى بأن يظهر أنه قادر على إجادة التعبير عن هذا الامتنان بذكر أسمائهم وصفاتهم النبيلة، وذلك فى مقابل موقفه من أصحاب الحكم على عمله فى المرة الأولى، وهو كما رأينا حريص على أن يتجاهل ذكر أسماء الأولين الذين لم يساعدوا روايته على الظهور، على حين نراه حفيا برواية كل الأسماء والتفصيلات التى مهدت لظهور رواياته فى سلسلة دار الكتاب الجديد، ولنقرأ له ما يرويه حيث يقول:

«يوم لن أنساه

«الثلاثون من شهر سبتمبر عام ١٩٦٩ وقد ضمتنى جلسة مع الأستاذ أسامة عبد العزيز عيسى المحامى الذى كان ضمن الجهاز المشرف على سلسلة كتب «دار الكتاب الجديد» التى تصدر عن دار الأهرام كتابا (شهريا) أنيقا يضم رواية مترجمة من عيون الأدب الغربى.

سألت أسامة : لم لا تصدر دار الكتاب الجديد روايات مصرية مؤلفة للروائيين المصريين إلى جانب ما تنشر من المترجمات بصفة دائمة، والمقطوع به أن الرواية المصرية أقرب بكل تأكيد إلى نفس القارئ من الرواية المترجمة، ومن ثم فإن الإقبال على شرائها سيكون أكثر ؟

أجابنى بهدوء شديد: الفكرة لم تخطر لنا كما أن أحدا لم يقترحها علينا !

ثم بعد لحظة صمت سمعته يسألنى: لم لا تقدم هذا الاقتراح مكتوبا؟

ولم ينتظر إجابتى، بل قدم لى ورقة بيضاء وقلما من أقلام الحبر الجاف وهو يدعونى لكتابة هذا الاقتراح، ليعرضه على اللجنة المختصة فى اليوم نفسه فكتبت الاقتراح فى ثلاثة أسطر قصيرة وقدمته له.

الأحداث تجرى بسرعة مذهلة لم أعتدها من قبل.

فبعد ثمان وأربعين ساعة على وجه التحديد: أى فى اليوم الثانى من أكتوبر ـ اتصل بى الأستاذ أسامة عبد العزيز ليقول لى:

ـ اللجنة وافقت على اقتراحك، ولا ينقصها إلا الرواية المصرية المؤلفة الممتازة التى نبدأ بها هذه الخطوة، فهل نجد عندك مثل هذه الرواية ؟ أجبته من فورى: بأننى سأقدم له ـ فى اليوم التالى ـ عملا روائيا أرجو أن يليق بسلسلة دار الكتاب الجديد.

وفى اليوم التالى قدمت له «الثوب الضيق» فـأخبرنى بأنه سيتصل بى بمجرد فراغ أعضاء اللجنة من قراءتها، لينهى لى ما تقرر بشأنها.

الأحداث تجرى ـ لم تزل ـ بالسرعة المذهلة نفسها.

فلم تكد تمـضى اثنتان وسبـعون سـاعة ـ أى فى اليـوم السادس من أكتـوبر ـ حتى استـدعانى التليفـون فوق مكتـبى بجريدة الأهرام، وإذا بأسامة عـبد العزيز على الطرف الآخر ليقـول لى: إن اللجنة قد فرغت من قـراءة (الثوب الضـيق) وإنها أجـازتهـا بإجمـاع الآراء، وإنه ينتظر «تشريفى» بالطابق العاشر من مبنى الأهرام لتوقيع العقد لكى تبدأ مطبعة الأهرام التجارية عملية الطبع فورا».

(١٤)

ومن حق القارئ كما أنه من حق صـاحب هذه المذكرات أن نقدم له مسلسل نجاح صاحب المذكرات فى مجال الرواية على نحو ما قدمه هو فى عجالة سريعة شأن النجاح الذى يأتى سريعا متدافعا:

«لم أهدر يوما واحدا ليضيع منى هباء».

«بدأت من فورى كتابة روايتى الثانية «الجحيم فى الجنة» وانتهيت من كتابتها فى نحو عشرة شهـور، وقدمتها إلى دار الشعب، وكانت «الثوب الضيق» قد ظهرت خلال هذه الشهور العشرة فى جزأين:

«الجزء الأول صـدر فى الأول من مارس عام ١٩٧٠ ونفدت نسـخه جميعهـا (خمسة وعشرون ألف نسخة) قبل أن يـصدر الجزء الثانى بعد

شهر واحد، أى فى الأول من أبريل، وفى خلال ثلاثة أسابيع نفدت كل النسخ المطبوعة من الجـزء الثانى وعددها مساو ـ بطبيـعة الحال ـ لعدد نسخ الجزء الأول!».

«وظهرت «الجـحيم فى الجنة» وفـاق نجاحهـا كل التوقـعات برغم ارتفاع ثمنها لأنها كانت فى أربعمائة صفحة من القطع الكبير».

«وأحسست بمسئوليتى أكثر»

«فقد بدأت أتلقى عددا من رسائل القـراء من مختلف البلاد العربية، ولم أكن أملك أكـثر من دمـوع الفرح تفيض بـها عيناى وأنـا أقرأ هذه الرسائل التى ضاعفت من إحساسى بالمسئولية».

«ولم تخل رسـالة من هذه الرسائـل ـ وكانت بالمـئات ـ من سـؤال يوجهه لى صاحب كل رسالة:

«من أين يسـتطيع أن يحصل على الجـزء الثانى من «الثـوب الضيق» لأنه فاته؟ أو من أين يستطيع أن يحصل على الرواية كاملة بجزأيها؟».

«ولكن الأمر كان قد خرج من يدى بعد أن نفدت الرواية من السوق، ولم يعد منها إلى مخازن الأهرام نسخة واحدة؟».

«خمســون ألف كتاب مجموع نســخ الجزأين من الرواية، نفدت فى أسابيع».

. . . .

«وضاعفت جهدى، فاعتقلت نفسى فى بيتى الصغير، أو «الفترينة» كما يسميه الصديق [أنيس منصور] الذى كان يضيف إلى هذه التسمية ـ دائما ـ تمنياته المخلصة بأن يرانى أسكن ـ يوما ـ «دكانا» ولا يطمع فيقول شقة، فالدكان ـ على الأقل ـ أوسع قليلا من الفترينة!».

«أقول: اعتقلت نفسى فى بيتى الصغير، فكنت أجلس إلى مكتبى ما لا يقل عن عشر ساعات كل يوم، فكتبت بعد «الجحيم فى الجنة» «عبد الباقى وبناته» ثم «لا تغسلوا الوحل» وطبعتهما سلسلة كتاب اليوم، ثم «حافية على الشوك» التى نشرتها دار المعارف فى سلسلة «اقرأ» وقد فازت بجائزة الدولة للرواية من المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عن عامى ١٩٧٧ ـ ١٩٨٠، وشرفنى الرئيس السادات بمنحى وسام الدولة للعلوم والفنون من الطبقة الأولى».

«للمرة الألف أحس بضخامة المسئولية التى تضاعف عبؤها على كتفى حيال القارئ الذى أتلقى رسائله (يوميا) بالعشرات، فكتبت بعد «حافية على الشوك» وفوزها بجائزة الدولة، «قلوب فى الغربة» ثم «دموع على ذكرى» وهى أول عمل روائى مصرى يضمه كتاب يحكى قصة هوى عارم ينبت ويترعرع ويزكو تحت خيمة سيرك شعبى!».

«وأتبعت «دموع على ذكرى» التى طبعتها دار الكتاب الجديد (الأهرام) عملا كبيرا يحمل عنوانا كان مثار تساؤل الكثيرين «لكن شيئا ما يبقى» وقد طبعتها دار المعارف فى سلسلة كتب ثقافية».

«بعد «لكن شيئا ما يبقى» نشرت أول مجموعة من القصص القصيرة تحت عنوان «مفتاح فى باب الجنة».

□

ويكاد فتحى أبو الفضل يعترف أنه أصبح بمثابة مصنع لإنتاج الفن القصصى، ولست أنا صاحب هذا التعبير، ولا الأستاذ فتحى أبو الفضل، إنما هو تعبير أحد أعلام الأدب الفرنسى الذى يصور نفسه به حين ذاع صيته وزاد طلب الناشرين على رواياته وقصصه:

«ولم يكن فى نيتى أن أطبع مجموعة قصصية لأن كتابة الرواية قد استغرقتنى فأسرتنى وأسرت قلمى، وأحسست أننى أحقق فيها ذاتى، وأرى بين سطورها نفسى ونفوس من أعرف، فكثير من أبطال ما كتبت ـ نحو عشر روايات ـ تربطنى بهم صداقات كريمة قديمة ترجع إلى عشرات السنين! ولكنى أحببت أن أكرم الكلاب (فى رواية بطلها كلب مع صاحبه الصغير) «سامح» الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره، وهى تجربة غير مسبوقة فى أدبنا الروائى المصرى، دفعنى إلى كتابتها حبى للكلاب حبا لا يقل عن حبى لمن أحبهم من البشر!».

. . . .

«ولكن بعد أن كتبت الرواية وعنوانها «الهانم والكلب وأنا» اكتشفت أنها ليست بالطول الكافى الذى يسمح بطبعها وإصدارها فى كتاب تستقل وحدها به، فأضفت إليها أربع قصص قصيرة هى: «شىء صغير جدا كبير جدا» و«من أوراقى الحزينة» و«رجل وكلب» و«مفتاح فى باب الجنة» وهى القصة الأخيرة فى الكتاب، وقد جعلت عنوانها عنوانه».

(١٥)

ومن الغريب فى هذه المذكرات، وغريبها على كل حال قليل، أن فتحى أبو الفضل يحرص على مهاجمة أرباب الشعر الحر بدون مناسبة،

إلا أن يقرن هجومــه عليهم بهجومه على أصحــاب الأنماط الجديدة من الفن الروائى:

«هذه رحلتى مع الرواية التى بدأتها عام ١٩٣٨ بعد أن كنت قد بدأت كتابة القصة القصــيرة منذ عام ١٩٣٣. أقدم هذه الرحلة لأدباء الشباب، وليس عندى ما أقوله لهم أكثر من أنه لا يوجــد ما يسمى بأدب الشباب وأدب الشيــوخ، فالأدب هو الأدب، ولن يكــون غير أحــد اثنين: أدب جيــد أو أدب ردىء، وكل ما أرجو منهم ألا يتــعجلوا النشر والشــهرة، كما أرجو ألا ينهجوا نهج مَنْ فشلــوا فى قرض الشعر الموزون المقفى، كمــا عرفنا الشــعر منذ أكــثر من ألف سنة، فلجــأوا ـ عجــزا ـ إلى ما يسمونه الشــعر الحر، وهو لا يمت للشعر بصلة، وأن يكتــبوا القصة أو الرواية ـ إذا كتبوا ـ بحيث يفــهم القارئ ما يكتبون بدلا من الجنوح إلى هذه الألغاز والمعميات والتركيبات التى لا يمكن لأى مخلوق غيرهم أن يفهمها، وهم حــتى ـ إذا قاموا بتفسيرها بمختلف مــناهج التفسير ـ فلن تصل كلمة مما يقولون إلى عقول السامعين».

(١٦)

بقى أن نشير إلى أن صــاحب التجربة يضم مجلات الثقــافة والرسالة والرواية ليجعل منهن ثلاث شقيقات يرأس تحريرهن جميعا أحمد حسن الزيات، بينما الأمــر لم يكن كذلك، فقد كــانت الرواية شقيقــة صغرى للرسالة حقيقة، على حين كانت الثقافة أختا أو ابنة عم فحسب.

ومن العجــيب أن بداية أحداث هذه التجربة ترتبط بمــسابقة نظمــتها مجلة من هذه المــجلات الثلاث، ويذكــر الأستاذ فتــحى أبو الفضل أن

المجلة كانت هى مجلة «الثقافة»، وربما أنه يقصد إحدى المجلتين الأخريين «الرسالة» أو «الرواية»، ونحن نعرف أن مجلة الثقافة نشأت عن لجنة الثقافة والترجمة والنشر بعد ما استقل الزيات بالرسالة، وأن أحمد أمين هو الذى كان يتولى تحرير الثقافة، على حين كانت الرواية تصدر مع «الرسالة» التى يرأس تحريرها الأستاذ الزيات. وهكذا يسهل علينا تصحيح ما تقصده رواية الأستاذ فتحى أبو الفضل عن مسابقة تجريها الثقافة برئاسة تحرير أحمد حسن الزيات!

وعل كل الأحوال فقد كان أحمد حسن الزيات وأحمد أمين قمتين عظيمتين، كما كانت الثقافة والرسالة والرواية كذلك قمما متناظرة.

وقد مضى عهد هذه القمم وأصبحنا نعيش فى السفح وعلى الحافة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الباب السادس

شاهدة ربع قرن
مذكرات الأستاذة عايدة الشريف

(١)

قبل أن تنتقل إلى رحمة الله بفترة وجيزة أصدرت السيدة عايدة الشريف كتاباً قيما بعنوان «شاهدة ربع قرن» وقد صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٦ فى ٢٩٦ صفحة، وقد تناولت فيه صاحبته شطرا كبيرا من حياتها بالتسجيل ، وقد نجحت هذه المؤلفة القديرة فى أن تتناول حياتها العقلية دون كل أنواع الحيوات الأخرى التى يقضيها الإنسان فى هذه الدنيا ، وقد ساعدها على ذلك أنها لجأت إلى تكنيك متميز بأن أدارت هذه الحياة حول محاور جميلة يسهل عليها وعلى غيرها إدارة الحديث حولها ، وقد تمثلت هذه المحاور فى أساتذتها الذين تلقت عليهم الفكر الرفيع بطريقة التلقى المباشر ، وهكذا جاءت كتابتها فى كل فصل من فصول هذا الكتاب بمثابة مزيج مدهش فى نسيجه ، فالحب والتقدير والامتنان والإعجاب بشخوص هذا الكتاب لا يقف عند تقدير دورهم فى حياتها وفى حياة الآخرين، ولكنه يمتد مع قلم هذه المؤلفة ليتيح لنا نحن القراء صورة من أروع صور التعلم الذاتى الذى أصبح نادرا فى هذا الزمان ، ذلك أن كتاب عايدة الشريف يأخذ بأيدينا خطوة خطوة وفى نعومة شديدة إلى مناطق الصواب والحق والجمال فى عدد من الأعمال الأدبية والفكرية التى تتداولها أيدينا بدون أن نجد فى أنفسنا القدرة على الوصول بأفهامنا إلى تلك الأحكام الصائبة والدقيقة التى تجعلنا المؤلفة نصل إليها بعد هذا الحوار الجميل الممتع الذى تحدث به نفسها أمامنا على هذا الورق ،

أو بعد هذا الحوار الثرى الذى كانت المؤلفة قد أتمته مع نفسها وهى ترتقى مدارج الفكر والنقد والأدب الرفيع برعاية أساتذتها الكبار محمد مندور (المعلم الأب) ومحمود شاكر (شيخ العربية) ويحيى حقى (العاشق لعروبة مصر) ومحمد عودة (الذى تنبأ بالنهوض من كبوة النكسة) وعبد الرحمن صدقى (شاعر الحياة الأول) وأخيرا وليس آخرا (نجيب محفوظ) الذى قضت فى صحبته الوظيفية فترات مثمرة وممتدة، وهكذا نجحت هذه السيدة فى أن تجد وعاء متميزاً تبلور فيه حياتها فى مجال الفكر والثقافة.

وهى تحدثنا فى فصول أخرى من هذا الكتاب عن أمل دنقل وصلاح عبد الصبور وناجى العلى فتضيف إلى حديثها الأول عن أساتذتها حديثا آخر يفيض بالمشاعر النبيلة تجاه أولئك الذين جسدوا هذه المشاعر فى ضمير أمتنا المعاصر.

(٢)

قرأت هذا الكتاب على مدى شهر متصل فكنت أتهيأ للإقبال على صفحاته بكثير من غسيل المخ من الأفكار السابقة عن هؤلاء المعاصرين الذين اختصتهم عايدة الشريف بهذه الفصول التى جعلها هذا الكتاب متصلة ومتواصلة ، وكنت أشعر بلذة عجيبة وأنا أقرأ هذا الكتاب كتلك اللذة التى كنت أشعر بها عند مشاهدتى للفيلم العالمى الجميل «صوت الموسيقى» حين كانت الدراما تتفاعل وتبلغ الذروة لحظة بعد لحظة بينما الفيلم يواصل التعليم فإذا بالمشاهد يكاد يحار (مع أنه يعرف الحقيقة) هل تطغى الدراما على التعليم؟ أم إنه كان هدفا لهذه الدراما

الجميلة التى عبـرت باقتدار عن عواطف مشبوبة بشيء كـثير من الإتقان والاستبطان فى ذات الوقت ، وعلى هذا النحو كنت أقـرأ كتاب السيدة عايدة الشريف وأنا أحسد نفسى على هذه المتـعة المفاجئة التى أتيح لها أن تتسلل إلى النفس المثـقلة كى تعيننا على تقبل الحياة نفـسها بكل ما فيها من صعوبات ومتاعب.

أما الذين أتيح لهـم أن يتعرفـوا على الشخصـية الآسرة لمـؤلفة هذا الكتاب ولو لمرة واحدة فسوف تتضاعف سعادتهم بهذا الكتاب كما كان الحظ قد أتاح لى الفرصـة لمشاهدة صوت الموسيقـى فى أحد القصور التى تم تصوير الفيلم فيها فى مدينة سالزبورج.

وأستطيع أن أزعم أن كل دراسـة لأدبنا العربى المعاصـر لابد أن تمر بقـراءة هذا الكتاب ، وربـما لا يكون من الصـعب على الدارسـين أن يأخـذوا منه فـقـرات ينقلونهـا هنا أو هناك ضـمن دراسـاتهم ، ولكن الأصعب من هذا أن تصدر دراساتهم فى هذا الأدب من دون أن تستفيد من هذا الضوء القـوى الذى بددت به عايدة الشـريف كثيـرا من مناطق الغموض فى أدبنا العربى المعـاصر ، كأنى أريد أن أقول إن هذا الكتاب قد لا يمـثل مرجـعا أمام الدراسـات الأدبية المـعاصرة ، ولكنـه عندما يعرف الأكاديميون طريقـه سيمثل مصباحا هاديا وأساسيـا لفهم كثير من مجريات الأمور التى جرت فى حياتنا الفكرية المتواصلة ، وسوف يجد القارئ نفسه معجبا أشد الإعجاب بهذه الآراء الجريئة التى أقدمت عليها عايدة الشريف فى كـثير من فقرات هذا الكتاب الجمـيل الثرى بالحكمة والتجربة والخبرة والفهم العميق والتعبير الدقيق.

(٣)

فى مقدمة هذا الكتاب تروى عايدة الشريف أن كثيرين كانوا ينصحونها أن تكتب وألا تكتفى بوظيفة المتابعة ، ولعل ما يبلور حديثها الطويل عن هذا المعنى هذه الفقرة التى تقول فيها :

«فالمخرج الشهير صلاح أبو سيف وكنت أعمل معه إبان كان رئيسا لمؤسسة السينما بادرنى يوما بقوله: غير معقول ألا يكون لك إنتاج ما إلى الآن ، وكنا فى عام ١٩٦٣ . . ثم أردف: إن كثيرين من الناس عندما يرونك فى العروض الخاصة وقد تحلق بك الزملاء يسألوننى: من تكون؟ هل أجيبهم بأنك مجرد عضو لجنة قراءة بالمؤسسة أو كاتبة برامج تليفزيونية؟ أشعر وأنا أجيب بأن هذا لا يعبر عنك. . فاعملى شيئا ولو سيئا نعرفك به ونلتمس لك العذر حتى عن رداءته».

وتعترف عايدة الشريف أنه كان لوجودها فى الكويت لفترة من الوقت بعيدا عن القاهرة فضل كبير فى كتابة فصول هذا الكتاب وهى تقول:

«الخط الثانى أو العامل الثانى على الأصح هو وجودى فى الكويت، كواحة فئت تحت ظلالها من وهج القاهرة وجذبت ذيولى السابحة فى بحورها ثم تفاعل حنينى إليها على انسياب شريط ذكرياتى عنها بمهل وروية جعلتنى - ربما - ألتقط الكثير من تفاصيلها التى كانت ستختفى عنى وأنا فى دوامتها قريبة من شخوصها وأحداثها. وعلى ذلك فإنى أستطيع القول: إنه لولا هذا الهدوء والاغتراب فى الكويت ما استطعت إنجاز ما أقدمه من شهادات».

وتشير عايدة الشريف إلى الذخيرة التى مكنتها من أن تنجز هذا الكتاب الحافل على هذا النحو فتقول:

«لولا هذه الذخيرة المتراكمة داخلى.. ما وجدت ما أنجزه مع غيره فى هذه الهدأة.. وأشعر وأنا أجمعها الآن ببرود شديد للتمايز بين الفترة الدافئة التى كتبت عنها وعن شخصياتها والصقيع والزمهرير الحادث الآن من بوار هذه المجالات وهمودها عن التألق والسموق فى الأيام الخوالى ، أتحسر على ذكريات الفترة القصيرة للاستراحة ما بين فصول مسرحيات المسرح القومى فى الستينات.. حواراتها الخصبة وشخصياتها المتألقة ودفء التواصل بين أجيال المثقفين.. أتحسر على ساعات المتعة والترويح بمتحف الفن الحديث لسماع الموسيقى أو لندوة فى الدار أو حتى لاستعارة كتاب».

وتصف السيدة عايدة الشريف الفترة التى كونت فيها ثقافتها وصفاً جميلا وغير مسبوق حين تقول إنها كانت فترة «استحلاب»:

«نعم.. كان زمن استحلاب رحيق الثقافات والفنون العظيمة بلا مقابل، وبلا عنت.. فالمبنى نفسه كان ذا تاريخ عريق ، فقد كان بيت هدى شعراوى إحدى زعيمات ثورة ١٩١٩.. كان يهيأ لك أن الموسيقى إذ تصدح تتخلل جنبات المبنى الأرابيسك فتجعلك على وشك أن تخلع قدميك تأدبا واحتراما لهذا الترف الفنى.. ولا أحدثك عن الحديقة التى كانت تحيط بالقصر بجمالها وبكارتها وألقها وسحرها المفقود فى أيامنا هذه. لقد هدم هذا الصرح الثقافى دون سبب معلوم أو ملح ، بدليل أن أرضه على جادة شارع شمبليون المطل على ميدان

التحرير مـازالت يبابا. . . ويهيأ لى أنهم سيـقيمون مكانها جراجـا عاما للسـيارات كـمـا فعـلوا بأرض دار الأوبرا القديـمة ، وأخـاف إذا يئس المسئولون فى علاج النشع الحادث بالمسرح القومى ـ لأنه كما قيل لى من زمن بعيـد قد صمـمه مهندسه على أن يلامـس بدرومه مياه بحـيرة الأزبكية فـيحدث الرنـين النقى المطلوب للمسـرح ، ومن المؤسف أن شركة عثـمان أحمد عثمـان عندما أخذت على عاتقها إصـلاح المسرح ردمت هذه البحيرة مما جـعل المياه ترشح فى المبانى ـ أخاف أن يلقى المسرح القومى مصيـر الأوبرا ومتحف الفن الحديث حتى بات علينا أن نقول لأولادنا من بعدنا. . . لتعلموا أن كل جـراج عمومى كان يوما ما صرحـا ثقافـيا وأن السـيارات بدلا من أن تكون رفـيقـة الفن طردته بل قضت عليه».

هكذا نجد عايـدة الشريف بذكاء شديد، لايبدو إلا وكـأنه استطراد، تستغل الفرصة التى واتتها لتبلور حـاضر ومستقبل الثقافة فى بلادنا على هذا النحو الموحى ، ومع أنها قد تكون اختزلت القضية والمعانى تماما إلا أنها فى الواقع قد أجادت استغلال المفارقة لعقد المقارنة.

(٤)

وترجع عايدة الشريف جزءا من ثقافتـها وهوايتها للأدب والثقافة إلى وجودها ونشأتها فى حى الروضة، وهى تحدثنا عن هذا الحى وملامحه فى الفترة التى نشأت فيها، وعن أولئك الذين عاشوا فى هذا الحى:

«. . . وربما كـان لنشأتى كابنة عـالم أزهرى فى حى تراثى وجذاب وهو جزيرة الروضة. . دور بعيـد الغور فى معرفتى المبكرة بفـئة الكتبة

وما هى الكتابة ، فأبناء علماء الازهر يتاح لهم غالبا - بحكم انشغال عائلاتهم - المروق إلى مجالات بعيدة عن هؤلاء الآباء وعوالمهم الخاصة المحافظة والمحدودة ،كما أن جزيرة الروضة كانت منثورة بكثير من لآلئ الكتاب والمشاهير الذين كنت أراهم فى الحقيقة ثم أرى صورهم وأعمالهم فى الصحافة ، ففى شارع واحد من جزيرة الروضة هو (الإخشيد) كان يسكن شيخ النقاد محمد مندور. . والشاعر عبد الرحمن صدقى وأخوه عبد الرزاق وزير الزراعة السابق ، وكمال الطويل الموسيقار المعروف كما كان يسكن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد نفس عمارته. . وفى منزل واحد أيضا كان يسكن الأستاذان موسى حقى حيث كان يتردد عليه أخوه الأكبر يحيى حقى - مع الأستاذ كمال الطويل - وأمام منزلهما كان يسكن عالم وكاتب سورى لاجئ سياسى هو خير الدين الزركلى».

ثم تنتقل عايدة الشريف من الشخصيات إلى الأحداث التى شهدها الحى وإلى الشخصيات التى عبرت فى مشوار حياتها بالحى أو مارست نوعا من أنواع النشاط فيه حيث تقول:

«وعلى الرصيف المواجه اغتيل عبد القادر طه أحد الوطنيين المصريين قبل ثورة ١٩٥٢ بيد الحرس الحديدى الموالى للقصر الملكى ، وعلى ناصية هذا الشارع نفسه سكن أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة ، وعلى مقربة منه كانت فيلا قوت القلوب الدمرداشية التى سكنها الأخوان مصطفى وعلى أمين وإلى جوارها معمل سينمائى كان يتردد عليه الفنان أنور وجدى وزوجته الفنانة ليلى مراد وإلى جوار منزلنا فى

شارع الفتح كانت تقبع مطبعة تصـدر مجلة إسلامية بهذا الاسم - وكان يحلو لى أن اراقب صاحـبها وهو ثائر سـورى لاجئ هو العالم الجليل مـحب الدين الخطيب وهو يرص الـحروف ، وكـذلك الشـاعـر على الجارم.. ثم أحد أشقاء المؤرخ الشهـير عبد الرحمن الرافعى ، واللواء على نجيب شقيق الرئيس الأسبق مـحمد نجيب ، والكاتب الثائر خالد محمد خالد».

وتصل عايدة الشـريف بعد هذا كله إلى الاعتراف الجمـيل بأنها هى وأخوتهـا كانوا حـريصين قدر مـا يستطيـعون على إيجاد صـلة ما بين الأحداث التى شهدها الوطن وبين جزيرة الروضة فتقول:

«. . . وكنت وأخوتى نجـتهد فى إيجـاد صلة ما بين أحداث مـصر وجزيرة الروضـة أو لماذا كانت حادثة كـوبرى عباس التى انتـهت بغرق طلبة الجامـعة فى قاع النيل.. أو أن الضبع الاسود بطل الفـالوجة كان من ساكنيهـا ، وأن جمال عبد الناصـر عاش فترة من حـياته عند عائلة النشـار ، أو أن السادات خطب منهـا زوجتـه.. بل إن تعمـير جـزيرة الروضة بدأ فى أعـقاب نجاة سعـد باشا من حادثة (!!!) حيث اخـتار الاستـشفاء فى أجـوائها الخـلابة الهادئة ممـا جذب صـفوة زائريه إلى جمالها فا ستوطنوها».

□

وتعود عـايدة الشريف بعـد فقرة أخـرى إلى الحديث عن اعـتزازها بتاريخ جزيرة الروضة فتقول :

«. . . أما عبق التاريخ منذ الخليقة فيكمن فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة ، وقد أغلق على حديقة واسعة تسمى حديقة المناسترلى ـ وهو أحد وزراء أسرة محمد على باشا - هذه الحديقة التى جعلنى سحرها وألقها أتصورها محور الكون كله ، بل إننى ما قرأت فى التاريخ بعصوره إلا وتصورته فى هذا المكان ، وفيها مقياس النيل الذى قيل لنا إنه بنى من أيام الفراعنة والذى كانت نشرة الأخبار فى طفولتى وصباى تنتهى بتعبير : «وقد سجل مقياس النيل بالروضة ارتفاع النيل كذا. . .» فكنا نهلل نحن أطفال العائلة ، وكأن أسماءنا تذاع على الملأ. ومن الغريب أنه بجانب هذا المقياس نبتت أشجار أفقية على النيل قيل لنا ونحن صغار إن هذه الأشجار هى سلالات الأشجار التى رسا عليها مهد موسى عليه السلام عندما ألقت به أمه فى اليم. وعندما سألت والدى إن كانت هذه الواقعة خرافة ، أكد حقيقتها مستشهدا بالآية (٥١) من سورة (الزخرف) ﴿ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون﴾ إذ إن تفسير موقع الأنهار التى كانت تجرى من تحت قدمى فرعون يشى بمكان قصره وهى فى الغالب جزيرة. . ومن المصادفات العجيبة أن تكتشف آثار فرعونية عند تجديد بناء مقياس النيل خلال الأربعينات!».

. . . .

«إن هذا كله مجرد لمحة خاطفة لهذه الحديقة الفواحة وقصر المناسترلى العظيم. . وإذا كان وصفها الدقيق قد احتل فصلا من كتاب «وصف مصر» الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فإن وصف جزيرة

الروضة ممزوجا بمشاعـرى تجاهها قد يحتل مجلدا، ومن الغريب أننى وأنا صغيرة كنت أرسم بعضا من مشاهدها وعوالمها غيابيا ثم أسرح فى روائى عبقرى يسجل عبقها وشخوصها الأسطورية التى تعيش فيها ، ألا يحتمل أن هذه الذكريات والأحداث والشخصيات - وإن كانت قبل ربع قرن إيحاء استمر يواتينى من مجـتمعى ويلقى بشرارة الفن فى نفسى فلا تزال تتـوهج كلما مرّ الـزمن واسترجـعت ذكريات النشـأة والتكوين. . ربما!».

(٥)

وتلتـفت عـايدة الشـريف إلى أن تحـدثنا عن العـوامل التى شكلت قرارها فى اخـتيار نوع الدراسـة الجامعيـة التى كان عليهـا أن تتلقاها، ونحن نقرأ ما ترويه فنجده ينبئ عن سـعة الأفق لدى الجيل الذى كانت تنتمى إليه ، كما نكتشف من هذا الذى ترويه أن قنـوات الثقافة المتاحة كانت متشابكة وكفيلة بأن تقود الواحدة منها إلى الأخرى:

«. . . على أننى عندما حـصلت على الثانوية العـامة وقفت صـعوبة ركـوب مواصلتـين إلى كلية الفـنون حائلا دون التـحاقى بهـا. . فكان انعطافى الأوحـد، إلى الأدب لا سيـما وقـد عثـرت فى أحد مـقالات الدكتـور مندور على اسم معـهد النقـد المسرحـى. . . وعرفت أن هذا المعهد على بعـد خطوات من منزلى. . فقد كانت الدراسة فيـه مسائية بمدرسة عمرو بن العاص الثانوية بحى مصر القديمة الذى لا يفصلنا عنه سوى فرع النيل الشـرقى الصغير! ولأنى كنت أريد أن أعـوض ما فاتنى من التحصيل بالنسـبة لعمرى ولظروف تأخرى عن أقرانى فـقد التحقت

بكلية الحقوق صباحا وذلك أن أخى الكبير يدرس بها. . فقلت لنفسى أذهب مع أخى صباحا. . أو يشرح لى ما درسه فى السنة الفائتة. . وفى المساء أذهب إلى المعهد».

وتصل عايدة الشريف إلى لفت النظر إلى المفارقة فى اختيارها لنوع دراستها:

«. . . ومن الغريب أن الدراسة بكلية الحقوق هى التى ثبتت قدمى فى الأدب أكثر من المعهد المسائى الذى يدرس الأدب. . كيف؟ إن عثورى على قصة نجيب محفوظ التى أرشدتنى إلى أعماله كلها. . ثم تتبعى لكتابات الدكتور مندور. . كانا محض إشراقة معرضة للانطفاء والتلاشى. . قد تجعلنى محض قارئة. . ولكن صادفنى ما أعطى هذه الإشراقة البقاء والاستمرار. . ألا وهى مجلة الآداب البيروتية. . . فقد كانت لى زميلة سبقتنى إلى الالتحاق بكلية الآداب وهى الممثلة المسرحية التى اكتفت بإلاذاعة «عايدة عبد الجواد». . وكانت قد اطلعت زملاءها المتمرسين بالأدب على قصصى التى كتبتها بتشجيع مدرس اللغة العربية ، وعندما صحبتنى إلى كليتها عرفتنى بزميليها وحيد النقاش وبهاء طاهر. ووجدت الأول قد كتب على حاشيتها عدة ملاحظات. . بينما كتب لى الثانى قائمة بالكتب والمجلات التى ينبغى أن أقرأها وعلى رأسها مجلة الآداب. وعندما أمدنى وحيد بأعداد منها كدت أطير فرحا بهذه الهبة الثمينة».

وتعترف عايدة الشريف بفضل مجلة «الآداب» البيروتية فى تكوين ثقافتها على نحو واضح المعالم محدد القسمات:

«وأستطيع الآن أن أقول بشكل عام بغض النظر عن الإشراقات العابرة التى ذكرتها إن الفن والفكر كانا قبل تعرفى على مجلة الآداب عالما غائم الملامح غير محدد الأبعاد. فقد كنت فى هذه الآونة - فترة البحث عن الذات - شديدة التعلق بما كتبه مشاهير الكتاب الرومانسيين الذين يجيدون صنع الأحلام التى تشبع الاحتياجات النفسية والروحية لفتاة مصرية فى سنى حينئذ مثل محمد عبد الحليم عبد الله والمنفلوطى وغيرهما.. وكان الخروج من هذه الأحلام والكشف عن مدى هزالها فى مواجهة واقع حافل بالحياة يتطلبان الكثير من الوعى وفتح الأعين والجهد الشاق فى طريق تغييره إلى الأفضل والأجمل، أذكر جيدا اليوم الذى عدت بهذه المجلة إلى منزلى وتصفحتها.. فرجتنى رجا شديدا موادها وكتابها.. حتى لأستطيع القول إن هذه المجلة انتقلت بى من تحت ظلال الزيزفون إلى ظلام فى الظهر، فقطعت حديثى مع ماجدولين لتوقفنى وجها لوجه أمام تشيكوف بقسوة تصويره ودقته، وتحرر سيمون دو بوفوار، وشجاعة سارتر.. وكولون وبلسون ولوركا!».

(٦)

ولعل أكثر أجزاء هذه المذكرات شجاعة هى أكثر أجزائها علاقة بتاريخنا السياسى المصرى المعاصر، فقد تميزت عايدة الشريف بشجاعة واضحة وجسارة متناهية وهى تتولى تسليط الأضواء على علاقة سارتر وسيمون دو بوفوار بثالثهما لانزمان الذى رافقهما فى رحلتهما الشهيرة إلى القاهرة وسوف نكتفى فى هذه المدارسة بإيراد عدد من الفقرات

الكفيلة بأن تصور للقارئ بعض مـلامح حديث عايدة الشريف عن هذه الزيارة ، ونحن حين نفعل هذا لا نتزيد ، ولا نبتـعد عن موضوع كتابنا ولا عن تجـربة عايدة الشـريف نفسـها ، ذلك أن حـديثها عـن سارتر وزيارته وعلاقتـه بسيمون وعـلاقتهما بلانزمـان لا يخرج أبداً عن نطاق التجربة الذاتية الواضحـة وقد كانت فى مقتبل شبابها مـهمومة إلى أبعد حدود الهـم والاهتمام بهـذا الذى يجرى على الـساحة من طبـل عالى الصوت وزمـر حاد النغـمات دون أن يكون هناك داع لـهذا أو ذاك، بل أكثر من هذا فإنها تكتشف وتكشف لنا عن حـقيقة مهمة وهى أننا أوذينا من حيث كنـا ننتظر الفائدة ، وهى تعكس فـيما ترويـه عن ملامح هذه التجـربة إحساسـاتها بالإحبـاط الشديد. ولا ينبغى لنا أن نقـرأ ما روته صاحبة المذكـرات من دون أن نشير إلى أن فى ذلك الوقت كانت عايدة الشريف شأنها شأن أترابها تجد الحقائق والأمور وهى تُصور وتُقدم على غير حقيـقتها مع أن الحقيقة كـانت موجودة فيما كتبتـه سيمون دو فوار نفسهـا فى مذكراتها وسـوف نقدم للقارئ النصـوص التى كتبتـها عايدة الشريف لتنبهنا اليوم إلى ما ينبغى لنا أن ننتبه إليه فى كل يوم حين نظلم أنفسنا من حـيث لاندرى ، ولعـلى لا أبالغ إذا قلت إن فـصـول هذا الكتـاب التى تحدثت عن سـارتر وزيارته تمثل أهمـية خاصـة ، ولعل عايدة الشريف نفـسها أحست بهذا حين أقـحمت سارتر بين كل هؤلاء المصريين أو الـعرب الذين تحدثت عنهم ، بل إن غلاف الكتـاب نفسة قد وضع سـارتر فى مكانة متـميزة ومع أنى لا أدرى هـل كان هذا بناء على توجيه المـؤلفة أم أن مصمم الغلاف قـد وجد هذا الوضع ضروريا بعدما قرأ الكتاب. . . إلا أن هذا لايغير من حقيقة الأمر التى تطالعنا بها

سطور الكتاب بعد غلافه وقبل فهرسه ، وتتناول عايدة الشريف بكل دقة طبيعة العلاقات بين هذا الثلاثى الذى زار مصر ، وتوثق كلامها بأن تنقل من كتاب دوبوفوار نفسها «قوة الأشياء» كل تفاصيل حياتها مع سارتر ومع كل الذين أحبتهم من «الجرين» الأمريكى إلى «لانزمان» اليهودى الشيوعى وتصل بنا إلى قول سيمون دوبوفوار إن لانزمان كانت له اليد الطولى فى تحويل فكر سارتر إلى اليسار المتطرف».

ولاتجد عايدة الشريف حرجا فى أن تعترف فى كتابها بمدى المبالغة التى أعطيناها فى مصر لقيمة وجدوى زيارة سارتر لبلادنا ومن ذلك قولها:

«..... تميزت [أى الزيارة] بمبالغات لن نعرف مداها فى نفس الرجل وعلى صعيد الواقع الا إذا عقدنا مقارنتين : أولا مضاهاتها بكل الزيارات التى قام بها سارتر نفسه إلى أمريكا والاتحاد السوفيتى والصين وكوبا وغيرها حيث عومل فيها كمفكر وجودى محدود القدرة على اتخاذ رأى فى كل قضية معاصرة.. ثم مقارنتها ثانيا بالدعوات التى لباها قبله كثير من زعماء ومفكرى العالم لمصر مثل خروشوف ، وشوان لاى ونيكسون وغيرهم.. أو مثل جاك بيرك وجارودى وبرنارد شو وسمورست موم ، وتوينبى.. حيث عاملناهم كزعماء وفلاسفة ومفكرين فى حيزهم الطبيعى.. عندئذ سنعرف مدى المبالغة التى صحبت هذه الزيارة».

وتعيد عايدة الشريف التعبير عن هذا المعنى بعبارات أكثر وضوحا وبأمثلة محددة تستدعيها من واقع ما حدث فتقول:

«. . . لقد استقبلته مصر ليس كمفكر وإنما كعدة منظمات دولية ملزمة لآرائها وعدم نقضها أو إبرامها ، رفعناه إلى أعلى الآفاق. . وعلقنا عليه أعظم الآمال. . وللأسف أعطى هذا الترحيب المبالغ فيه تأثيرا عكسيا ليس على غرض الدعوة فقط وإنما على الرجل نفسه حيث كان وجهه يغيض حينا وينفرج بالسخرية أحيانا أخرى لدرجة أنه حينما كان السيد على السمان مدير وكالة أنباء الشرق الاوسط فى باريس والذى صحبه إلى القاهرة خلال الزيارة ، يقرأ له مانشتات الصحف الحمراء التى نعتته بالبطل والرائد والحر والإنسان يصيخ السمع ، وبينما على السمان يترجم له قصيدة محمد إبراهيم أبو سنة ، أو موضوعات العدد الممتاز الذى أصدرته مجلة الفكر المعاصر عن أعماله ومواقفه ومقدمة الأستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد التى كتبها تحت عنوان «سارتر ضمير العصر» ، كان سارتر يتساءل بعدها عجبا قائلا : «إلى هذا الحد أمثل أنا ضمير العصر كله. . أنا لست حتى ضمير نفسى». . ثم يطلب ضاحكا من كلود لانزمان أن يتحمل عنه بعض هذه الألقاب».

هكذا تصل عايدة الشريف إلى تقرير أن الرجل كان يسخر من كل هذا الذى وجده!!

. . . .

وترى عايدة الشريف أن سارتر لم يكن عدوانيا تجاهنا وإنما كان متواضعاً، لكننا نحن الذين أسأنا التقدير، وهى تقدم أدلتها على دعواها هذه من خلال تصوير دقيق لخطوات استقبال سارتر واستضافته فتقول:

«. . . ولكى نقدر أن سخريات هذا الرجل لم تكن تنم عن طبيعة عدوانية ، وإنما عن تواضع أصيل. . لنتتبع رحلته وكلماته من بدايتها. فقد أرسلت له طيارة خاصة تقله من باريس إلى القاهرة. . وقبل نزوله منها شكر الطاقم على حسن ضيافتهم ، ثم نزل إلى المطار ليجد مؤتمرا صحفيا ، يعلن فيه أنه لم يأت ليعلم الناس أسس الوجودية ، وإنما جاء بهدف التعرف على الطريق العربى للاشتراكية ، ثم تنطلق القافلة الكبيرة إلى فندق شبرد. . فيجد احتفالا أكثر بهجة. . ومندوبة من الجوازات والجنسية حضرت خصيصا لاستلام جوازات السفر وعمل الإقامة والمغادرة ، وبعد منتصف الليل يقرر سارتر وهو يمسك بذراع الأستاذ توفيق الحكيم أن ينطلق إلى الخارج. . وأمام النيل الذى بهر سارتر بمراكبه البدائية والحديثة الرائحة الغادية يفيض الحكيم فى الحديث عن حياته فى باريس ، ومحاسنها ، ونهرى السين والدون. وفى الصباح تنطلق القافلة إلى مدينة الفنون بالهرم. . ومن فوق مسرح معهد الفنون المسرحية يشاهد فصلا من مسرحية جزيرة العبيد للمسرحى الفرنسى ماريفو. . وتحية له يقدمون مشهدا آخر من مسرحيته الشهيرة «جلسة سرية» ويصفق لهم سارتر وهو يقول : لقد أبهجتمونى. . وإننى أتمنى لكم كل توفيق ونجاح ، ثم يجوس أبهاء المعهد وسط المكتبات وقد رصعها المستقبلون بأعماله الفرنسية والمترجمة ، أكثر من مرة ، فمسرحية جلسة سرية التى شاهدها قد ترجمت مرة تحت عنوان «رفعت الجلسة» وثانية «الجحيم هم الآخرون» ، وثالثة «من ثقب الباب» ويلفت لانزمان نظره إلى ذاك بقوله لقد أجريت كل هذه الترجمات بدون علمك ، فينقبض وجه سارتر ، ثم تنطلق القافلة إلى منطقة الحرانية حيث

يتـجمع فـى هذا الحى كثـيـر من الفنانين. . وكل منهم قـد جـعل له مرسـما. وحـين وصل إلى منسج الفنان ويصا واصف. . وقـفت أرملة الفنان الراحل حبيب جورجى حمـاة ويصا واصف تشرح للزوار الطريقة التلقائـية فى إبداع هذا النوع من الكليم الذى غـزت شهرتـه أوربا كلها ودبجتـه أنامل الفلاحين والفلاحـات. . يتهلل سارتر ويتـدخل لانزمان ليوقف هذا الانبهار. . فيذكرهم بأعمال اليهودى مارك شاجال».

. . . .

وفى موضع آخر نرى صاحبة هذه المذكرات وهى تلخص لنا مواقف مصر غـير المنصفة لنفسهـا من نفسها حين تسـمح بسهولة بل وترحب بزيارة مَنْ لايسـتحق هذه الزيارة وهـى تقصـد بهذا الوصف الشـخص الثالث فى زيارة سارتر وصديقته، وكان هذا الثالث هو الصديق الحقيقى للسيدة الصديقة: لانزمان. . وذلك حيث تقول:

«وفى مرة بدر منى التعبير الذى كان قد شاع بوصف الرفقة. . من أن الطريق إلى سارتر يمـر عبر سـيمون ، والطريق إلى سـيمون يمر عـبر لانزمان ، بل إنى سلكت هذا الـطريق لتوجيه الـدعوة لهم إلى لبنان. . حيث قابـلت لانزمان الذى بدا حزينا أول اللقاء. . ثم اعـتذر بأن زيارته للقاهرة مع سارتر وسيـمون لم تجىء فى الوقت المناسب له. لأن أخته قد قتلت نفسـها من أسبوع عقب أزمة عاطفية طاغـية وكنت قد عرفت الواقـعة بـعد ذلك من الأسـتـاذ على السـمان وهى أنهـا كـانت تحب المجاهد الجزائرى «هـ. . الإبراهيمى» ولكن بعـد الاستقلال وقيام هذه الشخصـية بدور مهم وحسـاس حال دون الارتباط بها زواجـا ، ثم قال

وكأنه ينفض شيئا عن نفسه : «على كل فهذه كانت حياتها وهى حرة فى إنهائها»، استفهمت منه هل هى ايفلين الجميلة حمراء الشعر التى كتبت عنها سيمون وقالت إنها قامت بدور استيل فى «الجحيم هم الآخرون» فأكد لى أنها هى ، ثم تعجب من معرفتى الكاملة لحياة هذه الشخصيات ، فكانت مناسبة أن ألمح بمعرفتى بعلاقته بسيمون ، فقال : إن ذلك كان من زمن ولا أظنه مستمرا الآن ، ثم وعدنى بأنه سوف يعرض أمر الدعوة لزيارة لبنان على سارتر . . وفى المؤتمر الصحفى لختام الزيارة والذى لم يحضره لانزمان لمرضه ، قالت لى السيدة ليليان أرقش زوجة الأستاذ لطفى الخولى إن لانزمان يطلبنى ، وعندما صعدت وجدت مدام سيمون قد سبقتنى ، بل أمسكتنى بكلتا يديها المدهون أظافرهما بلون فاقع من الطلاء وألجمتنى الدهشة ومنعتنى من الدخول ، حتى تدخل هى وترى ما إذا كان قد استعد لهذا اللقاء أم لا ، وأدخلتنى حجرتها وكان العمال قد حملوا منها الحقائب ، فوجدت المؤلفات المصرية المهداة لهم وبينها مؤلفات عثمان أمين ، والديدى ، ومجاهد عبد المنعم مجاهد ، ذلك أنها كانت مكتوبة بالعربية وهم لا يقرءونها . . وعندما دخلت على لانزمان . . واجهته على نحو لطيف وغير مباشر بمعرفتى أن علاقتهما مستمرة فلا عليه أن يحزن»

(٧)

وإذا كان لنا أن نترك الآن هذا الجانب الشجى من حديث عايدة الشريف عن أخطائنا فى زيارة سارتر وصديقته وصديقها فالأولى بنا أن نمضى مع المؤلفة فى تقديرها لأدباء الفكر والنقد فى ثقافتنا العربية .

وهذه هي عايدة الشريف تتحدث فى كثير من مواضع كتابها عن الناقد العظيم الدكتور محمد مندور فضلا عن أنها قد أفردت له فصلا خاصا ، وهى تضعه فى طليعة الذين أخذوا بيدها وأثروا فيها وفى تكوينها ومن الكثير جدا الذى كتبته هذه السيدة ثناء على هذا الرجل سوف نكتفى بأن نقطتف هذه الفقرات التى قد تنبئنا عن مجمل تصورها لمكانته فى حياتها الفكرية والأدبية حيث تقول :

« . . . ذلك أن مندور كان من أكابر المفكرين وكان فى الوقت نفسه من الأدباء الحقيقيين مع أنه لم يركب متن الخيال قط ، ومن النادر فى أيامنا هذه أن يجمع الرجل فى شخصه بين القابليات الأدبية والأهليات العلمية ، وحتى لو كشف لى المجهر عن شخصية لها ثقافة مندور ونفاذ بصيرته فمن المستحيل أن تعثر على مَنْ يجمع بينهما وبين مشاعر الأبوة الخالصة ، وفيض أحاسيسه الحانية وأستاذيته المطبوعة أيضا . »

. . . .

وتستطرد السيدة عايدة الشريف فى الحديث عن أبوة الدكتور مندور حتى تصل إلى القول بأنها فقدت فيه الأب الثانى:

« . . . أشعر الآن وأنا أكتب عنه أنه بحق «بابا مندور» المعلم المطبوع وقبلَ كل شىء فقد صحبته ثمانى سنوات من العمر الجميل سواء فى معهد الفنون المسرحية كتلميذة وبعدها كعارفة لفضله ومكانته . . أقرأ له وأكتب ما يمليه علىّ بعد أن شقت عليه هذه المهمة لضعف بصره بعد العملية التى أجريت له فى رأسه ، وقد قرأت له

خلال تلك السنوات مـا أخصب عقلى ووجـدانى. . أما الكتـابة له فلا أستطيع وصف مدى مـا استفدته منها ، ويوم فقـدته فقدت كل أمل لى فى أن أكون ابنة للمرة الثانية».

وفى توزيع لحنى مختـلف تعيد السيدة عـايدة الشريف الحديث عن فضل مندور عليـها، وكيف أنهـا أفادت من مفردات عظمـته ومن آرائه الكاشفة فى معاصريه:

«ولقـد دخلت إلى عالم الأضـواء الفكرية والفنيـة من باب مندور ، كان خطوى من خطوه. . وكانت نظرتى مسـتمدة من نظرته الناقدة حينا ، الحانيـة فى أغلب الأحوال ، ولقد أفضى بى هذا البـاب إلى طريقين أولهما ترجمت من خلاله أمـام عينى المفردات التى بلورت العظمة فى شخصيته ، وثانيهما : وهى أننى عندما وقعت عينى على أساطين الفكر والفن الذين كنت أقـرأ عنهم وأنبهـر بهم لم أر الهالات المضـيئـة فوق رؤوسهـم ، ذلك أن آراء مندور الكاشفة عن ماهيـتهم قد بددت انبهارى المبهم بهـم. فأخذت أحجامـهم حيزها الصحيح ، كـان الواحد منهم يصافح «مندور» فأجده يكلمه بعتـاب عابس. . والآخر يتصبب أسفا. . وعندما يتركنا خجلا ألتفت إلى بابا أسـاله : لماذا كلمته بهذا الفتور. . ولماذا كان الآخـر يدارى خجله هكذا. . فيفـيض إلى بأن هذا الشخص ضعيف أمام الموقف الفلانى وكذا وكيت.»

وتصل عايدة الشريف إلى القول بأن حياتها، وليس أفكارها فحسب، قد تغيرت بفـضل تلمذتها المباشرة للدكتـور محمد مندور، وهى ترى أن التحول فى مـسار تطلعاتها للدراسـة قد تم بسبب مقـال من مقالات هذا الناقد العظيم:

«لم تتغير أفكارى عن المفكرين بفضل مندور ، بل تغيرت حياتى كذلك ، ذلك أننى منذ وعيت. . واختبرت قدراتى خلال دراستى الابتدائية والثانوية ، وأنا أنوى المضى فى طريق الفن وتشكيله والالتحاق بكلية الفنون الجميلة. وفى يوم من عام ١٩٥٦ قرأت فى جريدة الشعب نقدا بقلم الدكتور محمد مندور لأحد الكتب التى كنت قد فرغت من قراءتها توا. . فبهرت بآرائه. . وقلت لنفسى : آه لو ملكت هذه الثقافة الموسوعية وهذه القدرة الفذة على التعبير لكتبت نفس المقال وبترتيب الكلمات أيضا ، ومن يومها تتبعت مقالاته وكتبه هنا وهناك. . وبدأت أحاديثه الإذاعية بجانب مقالاته تخلق لى عالما جديدا. . وتعرفنى أشياء لم أكن قد سمعت بها من قبل. . وفى إحدى مقالاته وجدته يكتب بحنو وعطف عن رسائل تلامذته فى «معهد النقد» فعرفت أن هناك معهداً بهذا الاسم وشغلتنى فكرة الالتحاق به».

(٨)

وإذا كان لنا أن نتأمل فيما نتدارسه من هذه المذكرات بعض العناصر الشعورية المتدفقة فى تجربة صاحبتها فى كتابتها للتجربة الذاتية فلا بد أن نشير على القارئ أن يتأمل معنا ما تحتويه هذه الفقرة التى تصور بها السيدة عايدة الشريف حقيقة شعورها ساعة أن عرفت بوفاة أستاذها مندور:

«. . . قضيت معه جزءا من مساء تلك الليلة الأخيرة. . . وغافلته منفلتة حتى أتركه يستريح. . وما إن وصلت إلى بيت صديقة تجاورنى أبثها شجنى وأساى على ما أستشفه من خطورة حالة بابا مندور. . إلا

ووجدت أخى الصغير صالح شريف المخرج بالتلفزيون يلحق بى ليخبرنى بالكارثة التى وقعت بغروب شمس حياة بابا مندور ، ولا أعرف كيف جريت فى شوارع الروضة حتى وصلت إلى منزله ولا كيف انهرت على جثمانه باكية. . كل مَنْ حولى يشدنى بعيدا لأن التعبير بهذه الطريقة لا يجدى».

وعند هذا الحد تصل عايدة الشريف إلى ذروة من ذرى التعبير فتقول:

«وأقامونى لأستند إلى جدار ، وما زلت بجانب هذا الجدار إلى يومنا هذا».

وهى تفيض فى شرح هذا المعنى حيث تقول:

«لقد كان مندور وحده هو الذى يبدد أحرج مشكلاتى ويجعلنى أرى النجوم ، وتشرق فى نفسى الآمال. . كنت أهرع إليه كلما أظلمت الدنيا فى وجهى وأحاطت بى مشكلات الحياة وإخال أنها تخنقنى كاخطبوط وبعد لحظات مع بابا مندور، لا أكثر، يكون الهم قد انزاح عنى».

(٩)

وكما تعبر السيدة عايدة الشريف عن حبها للدكتور محمد مندور فإنها تعبر عن حبها للأستاذ محمود شاكر ونحن نرى مذكراتها حافلة بالتعبير عن تقديرها لسجايا الأستاذ شاكر الحميدة وقد كانت تراها بمثابة حديقة من السمات الفاضلة لا حدود لها، وهى تحكى اللحظات التى سبقت معرفتها المباشرة به فتقول:

«. . . كل هذا جعلنى أشفق على نفسى من لقائه. . فقد قال لى المفكر الجزائرى مالك بن نبى : إنه لو وجد الجاحظ الآن - لترك مكانه عن طيب خاطر لمحمود شاكر. . ولخص لى الدكتور عبد الله الطيب المفكر السودانى رأيه فى ثلاث كلمات «إنه ضمير لعروبة مصر» وأكد لى العالم السعودى عبد الله عسيلان : «إنه إرث العدالة الإسلامية المعاصرة وإنه القلعة والنبراس الذى يهتدى به».

وبهذه الشهادات الثلاث تبلور السيدة عايدة الشريف رأى ثلاثة أقطاب بل ثلاثة اتجاهات من اتجاهات الفكر العربى المعاصر فى شخصية الأستاذ محمود شاكر، وقد كانت هذه الاتجاهات تجمع على الاعتراف لهذا الرجل العظيم بالفضل.

وتروى السيدة عايدة الشريف كثيرا من التفصيلات التى لا يعرفها الناس عن الأستاذ محمود شاكر، ومن ضمن هذا الذى ترويه بعض الحديث عن فترات شبابه وجهاده وصموده وتضحيته من أجل آرائه ومن هذا ما ترويه عن بعض تفاصيل قصة خلاف للشيخ شاكر وطه حسين وقصة نصيحة المستشرق نيلينو له فتقول:

«ولم يفلح فى إعادته إليها [أى إلى الجامعة] أستاذه المستشرق نيلينو. . الذى كان يعرف كم هو على حق. . بل إنه رد عليه : نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ومخاطرتى بمستقبلى، ولكنى لم أكن كما وصفت إلا لشىء واحد، هو أن معنى الجامعة فى نفسى قد أصبح أنقاضا وركاما فإن استطعت أن تعيد لى البناء كما كان فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه. . ووجم نيلينو وهو يردد بدهشة :

ما هذه الجـرأة. . مـاذا يعنى هذا الفـتى وتحـولت إلى شـاكـر أنظار الموجودين فى مـجلس والده. . وأحس بنظرات عيونهم تنفذ كـالسهام فى جميع أعضائه. . ومـا هى إلا لحظات إلا وعلق الشيخ عبد الوهاب النجار [وتحرص عايدة الشريف على أن تصفه بأنه «مؤلف كتاب قصص الأنبياء» رحـمه الله الذى استغله أغلب كتاب العـربية] بقوله : «إن هذا الفتى كـان فى رأسه أربعـة وعشرون برجـا ، فطارت ولم يبق إلا برج واحد ، عسى أن ينتفع به يوما ما ، فيسترد الأبراج التى طارت!».

(١٠)

أما الأديب الكبـير الأستـاذ يحيى حـقى فقد خـصصت له صاحـبة التجربة فـصلين من كتابها، ونحن نراها تختـصه بدراسة طويلة عن أثر «المـصرية» فى عـقليـته «التـركيـة» ، وهى تقـارن بين أعمـاله الأولى وأفكاره، ولا تجد أى حرج فى أن تتناول بكثير من التـفاصيل حياته مع زوجته الأجنبيـة، وهى تكلف نفسها كثيراً ممـا لا تطيق فى سبيل إتمام دراستها أو تأملها على نحو يخرج بنتائج بحثية، ولكنها فى الواقع كانت تتحـمل هذا العنت الذى كلفتـه نفسـها لأنها تنطلق من حـبهـا الشديد لمصريتها وكـأنها تعبر بطريقة غير واعية عن إيمـانها الشديد بأهمية هذا الانتماء إلى كل ما فى مصر وهى لذلك تقـتبس لنا من يحيى حقى قوله فى نهاية سيرته الذاتية:

«. . . وأثناء إقامتى الطويلة فى أوربا كان أكثـر ما أحن إليه فى مصر هو أحياؤها الشعبية القديمة التـى أسمع فى أزقتها كلمات مثل «أجرنها» «يادلعادى» وأعـايش تلك الروح الشعبـية الحلوة الصـابرة التى حاولت تصويرها فى «قنديل أم هاشم».

وتصل عايدة الشريف إلى أن «تسقط» على يحيى حقى بعض أحكامه هو نفسه على الشقيقين محمد ومحمود تيمور:

«فى النهاية نستطيع القول إن يحيى حقى هو مصداق لقولته هو نفسه فى محمد تيمور ومحمود تيمور من بعده: «وإنك لتحس أن نزعة تيمور فى الأدب مبعثها حب صادق لمصر وأهلها ، وليس من الغريب - كما يظن لأول وهلة - أن الذى يضمر هذا الحب كله ، ويحمل لواء المناداة بالأدب المصرى الصميم ، فتى لا تجـرى فى عروقه دماء مصرية ، بل دماؤه خليط من التركية والكردية والإغريقية ، فهى ظاهرة طبيعية مألوفة عند الغيـر كما عندنا فى أن العـرق الحديث أكثر العـروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتبـاها لفضائله وجماله ، لذلك تراهما حـريصين أشد الحرص على تأكيد خبرتهما بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن ، وليست العبرة أن يولد الكاتب فى أحضان هذه الطبقات ، بل فى قدرته على الإحساس بها ، وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى».

(١١)

وتعترف عايدة الشريف فى كتابهـا بتباين مشاعرها وآرائها فى الأعلام الذين عاشت بالقـرب منهم ، بل هى تتعجب أحيـانا من البدايات التى شهدتها بعض هذه العلاقات.

ومن ذلك ما ترويه عن مشاعرها أو انطباعاتها تجاه صداقتها للأستاذ محمد عودة وهى تشخص هذه الصداقة - بعد تأمل بالطبع - على أنها نوع مما يعـرفه علماء النفس بأنه عُصاب القـدر وهى تفصل القول فى هذا المعنى فتقول:

«. . . وجدتنى فجاة صديقة له ، لا أعرف كيف ، ولا أين تعرفت به لأول مرة ، كل ما أستطيع تحديده ، هو أن معرفتى به كانت على عكس معرفتى بالشخصيات الثلاث السابقة التى سعيت إليها. . أى أننى عرفت شخصيته، [ثم] تتبعت كتاباته بعد ذلك».

وتصل السيدة عايدة الشريف من هذا الذى ترويه إلى أن تستنتج ما تحكم به على قوة وطغيان شخصية الأستاذ محمد عودة فتقول:

«وهذا يدلنا على أن شخصية عودة من الشخصيات التى تقف طاغية حتى فوق كتبها. . حتى إننى أتساءل أحيانا. . إن كانت هذه الصداقة قد تمت بالصدفة الحسنة أم وفقا لملاحظات علماء النفس حول «عقدة عصاب القدر» تلك التى تهيئها شخصية الإنسان الذى تجذبه الظروف لمعرفة أناس يحبهم ويألف صحبتهم. . ويتنافر مع آخرين فى العمل أو عبر الصداقة لا يحبهم ولا يتوافق مع صفاتهم فلا أمل مع الأيام للألفة معهم!».

وتعبر عايدة الشريف عن هذا المعنى الذى أضافته معرفة محمد عودة إلى شخصيتها فتصفه بأنه أضاف إليها الالتفات اليومى المستمر إلى القضايا السياسية والثقافية، فضلاً عن معرفة مباشرة بكثير من أقطاب الحياة:

«وإذا كانت معرفتى بكل ممن سعيت إليهم قد أكدت فى نفسى أو أضافت شيئا أو أشياء فإن ما أضافه محمد عودة إلى نفسى هو الالتفات اليومى المستمر إلى القضايا السياسية والثقافية عامة ، وخاصة فى وطننا

العربى ، والتعرف على بعض - إن لم يكن كل أو أهم - شخوصها وقياداتها عن قرب أو عن بعد من خلاله ، أى عن طريق حديثه وكتاباته ومنتدياته أو صحبته. . ذلك أن من خصال عودة أن يعرف أصدقاءه وتلاميذه بعضهم ببعض ، فإذا دعوته يوما. . فإنه يوم تلبية الدعوة يصطحب معه بعض الرفقة ، فتجد نفسك قد استقبلت معه ضيفا ، يصبح عزيزا عليك بعد ذلك ، ويوما يصطحبك هو ، فتصير أنت هذا الضيف ، على أنك ستصبح عزيزا على المضيف بعد ذلك ، إلى جانب كل ذلك ، معرفتى الشخصية - من خلاله - بالمراسلين الأجانب المهتمين بالشئون العربية والذين يزورون القاهرة ويعتبرون عودة حجتهم».

وتؤكد عايدة الشريف على دور الأستاذ عودة فى إقحامها عالم السياسة بقولها:

«حتى إننى بحق استطيع القول إن عودة كان الوتر الموسيقى الرنان الذى أيقظ فى نفسى اقتحام حلبة السياسة بكل مباهجها ومآسيها فى الستينات».

وفيما بعد خمس صفحات تصف عايدة الشريف مشاعرها تجاه الأستاذ محمد عودة وشخصيته الدرامية بطريقة أخرى فتقول:

«كان عودة وما يزال همزة الوصل بين مجالس الأفاضل والصعاليك على السواء. . بالمعنى الجيد لهذه الكلمة. . وكان محط آذانهم وأبصارهم ، بل كان هو البوصلة التى تحرك الحوار يمينا ويسارا. أقوال

وأفعال وأوصاف تنم عن تلك الشخصية الدرامية التى يملكها عودة بين جنبيه».

وهى تعدد قدرة شخصية الأستاذ عودة على جمع المتنافضات فتقول:

«فإذا كانت لكل كاتب سمة مميزة ، فإن كل السمات المتناقضة بين الأبيض والأسود هى ميزات عودة ، وتستطيع أن تقول عنه وأنت مرتاح البال ، إنه كان إيجابيا وسلبيا فى آن واحد ، ثائر وفوضوى ، متواضع ومتكبر ، كريم وبخيل ، لاه وجاد ، علمانى وغيبى . . إلى جانب كونه مخلصا وغادراً حسب الظروف!».

(١٢)

ونأتى إلى بعض الأحاديث والأحكام العابرة التى تدلنا بها السيدة عايدة الشريف على مواطن العظمة والتفوق فى بعض شخصياتنا الفكرية المعاصرة.

أما جمال حمدان فإن عايدة الشريف تكتب عنه ما سمعت لا ما لمست من اللقاء به ، لأنها لم تلتق به ولكنها وجدت فيما يبدو أن صدور هذا الكتاب بدون الحديث عن جمال حمدان مع إعزازها الشديد له لا يليق فكان أن ضمت إلى هذا الكتاب فصلا عن انطباعاتها عنه.

أما حسن فتحى المعمارى العظيم فإنه يحظى بفقرات طويلة من التقدير لشخصيته وعبقريته وعلمه ، وهى من أعظم الفقرات التى كتبت

عنه مع أن كل ماكتب عن هذا الرجل يعكس عظمته اللامتناهية وإذا كان ولابد من أن أؤثر فقرة من فقرات عايدة الشريف عنه بالنقل فى هذا الكتاب فإنى أفضل هذه الفقرة التى تتحدث فيها عايدة الشريف عن حوار دار بينها وبين المهندس العظيم عن معنى أو فكرة جدة «القديم»:

«الحديث مع حسن فتحى يجرى مباشرة وبلا مداورة.. لكنه لا يفقد الهدوء والروية أبدا.. فعندما تلتقط عينه جامع السلطان حسن من شرفة منزله ينتقل بالحديث سريعا قائلا: تأملى! إنه أقدم بكثير من جامع الرفاعى المواجه له.. ولكن ألا تلاحظين جدة القديم. وقدم الحديث الذى يُرمم كل سنوات.. وهنا يتدفق قائلا: إن جامع السلطان حسن مثلا روعى فى اختيار أحجار بنائه توجه كل صخرة منها ومكانها السابق فى الجبل الذى قطعت منه وموقعها من الشمس والهواء والمطر. إن الصخرة التى اقتطعت من جبل شرقى لابد أن يأخذ نفس اتجاهها السابق عند عملية البناء.. والتى اقتطعت من جبل غربى أو جنوبى أو شمالى، لابد أن يكون لها نفس الاتجاه، لأن الصخرة التى يضعها البناء نحو المشرق.. فلو أنه عاندها ووجهها نحو المغرب لغضبت وغادرها رواءها وخلودها.. وهكذا تعدى كل حجرة صويحباتها فيبلى البناءويتداعى خلال فترة أقصر من عمره الافتراضى!».

«هذه هى الفلسفة والحكمة التى انتهى إليها القدماء.. لذلك بقيت الأهرامات والآثار، ولذلك تبقى الآثار إذا انتقلت من مكانها الذى نشأت فيه.. وهكذا كانت عملية نقل معابد «أبو سنبل» و«فيلة» على نفس هذا النسق، ألم تذهبى إلى متحف اللوفر، إنهم نقلوا طقس مصر

إلى الجناح الذى تقبع فيه آثارنا. . إن جـو ميدان الكونكورد الفسيح هو الذى أبقى المسلة المصرية فيـه. . وسيبـقى كل شىء فى الحـياة إذا روعيت معـه طبيعة تكوينه الأولى، وامـتحنت أيضا خصـائصها. . هل تعرفين أن كل حـجرة فى الهرم قد امتحـنت بالحقن قبل أن توضع فى مكانهـا؟ ذلك أن التكلس يحـدث أحيـانا فـوق أسطح رخوة كـأسطح الثمرة. . ومن ثم تكون هذه الصخرة مهمـا مرّ عليها من حقب معرضة للانحناء. . هذا هو سر المسلة الفرعونية الناقـصة بالأقصر القائمة على الأرض بالعرض!».

«إن للكائنات آية. . فـالذى يتـخيله الناس جـمـادا مرتبط بوشـائج سـحرية مع الخـلائق الأخرى مـن شمس وحـر، وقمـر وبرد، وهواء وعواصف ورطوبة، إنهم يتـحاورون بلغة الطبـيعة والفطرة المبـثوثة فى الحياة. . وحين يتـحاور مع هذه العناصر الملتحمـة إنسان غير درب. . يجسد ما فى ذهنه بعيدا عن معرفة أسرارها. . تجد هذه العناصر وكأنها تعامله بطريقة عبر التآكل والانهيار».

«لقد نشأت الفنون فى أول الأمر كمحاولة لمحاكاة الواقع وخدمة مَنْ يعيشون فـيه، ولا مانع من أن تعمل هذه المحاكـاة على تحسين الواقع لكى يبدو أكثر جمالا ممـا هو عليه. . لم تكن هذه المحاكاة ترفا وإنما جزء لا يتجزأ من ذات الجماعة والفرد. . لقد أجاد الفنان القديم محاكاة واقعه لأنه كان ممتثلا للطبيعة!».

«ثم يلتفت حـسن فتحى يواجهـنى بوجهه الشامخ الأصـيل الملامح ويواجهنى قائلا:

«إننا عندما نشاهد هذه المحاكاة الآن نخالها إبداعا من عنديات الفنان، فى حين أن هذا الإبداع ليس إلا من قبيل التجويد فى الصيغة.. وما نخاله إبداعا وبيانا كان عند الفنان القديم صيغة وتقريرا».

(١٣)

وفى حديثها عن أمل دنقل الذى زاملها فترة من الزمان نقرأ كثيرا من الأضواء التى تلقيها عايدة الشريف على شخصية هذا الشاعر القدير وهى تورد قصة اكتشاف الشبه بينه وبين إخناتون:

«... أتذكر أن حدثا مهما جعل أملا نجما سينمائيا ، وذلك عندما اختاره المخرج الجاد الراحل شادى عبد السلام ليقوم بدور أمنحتب الرابع أحد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، والذى غير اسمه فى السنة السادسة من حكمه ليكون «اخناتون» أو الأفق المسرور ، فقلت لأمل هنيئا لك النجومية ، فقال : بشفافية ، وأين ميزانية هذا الفيلم الضخم ، ألا تلاحظين أنه لم يخترنى إلا لكونى فنانا بلا تحقيق».

«وقد صدقت نبوءة أمل فى أن الفيلم لن يرى النور ، ولن تنعكس على ملامحه أضواء السينما ، إلا أن كاميرات الصحافة عوضته حيث تدافع الصحافيون يسألون رأيه فى الدور.. ويصورونه من جميع الزوايا ليؤكدوا دقة اختيار شادى عبد السلام ، نظرا للتطابق الذى يكاد يكون تاما بين أمل واخناتون».

(١٤)

ويحفل حديث عايدة الشريف عن الشاعر صلاح عبد الصبور بكثير من الحب والتقدير لهذا الرجل العظيم وسماته الخلقية المتميزة، وهى تقص علينا إحدى القصص الدالة على مدى كرم صلاح عبد الصبور وخلقه النبيل فتقول:

«وعندما حصل صلاح على جائزة الدولة التشجيعية عن مسرحيته «مأساة الحلاج» فقد بدا منه العجب والعجاب.. فى التصرف بمردودها، لقد حصل منها صلاح على خمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير سنة ١٩٦٧.. ولكن لأنه ممن يصادقون الناس رغم خلاف الرأى بينه وبينهم - كما أكدت مقالة أدونيس فى تأبينه - فقد أولم بقيمة الجائزة ثلاث ولائم - لايصدق رغدها إنسان.. أتذكر أن الدكتور عبد الغفار مكاوى يوم وليمته مع أصدقائه فى الجمعية الأدبية تساءل : هل هذا ديك رومى أم خروف خرافى.. فضحك الجميع.. ثم تبع هذه الوليمة وليمتان لأصدقاء صلاح الذين لايؤمنون معه أن الخلاف لايفسد للود قضية.. وقد صارت هذه الولائم بعد ذلك مثلا يتردد على الشفاه كدليل على المروءة والكرم لاسيما الكاتبة الصحفية صافيناز كاظم التى كانت تتندر بهذه الخصال فى المجالس والمنتديات الأدبية، وعندما أتاه والده من الزقازيق للتهنئة.. همس فى أذن صلاح أنه عثر له على قطعة أرض يكفى مردود الجائزة ليكون مقدما لها.. فرد عليه صلاح بأنه أولم بها ثم استدان.. فغضب والده عليه وتركه عائدا إلى الزقازيق.. وربما كان فى جوده الغامر وإسرافه وإفلاسه الدائم هذا مربط الفرس.. حيث إنه

لم يستقل من منصبه لأنه ليس له مورد كما أراد له مَنْ أسموا أنفسهم أصدقاءه الذين انصب كل هجومهم عليه وحده، [وهنا تستطرد عايدة الشريف لتتساءل فى استنكار: وهل كانوا سيكفلونه لو فعل]. . هل كان صلاح هو المتاح لهم هجومه لشدة تواضعه وصمته الدائم عن التفاهات. . وهل استقالوا هم حتى يحذو حذوهم ، أم كان عليهم إيقاف ترقرق الدماء فى عروقه ليجرى فى عروقهم هم. . فهاهم اقتسموا ما تصوروه ثراءه المنصبى. . وها هم يتربعون على العروش فى ظل السلام والحداثة والإبداع»

(١٥)

وفى الحقيقة فإن عايدة الشريف لا تقف بشهاداتها عند أعلام الفكر والأدب فحسب ولكنها تحدثنا أحاديث جميلة وموحية عن عدد من فنانينا المبرزين وهى تمزج حديثها الراوى بحديثها الناقد بحديثها المتأمل، وهى على سبيل المثال تحدثنا بحب شديد عن صداقتها للفنانة سناء جميل وتلخص رأيها فى القدرات المتميزة لهذه الفنانة العبقرية فى قولها:

«. . . فى هذا الجو تولدت الصداقة سريعا بينى وبين سناء فقد كانت غير متزوجة ، وأنا مازلت طالبة. . فتأكد أمام ناظرى أن كل معلوماتى السابقة عنها - أو الوجه الذى يراه الجمهور - لم يكن يمثل سوى الوجه الثانى لشخصيتها ، ليس فى الشكل أو الأداء ، بل فى المضمون على الأخص ، ذلك أن حديث سناء الشائق فى مثل تمثيلها جاذبية ، فهى بارعة فى التمثيل على المسرح الكبير (الحياة)بأكثر من عبقريتها

على المسرح الصغير (التمثيل) ، أذكرها مثلا وهى تقود عربتها وعند المنعطفات أجدها تميل برأسها وجسدها نحو الهدف.. وكأنها هى التى ستنعطف وليست العربة ، وسناء بارعة فى التقليد كما هى بارعة فى التمثيل ، أذكر مثلا أنها كانت تقلد الصحفى اللبق مفيد فوزى عندما قدم إليها أول مرة سنة ١٩٥٨ لإجراء حديث لمجلة صباح الخير.. وكيف تتسارع خطواته فى هدم حاجز الغربة بينه وبين الشخصية التى يتحاور معها ، تقلده وهو يسحب سيجارة من علبة الشخصية التى يجرى معها الحديث.. ثم يبدأ بتهويمات تؤكدها حركاته ولفتاته ، ليعطى لديها الإحساس الأكيد بأنه يريد أن يعايش موضوعه بحق وحقيق قبل الكتابة عنه.. حتى يشع الصدق من كلماته وكلماتها!!».

(١٦)

وأما الفصل الأخير من هذا الكتاب والذى خصصته السيدة عايدة الشريف لصديقها العظيم الأستاذ نجيب محفوظ فأعتقد أنه من خير المقدمات التى ينبغى لدارس نجيب محفوظ أن يقرأها وأن يلم بها جيداً قبل دراسته لهذا الأديب العظيم ذلك أن عايدة الشريف تنقلنا إلى كثير من الأجواء التى وددنا كلنا لو عشناها حين كانت أعمال نجيب محفوظ تعرض على الشاشة (لأول مرة) أو فى الصحافة والكتب (حين كانت تنشر لأول مرة)ويثور حولها اللغط النقدى والتفسيرى ، وسأكتفى لضيق المقام بأن أنقل ما ترويه لنا عن قصة فيلم «بداية ونهاية» حيث وضع الأستاذ صلاح أبو سيف نهاية للقصة فى الفيلم غير تلك النهاية التى وضعها الأستاذ نجيب محفوظ فى القصة المنشورة، فقد جعل صلاح

أبو سيف البطل ينتحر غرقا وراء أخته، ورأت عايدة الشريف فى هذا الذى فعله صلاح أبو سيف ما ذكرها برأى الناقد الأستاذ أحمد عباس صالح الذى كان يرى أن البطل يمثل الثورة فى طموحها، وهو الرأى الذى وقف عليه نجيب محفوظ:

«. . . وأذكر أن المخرج السينمائى صلاح أبو سيف الذى كان قد أخرج فيلم «بداية ونهاية» عن قصة للأستاذ نجيب ، وقد تخلص المخرج فى نهاية الفيلم من البطل بأن جعله ينتحر غرقا وراء أخته نفيسة. . واختلف الحاضرون حول تفسير المخرج لنهاية البطل ، ولكن الأستاذ نجيب أيد صلاح أبو سيف - وهما متفقان دائما : نجيب يؤلف، وصلاح يخرج - ووجدتنى أقول للأستاذ نجيب : «ياأستاذ نجيب سبق أن كتب الأستاذ أحمد عباس صالح تفسيرا لنفس الرواية. . ورأى أن البطل ليس وصوليا - كما قال النقاد - ولكنه طموح وأنه فى طموحه يمثل الثورة ، وأنك وافقته يومئذ. . فنظر الىّ مبتسما يمازحنى بما قلته يوم لقائنا الأول : كل تفسير له حدان. وعرفت من يومها أنه يؤمن بأن على الكاتب أن يقول ما يريد قوله فى روايته، ومهمته تنتهى عند آخر كلمة فيها. . كما يؤمن بأن المخرج أو الناقد فنانان آخران يجب أن تتاح لهما فرصة حرة ليعبرا عن فنيهما كل وفق رؤاه واقتناعه!».

□

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أرضى ضميرى إذا أنا لم آخذ بيد القارئ إلى موضعين مهمين من حديث عايدة الشريف عن نجيب محفوظ.

الموضع الأول هو حديثها عما تسـميه بلغتها هى: «اتجاهه إلى تكشف الذات» وهو الاتجاه الذى بدأه بنشر رواية ميرامار :

«وأذكـر الأستـاذ نجـيب أيام مناقـشتى إياه حـول رواية «مـيرامـار» تحديدا. . أذكـر أننى أستـفززته (على ما يبـدو) لدرجة أنه كـاد يباهى بشجـاعتـه. . لاسيـما عندمـا قلت له: كان عليك أن تطيل فـى نقدك للاتحاد الاشتراكى من كل جوانبه لاسيما وشخصية سرحان البحيرى قد تشابكت فيها وتقـاطعت كل عيوب هذا النظام. . إذ ما إن نطقت بذلك حتى وجدت الأستاذ نجيب ينفعل بشدة وهو يقول لى: أنت تقولين لى ذلك وأنت تطرقعين أصـابعك غير مسئـولة. . إن فى كل سطر فى نقد هذا النظام نذيرا بسجن أو اعتقال عام بأكمله».

وتستأنف السيدة عايدة الشريف رواية ذكرياتها عن يوم آخر من الأيام التى قرأت فـيه أحد فصـول الرواية، وعلقت على ما قرأته لرئيسـها فى العمل الذى هو الأستاذ نجيب محفوظ نفسه:

«أما يوم قطع سـرحان البحـيرى شريانـه بيده فقـد دخلت فورا على الأستـاذ نجيب وأنا أقول: كيف تقـتل مثل هذه الشخـصية نفسـها؟ إن سياق الواقع والقصة معا يقول إنه كـان يستحق جائزة على سرقته وليس انتـحاره، ومن الغـريب الذى لم أجد له تفـسيـرا إلى الآن أن الأستـاذ نجيب قال لى: إنك لا تعرفين شيئـا مما يدور حولنا إننى قتلته بأمر. . ترى هل أتاه أمـر من السلطة أن يجـعل سرحـان البحـيرى يضع نهـاية لحياته أم مجرد إلهام. . أم هى نصيحة من المشرفين على النشر بجريدة الأهرام؟».

«تداعى هذا القول فى خاطرى بعد ذلك يوم سألته لماذا لا نقرأ لك أعمالا جديدة؟ فقال: إن له عدة روايات فى درج مكتب على حمدى الجمال المشرف على النشر فى جريدة الأهرام الذى اعتذر عن عدم نشرها لصالح نجيب محفوظ.. وأراد هو الإنكار يوم رددت على مسامعه ما كانت قد عرفته عن لقائه بالرئيس جمال عبدالناصر يوم افتتاح المقر الجديد لجريدة الأهرام عندما سأله الرئيس: إننا لا نقرأ لك هذه الأيام.. ورد هيكل على الرئيس بأن الأستاذ نجيب يكتب هذه الأيام قصصا تودى به إلى أبى زعبل.. ورد الرئيس على هيكل: تقصد الناشر؟ وبعدها اعترف نجيب محفوظ أن عبدالناصر (على حد اكتشافه للحقائق) كان يتابع إبداعاته ويدافع عن حقه فى إبداء آرائه!».

«وإذا كان قد صور فى ميرامار فشل بل مهزلة المثقفين.. فقد صور مآلهم باجتماعهم فى عوامة يتعاطون المغيبات ويمارسون الثرثرة فوق النيل.. وما كانت العوامة إلا سفينة متقاعدة شدت بأوتاد إلى الاستيداع على شاطئ النيل.. وعندما تحاول صحفية شابة أن تخرجهم عن سلبياتهم ليقوموا بعمل إيجابى.. فإنهم يصدمون بسيارتهم بريئا.. فيفيقوا من ذهولهم على نكسة ١٩٦٧.. أى بعد فوات الأوان على تداركها!».

ولاتزال فى حاجة إلى تحقيق كل ما أشارت إليه عايدة الشريفة عن علاقة نجيب محفوظ باالسياسة فى تلك الفترة.

(١٧)

وتصل عايدة الشريف إلى حد أن تقدم فى ثقـة شديدة أحكاماً قطعية حول المســار الأدبى والتطور النفسى لنجيب محفـوظ وزملائه، وتنفرد برواية قصة التـفكير فى اعتقاله عقب نشـر مجموعته القصـصية «تحت المظلة»:

«. . . بعد النكسة يفقد أغلب المثقفين (وبينهم نجيب) عقولهم، من هول الصدمة، فيذهلون وتبدأ مـرحلة نقد الذات عنده بمجموعة (تحت المظلة)».

«بعد صدور مجموعة تحت المظلة وكان الأستاذ نجيب قد ترك عمله كرئيس للجنة القراءة التى كنت عضوا فيهـا ليتولى رئاسة المؤسسة كلها حيث أوكل رئاســة اللجنة إلى الأستاذين عبـدالرحمن الشرقـاوى وسعد مكاوى، أتذكر أننى دخلت عليهما اللجنة ليسألانى فى نفس واحد: أين كنت أمس؟ قلت: لمــاذا؟ قالوا: كنا نحتـاجك. قلت: في أى شىء؟ قالا: لقد كـانت المباحث هنا للتحـقيق مع الأستاذ نجـيب بعد القبض عليه. . سألت فى لهفة: لماذا؟ قالا: لقد اتصلنا بالدكتور ثروت فأوقف عملية القبض، بعدها دخلت على الأستاذ نجيب أسأله عما حدث فنفى كل ما سمعته. . فهو لا يريد لهذا الأمر أن ينتشر فيتحقق».

وهنا تردف عايدة الشريف فتقول:

«. . . ومع ذلك فهـو يقول الآن إن السلطة لم تفـهم رموزى. . أى فئة الموظفين وليس عبدالناصر!».

«قلت للأستاذ نجيب أيامها.. وكانت مجلة الآداب البيروتية قد أصدرت عددا جديدا بعنوان (طريقنا الجديد).. حوى استفتاء شاملا عن أسباب النكسة.. ونشر بين مواده قصيدة نزار قبانى (هوامش على دفتر النكسة) و(بيان ٥ حزيران لأدونيس) و(النكبة المتجددة لجاك بيرك)، و(ننتظر من سارتر موقفا واضحا)، ذلك أنه كان قد أعطى بيانا قبل النكسة بأن إسرائيل لن تعتدى».

«وهكذا عندما قدمت هذا العدد للأستاذ نجيب وكانت النسخة الوحيدة التى وصلت مصر.. قلت له: سأكتب عنك موضوعا بعنوان (تحولات نجيب محفوظ.. والهجرة فى أقاليم النهار والليل)، فاستفهم وقلت: لأن من يقرأ (بيان ٥ حزيران) التى نشرها أدونيس فى هذا العدد ثم ينام سيرى (تحت المظلة) فى شكل الحلم أو الكابوس.. وأنه بالرغم من اختلاف ما تعالجانه من صنوف الأدب، نجيب فى الرواية وأدونيس فى الشعر، فإنكما تتفقان فى المضمون الفنى وتحولاته النفسية الموازية لأوضاع شرقنا العربى وهو واحد».

«ذلك أن عناوين أعمالهما قد تتلاقى أحيانا فى اللحظة الفنية المواكبة للتحول مثل رواية نجيب محفوظ (المرايا)، ومسرحية أدونيس (المسرح والمرايا)، وقد تتكامل كما فى بيان أدونيس وتحت مظلة نجيب محفوظ».

«استمع الأستاذ نجيب بإمعان أو قل بمجاملة وهو يتصفح عدد الآداب، لكنى عندما حاولت استرجاع عدد الآداب فى نهاية يوم العمل رفض إعادته، فقلت: لكنه العدد الوحيد المطلوب تسليمه لناقد

الأبحاث، تمسك به وقال: سأغـضب منك بالفعل لو لم تتركيه لى إلى الغد. . فاستسلمت لأنه كان غارقا بالفعل فى قراءته».

□

أما الموضع الثانى الذى أحب أن أدل القارئ عليه فـهو ما تفصل فيه السيدة عايدة الشـريف الحديث عن ذكريات نجيب محفـوظ عن علاقته بصديقـه العظيم الدكـتور أدهم رجب، وهذه الخطابات المـمتـعة التى أوردت لنا عايدة الشريف كـثيرا من فقراتها فى هذا البـاب مع تعليقات شارحة ومفسرة بل ومعلمة أيضا.

(١٨)

وأحب أن أعترف بعد هذا أن مدارستى لهذه المذكرات تعجز عن أن تقدم تلخـيصـاً وافياً لمـا فى كتـاب عايدة الشريـف عن الأعلام الذين عايشـتهم وحـدثتنا عنهم لتنيـر معـارفنا عن كل هؤلاء بما عـرفتـه وما عاشرته ، ولكن هناك قدراً لابأس بـه من الفقرات والإضاءات التى لابد لنا أن ننقل للقارئ أثرها فى نفوسنا إذا لم يكن من حظ القارئ أن يجد الوقت الكافى لمطالعة هذا الكتاب، وكأنى أريد أن أقول إنه لابد لى من النجاح فى التعريف بالكتاب إذا لـم أكن قادراً على النجاح فى التشويق إليه.

ذلك أن المؤلفـة تنبئنا مـثلا فى حديثـها عن الشـاعر عبـد الرحمن صدقى كيف أن أسـرته الكريمة قد التزمت بما أذاعـته هى - أى عايدة الشريف - مـن أنه كان يتمنـى إهداء مكتبتـه لبنى قومـه ، رغم أنه لم

يحــرر وصــية بهــذا المــعنى وإنمــا نشــر هذه الفكرة فى ديوانه «حــواء والشاعر» ورغم أن القانون لايعتبر مثل هذه الأمنية وصية ملزمة لأحد ، فالمدهش حقا أن زوجته وأسرته التزموا بتنفيذ هذه الوصية :

«. . . وعندمــا توفى صدقى فــى مارس ٧٣ . . ولـم أكن قــد كتـبت مقالا عنه، فقد نشرت فى مجلة الإذاعة مـقتطفات من مقاله «على عتبة المـوت» وما يتـعلق منها بأمنـية إهداء مكتـبتـه. . وذلك تحت عنوان «عبدالرحــمن صدقى. . عاشق الحيــاة يفارقها إلى لقــاء وصفه فى رثاء نفــسه»، ومن الغــريب أن يتــصل بى الورثة يســألونى: هل ترك الرجل وصيته لديك؟ فقلت: لا وإنما نشرها فى ديوانه «حواء والشاعر».

«ورغم أن القانون لا يـعتبـر مثل هذه الأمنية وصـية ملزمــة لأحد، فالمدهش حقا هو التزام زوجته وباقى الورثة بتنفيذ هذه الأمنية الوصية، وبالنيابة عــن كل أبناء مصر الذين ســيفيــدون من هذه الثروة أشــهد من معايشتى له وقراءة أعماله بأن صاحبها كان واحدا من جيل الموسوعيين على ندرتهم، تلك كانت رسالة الشكر التى وجهتها دار الكتب والوثائق القومــية إلى الســيدة نازلى وأشقــائه وعلى رأسهم الدكــتور عــبدالرازق صدقى وزير الزراعــة السابق، أردفتــها بعد الأربعــين بلجنة فرز وتعبــئة لمكتبته!».

«وعندما ذهبت لأسجل هذه اللحظات تنبهت لوقوع شىء غريب فى نفسى، ذلك أن هذه الزيارة قد تكون المائة أو تزيد. . إلا أننى قبلها لم ألاحظ أن للمقــاعد أرجلا أو للفرش والســتائر أحرفا، وهكذا افــتقدت الأشياء قلبها وروحها بغياب الشعاع الهادئ الذى كان يحتضن كل شىء

فتناثر كل شىء ووضحت أطرافه. . . أرفف الكتب التى أخليت من محتوياتها تبدو كتوابيت غادرتها (المومياوات) الكتب هنا وهناك تبدو كبقايا الحفريات. . هذا الكتاب بلا غلاف. . جنبته اللجنة إلى حين. . فانكمش على نفسه [محاولا] التوارى عن الأنظار، إذ كثيرا ما رأيت الرجل الذى فقدناه يقلب صفحاته لكن فى حرص شديد. . ويحمله باهتمام كوليد. . لقد أشعرنى كل ذلك يومها بخيبة أمل لرحيل هذا الشاعر الذى ترك كتبه مباحة لمن بعده».

وقد ظلت هذه المكتبة حبيسة الصناديق منذ سنة ٧٣. . رغم أن الدكتور محيى الدين صابر كان قد عرض على (صدقى) أيام كان صابر وزيرا للتربية والتعليم بالسودان. . أن يشتريها لبلده بخمسين ألف جنيه. . ويتسلمها بعد وفاته».

. . . .

وتذكر السيدة عايدة الشريف أنها فى آخر مقال لها عن الشاعر عبد الرحمن صدقى [بمجلة الدوحة القطرية نوفمبر سنة ١٩٨٠] وجهت صيحة إلى الأستاذ الشاعر صلاح عبدالصبور. . رئيس الهيئة فى ذلك الوقت بتهيئة قاعة عبدالرحمن صدقى للقراء والمستفيدين، وهى تردف بذكر بقية القصة فتقول:

«. . . وعندما وصلت إلى أرض الوطن بعد غربة طالت فى الكويت، كان توجهى إلى الدكتور عز الدين إسماعيل الذى كان يرأس الهيئة، وعندما سألته عن أخبار قاعة صدقى قال: إن فكرة القاعات

الخاصة ليست عملية. . فأنا مثلا لم أفكر يوما فى دخول هذه القاعات فى مكتبة جامعة القاهرة!».

«وقد يكون الدكتور عز الدين إسماعيل على حق. . إلا أننى ابتلعت كل رغبة لى بتكوين لجنة لجمع الهوامش والملاحظات حول قواميسه وكتبه واستخلاصها للاستفادة بها من قبل الدارسين والمترجمين. . قلت لنفسى يومها إذا كانت المكتبة قد ضمت إلى المكتبة العامة. . فعسى أن يعثر عليها أحد المخلصين».

(١٩)

وأخيرا فإنى مازلت على اعتقادى الذى لا أزال أكرره عبر فقرات هذه المدارسة لهذه المذكرات وهو أن السيدة عايدة الشريف قد نجحت أيما نجاح فى كتابة نوع متميز من التجربة الذاتية تناولت من خلالها حياتها الفعلية فى مراحل تكونها وتفتحها ثم فى مراحل وإطلالاتها على الآخرين ، وإذا جاز على حد ما علمنا الدكتور زكى نجيب محمود أن تكون هناك قصتان : قصة عقل وقصة نفس، فإن عايدة الشريف بكتابها هذا قد ضربت مثلاً جزئياً على إمكان الجمع بين قصتى العقل والنفس فى كتاب واحد.

الباب السابع

أيام وذكريات
مذكرات الأستاذة أماني فريد

(١)

ولدت السيدة أمانى فريد فى القاهرة وتلقت تعليمها العام كله منذ رياض الأطفال وحتى الثانوية فى المدرسة السنية للبنات. التحقت بمعهد التربية العالى بالزمالك «كلية بنات عين شمس فيما بعد»، وسجلت للدراسات العليا فى التاريخ فيها ودراسة الأدب الإنجليزى والترجمة.

عملت بالتدريس فى مدارس البنات الابتدائية والثانوية، واستقالت من وظيفتها لتتفرغ للصحافة والكتابة، ومارست النشاط السياسى واختيرت أمينة للمرأة فى حزب مصر العربى الاشتراكى. وكانت من المطالبات بحقوق المرأة السياسية، واعتصمت لهذا الغرض فى نقابة الصحفيين عام ١٩٥٤ مع الدكتورة درية شفيق، وخاضت انتخابات البرلمان فى منتصف التسعينات عن دائرة مصر الجديدة، وكانت عضوة فى اتحاد الكتّاب والكاتبات وجمعية هدى شعراوى.

زارت عددا كبيرا من بلدان العالم العربية والأوروبية وأمريكا، كما شاركت فى المؤتمر النسائى العربى الذى عقد فى القدس قبل نكبة فلسطين فى الخمسينيات.

كتبت أمانى فريد فى صحف دار الهلال وفى جريدة القاهرة وفى جريدة البلاغ، ومجلة مسامرات الجيب وفى جريدة الكتلة.

ولها من دواوين الشعر: «فكر وروح» و«قلب يتحدث»، وفى أدب الرحلات: «مصرية فى ربوع الشام» و«مصرية فى أمريكا» و«حول العالم» و«المرأة حول العالم» و«أوروبا بين الجد واللهو» و«المرأة الألمانية كما عرفتها»، ومن القصص: «ملائكة وأمواج ورمال» و«أقاصيص الغروب» بالاشتراك مع ميشيل تكلا.

(٢)

يبدو لى - وليس كل ما يبدو لى صواباً - أن من الطبيعى أن أبدأ فأقول إنه كان فى وسع السيدة أمانى فريد أن تعيد كتابة هذا الكتاب بحيث تجعله فى صورة كتاب متصل الحلقات، متوالى الوقائع والأحداث، مرتبا على النحو الذى مضت به حياتها، وذلك حتى يكون الكتاب فى صورة أفضل من التى صدر عليها بالفعل كمجموعة مقالات تتكرر فيها الوقائع أكثر من عشر مرات فى بعض الأحيان على نحو يختزل من قيمة صاحبة الذكريات، ومن التعبير عن قدرتها على الكتابة.

ومن الطبيعى أيضا أن أتمنى على المؤلفة وعلى كل مَنْ هم مثلها أن يتولوا نصوص ذكرياتهم بقدر من التهذيب والتشذيب والترتيب حتى لا يأتى كتاب حياتهم على هيئة مونولوجات متكررة تعيد وتزيد فيما بدأت فيه، وتتمحور حول عدد محدود ومتكرر من الأفكار والحوادث والشخصيات تتذكرها الشخصية من حين لآخر، وتتذكرها ببعضها

وتتداعى ذكرياتـها جميعـا عند ذكر كل واحدة من هذه الشخـصيات أو الحوادث أو الأفكار.

ومن الطبيعى مرة ثالثة أن أقترح على دور النشر مهما كانت محدودة الموارد أن تعـهد بمثل هذه الذكريات إلى كـاتب محترف يتـولى حذف واختصار مـا يتكرر منها فى أكثر من موضع، أو يتولى اخـتيار الموضع الذى يتناول الحديث بالـتفصيل ويهـمل غيره من المـواضع التى كررت نفس الفكرة أو الواقـعة، ثم يتولى بعـد هذا إعادة ترتيب الفـقرات التى اختارها من كل هذه المقالات لـيجعل منها مشروع سيرة ذاتية حـقيقية، وليس هذا بالأمر الصعب، لكنه يحتاج قدرا من الاحتراف، وقدر أعظم من الإخلاص للفكرة وللسيرة، ولصاحبة السيرة أو صاحبها.

وعلى الرغم من إقـرارى بأن كل مـا ذكـرت فى الفـقـرات الثـلاث الماضيـة هو بمثابة الأمر الطبيعى الـذى ينبغى لى أن أبدأ به حديثى عن هذه المذكـرات، فإنى أحب أن أعـترف أنى لا أستـطيع أن أفرض هذه الرؤية على مثل هذا الكتاب لسبب بسيط وطريف فى الوقت ذاته، وهو أن صاحبة المـذكرات لا تزال حتى هذه اللحظة تشعر بالانبـهار تجاه ما حققته فى حـياتها الماضية، سواء فى ذلك ما تحـقق لها من معرفة، أو من رحلة، أو من لقـاء، أو من حـوار، أو من مـشـهـد، هى لا تزال مبهورة الأنفاس بالسعادة بكل هذا على الرغم من تقدم العمر بها، وهى لا تزال تنعم بنعمـة الله الكبرى التى ينعم بها عـلينا فى مقتبل أعـمارنا حـين نسـعـد بكل خطوة نخطوها فى طريق الـحيـاة والشـهـرة، وفى المجتمع، وفى محيطاته الأدبيـة والفنية، ولهذا فإنى أستنكر على نفسى

واستنكف على قلمى أن يوجه مثل هذه النصيحة لسيدة لا تزال تنعم بروح الطفولة البريئة، والشباب الغض، والفتوة المقبلة على الحياة.

بل إنى أستطيع أن أقول إن هذا الكتاب جاء أصدق فى تعبيره عن شخصية صاحبته من أية محاولة أخرى للكتابة عنها، حتى لو أن الذى تولى مثل هذه الكتابة كان عميد الأدباء أو أمير الشعراء.

(٢)

وربما أجد نفسى، بدواعى الاحتراف، مندفعا إلى أن أذكر بعض السمات التى نجحت السيدة أمانى فريد فى أن تصل إليها وإلى النجاح فيها حين فضلت هذا الأسلوب للكتابة عن حياتها، وأول هذه الجوانب هو نجاحها فى تجنب ما أرادت أن تتجنب الحديث عنه، سواء فى ذلك النشأة المبكرة، أو الأسرة، أو الأبوان، فكل ما نعرفه عن والدها أتى عرضا فى حديثها عن عملها فى بورسعيد، فتذكر أن أباها هو الآخر عمل فى بورسعيد، وكل ما نعرفه عن والدتها يأتى عرضا فى حديثها عن تركيا والأتراك فنعلم أن أمها كانت تركية بيضاء، ومع هذا لا نجد ذكرا لإخوة، ولا لأخوات، ولا لأولاد عمومة، ولا لعم، ولا لعمة، ولا لخال، ولا لخالة. . وهكذا.

كذلك نجد بعض عشرات السنوات وقد خلت من حديث هذه السيدة عنها، فنحن لا نرى أثرا للخمسينيات ولا للستينيات ولا لسنة ١٩٦٧، ولا لسنة ١٩٧٣، ولا للمعركتين الكبيرتين اللتين حدثتا فيهما، وكأنما يتوقف إحساس هذه السيدة بمثل هذه التجارب الإنسانية على ما شهدت

بنفسها فى حربى ١٩٤٨ و١٩٥٦، والحرب العالمية الثانية من قبلهما.

ولا نكاد نرى أثرا للـتحـول الاقـتـصـادى الذى شـهـده الوطن فى السبعينيـات، ولا للأزمات الاقتصادية التى حدثت فى الـستينيات، وكل ما نراه من حديث عن التحـولات الاجتماعية يكاد ينحصـر فى حديثها الفرح أو الجزل بما نالته المرأة من حقوق سياسية، وما كان لها فى فترة من الفترات فضل الإسهام فى الدعوة إليها.

بل إن المذكـرات تكاد تخلو من الحديث عن الانتـماءات السياسـية للمؤلفة، مع أنها فى سطر واحد من كل الكتاب تشير إلى عملها كأمينة للمرأة فى أحد أحزاب المعارضة دون أن تسمى هذا الحزب!

(٣)

هكذا نرى فى هذه المذكـرات نوعا من أنواع الحـديث المنتقى الذى لا يركز إلا على ما له عـلاقة بالأعلام والمشاهير والمـشهورين، ويكاد يغمط النفس حقها فى الحديث عن نفسها فيما عدا هذا كله.

ومع هذا فنحن لا نستطيع أن ننكر أننا نجد كثيرا من المتعة والتاريخ فى حديث السيـدة أمانى فريد فى هذه المقـالات المجموعـة على هيئة ذكريات، على الرغم من تكرار الحديـث عن نفس الوقائع، وبوسعنا أن نذكر للقـارئ مواضع كثيـرة من التى كررت فيـها صاحبـة هذا الكتاب الحديث عن الواقـعة نفسها، وبوسـعنا أيضا أن نذكر للقارئ كـثيرا من المواقع التى أعـادت فيها الحـديث عن الواقعة نفـسها مع تغيـير بعض أركـان الحديث، وليس هذا فى رأيى بـالإنجاز فى مـدارسة مـثل هذه

المذكرات أو حتى فى نقدها، ولكن الإنجـاز يتمثل فى أن نشير إلى أن التكرار فى حد ذاته قد دفعها بعد فترة إلى التصريح بما أبت التصريح به فى رواياتها الأولى للواقـعة نفسـها، وكأنما وجـدت نفـها بعـد سؤال الذين قرأوا الرواية الأولى فى حاجة إلى أن تصرح بما لم تصرح به.

(٤)

على أن الأهم من هذا كله أن نشير إلى حقيقة مهمة وهى أن صاحبة هذا الكتاب قـد نجت إلى حد بعيـد من النرجسيـة، ومن تصور الكون متمحورا حول ذاتهـا، وإن كان الأمر لا يخلو فى بعض الأحيان من أن تتصور نفسها وقد أحاطت بما لم يحط به غيرها، من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ترويه عن واقعة تأليف إبراهيم ناجى لقصيدة الأطلال، ومن ذلك ما ترويه عن اللقاء الوحيد بين الشاعرين الكبيرين على محمود طه ونزار قبـانى، ومن ذلك ما ترويه أيضا من عـادات الشاعر أحـمد رامى حين كان هاتف الشعر يأتيه، ومـن ذلك ما ترويه عن الفترة الأخيرة من حيـاة المطربة فتحـية أحمـد. ومن الإنصاف أن ننقل للقـارئ ما ترويه صاحبة الذكريات عن هذه الوقـائع الأربع، وهى روايات تحتمل الصدق بأكثر مما تحتمل الاعتراض على هذا الصدق.

فأما حديثهـا عن حبيبة إبراهيم ناجى التى كتب فيـها الأطلال فتقول فيه:

«كنت قد دعوت نـاجى لتناول الغداء معى، وكذلك دعـوت الشاعرة روحية القلينى والفنانة رفيعـة الشال جارتى والكاتب حليم مترى وبعض

أصدقاء آخرين، وبدأنا نعد المائدة وتحمل الخادمة الطعام إليها، ومن بينه فراخ وملوخية، وجلسنا ننتظر ناجى الذى لم يحضر بعد وبدأت الملوخية تفقد سخونتها ومعها بدأ تذمر الحاضرين لتأخر ناجى، قلت فلنبدأ الطعام إذن، وعندما بدأنا نأكل إذا بالجرس يدق ثم يدخل ناجى يتصبب عرقا وهو يعتذر عن التأخير ويحكى سببه، قال: ذهبت إلى محل جروبى لأشترى بعض الحلوى لأمانى قبل مجيئى. وكانت هذه عادة معظم القوم عندما يدعون إلى موائد الطعام [يبدو أن السيدة أمانى فريد قد أصبحت تعانى الآن من عدم معرفة ضيوفها اليوم بالبروتوكول]، ويكمل ناجى: وإذا بسيدة تحملق فى وجهى عدة مرات ثم تقترب منى وتقول لى: ألست أنت الدكتور إبراهيم ناجى؟ وأجبتها: نعم.. أنا ناجى، قالت: ألا تعرفنى، فتفرست فى وجهها ووجدت التجاعيد تملؤه وقد زحف الشيب إلى رأسها وبدت عجوزا محطمة، وقال لها ناجى: آسف لا أتذكر، قالت: أنا جارتك فلانة التى كنت أسكن إلى جواركم فى حدائق القبة، وكنا متحابين وتعاهدنا على الزواج ولكن إرادة الله شاءت غير ذلك، وتزوجت أنا وأنت مازلت تدرس فى كلية الطب».

«وكان ناجى يقص علينا هذه القصة وهو ينهج [هذا هو الفعل الذى تستخدمه هذه الأديبة] والعرق يتصبب منه، ثم أمسك بالنوتة التى كان يحملها دائما معه وكتب بقلمه مطلع قصيدته الرائعة الأطلال: يافؤادى رحم الله الهوى.. كان صرحا من جمال فهوى.. واستمر يكتب فى قصيدته وهو يرتجف، والعرق يتصبب منه ولم يأكل شيئا وتركنا

وخرج، لنسمع بعـد ذلك عن قصيدته التى أتمـها، ولم تفكر أم كلثوم فى غنائهـا إلا بعد أن حملهـا رامى إليهـا بعد وفاة نـاجى، ووافقت أم كلثوم على غناء القصيدة ولكنها قالت لرامى: ألا ترى أن مطلع القصيدة بكلمة رحم الله سيكون شيئا غير مرغوب أو محبب؟ فغيرها رامى».

(٥)

أما قصة اللقاء الوحيد بين الشـاعرين الكبيرين على محمود طه ونزار قبانى فترويها السيدة أمانى فريد على النحو التالى:

«. . . كنت أجلس فى تراس «شـرفـة الكونتيننـتال» فى أواخـر عـام ١٩٤٧ أو أوائل عام ١٩٤٨ لا أتذكر تماما، وكـان الوقت شتاء دافئا فى مصر، وكان معى فى هذا المكان الأستاذ أسعد محفل قنصل سوريا فى مصـر فى ذلك الوقت، وكان شـاعرا يكتب الشعـر بالفرنسـية، وترجع صلتى به عندما أردت السـفرإلى سوريا فى صـيف عام ١٩٤٧فى رحلة زرت فـيـها فـلسطين والأردن وسـوريا ولبنان، ولقـد توطدت أواصـر الصداقة بعد ذلك بينى وبين أسعد محفل وأسرته، وفى أثناء حديثنا فى شئون مختلفة ونحن نجلس فى الشـرفة، أقبل علينا شاب حلو الطلعة، وما أن رأى أسعد محفل حتى أخذه بالأحضان، فقدمه لى أسعد بقول: الشاعر نزار قبانى، ودعاه للجلوس معنا».

«وكان نزار أيامها يعمل فى مصر ملحقا فى السفارة اللبنانية بالقاهرة، وكان قـد طبع ديوانه الثـانى فى ذلك العام «طفـولة نهد» فى مـصر. . استمـهلنا قليلا ليصعد إلى غرفـته فى الكونتننتال ليحضـر لنا نسخا من

كتابه، وقد كتب إهداءه إلىّ بكلمـة: إلى الشاعرة المصرية. إلخ، وكان أسعد مـحفل قد أخبـره بأننى أكتب الشعر وألقـيت منه فى الإذاعة فى بعض المناسـبات الوطنية، وكـذلك فى مجـالس وندوات جامـعة أدباء العروبة التى كنت عضوا فيهـا، وكان يرأسها الوزير الدسوقى أباظة والد الأديب ثروت أباظة، وطالت الجلسة فى شرفة الكونتننتال ونزار وأسعد يتذكران أياما لهما سابقة ولقـاءات أخرى كانت بينهما، وامتد اللقاء إلى جلسة عشاء فى مكان آخر».

«وقلت لنزار قبـانى: وما رأيك فى أن نقوم بزيارة لدار على مـحمود طه شاعر الجندول، ولابد أنه يسعده لقـاؤك، فهو يلتقى بكثير من أدباء العرب وشعرائهم فى شـقته بشارع سليمان باشـا «طلعت حرب حاليا»، وقد قابلت عنده بعضا منهم، فكان عـبد الخالق الطريسى المغربى الذى كان لاجئا بمصر إذ ذاك ومحبـا للكتابة والأدب، والذى أصبح فيما بعد سفيرا لبلاده فى مصر من زوار شقة علـى محمود طه الذى كان يسميها «حانة الملاح التائه»، ويزينها بالأنوار الكهربائية الملونة.. ولقد تواعدنا على اللقاء فـى عصر اليـوم التالى، وذهبت ومعـى نزار قبانى وأسـعد محـفل إلى منزل على محـمود طه الذى فوجئ بزيـارة الضيفـين وكان متـعودا أن يرانى أفـاجئه بالزيارة من حـين لآخر، ويقـول إذا كان عنده ضيوف: إنها ابنتى وتلميذتى»..

«وامتـدت الجلسة إلى سـاعة مـتأخرة مـن الليل وعلى محـمود طه يحـدث الضيـوف عن مـغامـراته فى أوروبا وأشـعاره التـى نظمهـا فى حسناوات أوروبا، ونزار قـبانى يحدثه أيضا عن بعض من حـياته وآماله

وأفكاره، وقد أهدى إلى على محمـود طه ديوانه «طفولة نهد» وهو أول بواكير عمله كما قلت، وأعجب على محمود باسم الكتاب واستغربه فى الوقت نفسـه، ووعد بأن يقرأه ويخبـر نزار برأيه فيـه. . ولم أحاول أن أسأل على مـحمود طه بعـد ذلك إذا كان قد الـتقى مع نزار قبـانى مرة أخرى أم لا، فكما قلت من قبـل إن بيته كان مفتوحـا للجميع حتى إنه استقبل مـرة مجندات بريطانيات أتى بهن الصحفى الراحـل فؤاد السيد، وكانت بينهن واحدة تقرض الشعر».

«وأعود إلى نزار قبانى ولم أقابله بعد ذلك، لكنه بعد لقائنا رأيته يمر فى شـرفة الكونتننـتال ثم يحـيى ويسيـر إلى حـاله، ولما سـألت على محمود عنه وإذا كان قد زاره بعد ذلك أم لا أجابنى بأنه شاعر نابغة تدل على ذلك كلماته التى صاغها فى كتابه، فهو قد جدد فى أسلوب تناول الشعر وخرج علينا بجديد لم نألفه، ولابد أنه سيصبح من شعراء العرب اللامعين يوما».

(٦)

أما حـديثها عن عادة الـشاعر الكبيـر أحمد رامى حـين يأتيه هاتف الشعر فهى تنسب ما فيها إلى أرملة الشاعر، وتقول:

«ولما ذهبت لأقدم لهـا العزاء بعد وفاة رامى كانت ذكرياتهـا تلازمها حيث قـالت: «إن رامى كانت لـه عادات غريبـة عندما ينزل علـيه وحى الشعر، فكان ينزل وينام تحت السرير وهو يحتضن مخدته وينسى العالم كله حتى يفـرغ من الكتابة، وذات مرة فى أثناء الغـارات على القاهرة،

وكان الوقت ليلا، ورامى بالخارج ولم يعد إلى المنزل بعد، وقد قلقنا عليه، وبعد مضى بعض الوقت من انتهاء الغارة وصل رامى وسألناه أين كنت وقت الغارة؟ قال: أى غارة.. لم أسمع أنه كانت هناك غارات، وعلى أى حال أنا كنت فى الشارع أتمشى وقد جاءتنى فكرة قصيدة وطافت أبياتها بخاطرى فكنت أكتبها على ورقة معى وأنا سائر فى الطريق».

يجدر بنا أن نشير أيضا إلى أنه من الذكريات المهمة فى هذا الكتاب ما كررت أمانى فريد الإشارة إليه من إصابة أحمد رامى بالذهول بعد وفاة أم كلثوم.

□

كذلك تروى صاحبة المذكرات عن علاقة السيدة أم كلثوم بالشاعر أحمد رامى واقعة روتها لها أرملة الشاعر:

«حكت لى قرينته السيدة عطية خطاب ـ رحمها الله ـ أنه فى ليلة زفافها حضرت أم كلثوم الفرح الذى أقيم بهذه المناسبة، وعندما وصلت الزفة إلى غرفة النوم وجدت السيدة عطية أم كلثوم قد سبقتها إلى الغرفة ووضعت على الكومودينو بجوار السرير زهرة بنفسجية اللون، وأسأل السيدة عطية: هل هذا كان كل هديتها، فقالت: نعم، وأعتقد أن أم كلثوم كانت ترمى إلى أن يسود الإخلاص هذا الزواج... وحكايات كثيرة عن رامى وأم كلثوم آخرها عندما ذهب إلى فيللتها فى أثناء مرضها الأخير وأراد أن يصعد إلى غرفة نومها ليشاهدها فرفض زوجها الدكتور الحفناوى ذلك مما جعل رامى ينوح ويتوجع».

(٧)

كما تنفرد أمانى فـريد بحديث مهم عما عرفته بنفســها من تفصيلات وملامح الفـترة الأخـيرة من حيـاة الفنانة الكبيـرة فتحـية أحـمد مطربة القطرين:

«. . . رأيت أن أكتب عن المطربة فتحيـة أحمد لأن ظهورها وتألقها واكب وقت ظهـور وتألق أم كلثوم، وكـانت الاثنتان تتنافـسان لجـمال صوتيهـما وقدرتهمـا على الأداء الممتاز، ولكن يجىء وقت يـرتفع فيه نجم أم كلثـوم ويعلو، وفى الوقت نفســه يبدأ نجم فـتحـية أحـمد فى الأفول والزوال. . ورأيت أن أبحث عن سـبب هذه الظاهرة فلجأت إلى قريب لى هو محـمود رأفت، الذى كون وشقيقـه مع مصطفى بك رضا الأسس الأولى لمعـهد الموسيـقى العربية، والذى أخـبرنى بأن فتحـية أحمد تزوجت من شاب صـغير يعمل فى مصلحة البـريد وابتعدت عن الوسط الفنى، ثم أخبرنى أنها تسكن فى شقة فى عمارة فى شارع عدلى أمام [المعبد] اليهودى».

«وذهبت إلى هناك وطرقت الباب بدون موعـد سابق وفتح لى الباب زوجها، فأخـبرته باسمى وعرفته بمـهنتى وبأننى موفدة من طرف الفنان الموسـيقـار محـمود رأفت، ورحب بى الرجل وأفـسح لى الطريق إلى غرفة الاستقـبال، ثم أخذ يحدثنى عن فتحية أحـمد ويقول: إن توحة ـ كمـا كان يسـميـها ـ تعـانى من مرض الكلى منذ عـدة سنوات، وهذا أقعـدها عن العمل والظهـور فى الوسط الفنى، ثم أحـضر آلة تسـجيل

وأسمعنى تسجيلا غنائيا لها عن الليل، وأخذ الصوت القوى يصدح فى أنحاء المكان وتهتز له النوافذ، وأخذتنى النشوة واستولى علىّ العجب وأنا أستمع إلى هذا الصوت الرائع الذى لم أكن أعرف أنه بهذه القوة والجمال».

«ورأيت بعد ذلك سيدة تمشى فى بهو البيت فى خطوات بطيئة مترنحة وقد غطت رأسها وكتفيها بقطعة قماش بيضاء، ولقد كانت فتحية أحمد التى أسرع زوجها إليها وأمسك بها ليأخذها إلى دورة المياه، ولما بدأت أستأذن فى الخروج بعد ذلك طلبت من الزوج الوفى أن يسمح لى بدخول دورة المياه، وهناك رأيت العديد من ملابسها الداخلية مغسولة ومعلقة على حبل داخل الحمام، وتأثرت كثيرا هل يفعل المرض اللعين كل هذا بهذه القمة الفنية العظيمة، وأردت الانصراف فأخذنى إلى باب غرفة الفنانة المريضة وقال لها: ياتوحة الصحفية أمانى فريد تحييك وتسأل عن صحتك، وبالكاد سمعت صوتها تقول: شكرا، وانصرفت وأنا أقول لها سلامتك، ولكن كان قلبى يتقطع ألما على منظرها وصوتها الغنائى الذى يصعد من التسجيل يملأ أنحاء المكان، فسبحان الله الذى له وحده الدوام».

(٨)

كذلك ينبغى لنا، بالإضافة إلى ما قدمته صاحبة هذه المذكرات من الانفرادات الأربعة (على نحو ما نقول فى الصحافة)، أن ننتبه إلى واقعة مهمة روتها صاحبة هذه الذكريات عن زيارتها لقبرص، وهى واقعة

كفيلة بإضاءة جـزء مهم من التاريخ المصرى المعاصـر الذى وقفت فيه الحكومة المصرية لأسـباب قصيرة النظر فى موقع غـريب على انتمائها وعلى قدرتها على تحقيق الوفاق بين جـارين عزيزين ارتبطت مصر بهما فى مراحل زمـنية سابقـة بروابط عريقـة ومتأصلة، وعـلى كل الأحوال فلنقرأ هذا الذى ترويه الشاعرة أمانى فريد والذى لا يدلنا على شىء أكثر من دلالاته على أن مواقفنا السياسيـة كانت على الدوام مجالا لمثل هذه الأحاديث اللاحقة أو السابقـة دون أن يكون لمثل هذه الأحاديث مردود حقيـقى على ضبط توجهاتنا، وهكذا كان يضـيع الوقت سدى وتترسب على مستويات متعددة عداوات لنا وشكوك فينا:

«. . . وصلتنى دعوة من المستشار الصـحفى لسفارة قبرص بالقاهرة لزيارة هذه البلاد، وقـال لى السفـير عندما ذهبت أودعـه قبل السـفر: سنرتب لك مـقابلة مع الأسـقف مكاريوس رئيس البـلاد. . قلت: وأنا سأكـون سعيـدة بهذا اللقـاء. ثم أضاف: على شرط ألا تـثيرى مـسألة الأتراك القبارصة واليونانيين القبارصة، وكانت هذه الجزيرة التى تقع فى حضن البحر الأبيض المتوسط ميـدانا للعراك والنزاع بين مستوطنيها من الأتراك واليونانـيين. . وقلت للسفـير: ومـا جدوى الزيارة إذاً، إن هذه المسألة بالذات وما بها من مشـاكل تشغل بال كثير من الدول، وأجابنى فى تردد : سافرى إذن وليوفقك الله».

□

وتقفز أمانى فريد فى روايتها إلى لقاء بينها وبين رئيس البلاد الأسقف مكاريوس مباشرة:

«. . . وفعلا استطعت أن أتحدث بصراحة مع الأسقف مكاريوس رئيس هذه البلاد، ووجدته فعلا شخصية جديرة بالاحترام على علم ودراية وذكاء شديد، ودون شك كانت مسألة الأتراك القبارصة واليونانيين القبارصة من الأمور التى أثرتها معه، ووجدته شديد التحفظ يشرح وجهة نظره، ويدلل على أن الأتراك واليونانيين مواطنون لهم نفس الحقوق والواجبات. . ولكنى أجبته: ياسيادة الرئيس لقد زرت الحى التركى ووجدته يعانى من الإهمال والفقر، بينما بقية الجزيرة بمدنها التى زرتها تزدهى جمالا ونظافة والعناية بها واضحة. . وأسقط فى يد الرئيس ونظر لى نظرة لا أعرف إذا كانت عتابا أم ضيقا أم حيرة أمام وقوعه فى شرك الحقيقة المحزنة».

وتستأنف أمانى فريد رواية ما حدث بعد هذا من محاولة اليونانيين القبارصة تشويه صورتها انتقاما لهذا الموقف:

«وبعد بضعة أسابيع جاء إلى القاهرة أحد زعماءاليونانيين القبارصة، وقابل الأستاذ مصطفى بهجت عضو مجلس الإدارة المنتدب لدار الهلال التى كان يرأس مجلس إدارتها فى ذلك الوقت الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، وأخبر هذا السيد اليونانى المبجل الأستاذ مصطفى بدوى أننى عندما كنت فى قبرص طلبت منهم نقودا، وجن جنونى عندما سمعت ذلك لأنهم طلبوا عمل بعض الدعاية لمنشآتهم السياحية فقلت إن هذه الدعاية لن تكون بالمجان، وفى دار الهلال كشف بأسعار موضوعات الدعاية فى كل مجلة، فوافقوا على هذا العرض، ولكننى طبعا لم آخذ منهم لا نقودا ولا هدايا رغم أن معظم الدول التى كنت أزورها كانت

تلح على مَنْ تدعوهم إليها فى قبول هـدايانا، وغالبا ما تكون منتجات بلادهم التى لها شهـرة فيها ويريدون الترويـج لها فى البلدان الأخرى، ولقد أحسست بأن هذا الضيف القبرصى المرموق اليونانى يريد أن ينتقم منى لأننى دافعت عن الأتراك دفـاعا قويا، وفندت أى حجـة تعللوا بها لوصف أسباب تدهور مستـوى الأتراك القبارصة.. وكنت فى أثناء هذه الزيارة قد تلقيت دعوة مـن حرم سفيرنا فى قبرص لتناول الغـداء معها، وعلى مائـدة الغداء أثرت مع سفـيرنا المـصرى ما دار من حـديث بينى وبين الأسقف مكاريوس، وقال لى: أنا أعتقد أن هذا الموضوع لن يمر بسهولة، وصدق حدسه».

(٩)

لعلنا نخرج الآن من أشباه الانفـرادات إلى أشباه الكلاسيكيات، ومن باب الطرافة فإننا نبدأ بأن ننقل تصوير أمانى فريد لقصة واحدة (أو واقعة واحدة) على نحوين مختلفين، وسنذكر للدلالة على هذا الخلق روايتها للقائها بوزير المـعارف الشهير مـحمد حسن العشمـاوى باشا، فهى فى صفحة ٢٧ تقول:

«وكنت أجلس فى هذا الحفل فى المقعد المجـاور لمقعد العشماوى باشا، الذى قال: أتعرفين أننى أفضـل الآمال على الأمانى؟ وأجبته على الفور: لماذا ياباشا؟ فأجاب بأن الآمال سـهلة التحقيق أما الأمانى فلا، وابتسـمت وأنا أجيبه: بل ياباشـا لأن ابنتك اسمها آمـال، ولـم يغضب الرجل وضحك ضحكة بها كثير من الدبلوماسية».

ولكن أمانى فريد نفسها فى موضع آخر من هذه المذكرات نفسها تروى نفس الواقعة بطريقة أخرى فتقول:

«ودعيت إلى الحفل كما دعى العشماوى باشا الذى كان وزيرا للمعارف قبل على أيوب، وجاء مجلسى إلى جواره ووجدته يقول لى: إن ابنتى اسمها آمال، وأنا أفضل الآمال على الأمانى لأن الأخيرة صعبة التحقيق، ولكنى رددت عليه لتوى قائلة: وعزيزة المنال أيضا ياباشا، فسكت، ولم ينطق بحرف واحد بعدها عندما أفحمته بهذا الجواب».

هل يستطيع القارئ أن يحمل هذا الحوار بأكثر مما يحتمل على نحو ما فعلت أمانى فريد فى الرواية الثانية؟ لا أظن.. ولكن هذا النموذج الكلاسيكى للروايتين المختلفتين عن الواقعة نفسها كفيل بأن يضىء لمن ينتوون طريق التجويد فى تكنيك الكتابة للقراء ولكتاب التجربة الذاتية، وببساطة شديدة فما كان أسهل الأمور لو أن المحرر المسئول فى دار النشر عمد إلى الرواية الأولى فحذفها نهائيا، وعندئذ يصبح للرواية الثانية معنى ومغزى.

(١٠)

ومن اللقاءات المهمة التى عاشت فى ذاكرة أمانى فريد اللقاء بملكة الأردن، زوج الملك عبد الله الأول، وجدة الملك حسين بن طلال:

«واقترحت على السيدة أميرة الشريفى ناظرة مدرسة البنات فى ذلك الوقت التى أصبحت مرافقة لى فى الزيارة، أن أزور الملكة أم طلال، زوجة الملك عبد الله، وجدة الحسين فى قصرها، ووافقت على الفور،

وكنا فى شهر رمضان فتحدد موعد الزيارة بعد الإفطار فى المساء، كانت عمان العاصمة فى ذلك الوقت مدينة وليدة بها بعض الآثار وأهم شوارعها شارع تجارى يعج بمختلف الحوانيت، وفى القصر الملكى كانت الملكة أم طلال فى انتظارى أنا ومرافقتى ناظرة المدرسة، وكانت هذه المدرسة هى مدرسة البنات الوحيدة فى الأردن فى ذلك الوقت، وكانت بعض بنات الأسر الأردنية يلتحقن إما بمدارس فلسطين أو سوريا».

«وفى قصر الملكة بعد لقائى بها شعرت أننى أتحدث إلى أم فيها الرقة والحنان، فلم أشعر بغربة بل وجدت نفسى مندفعة نحوها بمشاعرى وروحى، وأخذت تحدثنى عن زياراتها لمصر التى تتكرر كل عام، حيث تنزل فى فندق كونتننتال بميدان الأوبرا، وتقول لى: مصر ليست غريبة علىّ بأهلها ونسائها، وتظهر لى فى حديثها كل ألوان العطف والود، فقد كنت الصحفية المصرية الوحيدة التى زرت عمان فى ذلك الوقت، وكانت الملكة تخاطبنى بكلمة يا ابنتى، ودخلت سيدات الوزراء فى زيارة للملكة وكن جميعا محجبات متشحات بالسواد، وكان الحديث بينهن وبين الملكة يدور عن أمور حياتهن وبيتهن وأولادهن فتشعر كأنك فى لقاء عائلى وليس لقاء ملكيا متسما بالبروتوكول والتكلف».

(١١)

أما أظرف ما فى الكتاب فهو حديثها عن قرارها بالزواج، على أنه كان خروجا من مشكلة فحسب دون أن تذكر أى شىء عن زوجها أو عن حياتها الزوجية، ولكنها تكتفى بالإشارة العابرة على النحو التالى:

«وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل العديد من التحقيقات الصحفية والأحاديث، ولكن واحداً منها لم ينشر لا فى مجلات دار الهلال، ولا فى جريدة القاهرة، فقد كانت هناك أوامر قد صدرت بألا يعرف خبر سفرى.. حزنت كثيرا دون شك، وذهبت إلى حافظ محمود أسأله المشورة، فقال لى: أنا لو فى ظروفك أختفى بعض الوقت عن الأنظار حتى تهدأ الزوبعة ويكون أفضل لو تزوجت، وعملت بنصيحة حافظ محمود وتزوجت، وأنجبت، وبعد فترة لم تطل عاودنى حنينى إلى العمل الصحفى، فعدت إلى دار الهلال».

□

ومما تحرص السيدة أمانى فريد على تأكيد الإشارة إليه فى هذه المذكرات أنها تركت الوظيفة الحكومية كمدرسة برغبتها وبشروطها، وأن الأستاذين الكبيرين أنيس منصور وكمال الملاخ قد نهجا نهجها فى تقديم هذه الاستقالة ذات الشروط، وهى لا تذكر لنا هذه الشروط ولا ما جنته من ورائها، وإن كان الأرجح أن هذا لا يتعدى ضم مدة الخدمة فى الوظيفة أو فى المعاش!!:

«قدمت استقالتى من وظيفتى التعليمية بمدارس وزارة المعارف، ونشرت الاستقالة فى الجرائد لطرافتها، إذ أننى قدمتها مشروطة بشروط مادية وكان ذلك أغرب ما فيها، وفعلا عرضت على البرلمان لأنها كانت الأولى من نوعها، وساعدتنى شخصيات كريمة فى ذلك الوقت على تحقيق مأربى، وقبلت استقالتى بشروطى، وللعلم فقد قام أنيس

منصور، المعيد بجامعة عين شمس فى ذلك الوقت، بتقديم استقالته المشروطة فقبلت، وعين فى جريدة الأهرام، وحذا حذونا الأستاذ كمال الملاخ [عالم الآثار] الذى كان يعمل فى دار الآثار، وبعد استقالته عمل فى جريدة الأهرام».

(١٢)

لعل إشارة أمانى فريد أو تلميحها فى الفقرة السابقة إلى الشخصيات الكريمة التى ساعدتها على قبول استقالتها من خلال البرلمان تقودنا إلى حديثها المتكرر عن علاقتها بالوزير السعدى المشهور على أيوب، والحقيقة أن الكتاب يحفل بذكر اسم هذا الرجل وفضله، وربما كان من المهم أن نستجلى بعض ملامح هذه العلاقة، وإن كنا لم نفعل هذا على وجه دقيق، ولعل أصدق وصف لعلاقتها بعلى أيوب هو ما يأتى فى موضعين من المواضع المتكررة، وهذه قصة قصيدتها فى مديحه التى رفضت هى أن تنشر فى الأهرام:

«. . . واختير على أيوب وزيرا للمعارف وكنت أعمل فى هذه الوزارة بالتدريس، كما كان يعمل غيرى كثيرون أيضا من شعراء وأدباء أمثال على الجمبلاطى وطه عبدالباقى سرور وغيرهما، فلما اختير على أيوب وزيرا للمعارف فكر الجمبلاطى فى إقامة حفل تكريم له فهو شرقاوى أيضا مثله، وأسر إلى بالخبر وقال لى: استطلعى رأى الوزير، وكان ردى: من أراد أن يقيم حفل تكريم لشخصية فليقمه بدون استطلاع للرأى، وهكذا ذهب الجمبلاطى إلى مطعم سانت جيمس

الشهـير بقلب العاصـمة واتفق مع أصحـابه على إقامة الحـفل، وحدد موعده فذهبت وأخبرت الوزير بهذه الترتيبات فلم يعارض، وجهزت أنا قصيدة لهذه المناسبة كان مطلعها:

المـجد مـجدك والرحـاب رحابك   وعلى المـلا فى زهوها أثوابك

فانشـر لواء العلم واستبق الخطى   وابـعث فنونا شعهـا محـرابـك

وانهض بأشـبال الكنانـة فى غد   فكتـابهم فى المكرمـات كتـابك

وتقفز أمانى فريد إلى وقائع الحفل وإلى إلقائها القصيدة فيه:

«واستمررت فى إلقـاء القصيدة وأنا أجد التشجيع والتـصفيق، وطلباً بالإعادة، فأخذتنى النشوة والزهو بما أجد من استحسان ولـم أجد نفسى إلا وأنا ألقى بالمنشفـة الصغيـرة الموجودة أمـامى نحو الوزير.. وجن شقيقـه ومدير مكتبه حسـين أيوب، وجاء إلىّ يهمس فى أذنى: يابنت، هل تريدين عزل الوزير من منصبه؟».

«وانتـهى الحفل بسـلام، وقام علـى أيوب من مكانه ونادى علىّ ثم قال: أنا ذاهب إلى مكـتب كامل الشناوى فى الأهرام فهـاتى القصـيدة والحقى بى هناك».

□

ونأتى إلى الواقعة التى تفخر بها صاحبتها، ويحدثها لا وعيها أن تعبر عن هدفها من رواياتها بأن تشيـر إلى موقف الداعى إلى الحفل وإلى ما

ناله من حقـه الوظيفى!! وإن كـانت تعبر عن هذا المـعنى الذى أرادته بطريقة لا تسر الصديق:

«وذهبت [أى إلى جريدة الأهرام] لأفـاجأ بأن على أيوب يطلب منى تقديم القـصيـدة لنشرها فى صـدر صحيـفة الأهرام، فـرفضت وأبيت وعندت، وغضب على أيوب لتـصرفى كما تعـجب كامل الشناوى لأن الكل يتمنون نشر قصائدهم ومقالاتهم فى الأهرام، وأنا أرفض، وكانت حجتى فى ذلك أننى لن أنـجو من كلام الناس بعد نشر القـصيدة، وفى هذه الأثناء دخل حاجب من الأهرام وقال: هناك مَنْ يريد أن يقابلك فى الخارج، وذهبت لأفاجأ بأن على الجمبلاطى هناك وهو يقول لى: بلغى الوزير أن لى أقدمية فى العمل بالوزارة أستاذا للغة العربية ومن حقى أن أكون كبـير المفتشـين لهذه المادة، وعجبت وأنا أقـول لنفسى: إنه جاء ليقبض الثمن فورا بعد أن نظم حفل التكريم، وعدت إلى غرفة الشناوى فـسألنى علـى أيوب عن سبب خـروجى ومـا هو الخبـر؟ فـحكيت له ماحـدث، وسكت ولم يعلق، ولكن حـدث ما أراده الجـمبلاطـى بعد بضعة أشهر وأصبح كبيرا لمفتشى اللغة العربية بالوزارة».

(١٣)

وفى موضع آخـر تضيف أمـانى فريد إلى القـصة السـابقة تفـاصيل جديدة، وهى تحـرص عندئذ على المقارنة بين وضعـها ووضع الداعى إلى الاحتفال الذى تكفل بالدعوة والتمويل ولم يخل الأمر بالطبع من أن يلقى قصيـدة عصماء، فقد كان شـاعرا متميزا. . تقول أمـانى فريد بعد حديث طويل:

«. . . ومن عجب أن على أيوب استجاب لمطلبه بعد ذلك ورقى إلى كبير مفتشى اللغة العربية بالوزارة، أما أنا فلم ينلنى غير الشائعات التى ظلت تنهال علىّ من كل مكان، وقالوا ما ليس صحيحا، ونظروا لى نظرة حسد!! فأنا الأثيرة لدى الوزير خاصة بعد أن كتب الصحفى الشاعر حيرم الغمراوى أبياتا من الشعر فى مجلة المصور التى كان يعمل بها، وكأنها على لسانى، فقال:

غدا أسيرى وزيرى وصار عبدى أميرى

□

وتعمق أمانى فريد من الحديث عن هذه الواقعة، وتكرر هذا الحديث فى مواقع كثيرة، وكأنها تستعذب حدوثها وتتمنى عودة الأيام التى حدثت فيها وهو شعور إنسانى طبيعى صادق:

«. . . وقامت الدنيا ولم تقعد لأن حيرم الغمراوى اضطر بعد ذلك إلى ترك وظيفته فى دار الهلال والعمل فى وظائف أخرى. . وهكذا كان بعض الناس فى الماضى يعيشون على شائعات مغرضة، ويظلمون غيرهم بدون وجه حق».

□

ربما نتوقف لنسأل الشاعرة: هل تقصد حقا هذا المعنى؟ ولسنا بحاجة إلى جواب، ففقرتها التالية تجيبنا عن هذا المعنى:

«. . . ولما شكوت إلى على أيوب ما حدث لى قال: لا تبتئسى سأنقلك إلى وزارة الشئون الاجتماعية، ولكننى رفضت بإصرار وقلت:

إن مكانى وزارة المعارف (التعليم)، ونقل الوزير نفسه إلى وزارة الشئون الاجتماعية».

وهى تقصد أن تعـديلا وزاريا قد حدث فأصـبح وزير المعارف وزيرا للشئون الاجـتماعية، لكنهـا تعبر عن هذا بطريقة طريفـة وبسيطة تصور فيها الوزير كأنه موظف ينتقل إلى وزارة الشئون الاجتماعية بدلا من هذه الشاعرة التى رفضت الانتقال إلى وزارة الشئون:

«وجـاء مكانه وزير سـعدى آخـر كان هـو الذى وقع لى على طلب استخراج أول جواز سفر لى مع توقيع على أيوب».

ربما يكون المعنى الذى أرادته أمانى فريد غامضا بعض الشىء، لكنه أبسط من هذا الغموض إذا مـا تذكرنا أن استمـارة طلب الحصول على جواز السفـر تتطلب توقيع اثنين من الموظفين لا يقل راتبهـما عن مبلغ معين، ولأن أمـانى فريد كانت فخورة بمـعرفتها بالوزير وكـان لها عليه دلال ـ على حـسب ما تصـور وتروى ـ فقـد طلبت إليـه أن يكون هو الموقع على هذه الاسـتمارة، ولكن ليس هناك مـا يمنع من هذا ولا ما يمنع أن يكون الموظف الثـانى وزيرا ثانيا. . وربما فات أمـانى فريد أن تحتفظ بصورة من طلب اسـتخراج جواز السفر لتثـبت الفخر بهذا الذى تذكره.

وهى تردف بعد كل هذا الذى ذكرته بقولها:

«وهكذا لم أنج من قـول المتـقولين ولا من حـسد الحـاسدين لأن الوزير الجديد طلبنى ليسـألنى عما أريد فأجبتـه: أريد أن أرتاح مما أنا

فيه فهذا فوق مقدورى، وقال لى الوزير ضاحكا: لا تبتئسى أنت مازلت صغيرة وستعلمك الحياة الكثير».

وتترحم أمانى فريد بعد هذا على الوزيرين كليهما فتقول:

«رحم الله على أيوب.. لقد كان أبا ورجلا خيرا عظيما، ورحم الله الوزير مرسى بدر.. لقد كان مثالا للفهم والتقدير».

(١٤)

ويبدو أن السيدة أمانى فريد حريصة على أن توثق فى هذا الكتاب علاقات الإعجاب بها فى شبابها، وهى تضم إلى الإعجاب الحقيقى كل ما حدث من إعجاب مختلق عن طريق الشائعات، فهى - على سبيل المثال - تلمح فى موضع آخر من المذكرات إلى وجود مثل هذه الشائعات حول علاقتها بالشاعر الكبير إبراهيم ناجى وتقول:

«... وأذكر بهذه المناسبة أن إحدى المجلات الشهرية الأدبية نشرت قصيدة لى بعنوان «أمل»، وصورتنى فيها كمريضة وإلى جوارى الطبيب المداوى، وكانت مجلة «العالم العربى» - وهذا اسمها - قد أرادت بهذا أن تروج للمجلة بمثل هذه الموضوعات الغريبة، وقد قامت الدنيا ولم تقعد بعد نشر هذه القصيدة، ورد إبراهيم ناجى عليها بعنف وغضب، وقام الناقد الكبير الأستاذ عباس خضر بالتعليق عليها فى مجلة «الرسالة» أو «الثقافة» على ما أذكر، وكان هذا التعليق هجوما على الدكتور إبراهيم ناجى وعلى شخصى الضعيف، إذ لم يكن لى يد فى كل هذا، وأردت أن أرفع دعوى ضد الأستاذ توفيق شحاتة صاحب المجلة،

وذهبت إلى مكتب على أيوب المحامى الذى أصبح وزيرا واستطلعت رأيه فى رفع الدعوى ضد المجلة وصاحبها، لكنه حذرنى ومنعنى من ذلك قائلا: إنك بذلك ستكونين كمن يلقى نارا على حطب، فسكت على مضض».

ومن الطريف أننا إذا ما تأملنا موقفها وجدناها قد سكتت على مضض منذ خمسين عاما، ثم أفصحت الآن برضا بعد خمسين عاما، ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن هذا الموقف يمثل هو الآخر شعورا بشريا طبيعيا.

□

ومن أطرف ما فى هذه المذكرات ما تعقده صاحبتها من مقارنة بين مديح الشاعرين إبراهيم ناجى وعلى محمود طه لها، ولكنها تعبر عن دهشتها من إصرار الشاعر صالح جودت على حذف هذه الأبيات من مقدمتها لديوان شعرها الثانى:

«واقترح الشاعران أن يكتبا غزلا فىّ بالشعر ولم يجدا ورقة يكتبان عليها، وكان إبراهيم ناجى يحمل فى يده علبة سجاير «بلايرز» أى التى كانت تسمى بالبحارى وكتب على ظهرها:

أهواك مصغية إلى مطلة بالنور والإشراقِ على عينيك

وأحب شعرك حينما أرسلت فوضى مهدلة على كتفيك

«وناجى هنا يهتم بالصورة، أما على محمود طه فقد أمسك بالقلم وكتب تحت هذين البيتين:

أجمل ما فيك من معانى حلاوة الروح واللسان

ورقة الشعر والبيان يا منية النفس يا أمانى

«وعلى محمود طه يهتم بالمعنى، هنا يتبين اتجاه كل شاعر وميوله فى نظم الشعر».

هكذا تقول السيدة أمانى فريد وهى تردف بعد هذا:

«وأذكر أننى عندما نشرت ديوان شعرى الثانى «قلب يتحدث» أوردت فيه هذه الواقعة، وكان الشاعر صالح جودت قد كتب مقدمة هذا الديوان وراجعه، فلما وصل إلى هذه الأبيات التى كتبها إبراهيم ناجى وعلى محمود طه رفعها من الديوان وألح ألا أنشرها، وحتى الآن لا أعرف سبب ذلك، فهى مجرد شعر، والشعراء كما هو معروف يقولون ما لا يفعلون».

وبودى أن أتساءل: هل هان على الشاعرة شعرها ومديحها حتى تردد مثل هذا الكلام الذى يتردد على ألسنة الآخرين؟

(١٥)

وبالإضافة إلى العلاقات التى خلفتها الشائعات والعلاقات الحقيقية من قبلها، تحرص أمانى فريد على أن تصارحنا القول بما تلقته من

عرض للزواج من محمد العيسوى مدير القليوبية، وقد قدم الرجل العرض بنفسه، ويبدو - والله أعلم - أنها ندمت على رفضها لهذا العرض فيما بعد.

تقول أمانى فريد:

«وأتذكر عندما دعانا الوجيه الثرى حسن وهيب المصرى إلى عزبته القريبة من بنها فى إحدى الأمسيات من ربيع عام ١٩٤٨ لتناول العشاء عنده، وكان معنا صديقه القريب إلى نفسه فوزى مسيحة، وعلى الرغم من أن حسن وهيب المصرى كان فارع الطول، ضخم الجثة، فإن فوزى مسيحة كان قصير الجسم ضئيله، ولكن رغم ذلك كانت بينهما صداقة مضرب الأمثال [نتوقف هنا لنعبر عن اندهاشنا من أن تتصور هذه الأديبة المخضرمة أن تكون الصداقة مبنية على التناسب فى طول الجسم وضخامة الجثة.]».

«وحضر هذا اللقاء بعض الصفوة فكان من بينهم محمد العيسوى محافظ القليوبية «مديرها فى ذلك الوقت»، وكان هناك على أيوب المحامى الذى أصبح وزيرا للمعارف بعد ذلك، وكان هناك الشاعر على محمود طه، والموسيقار محمد عبدالوهاب، والمطربة اللبنانية الأصل المصرية الإقامة لورد كاش، كما كانت هناك شابتان حلوتان أحضرهما حسن وهيب المصرى معه، وبين عبق أشجار الحديقة الفسيحة وأزهارها تناولنا عشاء فريدا من نوعه، فقد ضم أطعمة من محل جروبى الشهير، وأطعمة من لحوم الريف ومن دواجنها، فكانت هناك الفراخ والأرز واللحوم إلى جانب التورتات والمارون جلاسيه».

«وبدأت لورد كاش تغنى أغنيتها الشهيرة: «آمنت بالله» ثم طلب منها عبد الوهاب أن تغنى «العتابة» و«الميجانا» الأغنيتين اللبنانيتين المشهورتين».

«وفى هذا اللقاء حدث أمر طريف، فقد تقدم محمد العيسوى محافظ القليوبية لخطبتى من على أيوب قائلا: إننى بذلك سأكون السيدة الأولى فى القليوبية [نتوقف لنتعجب من أن يكون لقب السيدة الأولى مستعملا منذ ذلك الحين.. وفى القليوبية بالذات، وكان الأحرى أن يكون التعبير: السيدة الأولى فى بنها]، فرفضت العرض بإصرار، وكنت إذ ذاك فى أوائل العشرينيات من عمرى وهو فى الثانية والخمسين من عمره وله ابنة شابة من زوجه التى توفيت، والعجيب أن هذه الابنة تزوجت بعد ذلك من أحد أقاربى من رجال الشرطة المرموقين، وحضرت طبعا عقد قرانها، وقابلت والدها المحافظ وقلت له: ها قد أصبحنا أقارب ونسايب، وكنت أنا قد تزوجت زوجى والد ابنتى، بينما هو تزوج شابة حلوة من الإسكندرية وأنجب منها، وقد جمعتنا بعض أمسيات ومناسبات فى دار ابنته زوجة قريبى، والأيام تمر ويموت المحافظ ويموت زوجى ويموت عبدالوهاب، وكذلك على محمود طه، وأيضا حسن وهيب المصرى، وأبقى أنا وتبقى لورد كاش وتتذكر هذه الأيام، وأياماً كثيرة جاءت بعدها وجمعتنا فيها الظروف».

(١٦)

وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن تصل صاحبة هذه المذكرات إلى قمة ما كانت الفاتنات فى جيلها يصلن إليه، وهو العمل مع الموسيقار

الكبيــر محــمد عــبد الوهاب، وهذه هى القــصة التى تروى بهــا عرض محمد عبد الوهاب فرصة التمثيل فى السينما عليها حيث تقول:

«. . . فى صــيف عـــام ١٩٤٨ بالإسكـندرية كنت أنزل فــى منزل للسيدات يضم جميع الجنسيــات يسمى بالدار الدولية للشابات، وأصبح الآن جمعيــة الشابات المسيحية بالأزاريطة، وجــاء على محمود طه إلى الإسكندرية وجاء لزيارتى فى الدار فى يوم الأحد، وهو اليوم الذى كان مخصصا لتناول شاى جمــاعى للنزيلات واستقبال الزوار، وأخبرنى بأنه سيلتقى فى صــباح اليوم التالى مع الفنان محمد عــبد الوهاب فى محل ومقــهى «تريانون» الشهــير بمــحطة الرمل، وطلبت منه أن أحــضر هذا اللقاء لأرى عــبد الوهاب وأتعرف عليــه، فوافق على ذلك، وذهبت فى اليوم التالى إلى المقهى الشهــير، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، وكنت أقول لنفــسى إن عبد الوهاب ربما يظن أننى فـضولية لأحضــر مثل هذا اللقاء الذى لم أكن أعرف ماذا سيدور فيه؟ ولكننى استجمعت شجاعتى وذهبت، ووجدت على محمــود فى انتظار عبد الوهاب الذى ما لبث أن حضر، وقدمنى على محمود طه إليه قائلا: هذه هى الشاعرة أمانى فريد التى هنأت الملك فاروق الـعام الماضى بعيــد ميلاده بقــصيدة أذاعتــها الإذاعة المصرية [مما يؤسف له ألا تتحدث أمانى فريد عن هذه القصيدة بالقدر الكافى]، وطلب منى عبد الوهاب أن ألقى هذه القــصيدة أمامه، فبــدأت ألقيــها وكلمــا توقفت عند مـقطع من المـقاطع كان يـقول لى مشجعــا: «قولى ياحياتى»، وفرغت من قصيدتى كــما فرغت من شرب فنجال الشــاى الذى كان أمامى وأنا أشــعر بعدة مشــاعر متبــاينة وأسأل

نفسى: هل استحسن عبد الوهاب قصيدتى، أم أنه كان فقط يجاملنى؟».

«ثم تركت المكان بعد قليل لأننى كنت أعرف أن على محمود طه سيقدم قصيدته لعبد الوهاب ليلحنها ويغنيها، فرأيت أنه ليس من اللياقة أن أبقى وهما حتما يريدان أن يتناقشا فى تفاصيل هذا المشروع».

«ثم قابلت على محمود طه بعد ذلك وأنا فى أشد الشوق لمعرفة ما قاله عبد الوهاب عنى، وقال لى على محمود: إنه قال إنك تصلحين للعمل فى السينما، وسوف يسند إليك دورا مهما فى أفلامه القادمة، وقلت لعلى محمود: إيه الكلام ده.. هو عاوز يخرب بيتى ويرفتنى من عملى فى وزارة المعارف كمدرسة.. ونظر على محمود طه إلىّ غير مصدق لما أقول، لأن مئات الشابات كن فى ذلك الوقت يتهافتن على العمل بالسينما، وشرحت له الموقف، قلت له: إننى أعمل مدرسة كما تعلم ولشابات فى سن المراهقة فى مدرسة ثانوية للبنات، فماذا يكون وضعى عندما يرين مدرستهن تمثل، وربما تغنى أو غيرها من المشاهد التى تحدث فى الأفلام، وماذا يكون موقف وزارة المعارف منى؟! لابد أن يكون الرفت السريع، وستكون حجتهم أننى ارتكبت عملا مخلا بمستلزمات وظيفتى [هكذا تتحدث أمانى فريد وكأنها كانت قد مثلت بالفعل مع عبد الوهاب ولم يبق إلا إخفاء الفيلم عن أعين تلميذاتها]».

«وعندما قلت هذا الكلام لصديقة كانت تعيش فى الإسكندرية قالت لى باستغراب: إنك فى منتهى الغباء.. هل ترفضين عرضا كهذا من

عبدالوهاب؟! وأجبتها: ليس هذا طريقى، فما يدريك أننى أفشل فأفقد وظيفتى وأفقد كرامتى.. وعندما تصادف بعد ذلك ببضع سنوات أن قابلت عبد الوهاب فى حفل محدود بمنزل أحد الأصدقاء، ذكرته بنفسى فقال: نعم أنت الشابة الساذجة - ويقصد طبعا البلهاء - التى رفضت عرضا بآلاف الجنيهات فى سبيل وظيفة ببضع عشرات من الجنيهات، وكلما أتذكر هذه الأيام أضحك من نفسى لأنه يبدو أن الله كان يختار لى طريقا آخر غير التدريس عندما تفرغت للصحافة فيما بعد، وأصدرت مجلة شهرية نسائية رأست تحريرها وكنت أشعر أننى فى قمة السعادة لأننى وجدت طريقى الذي أحببته وخلقت له وهو الصحافة، ولأننى مازلت بعد أن وصلت إلى هذه السن المتقدمة أزهو بعملى، وأتمسك به، وأشعر أنه سلواى والنعمة التى أنعم الله بها على، وإن مال الأرض لا يعادل فى نظرى اللحظة التى أمسك بها قلمى لأكتب، ومن ثم أقول لكل شاب أو شابة تقبل على الحياة العملية إنه يجب أن يختار العمل الذى يحبه، ومهما صادفه من صعاب فى أول الطريق فلابد أن الله سيقف إلى جواره».

(١٧)

وتعطى صاحبة هذه المذكرات أهمية خاصة لما شهدته بنفسها من نهاية رائدة السينما المصرية بهيجة حافظ، ويبدو ما ترويه متعارضاً مع الروايات المقتضبة التى لم تشر إلى إصابة هذه السيدة بهذه الحالة، ولا إلى مصير كتبها على هذا النحو الذى ترويه أمانى فريد:

«. . . وتسير حالة بهيجة حافظ من سيئ إلى أسوأ، ، وبدأت تهذى وتتصور أشياء لم تحدث، وتتصرف تصرفات عجيبة، فترمى من يخدمونها بالشباشب، وتنعتهم بأسوأ النعوت والألفاظ، وبدأوا يتهربون منها، ويبتعدون عنها، وإن كانوا يحملون معهم دائما مفتاح بابها الخلفى حتى إذا أصابتها نوبة من نوبات الهوس يستطيعون أن يدخلوا لإنقاذها».

«مسكينة بهيجة حافظ لقد ازدادت حالتها النفسية والعقلية سوءا، وذات يوم فى منتصف الليل فوجئت بها تطلبنى تليفونيا وتخبرنى بأن وزيرا من الوزراء الذين كانت تبدو صورهم دائما فى التليفزيون قد جاء إليها لتوه مع شقيقه وعرض الزواج عليها، وهذه الهلوسة جعلت مَنْ يشرفون عليها يقومون بتغطية شاشة التليفزيون بملاءة حتى لا تشاهد عروضها وتصيبها نوبات الهلوسة، وذات صباح جاء إلىّ من ينعى بهيجة حافظ، وقال جيرانها الذين شاهدوها أمام شرفة بيتها: إنهم منذ يومين رأوها جالسة على كرسى أمام الشرفة ولم تتحرك، مما جعلهم ينبهون البوابين الذين حضروا ووجدوها قد توفيت، وأمامها كوب وعلبة زبادى».

وتتحدث أمانى فريد فى موضع آخر عن الأيام الأخيرة فى حياة بهيجة حافظ فتقول:

«ولكن حالتها كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، وبدأت تهذى بأحاديث وأوهام عن أشياء وأوضاع تتخيلها ويخيل لها أن شخصيات الدولة

الكبيرة تزورها وتطلب يدها للزواج، فالوحدة بدأت تصور لها أوهاما غير موجودة، وكانت قبل أن يشتد عليها المرض قد نزلت فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى للعلاج، وكان الرئيس محمد نجيب نزيلا أيضا فى المستشفى ويقوم بزيارتها فى حجرتها من وقت لآخر، ولما ذهبت لزيارتها أخبرتنى بأنها ملت من البقاء فى المستشفى وتريد أن تعود إلى دارها، فكنت أحاول دائما أن أهدئ من روعها وأقنعها لتبقى حتى يتم علاجها وشفاؤها، ولكنها ذات يوم أصرت على الخروج من المستشفى وتركت غرفتها وجلست على سلالم المستشفى ومعها حقيبة ملابسها، مما جعل المسئولين فى المستشفى يعيدونها إلى بيتها حيث ساءت حالها على النحو الذى وصفته إلى أن وافاها الأجل المحتوم وجاءت أختها من الإسكندرية وبعض أقاربها وفتحوا مكتبتها التى كانت تعج بعدد من الكتب القديمة بالعربية والأفرنجية، وأخذوا يلقونها من نوافذ المنزل تخلصا منها، حتى ضج أصحاب الحوانيت تحت شقتها من الكتب التى تنهال عليهم من أعلى، وكانت وزارة الثقافة قد اقترحت عليها فى وقت من الأوقات أن تفتح بيتها ومكتبتها فى أيام محددة من الأسبوع لينتفع بها القراء والمترددون على المكتبة بما كانت تحويه من كتب ومعلومات قيمة، لكنها رفضت، وهكذا ذهبت الكتب أدراج الرياح».

(١٨)

وعن طبيعة علاقة السيدتين الفنانتين فاطمة رشدى وأمينة رزق وتنافسهما تروى أمانى فريد قصة تدلنا على أن أمينة رزق كانت منذ مرحلة مبكرة فى منتهى الحكمة:

«وسألت أمينة رزق: لقد أشاع الناس أنه كانت بينك وبين فاطمة رشدى منافسة كبيرة فى مضمار الفن، وقالوا وزادوا أكثر من ذلك».

«وترد أمينة رزق بلباقتها المعهودة: إن التنافس فى الفن ليس بالشىء الردىء، ولقد جمعتنى وفاطمة رشدى الزمالة على خشبة مسرح رمسيس عندما كنا مازلنا فى أول طريقنا الفنى، وكان التنافس موجودا بين الجميع إلى جانب الحماس وحب الفن، وهذا ليس بالشىء السيئ أو الردىء، بل إنه ينمى الحياة الفنية ويجعلها تزدهر. ثم إن فاطمة رشدى لم تستمر طويلا فى مسرح رمسيس ولقد تركته بعد أن تزوجت عزيزعيد، وأنشأت مسرحها وفرقتها الفنية».

(١٩)

بقى أن نختم حديثنا عن هذه المذكرات بما ترويه عن طرفة محاولة أحد الوزراء قول الشعر دون أن يكون قادرا عليه:

«وكان من بين الوزراء الذين أولعوا بمجالسنا عباس باشا أبو حسين كبير أسرة الحسينية المشهورة بالثراء وموطنها مديرية (محافظة) المنوفية، وكان من أصدقائى المقربين، فهمس فى أذنى ذات مرة قائلا: علمينى الشعر، وأجبته لا يمكن ياباشا إن الشعر موهبة مثله مثل الموسيقى وله أوزانه وقوافيه، وليس من السهل أن تنظم قصيدة إلا إذا كانت عندك ملكة الشعر، وهو فى ذلك مثل الموسيقى التى لا يمكن أن تضع ألحانها إلا إذا كنت صاحب أذن وموهبة موسيقية، ويبدو أن الباشا لم يقتنع بكلامى، وفى أحد المجالس بعد ذلك رأيته يخرج ورقة ويقرأ

كلاما عجيبا، وقال إنه شعر، وبالطبع لم يكن شعرا ولا خلافه، بل كان كلاما جعل على أيوب وزير المعارف يغرق فى الضحك عندما قرأه».

□

بقى أن نذكر أن هذه المذكرات، رغم كل شئ نموذج جيد لما يمكن لكل مشتغل بالثقافة أن يقدمه ليثرى معرفتنا وتصوراتنا لكثير من جوانب تاريخنا الاجتماعى والثقافى، وليطلعنا على تحولات التربية والتعليم والثقافة والفكر فى مجتمع متطور مع الزمان ومع الظروف.

ببليوجرافيا المذكرات والسير الذاتية
التى يتدارسها الكتاب

- **د. أحمد هيكل** : سنوات وذكريات، سيرة ذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧
- **د. على الحديدى** : رحلة مع الأيام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- **جليلة رضا** : صفحات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٤٢٧، يوليو ١٩٨٦، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٦.
- **صالح مرسى** : هم وأنا، سيرة ذاتية، نجيب محفوظ، يحيى حقى، يوسف إدريس، يوسف السباعى، توفيق الحكيم، مكتبة مدبولى الصغير، القاهرة، ١٩٩٥.
- **فتحى أبوالفضل** : رحلتى مع الرواية، سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.
- **عايدة الشريف** : شاهدة ربع قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥.
- **أمانى فريد** : أيام وذكريات، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

كتب للمؤلف

كتب للمؤلف

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و« النحو المعقول» و «التحليل البيولوجى للتاريخ».
فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبوابا وفصولا لم تضمها الطبعة الأولى.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **مشرفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب (١٩٨٢).
الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على البيليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣ .

■ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من سيرة حياة الدكتور أحمد زكى .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب ، ١٩٨٤ .

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د.على إبراهيم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآرائه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د.نجيب محفوظ (١٨٨٢ ـ ١٩٧٢)، الذى

أضاف إلى العلم كثيرا من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦ .

■ **الدكتور سليمان عزمي باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د.سليمان عزمي (١٨٨٢ ـ ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه في التعليم الطبي والجامعي، وفلسفته في ربط الطب والتعليم الطبي بالحياة العامة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب ، ١٩٨٦ .

■ **عثمان محرم... مهندس الحقبة الليبرالية المصرية [١٩٢٤ ـ ١٩٥٢]**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التي أسهمت في صنع إنجازات المهندس الوطني العبقري عثمان محرم (١٨٨١ ـ ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته في أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التي أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.
مكتبة مدبولي، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعي : شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ ـ ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعي (١٩١٤ ـ ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية في ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لا تزال آثارها باقية.
مكتبة مدبولي، ١٩٩٩ .

■ **إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التي مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت في تاريخها القومي تأثيرا كبيرا بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩ .

■ **صانع النصر.. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكري متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر في تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية في تاريخه.
دار جهاد ، ٢٠٠٣ .

■ **مايسترو العبور.. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية في حرب ١٩٧٣ .
دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.
دار الأطباء، ١٩٨٤.

الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيرا من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقا جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢ .

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلا) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد ، ٢٠٠٣ .

■ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكرا .

دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

■ **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملا يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف .

صدر فى طبعتين: دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **أوراق القلب [رسائل وجدانية]**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤. الطبعة الثانية ، دار جهاد، ٢٠٠٥

■ **أوهام الحب: دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلا ترسم الملامح الجوهرية فى قصص إنسانية الملامح وتقدم صوراً أدبية أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم الفصول استعراضاً دقيقاً لشخصيات متباينة فى لحظات متباينة.

الطبعة الأولى ، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية ، دار جهاد ٢٠٠٥ .

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا وبريطانيا والهند صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات: دار الصحوة ١٩٨٧ ،دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣ .

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز الكتاب بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقدارا متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جنديا من جنود الحضارة لا فارسا من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق ، ١٩٩٦ ، ودار جهاد ٢٠٠٣ .

■ **مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتبا بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وبعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم .

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، وصدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة وزراء من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلا عن اختلاف آرائهم السياسية، وهم كمال حسن على وسيد مرعى وعبد الجليل العمرى وثروت عكاشة وإسماعيل فهمى وعثمان أحمد عثمان وضياء داود وأحمد خليفة وعبد الوهاب البرلسى وحسن أبو باشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية : مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة، وتشمل

الأبواب مذكرات كل من: بنت الشـاطئ، وجيهان السادات، ولطيـفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.
دار الخيال، ٢٠٠٤ .

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق ، ١٩٩٥ .

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخيـة لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبـدالمنعم عبد الرءوف، وجمال منصور، ومحمد عبد الفتاح أبو الفضل، وحسين حمودة .
دار الخيال ، ٢٠٠٣ .

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعـة مختـصـرة ومبكرة من كـتاب «نحـو حكم الفرد»، تضم أيضـاً باباً عن مذكـرات عبـد اللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية ، دار الشروق ، ١٩٩٦ .

■ **محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعـلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقـانون، وكيف أعلت الثـورة من قيمة الـقانون في بعض المواقف والصراعـات التى نشبت بين تنظيـمات الثـورة وبين رجال القضـاء الوطنى وذلك من خلال مـدارسة أدبية نقدية تاريخيـة لمذكرات مجموعة من أعـلام القانون والقضاء الذين مارسوا السيـاسة أو شاركوا فى الحيـاة العامـة، وتشمل مـذكرات كل من محـمد عـصام الدين حسـونة، وممتاز نصـار، ومحـمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبد السلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبد الغفار.
دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

تصوير دقـيق لتطور مفهوم الأمن القـومى داخليا وخارجيـا فى عهد الثورة، والمناطق التى شُـغلت بها الأجهزة المسئولة فى هذا النطاق وذلك عـبر مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات سـتة من قادة أجهزة الأمن القومى من العـسكريين والشـرطيين الذين تعاقبوا على هذه الأجهزة خلال ربع قرن من الزمان: محمد حافظ إسماعيل، وصلاح نصر، وأمين هويدى، وأحمد كامل، وحسن طلعت، وفؤاد علام.
دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مـجموعة من أعلام الدبلوماسيـة المصرية الذين شغلوا مواقع مخـتلفة وعاصروا حروب مصر الدبلومـاسية من أجل استعادة التراب الوطنى، وذلك من خلال مـدارسة نقدية لمذكرات كل من: أحمـد عصـمت عبد المجـيد، ومحـمود رياض، ومـحمد إبراهيم كـامل، وحسين ذو الفـقار صبرى، ومحمد عبد الوهاب العشماوى، وجمال بركات.
دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة من فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ونقداً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول في حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التي صنعت الهزيمة وحالت دون السيطرة عليها في الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبد الحميد الدغيدي، وعبد المحسن كامل مرتجى، وأنور القاضي، وصلاح الحديدي، ومحمد فوزي. ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المذكرات لم تنشر إلا في صحف محدودة التوزيع.

دار الخيال، ٢٠٠٠.

■ **النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسي لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التي خاضتها الأمة العربية في ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطني وعلمي أمين مترفع عن الانحياز، ويقدم نظرات غير مسبوقة في تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر في صياغة وصناعة النصر، وتشمل مذكرات كل من: محمد عبد الغني الجمسي، وسعد الشاذلي، وعبد المنعم خليل، ويوسف عفيفي، وعادل يسري.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **في أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التي اصطلح على تسميتها بحروب الاستنزاف (وهي الفترة الممتدة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٢)، وهي فترة حافلة بالتناقضات في الرأي والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبو العز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقي محمود، ومحمد فوزي، والفريق صلاح الحديدي، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التي لم تنشر إلا في الصحف.

دار الخيال، ٢٠٠١.

■ **على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ - ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة في عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبي تاريخي لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغي، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامي، وعبد الرحمن الرافعي .

دار الخيال، ٢٠٠١.

■ **مذكرات الصحفيين .. في خدمة السلطة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: موسى صبري، وأحمد بهاء الدين، وعبد الستار الطويلة، وفتحي غانم، وحلمي سلام، وجلال الدين الحمامصي .

دار الخيال، ٢٠٠٢.

- **مذكرات المفكرين والتربويين.. تكوين العقل العربى**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل الدراسة مذكرات كل من: شوقى ضيف، وعبد الرحمن بدوى، ومحمد عبْد الله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبد السلام الكردانى، ونادية رضوان.

دار الخيال، ، ٢٠٠٢.

- **الثورة والإحباط: مذكرات أساتذة الأدباء والأدباء**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وشملت علاقتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين أحمد هيكل وعلى الحديدى والأساتذة صالح مرسى وفتحى أبو الفضل وجليلة رضا وعايدة الشريف وأمانى فريد.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

- **آراء حرة فى التربية والتعليم**

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات قائمة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

- **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفا إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

- **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى المعلومات، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقا من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.

دار المعارف، ٢٠٠٠ .

- **التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار**

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ ـ ٢٠٠١) مقدماً فيها لأسلوب جديد لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ، دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفعنا إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

- **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة عن بعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيدولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة في حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى المحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧.

- **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جواهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية.

جامعة الزقازيق، ١٩٨٧.

- **الفلسطينيون ينتصرون أخيرا.. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها هذا الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى ـ الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية.

دار جهاد، ٢٠٠٢.

- **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر مؤلفه بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢.

■ **النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠]**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢.

■ **البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠]**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق ، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ١٩٩٧.

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢.١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء ، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.

الهيئة العامة للاستعلامات ، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون..** قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى الآن

دراسة تاريخية لكل الذين تولوا مناصب المحافظين منذ بدء الأخذ بنظام الإدارة المحلية فى مصر فى ١٩٦٠ وحتى نهاية القرن العشرين.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق ، ١٩٦٢ .

الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

- **كيف أصبحوا وزراء.. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية مهمة فى إطار دراسة نقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

- **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية عن تطور مؤسسات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

- **يوميات على مصطفى مشرفة يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية، وخبرات علمية وحضارية وثقافية مكثفة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٣ .

- **القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع أ.د. محمد عبد اللطيف]**

قاموس ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٩٨ .

- **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

كتاب طب مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الخلقية الصمامية وأسبابها.

دار المعارف، ٢٠٠١.

- **أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

كتاب طب مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه.

دار المعارف، ٢٠٠١.